المكتبة التاريخية

تاريخ السلاجقة

في خراسان وإيران والعراق

(٤٢٩ - ٥٩٠هـ / ١٠٣٨ - ١١٩٤م)





أ.د. محمّد سهيل طقّوش

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة التاريخية

تاريخ السلاجقة

في خراسان وإيران والعراق

(٤٢٩ - ٥٩٠هـ/١٠٣٨ - ١١٩٤م)

تأليف

أ. د. محمّد سهيل طقّوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق
تأليف: أ.د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الثانية: ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦م
ISBN 978-9953-18-482-1

نشر



دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14
الرمز البريدي: 2020 - 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 - 009611810194
بيروت - لبنان

Publisher



DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Web Site: WWW.daralnafaes.com
Email: alnafaes@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين وبعد:

تتناول هذه الدراسة التاريخ السياسي لدولتين سلجوقيتين هما دولة السلاجقة العظام في إيران وخراسان وبلاد ما وراء النهر، ودولة سلاجقة العراق، ويشغل هذا التاريخ في المدى الزمني المدة بين عامي (٤٢٩ ـ ٥٩٠هـ/١٠٣٨ ـ ١١٩٤م)، وقد حفل بالانتصارات والانتكاسات والصراعات الداخلية، وأثَّر بشكل مباشر على تاريخ المشرق الإسلامي في العصور الوسطى.

ينتسب الأتراك السلاجقة إلى جد هو سلجوق، وظهروا على المسرح السياسي في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي في بلاد ما وراء النهر بعد أن نزحوا من موطنهم الأصلي في شمالي آسيا الوسطى بين الفولغا وألتاي، وكانوا قد اعتنقوا الإسلام على المذهب السني متأثرين بالسامانيين، فانخرطوا في لعبة التنافس على النفوذ مع القوى المحلية وبخاصة القوة الغزنونية.

وظن السلطان محمود الغزنوي أن باستطاعته أن يوقف زحف هذه القوى التركية التي راحت تنافسه على الزعامة، فقبض على أحد أبناء سلجوق وسجنه في الهند، ولكن هذا العمل لم يفتَّ في عضد أتباعه بل أثارهم، وكانوا بقيادة طغرلبك، فسحقوا الجيش الغزنوي في عام (٤٢٩هـ/١٠٣٨م)، وفتح هذا الانتصار أبواب خراسان على مصراعيها، فأسسوا دولة في ربوعها متخذين من نيسابور عاصمة لهم. وقامت الدولة الغزنوية في عهد السلطان مسعود بن السلطان محمود، بمحاولة أخيرة لطردهم من المنطقة، غير أن الغزنويين تعرَّضوا لهزيمة قاسية في دندانقان (رمضان ٤٣١هـ/حزيران١٠٤٠م)، ووضعت هذه المعركة حداً نهائياً لحكمهم في خراسان، ونصب طغرلبك التخت في مكان المعركة وجلس عليه، وجاء الأعيان يسلمون عليه بإمارة خراسان.

وشرع طغرلبك بعد هذا الانتصار يمهد السبيل لتقدمه في المستقبل، فأرسل وفداً إلى الخليفة العباسي القائم في بغداد يبلغه بالتطورات الجديدة في خراسان، ويطلب

منه الاعتراف بشرعية دولته، وصادف آنذاك أن هذا الخليفة كان يسعى للانعتاق من حماية البويهيين الشيعة، فاستدعى طغرلبك لينقذه من سيطرتهم، ولبَّى هذا الدعوة فدخل بغداد في (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) من دون قتال ومنحه الخليفة بالإضافة إلى لقب ملك المشرق والمغرب ولقب سلطان، السلطة السياسية، وأسند إليه القضاء على الفاطميين الشيعة في مصر.

الواقع أن السلاجقة لم يتركوا للخليفة إلا الزعامة الدينية، وقد يبدو أن هذا الحل كان خطراً على الخليفة الذي استعاض عن سلطان ضعيف بسلطان قوي كثير الطلبات، ولكنه جاء نصراً للمذهب السني بخاصة وللإسلام بعامة؛ لأن السلاجقة بعثوا حيوية جديدة في الإدارة الحكومية وكفاءة لم تكن لها قبل مجيئهم، كما بعثوا في الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم، ولم يمضِ غير قليل من الوقت حتى أقبلوا على الحضارة الإسلامية ينهلون من معينها، وألَّفوا من الأشلاء المتناثرة للدولة المحتضرة دولة جديدة، وبعثوا فيها من القوة ما استطاعت أن تصمد أمام النزاع الطويل بين الإسلام والنصرانية فيما عُرف بالحروب الصليبية، وتخرج منها ظافرة.

وجد السلاجقة أنفسهم بعد دخولهم العراق على حدود الدولة البيزنطية، وبفعل حبهم للغزو ونشر الإسلام، وجَّهوا نشاطهم ضد البيزنطيين. وتوفي طغرلبك في عام (٤٥٥هـ/١٠٦٣م)، وخلفه ابن أخيه ألب أرسلان، ففتح هراة وأرمينية وبلاد الكرج والشام، وانتصر على الجيش البيزنطي بقيادة الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس في معركة ملازكرد عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) وأسره، فعامله السلطان معاملة طيبة قبل أن يطلق سراحه لقاء فدية، وسمح له بالعودة إلى بلاده، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان.

فتحت معركة ملازكرد الطريق أمام السلاجقة للولوج إلى آسيا الصغرى (تركيا)، ولم يتردد المتنافسون على العرش البيزنطي في استخدامهم لبلوغ غاياتهم، فاستدعوهم وفتحوا لهم مدناً ما كانوا ليستطيعوا دخولها عنوة. ولم يُدرك البيزنطيون، إلا بعد فوات الآوان، أن الأتراك باستيطانهم آسيا الصغرى قد مزَّقوا إطار الدولة البيزنطية، فانكفأوا نحو شواطىء بحر إيجة في الغرب، وأنهكتهم الحروب الداخلية الطويلة، فعجزوا عن الوقوف في وجه الأتراك.

خلف ملكشاه أباه ألب أرسلان، ويُعدُّ من أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق، وفي الوقت الذي كان أحد أتباعه من الأمراء السلاجقة، وهو سليمان بن قُتلمش، يفتح آسيا الصغرى، كان هو نفسه يستولي على بلاد ما وراء النهر ويمتد بفتوحه إلى بخارى وكاشغر على حدود الصين.

كان السلاطين السلاجقة الثلاثة الأوائل، طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه، رجال حرب من الطراز الأول، ولكنهم أدركوا عدم أهليتهم في الشؤون الإدارية، لذلك تركوا لوزرائهم أمر إدارة الدولة، وقد عبَّر أحدهم، وهو نظام الملك وزير ألب أرسلان وملكشاه، عن مفهومه للحكم في مجموعة آراء صدرت في كتابه سياست نامه (فن الحكم)، فأصبغ كثيراً من الرخاء والبهاء على الدولة، وظل هذا الوزير ثلاثين عاماً يُنظم شؤون البلاد، ويُشرف على أوضاعها الإدارية والسياسية والمالية، ويُشجع الصناعة والتجارة ويُصلح الطرق والجسور والخانات، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين، ويقرِّب الفنانين والشعراء والعلماء، وشاد المباني الفخمة في بغداد، وأسَّس فيها مدرسة كبيرة ذاع صيتها في الآفاق، عُرفت بالمدرسة النظَّامية.

كان نظام الملك رحيماً في حكمه، ولكنه لم يكن متسامحاً في أمور الدين، وندَّد بطائفة الحشيشية الإسماعيلية التي هدَّدت وحدة الدولة السلجوقية السياسية والدينية، فاغتيل في عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) على يد أحد أتباعها، وتوفي ملكشاه بعد خمسة وثلاثين يوماً من وفاة وزيره.

وفي ظل الوحدة السياسية الكبرى التي حقَّقها السلاجقة، كان الجيش المستفيد الأكبر من الفتوح، فقد خُصصَّ أفراده بإقطاعات عظيمة من الأراضي، على أن هذا التوزيع لم يؤد إلى إقامة نظام إقطاعي؛ لأن الدولة احتفظت حيال قياداتها العسكرية برقابة صارمة أتاحت السيطرة على الجند.

لم تتمكَّن الدولة السلجوقية، على الرغم من إحيائها العالم الإسلامي، من الإبقاء على تلاحمها زمناً طويلاً، فقد انفرط عقد الأسرة الحاكمة بعد وفاة ملكشاه، وأدَّى النزاع بين المتنافسين على العرش، وتوزيع الإقطاعات، والوفيات المبكرة؛ إلى تجزئة الدولة التي استعجلها تعيين الأتابكه أوصياء على أبناء السلاطين القُصَّر ووكلاء على إقطاعاتهم، فرغبوا كما هو طبيعي في الحلول محلهم، هذا على الرغم من جهود سنجر، آخر السلاطين السلاجقة العظام، في إعادة الوحدة إلى السلاجقة، لكن الدولة السلجوقية تفكَّكت بعد وفاته في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)، وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحت حكم الأتابكة المتنازعين أصلاً فيما بينهم، ويُفسر ذلك نجاح الصليبيين وتقدم الكرج واستمرار الدولة الفاطمية.

وتأسَّست بعض الأتابكيات القوية على أنقاض الدولة السلجوقية، فأبقت الشرق الأدنى على التقسيمات الجغرافية التي نشأت عن الغزوات التركية، بلاد الشام، إيران، آسيا الصغرى. وكان للعراق وضعه الخاص، فقد قامت في ربوعه دولة سلجوقية منذ عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م) عُرفت في التاريخ باسم دولة سلاجقة العراق،

اتخذت من مدينة همذان عاصمة لها، كان السلطان محمود ابن السلطان محمد طبر ابن السلطان ملكشاه أول سلاطينها، لكنها شهدت استمراراً للنزعات الأسرية بين الطامعين في الحكم ما عطّل دورها الفاعل في الحياة السياسية، والملفت ازدياد نفوذ الدول الأتابكية التي استقلت بعد زوال سلطنة السلاجقة العظام، لعل أبرزها دولة الموصل بزعامة عماد الدين زنكي.

وبدأت الخلافة العباسية تستعيد شيئاً من قوتها وتملأ الفراغ الذي تركه السلاجقة بسبب نزاعاتهم الداخلية، وتنتهز الفرصة للحد من سلطانهم. ودخلت دولة سلاجقة العراق، بعد وفاة السلطان محمود في عام (٥٢٥هـ/ ١١٣١م)، في حال شديدة من الفوضى والاضطراب بسبب قيام الصراع على السلطة بين الأمراء السلاجقة، وقد أبعدتهم عن وحدة الصف والاهتمام، بما كان يواجه العالم الإسلامي آنذاك من مشكلات وبخاصة المشكلة الصليبية، وعلى الرغم من قوة السلطان مسعود الذي تولى الحكم في عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) إلا أن الأمور تفاقمت في وجهه بسبب النزاعات الداخلية وعلاقاته السيئة مع الخلافة العباسية. وكثر الطامعون في الحكم من بعده، وازدادت الفتن، وقوي نفوذ الأتابكة، وأخذت الخلافة العباسية تمسك بخيوط اللعبة السياسية وتسير سريعاً نحو الاستقلال الفعلي عن دولة سلاجقة العراق الذي تحقّق بعد القضاء على طغرل، آخر سلطان سلجوقي في العراق في عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م)، علماً بأن الخلافة العباسية استعانت بالسلطان تكش الخوارزمي للقضاء عليه، فأسدل بذلك الستار على حياة هذه السلطنة المليئة بالنزاعات الداخلية.

اعتمدتُ، في هذه الدراسة، على أمهات المصادر وعلى مراجع متخصصة في التاريخ السلجوقي مبينة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل بما اعتمدت عليه أن يُجلي الحقيقة التاريخية.

أما تشكيل الموضوعات التي يراها القارىء بعناوينها، فقد قسّمتها إلى تسعة فصول:

تطرقت في **الفصل الأول** إلى تاريخ القوى السياسية التي وُجدتْ في بلاد ما وراء النهر وخراسان قبل ظهور السلاجقة على المسرح السياسي، فبحثت في أصل الأتراك واستخدامهم في أجهزة الدولة الإسلامية، ثم عدّدت الإمارات السلطانية التي حكمت البلاد المذكورة وأهمها: السامانية والقراخانية والغزنوية.

وعالجت في **الفصل الثاني** أصل السلاجقة وتأسيس دولتهم في خراسان. يرجع أصل السلاجقة إلى قبيلة قنق الغزية وينتمون إلى جد هو سلجوق، نزحوا من

مواطنهم الأصلية في شمالي آسيا الوسطى باتجاه الجنوب الشرقي في أيام حكم السامانيين، واعتنقوا الدين الإسلامي على المذهب السني متأثرين بهم، ثم انخرطوا في لعبة التنافس السياسي للسيطرة على المنطقة على حساب الغزنويين، ونجحوا في التغلب على هؤلاء وأسسوا دولة على أنقاض دولتهم في خراسان عُرفت في التاريخ باسم دولة السلاجقة العظام أو الكبار، واتخذوا من مدينة نيسابور عاصمة لهم.

ودوّنت في **الفصل الثالث** أوضاع دولة السلاجقة العظام في عهد السلطان طغرلبك، وقد حصل على اعتراف الخلافة العباسية بشرعية حكمه، ثم استدعته ليخلصها من الحكم البويهي الشيعي، وكلفته القضاء على الفاطميين الشيعة في مصر، ما كان دافعاً للسلطان بالتمدد نحو العراق عبر إيران، فقضى على الدولة البويهية وحل محل البويهيين في حكم العراق، وكانت علاقاته بالخلافة العباسية جيدة بوصفه على مذهب أهل السنة الذي يُعد الخليفة العباسي رئيسه الروحي، واستمرت كذلك طيلة ثمانية عشر عاماً قبل أن تتدهور بسبب استئثاره بجميع السلطات في العراق حتى تلك المتعلقة باختصاصات الخليفة، وزادها تفاقماً محاولته ربط البيتين العباسي والسلجوقي بالمصاهرة من واقع خطبته ابنة الخليفة متجاوزاً التقاليد العباسية، ووجد السلاجقة أنفسهم في عهده على حدود الدولة البيزنطية، فغزوا بلاد الكرج والأرمن والبيزنطيين منطلقين من المناطق الشمالية الغربية من إيران، وشكّلت غاراتهم ضغطاً متزايداً على صدر الامبراطورية البيزنطية.

وبحثت في **الفصل الرابع** الأوضاع السياسية لدولة السلاجقة العظام في عهد السلطان ألب أرسلان الذي خلف عمه السلطان طغرلبك، وتراوحت علاقته مع الخلافة العباسية بين الجيدة والمتوترة بسبب استئثاره بالسلطة وتفرده باتخاذ القرارات المتعلقة بأوضاع العراق الداخلية من دون العودة إلى الخليفة. وجرى في عهده توسع السلاجقة في أرمينية ما وضعه وجهاً لوجه أمام الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينس الطامع في وقف التمدد السلجوُقي باتجاه أراضيه واستعادة شمالي بلاد الشام، وقد نتج عن ذلك الاصطدام الشهير بين الطرفين، السلجوقي والبيزنطي، في ملازكرد وانتصار السلطان ألب أرسلان، علماً بأن الامبراطور وقع أسيراً في يد عدوه، فعامله السلطان معاملة طيبة لقاء فدية وعقد هدنة، وقد فتحت هذه المعركة أبواب آسيا الصغرى (تركيا) على مصراعيها أمام السلاجقة، ووضع السلطان ألب أرسلان نصب عينيه القضاء على الفاطميين في بلاد الشام ومصر، فترك قبل مغادرته المنطقة بعض قادته فيها وأمرهم بإخراج الفاطميين من بلاد الشام، فاستولوا على الرملة وبيت المقدس وطبرية ويافا، وطردوا منها الحاميات

الفاطمية، لكنهم فشلوا في الاستيلاء على دمشق التي ظلت تابعة للفاطميين في مصر.

واحتوى **الفصل الخامس** سجلاً بالأحداث السياسية في عهد السلطان ملكشاه الذي خلف اباه السلطان ألب أرسلان، ويُعدُّ هذا السلطان أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق، ووصلت الدولة السلجوقية في عهده إلى أقصى اتساعها وذروة قوتها، فامتدت من بحيرة خوارزم شمالاً إلى حدود الصين جنوباً، ومن حدود الصين شرقاً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وخُطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصي البلاد الإسلامية في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحمل إليه الأباطرة البيزنطيون الجزية.

وتطرقت في **الفصل السادس** إلى الأوضاع السياسية لدولة السلاجقة العظام بعد وفاة السلطان ملكشاه، التي شهدت تراجعاً في قوة السلاجقة في عهد السلطان محمود بن ملكشاه وأخيه السلطان بركياروق بسبب الصراعات الداخلية على السلطة، وعندما اعتلى السلطان بركياروق السلطة بعد وفاة السلطان محمود، نازعه عماه، تُتُش صاحب الشام، وأرسلان أرغون. ومما زاد الأمور تفاقماً التنازع على منصب الوزارة بين أبناء الوزير نظام الملك، ثم بينهم وبين بعض الشخصيات السجلوقية الطامعة في اعتلاء هذا المنصب، وبرزت بعد وفاة السلطان ملكشاه طائفة الحشيشية الإسماعيلية التي انتهزت فرصة حدوث الاضطرابات في دولة السلاجقة العظام لتتوسع عن طريق الاستيلاء على مزيد من القلاع الحصينة والتسلل إلى بلاد السلاجقة وإلى جيوشهم، فتصدى لها السلاطين. وفي المقابل أقدمت الحشيشية على اغتيال بعض الشخصيات السلجوقية المهمة، مثل نظام الملك. وحدث في عهد السلطان بركياروق أن تعرَّض العالم الإسلامي الشرقي لغزوات الأوروبيين الغربيين الذين عُرفوا بالفرنجة أو الصليبيين، واستطاعوا، في ظل تفكك العالم الإسلامي، أن يطأوا الأراضي الإسلامية ويؤسسوا في ربوعها إمارات لهم مثل أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس، وأحجم السلاجقة العظام عن التصدي لهم بأنفسهم، فدفعوا أمراء الأطراف للاصطدام بهم.

ودونت في **الفصل السابع** أوضاع السلاجقة العظام بعد وفاة السلطان بركياروق الذي ترك دولة السلاجقة مجزأة، فكانت خراسان وبلاد ما وراء النهر تحت حكم السلطان سنجر بن ملكشاه، في حين خضعت الأقسام الشمالية لسيطرة أخيه السلطان محمد طبر، وكانت بلاد الشام تحت حكم ابني تُتُش، رضوان ودقاق، وآسيا الصغرى تحت حكم السلطان قلج أرسلان الأول، وكرمان تحت حكم أسرة قاورد،

واستقل الأتابكة بديار بكر وأرمينية. وكان الصليبيون والحشيشية ألد أعداء السلاجقة يتربصون بهم، وتوسعت الحروب الصليبية، وسيطر الصليبيون على مناطق الحدود القريبة، وبسطوا نفوذهم على أجزاء كثيرة من بلاد الشام وفلسطين، وسيطر الحشيشية على قلاع كثيرة ما كان له أثر في تنامي قوتهم، فكانوا قوة مرعبة راحت تقضي على كل من يعادي دعوتهم أو يقف في طريق نشرها.

وبحث في **الفصل الثامن** أوضاع دولة السلاجقة العظام في عهد السلطان سنجر بن ملكشاه التي أخذت بالتداعي، وعلى الرغم من حكمه المديد إلا أنه لم يتمكَّن من لمِّ أشلاء الدولة المبعثرة وإعادة الوحدة إليها، وتأسست في عهده دولة سلاجقة العراق التي حكمت العراقين العربي والعجمي، واحتفظ السلطان سنجر بحكم الشرق حتى قضت قبائل الغز عليه وعلى دولته.

وتطرقت في **الفصل التاسع** إلى الأحداث السياسية لدولة سلاجقة العراق التي تعاقب عليها عدد من السلاطين أشهرهم محمود بن محمد طبر وعمه مسعود، ولم تكن عهودهم سوى سلسلة متلاحقة من النزاعات الداخلية الدامية، وكان من الطبيعي أن تعمد الخلافة العباسية إلى اغتنام الفرصة لتعميق الخلافات بين السلاطين السلاجقة وضربهم بعضهم ببعض لإضعافهم والانعتاق من الحكم السلجوقي الذي عدَّته متعسفاً، واستعانت أخيراً بالسلطان الخوارزمي تكش للقضاء على طغرل بن أرسلان شاه آخر سلطان سلجوقي في العراق.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة وعبرة، كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ.د. محمد سهيل طقوش

الفَصْلُ الأول

القوى السياسية في بلاد ما وراء النهر وخراسان قبل ظهور السلاجقة

الأتراك

أصلهم

يكاد يُجمع المؤرخون المسلمون على أن أصل الأتراك يعود إلى يافث بن نوح[١]، ويبدو أنهم أعطوا الأتراك نسباً يتفق مع فكرتهم الإسلامية في تقسيم الشعوب، والحقيقة أن هذا التوجه التفسيري لأصل الأتراك بعيد عن تاريخ الإسلام والعرب، وهو مستقى من العهد القديم تلقَّفه بعض اليهود وأدخلوه في الكتب التاريخية، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما، لكن مما لا شك فيه بأن الأتراك نشأوا، كأي أمة بدوية، لهم ميزتهم الطبيعية والقومية التي اشتهروا بها في موطنهم الأصلي في آسيا الوسطى، وشغلوا المنطقة الواقعة بين التبت والصين في الشرق، وجاوروا الجنس الآسيوي القديم، السيبري، في الشمال، والشعوب الأوغرية في الغرب، ويحد بلادهم جبال الهملايا من الجنوب، وهضبة البامير من الجنوب الغربي، وجبال ألتاي وبابلونوي وستانوفوي من الغرب، وجبال كنجان وكوكونور من الشرق، ويبدو من خلال ذلك أن موطنهم يشمل المناطق الواقعة بين نهري جيحون وسيحون أو الإقليم المسمى في المصطلح الإسلامي باسم بلاد ما وراء النهر[٢].

---

(١) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك ١/٢٠٦؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ص٧٥؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر. . . المعروف بتاريخ ابن خلدون جـ٢ ص٦٧.

(٢) **ما وراء النهر**: أطلق المسلمون على المنطقة المتحضرة الواقعة بين نهري جيحون، وسيحون: ما وراء النهر، ويقصدون بالنهر نهر جيحون الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية إيران وطوران، فما كان في شرقيه يُقال له بلاد الهياطلة، وما كان في غربه فهو خراسان وولاية خوارزم، وهي ليست من خراسان إنما هي إقليم آخر. وأشهر مدن ما وراء النهر: بخاري، سمرقند، كش، بيكند، الصغانيان، فرغانة، الصغد، الشاش، أشروسنة، خجندة وغيرها. =

ولم تكن هذه المنطقة، وفقاً لمفهوم الجغرافيين المسلمين تدخل ضمن تركستان؛ لأن هذا الاسم كان يُقصد به بلاد الترك بعامة، أي الأصقاع الممتدة بين دار الإسلام وامبراطورية الصين، والتي كان يقطنها الأتراك والمغول الرحل[1].

انتشرت الديانة الشامانية[2] بين الأتراك كما عرفوا البوذية[3]، والزرادشتية[4]، والنصرانية النسطورية[5]، ونلمس في عقائدهم آثاراً طوطمية[6]، والغالب عليهم الزندقة على مذهب ماني[7].

= انظر: الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص٤٥ ـ ٤٧.

(١) بارتولد ف.ف: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص١٤٥. يشير كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين إلى الأصل المشترك للأتراك والمغول، وهناك عدد من السمات العرقية من جهة اللغة بخاصة تبين أن الأتراك أنسباء قريبون من المغول. انظر: الجويني، عطا ملك: تاريخ جهان كشاي جـ١ ص١٤. ابن الأثير، أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٣٣٥. بارتولد، ف.ف: تاريخ الترك في آسيا الوسطى (١١٤، ١٧٠، ١٧١). فامبري، أرمينيوس: تاريخ بخارى ص١٦١.

(٢) الديانة **الشامانية** قائمة على الوثنية وترتكز على عبادة عوامل الطبيعية على عادة المجتمعات البدوية، ويسجد الشامانيون للشمس عند طلوعها؛ والشامان كاهن ومنجم وطبيب وساحر.

(٣) **البوذية**: نسبة إلى بوذا (٥٦٤ ـ ٤٨٣ق.م)، وضع بوذا، الذي وُلد في النيبال، فلسفة أخلاقية أراد من خلالها صقل النفس وغرس اليقين والقناعة في الفكر وتنقية البدن بالزهد ومقاومة الأهواء، ولم يقل إنه وضع ديناً، لكن ما حصل بعد وفاته أن نسج أتباعه حوله هالة من القدسية وأقاموا له المعابد.

(٤) **الزرادشتية**: نسبة إلى زرادشت، مؤسس ديانة في بلاد فارس في القرن السادس قبل الميلاد وتسمى بالمجوسية. يعتقد الزرادشتيون بوجود إلهين، إله الخير والنور ويسمونه أهورامزدا، وإله الشر والظلمة ويدعونه آهرمان، وهما في صراع دائم، ومن أجل ذلك أطلقت على الزرادشتية اسم الثنوية، ودخلت النار عاملاً رئيساً في عبادة الزرادشتيين، وبيوت النار عندهم مراكز العبادة، يؤمنون بالله وبنبوة زرادشت وكتابهم هو الزندافستا، كما يؤمنون بالآخرة ونهاية العالم، ويعتقدون بأن الإنسان مخير، ولهم وجود في إيران والهند.

(٥) **النصرانية النسطورية**: نسبة إلى أحد الآباء اللاهوتيين ويُدعى نسطوريوس، تولى بطريركية القسطنطينية (٤٢٨ ـ ٤٣١م). ويعتقد النساطرة أن للمسيح طبيعتين متميزتين، اللاهوتية والناسوتية، وللأخيرة إرادة وفعل يختلف عن الطبيعة الأولى، وأن اتحاد اللاهوت بالناسوت كاتحاد الماء يُلقى بالزيت فكل منهما باق بحسبه.

(٦) تسمَّى الأتراك بأسماء حيوانات مثل أرسلان ويعني أسد. والطوطم كائن كانت تحترمه بعض القبائل الموغلة في البدائية، ويعتقد أفرادها بوجود صلة نسب بينه وبينهم، وقد يكون الطوطم حيواناً أو نباتاً.

(٧) **المانوية**: نسبة إلى ماني، وُلد في عام ٢١٦م، وظهر في فارس، ادعى النبوة وقال بأن المسيح بشَّر به، يقول ماني بالنور والبراءة من الظلمة. ومبدأ العالم كونان منفصلان هما النور =

اتصف العنصر التركي بصفات البدو متأثراً بالبيئة التي عاش فيها، مثل الشجاعة والغلظة والشراسة والذود عن الأسرة والمجاهدة للخصم والحماية للرهط والعشيرة والغيرة والصبر على الشدائد وغيرها من الصفات البدوية.

علاقتهم مع المسلمين

بدأ ظهور الأتراك على المسرح السياسي في القرن الثالث الميلادي، وقامت صلات غير مباشرة بينهم وبين العرب، إذ كان العنصران يعملان في الجيوش الفارسية والبيزنطية. وبرز الدور التركي واضحاً منذ القرن السادس الميلادي بعد غزوات القرن الرابع الميلادي الكبرى التي بلغت امتداداتها أوروبا مع أتيلا[1] حين راح الأتراك يضغطون على مناطق الحدود الفارسية حول بحري قزوين، الخزر، والأسود، واستطاع خانات الترك في منتصف القرن المذكور توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم، وشكَّلوا دولة اتحادية، وتغلَّبوا على الهياطلة وغيرهم من العناصر الطورانية، لكن دولة الأتراك لم تلبث أن انقسمت على نفسها في القرن الثامن الميلادي إلى مملكتين، شرقية وغربية، وقد مرَّتا بمراحل القوة والضعف استفاد منها المسلمون والصينيون.

ابتدأت العلاقات المباشرة بين المسلمين والأتراك منذ الفتوح الإسلامية الأولى في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م). فبعد أن فتح المسلمون بلاد فارس وضموها إلى الأملاك الإسلامية أضحوا وجهاً لوجه مع العناصر التي تسكن بلاد ما وراء النهر، ومعظمها عناصر تركية، ووجدوا أنفسهم أمام عدد كبير من الإمارات التركية الصغيرة المتصارعة أبداً، مثل طخارستان[2]، والختل[3]،

= والظلمة. فرض ماني على أتباعه العُشر في الأموال والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق وترك الكذب والسرقة والقتل والزنا والبخل والسحر، والغالب على تعاليمه الاشتراكية.

(١) **أتيلا**: زعيم قبائل الهون البربرية الآسيوية وهم من الجنس التركي، انطلق من جوف آسيا باتجاه الغرب ووصل في زحفه إلى إيطاليا في عام ٤٥٢م، ووجدت روما نفسها تواجه خطره الداهم ما دفع البابا ليو العظيم أن يخرج بنفسه لمفاوضته، ثم اضطر إلى الجلاء عن إيطاليا عندما علم بأن جيشاً رومانياً بقيادة أيتيوس كان في طريقه لإنقاذ روما، ولم يلبث أن توفي في بانونيا في عام ٤٥٤م.

(٢) **طخارستان**: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان وتقع غربي نهر جيحون. الحموي: جـ٤ ص٢٣.

(٣) **الختل**: كورة واسعة كثيرة المدن تقع خلف نهر جيحون على تخوم السند، وقصبتها هُلْبَك. المصدر نفسه: جـ٢ ص٣٦٤.

والصغانيان[1]، وخوارزم[2] وغيرها، ما شكَّل خطراً عليهم وبخاصة أن حدود بلادهم في خراسان[3] قد تاخمت هذه الإمارات، ودفعهم للعمل على وضع حدٍّ لحال الفوضى في هذه البلاد بضمها إلى الدولة الإسلامية.

حاول المسلمون في بادىء الأمر دعوة الأتراك إلى الإسلام، لكن الذين استجابوا كانوا فئة قليلة، وجاهرت الغالبية بعدائها للمسلمين ما اضطرهم إلى القيام بهجمات عدة على بلاد ما وراء النهر في العهد الراشدي (١١ ـ ٤٠هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٦١م) لم يُحقِّقوا خلالها أي انتصار جدِّي على الأتراك يسمح لهم بفتح المدن والاستقرار فيها. ثم توقَّفت حركة الفتوح في أعقاب مقتل عثمان بن عفان عام (٣٥هـ/ ٦٥٦م) بسبب الاضطرابات الداخلية التي شهدتها دولة الخلافة الراشدة، واستؤنفت في العهد الأموي بهدف تحقيق غايتين:

الأولى: وضع حدٍّ للنزاعات الداخلية الدائمة بين الإمارات التركية.

الثانية: نشر الدين الإسلامي بين الأتراك.

وقد حقَّق الفاتحون هاتين الغايتين، فقد ثبَّتوا أقدام المسلمين في بلاد ما وراء النهر بعد فتحها، وانتصروا على الأتراك الوثنيين، كما نشروا الإسلام في ربوع هذه البلاد، ودخل الكثير من سكانها في دين الله أفواجاً.

وساند الأتراك الدعوة العباسية بسبب تشدُّد الأمويين العربي وانفتاح العباسيين على العنصر الأعجمي، وانضموا إلى حركة أبي مسلم الخراساني، كبير الدعاة العباسيين في خراسان.

وشهد المشرق الإسلامي في العصر العباسي الأول اضطرابات سياسية على جانب كبير من الخطورة، تمثَّلت بقيام الحركات الفارسية المناهضة في أعقاب مقتل أبي مسلم الخراساني على يد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤

---

(١) **الصغانيان**: ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ. الحموي: جـ٣ ص٤٠٨، ٤٠٩.

(٢) **خوارزم**: اسم ناحية كبيرة واسعة تقع غربي الصغد وقصبتها الجرجانية، وأهلها يسمونها كُركانج، سكانها من أصل تركي، وهي ذات خيرات ونهرها جيحون وهو يصب في بحيرة تحمل اسمها، مناخها قاس شديد. المصدر نفسه: جـ٢ ص٣٩٥ ـ ٣٩٨.

(٣) **خراسان**: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلي الهند: طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها، إنما هو من أطراف حدودها، وتشتمل على أمهات المدن، منها نيسابور وهراة ومرو، وكانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون جيحون، ويدخل بعض الجغرافيين أعمال خوارزم فيها. المصدر نفسه: ص٣٥٠ ـ ٣٥٤.

ـ ٧٧٥م)، وثورات العرب المعادين للعباسيين لا سيما العلويين، بالإضافة إلى طمع بعض الولاة بالاستقلال بما تحت أيديهم واستعانتهم بالأتراك، وقد شكَّل ذلك بداية تدخل هؤلاء في شؤون المسلمين الداخلية.

وبرز التدخل التركي واضحاً في شؤون الخلافة العباسية في عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م) الذي بويع في ظل الصراع العنيف بين العرب والفرس واختلال في التوازن بين العناصر التي تكونت منها الدولة العباسية، وبدأت ثقة المعتصم بالفرس تضعف في الوقت الذي فَقَدَ ثقته بالعرب نظراً لكثرة تقلبهم واضطرابهم وقيامهم ضد الخلفاء، بالإضافة إلى أنهم فقدوا كثيراً من مقومات قوتهم السياسية والعسكرية حتى أضحوا أقل خطورة وأضعف شأناً.

حملت هذه المعطيات المعتصم على أن يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركي الذي توافقت طباعه النفسية وصفاته الجسدية، من حيث القوة والشجاعة ومتانة الجسم، مع صفات أخواله الأتراك كأمة بربرية محاربة شديدة البأس، ثم استخدم الأتراك في الجيش على نطاق واسع وجعلهم تحت إمرة قادة منهم مُسدِّداً بذلك ضربة عنيفة للقادة والجند العرب، وأضحى لهذا العنصر أثر كبير في الحياة السياسية والاجتماعية على الرغم من أن الأتراك لم يكونوا أهل حضارة، كما أضحى الحرس التركي يُمثل إحدى دعائم الخلافة خلال أيام حكمه.

وكوَّن الأتراك، مع مرور الزمن، كياناً خاصاً بهم وطمعوا في الاستئثار بشؤون الحكم في بغداد بعد أن أدركوا أن الخلافة لا يمكنها الاستغناء عن خدماتهم، فهيمنوا على مقدراتها، وأحكموا سيطرتهم على الأقاليم، وأحاطوا بالخليفة يراقبون تحركاته، ويشاركون في المناقشات السياسية، ثم راحوا يتدخلون في عزل واختيار الخلفاء، ولكن هؤلاء لم يخضعوا بسهولة للنفوذ التركي وقاوموه بشدة، وحاولوا التخلص من صانعي الخلفاء، غير أنهم افتقروا إلى القوة المادية لمواجهة هذا النفوذ الطاغي.

استخدامهم في أجهزة الدولة

اهتم المؤرخون المسلمون بالحديث عن العنصر التركي منذ بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، على الرغم من أن العلاقات المباشرة بين المسلمين والأتراك ابتدأت منذ الفتوح الإسلامية الأولى في عهد الخلفاء الراشدين.

وكان الأمويون أول من استقدم الأتراك من بلادهم بعد اعتناقهم الإسلام واستخدموهم في الجيوش وفي أجهزة الدولة، فقد نقل الوالي الأموي عبيد الله بن زياد ألفين من سبي بخارى إلى البصرة وأسكنهم في مكان يُقال له البخارية، وهي

سكة بالبصرة[1].

وانضم الكثير من الجنود الأتراك إلى جيوش المسلمين أثناء الفتوح، كما استعان بهم القادة العرب، فقد شكَّل سعيد بن عثمان، والي معاوية بن أبي سفيان على خراسان، جيشاً من سكان بلاد ما وراء النهر من الأتراك[2].

واستخدم الأمويون الكثير من الجواري والغلمان الأتراك للعمل في قصور الخلفاء، ونجد بعض الجواري محظيات لدى الخلفاء، من ذلك أن الخليفة الأموي يزيد بن الوليد بن عبد الملك كانت أمه محظية لدى الوليد[3].

وبعد استقرار الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م)، برز عدد من الشخصيات التركية الذين كان عددهم يزداد شيئاً فشيئاً بتوافدهم على دار الخلافة، واستخدمهم الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول في قصورهم وائتمنوهم على أسرارهم، وأسندوا إليهم أمر سلامتهم الشخصية، وقرَّب هذا الخليفة حماداً التركي ووثق به وجعله من خاصته وأمناء سره وائتمنه على أسرار سجلات الدولة[4].

وتبوأ مبارك التركي منصباً رفيعاً في قيادة الجيش، وقام بدور بارز في القضاء على ثورة الحسين بن علي بن الحسن في معركة فخ في عام (١٦٩هـ/ ٧٨٦م)[5]، واستخدم المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م) عدداً من الأتراك في قصوره، مثل شاكر التركي وفرج الخادم ويحيى بن داوود الخرسي، وأدَّى الجند الأتراك في عهده دوراً بارزاً في حرب الخوارج، بقيادة عبد السلام اليشكري في عام (١٦٠هـ/ ٧٧٦م) في باجرما[6].

ودخل الكثير من ملوك الأتراك في طاعة العباسيين منذ عهد الخليفة المهدي، مثل ملوك كابل وطبرستان والصغد وطخارستان والخرلخية وسجستان وغيرهم، ولا شك بأن هؤلاء كانوا يُرسلون بعضاً من أتباعهم ليعملوا في خدمة الدولة العباسية.

وبرز في عهد الخليفة الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م) مبارك وحماد

(١) الحموي: جـ١ ص٣٥٥، ٣٥٦.
(٢) اللميلم، عبد العزيز محمد: نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء، جـ١ ص٢٠٠.
(٣) الطبري: جـ٦ ص٤٧٦. (٤) المصدر نفسه: جـ٨ ص١٠٣.
(٥) الحموي: جـ٥ ص٥١. **فخ**: إحدى ضواحي مكة.
(٦) العصفري، خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ص٢٩٢، **وباجرما**: قرية من أعمال البليخ قرب الرقة من أرض الجزيرة. الحموي: جـ١ ص٣١٣.

التركيان، وتوسع الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) في استخدام الأتراك في قصوره ودوائره وجيشه، فكان أبو سليم فرج، الخادم التركي، أحد قادة جيشه، وقرَّب مسروراً الخادم ووثق به، فأسند إليه أعمال البريد والإخبار، وخلفه في عمله ثابت الخادم[1]، ونذكر فرج الرخجي كأحد القادة الأتراك البارزين في عهد الرشيد وقد قلَّده الأهواز[2]، كما كان للأتراك دور فعَّال في القضاء على ثورة الوليد بن طريف الشاري، وقد قتله يولبا التركي[3].

وضمَّت حاشية الرشيد بعض الأتراك، واستخدم الجواري من فرغانة[4]، وأشروسنة[5] وغيرهما، وأضحى بعضهن محظيات، مثل ماردة بنت شبيب والدة المعتصم، وتُعدُّ من أحظى النساء لدى هارون الرشيد وهي تركية[6].

وتوسع الخليفة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) في استخدام الأتراك في قصوره وجيوشه واستقدمهم من بلاد ما وراء النهر بعد أن دخلوا في الإسلام، وازدحمت وفودهم على بابه[7]، ووصل بعضهم إلى مناصب قيادية مثل طولون والد أحمد، والمعروف أن أحمد أسس دولة لأسرته في مصر هي الدولة الطولونية، وهو من قبيلة التغزغز التركية[8]. وعيَّن المأمون كاوس التركي أميراً على أشروسنة ويُعدُّ ابنه الأفشين حيدر من كبار القادة، وأحد الذين قدَّموا خدمات جليلة للدولة بما قاموا به من قمع العديد من الثورات.

وبويع المعتصم بالخلافة في ظل الصراع العنيف بين العرب والفرس، وقد فَقَدَ ثقته بالعرب نظراً لتقلبهم واضطرابهم وقيامهم ضد الخلفاء، بالإضافة إلى أنهم فقدوا كثيراً من مقومات قوتهم السياسية والعسكرية، كما ساءت علاقة العباسيين، بعامة، بالفرس بفعل تعارض سياسة الطرفين واستحالة التوفيق بين تطلعات الفرس نحو

(١) الجهشياري، محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتّاب، ص٢٦٥.
(٢) المصدر نفسه **والأهواز**: هي خوزستان، وتتألف من سبع كور بين البصرة وفارس. الحموي: جـ١ ص٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٣) الطبري: جـ٨ ص٢٥٦.
(٤) **فرغانة**: مدينة وكورة واسعة في بلاد ما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان. الحموي: جـ٤ ص٢٥٣.
(٥) **أشروسنة**: بلدة كبيرة في بلاد ما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين نهر سيحون وسمرقند. المصدر نفسه: جـ١ ص١٩٧.
(٦) ابن الأثير: جـ٦ ص٧٦.
(٧) البلاذري، الإمام أبو الحسن: فتوح البلدان، ص٤١٨.
(٨) بارتولد: ص٥١.

الاستقلال ومصالح العباسيين، بالإضافة إلى قيام الفرس بثورات مناهضة للحكم العباسي.

حملت هذه المعطيات الخليفة المعتصم على أن يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركي، وقد توافقت طباعة النفسية وصفاته الجسدية، من حيث القوة والشجاعة ومتانة الجسم، مع صفات أخواله الأتراك كأمة عنيفة محاربة شديدة البأس، وأصبح الحرس التركي يمثل دعامة من دعائم الخلافة أيام حكمه، ثم استخدم الأتراك في الجيش على نطاق واسع وجعلهم تحت إمرة قادة منهم، وبنى لهم مدينة سامراء وأسكنهم فيها.

وصل الأتراك إلى دار الخلافة في بغداد بإحدى الطرق التالية: الأسر في الحروب، الشراء، الهدايا التي كان يرسلها ولاة الأقاليم في بلاد ما وراء النهر على شكل رقيق إلى الخليفة، الهجرة باتجاه الغرب نحو الأراضي الإسلامية والدعوة والتجنيد.

ازدياد نفوذهم وأثره على وضع الخلافة

انتقلت عاصمة الخلافة إلى سامراء التي ظلَّت ما يقرب من خمسين عاماً حاضرة دولة الخلافة العباسية، وأضحت مقراً للعصبية التركية الجديدة. ومنذ عهد المعتصم أخذت تظهر على مسرح الحياة السياسية، شخصيات تركية أدَّت دوراً كبيراً في الحياة العامة، أبرزها الأفشين وأشناس وإيتاخ ووصيف وسيما الدمشقي، وقد خدموا الدولة وساندوها في إخماد الحركات المناهضة وفي حروبها الخارجية.

وثبَّت الأتراك في عهد الخليفة الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) أقدامهم في الحكم، وحصل رؤساؤهم على نفوذ كبير حتى اضطر الخليفة أن يخلع على أشناس لقب سلطان، معترفاً له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية، فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطاناً[1]، وأسند إليه أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر، كما عهد إلى إيتاخ بولاية خراسان والسند[2] وكور دجلة[3].

نتيجة لهذا التوسع في الصلاحيات، ازداد نفوذ الأتراك فهيمنوا على دار الخلافة وأحكموا سيطرتهم على أقاليمها كافة، ثم أحاطوا بالخليفة يراقبون تحركاته ويشاركون في المناقشات السياسية، ومن أجل ذلك، لم يذهبوا إلى ولاياتهم وأنابوا

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: تاريخ الخلفاء، ص٢٦٣.
(٢) **السند**: بلاد بين الهند وكرمان وسجستان. الحموي: جـ٣ ص٢٦٧.
(٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي: جـ٢ ص٤٤١.

فيها عمالاً عنهم، وقد شكَّل هذا التدبير خطوة سياسية على طريق انفصال الولايات عن الإدارة المركزية، إذ طمع الوكلاء بولاياتهم، واستقلوا بها منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية، وعدم معرفة الخليفة بما يجري في الولايات لاطمئنانه إلى من ولّاهم من الأتراك.

وخطا الأتراك خطوة أخرى من أجل تشديد قبضتهم على الخلافة، فأخذوا يتدخلون في اختيار الخلفاء وتوليتهم، وأضحى القادة الأتراك أهل الحل والعقد لا تتم الخلافة إلا بموافقتهم ورضاهم، فأحكموا بذلك قبضتهم على شؤون الخلافة يُصرِّفون الأمور بإرادتهم، وحاول الخلفاء التخلص من هذه الهيمنة إلا أنهم فشلوا ودفعوا حياتهم ثمناً لذلك، مثل المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي.

شغل الصراع مع الأتراك طيلة العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦م)، وشكَّل العصر العباسي الثالث (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥م) رد فعل مناهض للنفوذ التركي ومثَّل حركة فارسية شيعية زيدية قادها البويهيون الذين سيطروا على العراق ودخلوا بغداد يحملون روح العداء للخلفاء العباسيين السنة المخالفين لهم في المذهب، ثم سقطت الدولة البويهية في إيران والعراق تحت ضربات السلاجقة الذين دخلوا بغداد وانهوا الحكم البويهي، وقد شغلوا قسماً كبيراً من العصر العباسي الرابع (٤٤٧ ـ ٦٥٦هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨م).

ضعف الوزراء وأثره على وضع الخلافة

شهد عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢م) تدهور مركز الخلافة والوزارة معاً على الرغم من أن الوزير كان في بداية عهده يتدخل بقوة في تعيين الخليفة، واتسم هذا العهد بسرعة تعيين وعزل الوزراء تبعاً لرغبات سيدات القصر والحاشية وبخاصة والدة المقتدر، حتى بلغ عدد الوزراء اثني عشر وزيراً كانت مدة حكم كل منهم قصيرة.

واستمرت في عهد الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م) كثرة تعيين وعزل الوزراء نتيجة تدخل الغلمان والأتراك، بالإضافة إلى عجز الوزير عن توفير الأموال اللازمة لنفقات الأتراك وقصور الخليفة، وكان مصيره القتل أو المصادرة أو العزل. والواقع أنه ساد تلك المرحلة الاضطراب والفتن المتنقلة في الداخل والخارج، واستشرى الفساد في الشؤون الإدارية ما أدَّى إلى عجز الوزراء عن تأمين النفقات المطلوبة منهم، لذلك بذل هذا الخليفة محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك، انتهت بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر مُتقلِّده على مقاليد الحكم، وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة، فهيْمن

على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز، ولم يعد له من صلاحيات فعلية في ممارسة الحكم، وأزال نفوذ الوزراء، وتوقف الصراع بين الخلافة والأتراك الذي شغل جانباً كبيراً من العصر العباسي الثاني.

ابتدأ هذا المنصب بالظهور في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) على حساب منصب الوزارة، ذلك أن الخليفة الراضي استعان في إدارة شؤون دولته بوزراء كانوا ضعافاً عجزوا عن النهوض بأعباء الوزارة، وفقدوا ما كان لهم من نفوذ حتى أصبحوا عُرضة للتنكيل والمصادرة، ومن جهة أخرى، تراجع نفوذ الأتراك بفعل التفكك الذي ساد بينهم والتنافس على مركز الصدارة، وتفشِّي الحسد بين قادتهم.

شعرت الخلافة نتيجة هذه الأوضاع المتردية، بضعف الوزراء، وبعجز الأتراك، وبفراغ الخزانة، فأخذت تتطلع إلى حكام الإمارات القريبة من العراق لتستعين بهم على إنقاذ الموقف الذي بلغ درجة خطيرة من التدهور، فاستدعى الخليفة الراضي محمد بن رائق أمير واسط والبصرة، وسلَّمه مقاليد الأمور، وأطلق يده في سلطات الدولة كلها ولقَّبه أمير الأمراء، وهذا المنصب هو عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة إلى قائد تتوفر فيه صفات الرئاسة المدنية والقيادة العسكرية[1]، «... ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم»[2]، وتوزَّعت الأطراف على أمراء متغلبين غير أن منصب أمير الأمراء أضحى عُرضة للتنافس بين الأمراء فَفَقَدَ الغاية التي أُنشئ من أجلها.

والواقع أن الخلافة لم تستفد من هذا النظام الذي أنشأه الراضي لانتشال الخلافة من عثرتها، بل ازدادت أوضاعها سوءاً، وأن من يستقصي عهد الراضي والمتقي والمستكفي يجده عبارة عن سلسلة نزاعات لا تنقطع بين رجال الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي إمرة الأمراء، وكانت هذه المآسي نتيجة حتمية لتلك الثغرة العميقة التي أوجدها الأتراك منذ أيام المعتصم، وما زالت تتسع حتى انهار البنيان وساد الخوف والذعر وأصبحت الأموال نهباً للطامعين، وفسدت الحياة، وطغت النزاعات المذهبية، واندلعت الفتن والثورات، وتجدَّدت أطماع البيزنطيين فجدَّدوا غاراتهم على بلاد الشام، وهكذا كانت الخلافة العباسية تواجه خطرين عنيفين هما خطر الانقسامات الداخلية، وخطر الغارات الخارجية، وقامت الإمارات الانفصالية في ظل هذه الظروف.

(١) مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم، جـ١ ص٣٥١، ٣٥٢. إنه يُحدِّد صلاحيات أمير الأمراء.

(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٥٣، ٥٤.

الإمارة السامانية

(٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٩٩م)

ثمة حقيقة ظاهرة برزت منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي هي أن المجتمع الإسلامي قبل ظهور السلاجقة كان يسوده جوٌّ من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني، فقد قامت في المشرق الإسلامي قوى مختلفة، متناقضة ومتصارعة فيما بينها من أجل البقاء أو السيطرة، وتفشَّت ظاهرة توزُّع الولاءات السياسية بين عدد من الإمارات المستقلة أو شبه المستقلة، وكانت مشاعر الشك والحقد المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة واضحة في العداء السياسي الذي سبَّب تنافرها وحال دون توحيدها، كما أضعفها التنازع الأسري الداخلي وحال دون امتدادها الزمني.

وعندما تراجعت قوة الخلافة العباسية قامت في المقاطعات الشرقية، ما وراء النهر وخراسان، إمارات متفاوتة من حيث القوة والحجم دانت بالطاعة الاسمية للخليفة العباسي، كان من بينها:

- الإمارة السامانية الفارسية، وهي تجهد من أجل البقاء.
- الإمارة القراخانية التركية، التي فرضت وجودها بالغلبة وهي عازمة على القضاء على الإمارة السامانية ووراثتها.
- السلطنة الغزنوية التركية، التي جاهدت للتوسع في المشرق الإسلامي على حساب السامانيين.

ينتسب السامانيون إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة التي كانت تدين بالزرادشتية، وينحدر جد السامانيين إلى سامان خداه وهو أحد أشراف مدينة بلخ[1]، وجرى أول اتصال له مع المسلمين في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) عندما وَفَدَ على أسد بن عبد الله القسري والي خراسان فاراً من الاضطرابات وهجمات الأتراك الوثنيين المتكررة على إقليم خراسان بعامة وبلخ بخاصة وملتجئاً إلى أسد للاحتماء به، فساعده على قهر خصومه وردَّ الأتراك وأعاده

(١) **بلخ**: مدينة مشهورة بخراسان. الحموي: جـ١ ص٤٧٩.

إلى بلخ، فاعتنق سامان الإسلام على يديه وسمَّى ابنه أسداً تيمناً باسمه واعترافاً بفضله[1]، وانضم سامان إلى الدعوة العباسية وعمل في صفوف أبي مسلم الخراساني[2].

وكان أسد بن سامان من جملة أصحاب علي بن عيسى بن ماهان عندما ولّاه الخليفة العباسي هارون الرشيد أمر خراسان وتوفي في ولايته، وساند أبناؤه، وهم نوح وأحمد ويحيى وإلياس، هرثمة بن أعين في قمع ثورة رافع بن الليث في خراسان واستطاعوا بجهودهم أن يبعدوه عن سمرقند التي تحصَّن بها[3].

وعامل الخليفة المأمون أولاد أسد الأربعة باحترام وتقدير بفعل إخلاصهم في خدمته، فقرَّبهم إليه، وشملهم برعايته، ورفع من شأنهم، فأمر واليه على خراسان غسان بن عباد أن يُعيِّنهم على أكبر أقاليم بلاد ما وراء النهر، فعيَّن نوحاً حاكماً على سمرقند، وأحمداً على فرغانة، ويحيى حاكماً على الشاش وأشروسنة، وإلياس على هراة، وذلك سنة (٢٠٤هـ/ ٨١٩م)[4].

تمكَّن الإخوة من إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع هذه الأقاليم وأكَّدوا سلطة الخلافة العباسية عليها، فلم تعد مصدراً للقلاقل والاضطرابات، كما وطَّدوا نفوذهم في بلاد ما وراء النهر، فاكتسبوا بذلك مكانة رفيعة وسمعة طيبة.

كانت فاتحة أعمال الإخوة السياسية تصدِّيهم لغارات الأتراك الوثنيين على مناطق الحدود، وتعاونوا مع الطاهريين[5] في ذلك، كما شاركوا في النزاع الذي نشب بين هؤلاء وبين الصفَّاريين[6]، فساندوهم وشدوا أزرهم الأمر الذي جعل الطاهريين يُقرونهم على أعمالهم بشكل دائم.

---

(١) صفا، ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران: جـ١ ص٢٠٤.

(٢) إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام: ص١٣٣.

(٣) الطبري: جـ٨ ص٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٤١، ٣٤٢. ابن الأثير: جـ٥ ص٣٧٠. **وسمرقند**: بلد معروف مشهور بما وراء النهر وهو قصبة الصغد. الحموي: جـ٣ ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٤) ابن الأثير: جـ٦ ص٣٢٤، ٣٢٥.

(٥) **الإمارة الطاهرية**: أسسها طاهر بن الحسين في عام (٢٠٥هـ/ ٨٢٠م) في خراسان، وهو أحد قادة المأمون، واتخذ من مدنة نيسابور قاعدة له، وراودته نزعة انفصالية، فخلع المأمون من الخلافة في عام (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) وقطع الدعاء، له ثم طرح لبس السواد معلناً انفصاله عن بغداد إلا أنه توفي فجأة، فأقر المأمون ابنه طلحة على حكم خراسان. وحرص الطاهريون، خلفاء طاهر، على التقرب من الخلافة العباسية والتعاون معها معترفين بسلطانها عليهم، وقدَّر العباسيون ذلك، فقرَّبوا آل طاهر وساندوهم في صراعهم مع الصفَّاريين وقد قضى هؤلاء على دولتهم في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م).

(٦) قامت **الإمارة الصفَّارية** في جزء من أجزاء إيران الجغرافية وهو الجزء الجنوبي، وضمَّت بلاد =

وعندما زالت الدولة الطاهرية في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م) استقلَّ السامانيون بحكم بلاد ما وراء النهر وحكموه باسم الخلافة مباشرة، واعترفت هذه الأخيرة بجهودهم وإخلاصهم، ففصلت هذه البلاد عن خراسان وأقرَّتهم عليها، وقد هدفت إلى مكافأتهم من جهة، وإيجاد قوة موالية لها وراء المنطقة الخاضعة للصفَّاريين حتى تستفيد منهم عند الحاجة من جهة أخرى، واتخذوا مدينة بخارى عاصمة لهم.

حرص السامانيون خلال حياتهم السياسية على التمسك بطاعة الخلافة العباسية وكسب مودتها، والحقيقة أن تطلعاتهم اتجهت نحو التوسع الخارجي متجنبين ما أمكن الدخول في نزاعات مع الإمارات الإسلامية الأخرى في الداخل، فكانوا بذلك المتممين الطبيعيين للمهمة التي بدأها الطاهريون، حماة للأمن والنظام، فمدُّوا نفوذ العالم الإسلامي فيما وراء الحدود الشرقية، إلى أواسط آسيا، وتركَّزت فتوحهم في التركستان، شرقي نهر جيحون، واتبعوا خطة ذكية قائمة على الدفاع والهجوم معاً، فأقاموا الرباطات والثغور للدفاع عن الأراضي الإسلامية ضد غارات الأتراك الوثنيين، وعمدوا إلى تنفيذ هجمات متكررة ضد مناطق هؤلاء داخل السهوب، فشتَّتوا تجمعاتهم، وحدُّوا من اندفاعهم باتجاه الأراضي الإسلامية، ومدُّوا نفوذهم وهيبتهم إلى داخل السهوب، فأمَّنوا بذلك الاستقرار السياسي والاقتصادي لبلادهم من واقع السيطرة على الطرق التجارية وتأمين استمرار التجارة الشرقية وتدفق السلع المختلفة إلى مناطقهم، ونشروا الحضارة الإسلامية في تلك الربوع، ودخل على أيديهم عدد كبير من الأتراك الوثنيين في الإسلام.

وفي عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م) عيَّن الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م) نصر بن أحمد الساماني والياً على بلاد ما وراء النهر، فأسَّس الإمارة السامانية[1]. ويبدو أن نصراً كان ليِّن العريكة، ضعيف السياسة حتى كاد ييأس من تثبيت أقدامه في إمارته، وبخاصة أنه وجد نفسه يواجه خصوماً أقوياء أمثال

= فارس. أسَّسها يعقوب بن الليث الصفَّار في عام (٢٥٤هـ/ ٨٦٧م) وتوسَّع باتجاه خراسان بعد أن قضى على الدولة الطاهرية، وسيطر على سجستان في أقصى شرقي إيران الجنوبية ووادي كابل والسند ومكران. ويبدو أن الخلافة العباسية لم ترض عن توسع يعقوب، وعدَّت الدولة الطاهرية القاعدة التي تعتمد عليها في المشرق ما أثار الزعيم الصفَّاري، فتقدم نحو فارس واحتلها، وتابع تقدمه باتجاه العراق ووصل إلى الأهواز، وعندما شعرت الخلافة بعجزها عن وقف تقدمه اعترفت به. ازدادت قوة الصفَّاريين في عهد خلفاء يعقوب ما ضايق الخلافة العباسية التي تعاونت مع القوة السامانية النامية وقضت على الإمارة الصفّارية في عام (٢٩٨هـ/ ٩١١م).

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٣٢٤، ٣٢٥.

يعقوب بن الليث الصفَّار في خراسان، بالإضافة إلى ما أثاره بقايا الطاهريين من الاضطرابات؛ لولا المساندة التي تلقَّاها من أخيه الأصغر القوي إسماعيل.

والواقع أن إسماعيل بدأ حياته السياسية في بخارى حين غزا حسين بن طاهر أمير خوارزم مدينة بخارى الواقعة فيما وراء نهر جيحون، فاستنجد بعض أعيانها، وعلى رأسهم أبو عبد الله الفقيه، بنصر الساماني، فأرسل إليهم أخاه إسماعيل، فدخل المدينة وعيَّنه السكان أميراً عليهم، فدعا لأخيه في أول جمعة في (٦ رمضان ٢٦٠هـ/ ٢٥ حزيران ٨٧٤م)، وأضحت هذه المدينة تحت حكم السامانيين[١].

لم يكن حكم إسماعيل في البداية على شيء من السهولة، فقد كان عليه أن يواجه ريبة أخيه نصر في إخلاصه له، ودسائس الحسين بن طاهر الذي فرَّ من المدينة إثر دخول إسماعيل إليها، والفلاحين الذين ساءت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وبعض أعيان بخارى، والثائرين على حكمه، وقد خرج من كل هذه الصعوبات ظافراً، وأضحى بعد قليل من الوقت محبوباً من الجميع بفعل حزمه وورعه وخشيته من الله تعالى، ولقَّبوه بعد وفاته بالأمير الماضي[٢].

خلف إسماعيل أخاه نصراً في زعامة الأسرة بعد وفاته في (٢٢ جمادى الأولى ٢٧٩هـ/ ٢١ آب ٨٩٢م)، وتسلَّم في العام التالي عهد الخليفة، وبسط سلطانه على كل خوارزم وبلاد ما وراء النهر، وضمَّ خراسان وجرجان وطبرستان وسيستان والري وقزوين[٣] إلى أملاكه، وقام بحملة ناجحة على طراز في إقليم أسفيجاب[٤]، وحوَّل كنيستها إلى مسجد، وخلع الأسرة الحاكمة في أشروسنة، وضمَّ المنطقة إلى الأراضي الخاضعة للسامانيين، ونازعه عمرو بن الليث الصفَّار الذي ثبَّت حكمه في إيران، وطلب من الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢م) منحه ولاية خراسان، فأجابه إلى ذلك وعزل محمداً بن طاهر عنها[٥]، ثم تمادى فطلب من الخليفة أن يوليه بلاد ما وراء النهر من دون أن يُقدِّر الصعوبات التي تعترض ذلك. وهنا وجد الخليفة الفرصة للقضاء على قوة الصفَّاريين المتزايدة، فأراد أن يضرب عمرواً بالقوة السامانية النامية، فوافق على طلبه. واصطدم الطرفان الساماني

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٣٢٥. (٢) المصدر نفسه: ص٣٢٦، ٥٦٠.

(٣) تقع جرجان وطبرستان وسيستان والري وقزوين حالياً في إيران.

(٤) **اسفيجاب**: اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان، ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة، وكانت ثغراً عظيماً. الحموي: جـ١ ص١٧٩.

(٥) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٧١، ٤٧٢.

والصفَّاري في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) في مكان إلى الجنوب من نهر جيحون قرب بلخ وأسفر عن انتصار السامانيين، ووقع عمرو في الأسر، فسيق إلى الخليفة الذي سجنه[١].

ظل إسماعيل مخلصاً للخلافة العباسية حتى آخر حياته، ما ساعده على توسيع رقعة إمارته باتجاه الغرب، فأخضع جميع ولايات إيران الشمالية، وسرعان ما جاء التقليد من الخليفة بحكم ولاية خراسان. واتسمت علاقاته بجيرانه بالعدائية بفعل عداء هؤلاء للعباسيين، فدخل مضطراً في صراع مع الصفَّاريين وقضى على إمارتهم، كما اصطدم بمحمد بن زيد العلوي أمير طبرستان في جنوبي قزوين في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) بعد أن طمع هذا الأمير في بلاد خراسان[٢]، والمعروف أن الدعوة الشيعية لم تنقطع في خراسان حيث تمتَّع العلويون بعطف كبير من جانب السكان، وبخاصة بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب، حيث وجد الفاطميون طريقهم إلى هذه المناطق الشرقية لنشر الدعوة في ربوعها.

واصطدم إسماعيل بالأتراك الذين هدَّدوا حدود بلاده الشمالية وانتصر عليهم في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م)[٣]، وخُتِمت بهذه المعركة سلسلة الحروب التي خاضها الأمير الساماني منذ أن تولى الحكم، واستطاع بنتيجتها أن يضم ولايات غنية كثيرة إلى ما ورثه من مُلك عند جيحون، ويجعل من بلاد ما وراء النهر دولة قوية حاضرتها بخارى، وكان عماله أصحاب الأمر والنهي في مرو ونيسابور بخراسان، وانطلقوا ينشرون نفوذهم في كل ناحية، ونجحوا في تأسيس إمارات لهم في ربوعها.

خلف إسماعيل ابنُه أحمد، بعد وفاته في عام (٢٩٥هـ/ ٩٠٨م)، فأرسل إليه الخليفة المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨م) عهداً بإمارة بلاد ما وراء النهر وخراسان. والواقع أن هذا الأمير لم يكن على مستوى الأحداث التي تعرَّضت لها بلاده، وبخاصة الضغط التركي في الخارج وُالمؤامرات في الداخل، على الرغم من أنه انتزع سمرقند من يد عمه إسحاق بن أحمد، وسيستان من قبضة بارس الكبير والي طبرستان في عام (٢٩٨هـ/ ٩٠٠م) ووقع أخيراً ضحية مؤامرة. ويبدو أن العطف الذي أبداه نحو اللغة العربية ومحاولة نشرها أدَّى إلى تعرُّضه لمؤامرة أودت بحياته في (٧ جمادى الآخرة ٣٠١هـ/ ٢٣ كانون الثاني ٩١٤م)، والمعروف أن السامانيين بعامة اتجهوا نحو تبنِّي النزعات الانفصالية الفارسية بشكل أكثر بروزاً من خلال

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٥١١، ٥١٢. (٢) المصدر نفسه: ص٥١٣، ٥١٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٤٠.

إحياء اللغة والثقافة الفارسية[1].

خلف أحمد ابنُه نصر الثاني بعد وفاته وكان صبياً في الثامنة من عمره، فعُيِّن الوزير أبو عبد الله محمد أحمد الجيهاني وصياً عليه، فتعاون مع قائد الجيش حمويه بن علي على ضبط الأمور في البلاد[2]، والواقع أن هذا الأمير واجه، خلال حياته السياسية المديدة، صعوبات عدة مرَّت بشكل متتابع؛ أثَّرت سلباً على أوضاع البلاد التي لم تعرف الاستقرار.

فقد واجه تمرد عمه إسحاق بن أحمد المطالب بالعرش الساماني وقد تحصَّن في سمرقند، كما ثار عليه ابنه أبو صالح منصور، وشجَّعت الفوضى التي ضربت البلاد، الحسين بن علي المروزي، حليف أبي منصور صالح، وهو أحد زعماء الشيعة البارزين، فأعلن الثورة على النظام، لكن نصراً تمكَّن من إخضاع الثائرين وسجن الحسين[3].

وبفعل اشتداد رياح الدعوة الفاطمية، استقطب الدعاة الفاطميون نصراً الثاني، ووافق على دفع مائة وتسعة عشر ألف دينار للقائم الفاطمي دية الحسين بن علي المروزي الذي توفي في سجن بخارى[4].

وتعرَّض الأمير نصر الثاني لحركة مناهضة لهذا التوجه نحو الفاطميين من جانب قادة الحرس التركي والحاشية، فتآمروا للتخلص منه إلا أنهم فشلوا في ذلك. ومن جهة أخرى كان التعاطف الساماني مع التوجه الفاطمي الشيعي مرحلياً، إذ بعد وفاة نصر الثاني في عام (٣٣١هـ/ ٩٤٢م) قضى ابنه وخليفته نوح على المذهب الفاطمي في رد فعل عارم[5].

وظهرت في الأفق السياسي في عهد نوح الدلائل التي تشير إلى تدهور الدولة وذلك نتيجة الأحداث التي أحاطت بحكم نصر الثاني من قبل واستمرت في عهد خلفائه، ولم يتمكَّن نوح من أن يُخرج الحكومة من المآزق الكثيرة التي تعرَّضت لها، وبخاصة تأمين الجند لإخماد الثورات التي واجهتها في ظل فراغ الخزينة.

وبرزت آنذاك على مسرح الأحداث قوى جديدة تمثلت بالبوَيْهيين والقراخانيين والغزنويين عجز السامانيون عن مواجهتهم ووقعوا أخيراً تحت ضرباتهم. فقد انتزع البويهيون كرمان من السامانيين في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)[6]، وتقاسمت الدولتان

(١) Brown, E: Literary History of Persia I PP 369, 399.

(٢) ابن الأثير: جـ٦ ص٦٢٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٦٢٥، ٦٢٦.

(٤) إقبال: ص١٤٣. بارتولد: ص٣٧٤، ٣٧٥.

(٥) إقبال: ص١٤٤.

(٦) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٤.

القراخانية والغزنوية أملاك السامانيين في بلاد ما وراء النهر وخراسان في ظل حكم عبد الملك الثاني بن نوح الثاني (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م)، فأخذ القراخانيون ما وراء النهر وكان من حق الغزنويين ما تبقَّى من مناطق[1]، والمعروف أن آخر الأمراء السامانيين إسماعيل الثاني ابن نوح الثاني الملقب بالمنتصر قُتل في عام (٣٩٥هـ/ ١١٠٥م).

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٠٣ - ٥٠٦.

الإمارة القراخانية

(٣٨٣ـ٥٣٦هـ/ ٩٩٣ـ١١٤٢م)

ينتسب القراخانيون[١] إلى العنصر التركي، وينتمون إلى قبيلة القارلوق على الأغلب الذين يشكلون بدورهم فرعاً من مجموعة قبائل تركية متحالفة أهمها اليغما وتُخسي وتشغل، وكانت منازلهم في المناطق الوسطى من حوض نهر سيحون، وتمتد شرقاً حتى السهوب الغربية لجبال ألتاي، وجنوباً إلى المناطق الواقعة بين واديي نهري سيحون وإيلي ومناطق حوض نهر جو في الشمال، ويحمل زعيمهم لقب إيلك[٢].

أخذ الإسلام ينتشر بين أفراد هذه القبيلة خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأول من أسلم من زعمائها هو سُتُق قراخان، وفي رواية هو سُتُق بغراخان عبد الكريم، جد بغراخان الفاتح الأول لمدينة بخارى عام (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م)[٣]، وقد اعتنق الإسلام في عام (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م)، وكان حاكماً على مدينة كاشغر[٤]، تلى ذلك دخول أعداد هائلة في الإسلام[٥]، وذلك بتأثير الفِرق الدينية

(١) عُرفت **الإمارة القراخانية** باسم الإيلك خانية، ولكن استعمال أفراد هذه الأسرة لكلمة قرة أو قرا، وتعني أسود، مضافة إلى أسمائهم، فقد أطلق عليها المستشرقون اسم القراخانية. وهكذا فإن اسم القراخانية هو اسم محدث للإيلك خانية. زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ص٢٨.

(٢) **إيلك**: اسم أويغوري، معناه الأمير أو الحاكم أو الوصي، فهو بهذا ليس اسم علم، وهو مثل كلمات تركمان أو ترخان أو خاتون أو غيرها من الألقاب التي سمّى بها العرب والفرس الحكام الأتراك إذ ذاك. فامبري: ص١٢٠ هامش رقم١.

(٣) بارتولد: تركستان ص٣٨٨.

(٤) **كاشغر**: مدينة في وسط بلاد الترك يُسافر إليها من سمرقند، وتقع المدينة على الضفة الغربية لنهر تشو بالقرب من المدينة المعروفة في الوقت الحاضر باسم فرونتر. الحموي: جـ٤ ص٤٣٠، ٤٣١.

(٥) يذكر ابن الأثير أنه أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خُركاه، والخُركاه تعني سقيفة أو سرادق أو كوخ أو خيمة كبيرة، وهنا تعني أسرة. الكامل في التاريخ: جـ٧ ص٢٣٠.

التي زرعت لها أتباعاً بين السكان المستقرين في بلاد ما وراء النهر، بالإضافة إلى القبائل الرحل.

توفي سُتُق بغراخان عبد الكريم في عام (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) وخلفه ابنه موسى، وقد أمسى على رأس إمارة تحكم مناطق شاسعة بين بلاساغون[١] في الشمال وكاشغر في الجنوب، ثم امتدت إلى الجنوب والجنوب الغربي فشملت مناطق أوزكند[٢] في الجنوب الشرقي وحتى حد الصين[٣].

يمكن تحديد قيام إمارة القراخانيين في بلاد ما وراء النهر في عام (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) وهو تاريخ سيطرتهم على بخارى عاصمة السامانيين، لكن الواقع أن سيطرتهم على المدينة كانت مزعزعة ومُهدَّدة، فخرجوا منها تحت الضغط الساماني الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ودام الصراع بين القوتين حوالي اثني عشر عاماً سيطر القراخانيون في نهايتها على مدينة بخارى سيطرة تامة ونهائية وذلك في (أواخر ٣٩٤هـ/ خريف ١٠٠٤م)[٤]، ويمكن اعتماد هذا التاريخ بداية رسمية لقيام الإمارة القراخانية.

والواقع أن الصراع على السلطة قد بلغ أشده في الإمارة السامانية المتداعية، وقد لمع نجم القائدين فائق وبكتوزون، وحتى يحافظا على مكتسباتهما راحا يتدخلان في عزل وتعيين الأمراء. ففي عام (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م) انقلب بكتوزون على الأمير أبي الحارث منصور الثاني بن نوح الثاني فقبض عليه وسمل عينيه وخلعه عن الإمارة وعيَّن أخاه، أبا الفوارس عبد الملك الثاني[٥].

وسرعان ما سقط الأمير الساماني فريسة سهلة لغدر الإيلك شمس الدولة أبي نصر أحمد بن علي، فقد قدم هذا من كاشغر إلى بخارى بدعوى حمايته من دون أن يدعوه أحد إلى ذلك، فقبض على جميع أمراء بخارى الذين كانوا قد خرجوا لاستقباله، ثم دخل المدينة في (١٠ ذي القعدة ٣٨٩هـ/ ٢٣ آب ٩٩٩م)، وسجن أبا الفوارس عبد الملك الذي مات في سجنه، كما ألقى القبض على أخيه منصور وسائر الأمراء السامانيين منهياً بذلك دور الإمارة السامانية الفاعل في بلاد ما

(١) **بلاساغون**: بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر. الحموي: جـ١ ص٤٧٦.

(٢) **أوزكند**: تقع في أقصى نهاية إقليم فرغانة، ولها نهران يمران بضواحيها. المصدر نفسه: ص٢٨٠.

(٣) ابن الأثير: جـ٧ ص٤٥٨.

(٤) المصدر نفسه: ص٤٥٨، ٤٥٩.

(٥) النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب: جـ٢٥ ص٢٢٣.

وراء النهر[1].

وحاول إسماعيل الثاني بن نوح الثاني أن يُعيد للسامانيين ما بقي لهم من دولتهم بعد أن هرب من سجن الإيلك، واستطاع أن يهزمه مرتين، لكن ذلك لم يؤد إلى تحقيق غايته، وظل هذا الأمير الساماني يتنقَّل بين طبرستان وخراسان حتى نجح في عام (٣٩١هـ/ ١٠٠١م) في الاستيلاء على نيسابور، لكن سرعان ما أخرجه منها نصر بن محمود، حفيد سبكتكين صاحب غزنة[2]، فراح يضرب في الأرض حتى غدر به أحد رجاله فأوقعه في شراك إيلك خان، لكنه تمكَّن من الإفلات ليلقى حتفه بعد ذلك في مضارب بني بهيج في صحراء مرو في (ربيع الأول ٣٩٥هـ/ كانون الثاني ١٠٠٥م) فانقرضت بموته الإمارة السامانية[3].

وفي الوقت الذي كان فيه القراخانيون بقيادة بغراخان هارون بن موسى، يشنون غاراتهم ضد بقايا إمارة السامانيين في بلاد ما وراء النهر وامتلاك تركتهم هناك؛ كان محمود الغزنوي قد أنهى سيطرتهم فيما دون نهر جيحون وضمَّ جميع ممتلكاتهم إلى أملاكه، وأضحى الصراع بين القوتين القراخانية والغزنوية، أمراً محتوماً فكل قوة ترى بأنها الأحق بوراثة أملاك السامانيين.

كان محمود الغزنوي يرى أنه وأباه كانا غلامين عند الأمراء السامانيين وهو الأحق في وراثتهم، ورأى القراخانيون من جهتهم أنهم أصحاب الغلبة والقهر والفتح لمدن السامانيين وبخاصة عاصمتهم بخارى، وهم الذين قوَّضوا سيادتهم في معقلهم الرئيس، ولذلك فهم الأحق بامتلاك جميع ما خلفوه، وكان الزعيم الغزنوي الأقوى سياسياً وعسكرياً لكن اهتمامه بالتوجه لفتح الهند أتاح للقراخانيين التفاهم معه، وتُوِّجت تلك العلاقة بالتقارب الأسري، الأمر الذي جعل السلطان محمود يطمئن على حدود بلاده من الشرق والشمال الشرقي، فتفرَّغ عندئذٍ لفتح الهند.

ظل القراخانيون يحكمون بلاد ما وراء النهر بشكل مستقل حتى عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) عندما اصطدموا بالسلاجقة، فقد عبر السلطان السلجوقي ملكشاه آنذاك نهر جيحون واجتاح بلاد ما وراء النهر حتى كاشغر ومنابع نهر سيحون، وضمَّ تلك المناطق إلى أملاك الدولة السلجوقية، لكنه أقرَّ القراخانيين على حكمها وإدارة شؤونها نيابة عنه، ويبدو أنه كان لبعد المسافة بين هذه البلاد وبين قلب الدولة

---

(١) النويري: جـ٢٥ ص٢٢٣.

(٢) **غزنة أو غزنين**: مدينة في طرف خراسان، وهي الحد الفاصل بين طرف خراسان والهند. الحموي: جـ٤ ص٢٠١.

(٣) النويري: جـ٢٥ ص٢٢٤، ٢٢٥.

السلجوقية في إيران واهتمام ملكشاه بمشكلات غربي آسيا أثر في تصرفه هذا[1].

وهكذا دانت الإمارة القراخانية في بلاد ما وراء النهر بالتبعية للدولة السلجوقية ودارت في فلكها، لكن هذه التبعية تراوحت بين المد والجزر وفقاً لقوة السلاطين السلاجقة وفرض نفوذهم على خانات ما وراء النهر.

وظلت الدولة السلجوقية قوية ومتماسكة حتى وفاة السلطان ملكشاه في (شوال ٤٨٥هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٢م) حيث تفكَّكت بعد ذلك وبدأت عوامل الضعف تدب في أوصالها نتيجة الحروب الأهلية بين أبنائه وأحفاده، كما سيمر معنا.

---

(١) الحسيني: ص٧٢.

السلطنة الغزنوية

(٣٦٦ ـ ٥٨٢هـ/ ٩٧٧ ـ ١١٨٦م)

ينتسب الغزنويون إلى قبيلة القارلوق التركية، وكانت مساكنهم في بلاد ما وراء النهر، ومؤسس السلطنة الغزنوية هو سبكتكين قائد ألبتكين حاجب الأمير الساماني عبد الملك بن نوح (٣٤٣ ـ ٣٥٠هـ/ ٩٥٤ ـ ٩٦١م) وقائد جيش غزنة[١]. وبناء عليه، فقد نشأ الغزنويون في كنف السامانيين، واعتنقوا بفضلهم الدين الإسلامي بعد أن كانوا وثنيين، واتخذوا من غزنة عاصمة لهم.

كان سبكتكين قد وقع مع جماعة من قومه في أسر المسلمين من الأتراك، فساقه تجار الرقيق إلى خراسان، فاشتراه القائد ألبتكين وكان بنيسابور[٢]، ولم تلبث مواهبه أن اجتذبت اهتمام مالكه، وترقَّى سريعاً في الرتب العسكرية. وبعد اعتلاء الأمير منصور بن نوح (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦م) العرش الساماني، صحب سبكتكين مولاه إلى غزنة حيث قدَّم له ولخلفائه خدمات جليلة جعلت آخر أمراء المدينة ويُدعى بيري، يتنازل له عن الإمارة، وتمَّ إعلان سبكتكين أميراً على غزنة في (٢٧ شعبان ٣٦٦هـ/ ٢٠ نيسان ٩٧٧م)[٣].

ويبدو أن تحسُّن العلاقات السياسية بين غزنة وبخارى بعد وفاة ألبتكين واطمئنان الأمراء السامانيين على أن نفوذهم عاد يُخيِّم على سماء أفغانستان جعل سبكتكين يطمئن على حدود إمارته الشمالية، فركَّز اهتمامه على فتح الهند، وقد شجَّعته حروب المسلمين السابقة مع ملك أعالي السند، وبخاصة بعد أن هُزم راجا جيبال مؤخراً على أيدي المسلمين بقيادة بيري وقيامه بالرد من خلال غزوه أراضي المسلمين في عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٦م). ونجح سبكتكين في التوسع نحو الجنوب والجنوب الشرقي بفتحه مناطق واسعة، منها قصدار في إقليم مكران وبُست إحدى مدن سجستان، ثم

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٥٣.

(٢) **نيسابور**: مدينة عظيمة هي ما بين جيحون إلى القادسية، ومن الري إلى نيسابور مائة وستون فرسخاً، ومنها إلى سرخس أربعون فرسخاً. الحموي: جـ٥ ص٣٣١.

(٣) بارتولد: ص٣٩٨.

نفذ إلى سهول السند عن طريق سلسلة جبال سليمان ـ ممر خيبر ـ وهزم جيبال، وضمَّ مدينة بيشاور[١].

وظهر سبكتكين في بلاد ما وراء النهر امتثالاً لأمر نوح الثاني بن منصور الساماني (٣٦٦ ـ ٣٨٧هـ/ ٩٧٦ ـ ٩٩٧م)، وقد اجتمع الرجلان قرب مدينة كَش[٢]، فتعهد سبكتكين بالطاعة التامة لنوح الثاني ووعده بمساعدته ضد أعدائه.

وحدث آنذاك أن ثار بعض القادة السامانيين على حكم نوح الثاني وبخاصة فائق وأبي علي الجغائي، فطلب نوح الثاني المساعدة من سبكتكين. وتمكَّن الرجلان بمساعدة بعض الأمراء المجاورين من هزيمة أبي علي الجغائي في سهل هراة، فكافأ الأمير الساماني سبكتكين بلقب ناصر الدولة كما لقَّب ابنه محمود بلقب سيف الدولة وولَّاه خراسان[٣].

وفي عام (٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) غزا القراخانيون، بالتعاون مع أبي علي الجغائي، بلاد ما وراء النهر مرة أخرى، وكان سلطان نوح الثاني الساماني قد امتد على جزء من هذه البلاد، إلا أن الأمير الساماني لم يستطع الصمود في وجه الحشود التركية الضخمة، فطلب المساعدة من سبكتكين وكان آنذاك في غزنة، فلبَّى نداء المساعدة، فعبر إلى بلاد ما وراء النهر بجيش كبير وعسكر بين كَش ونسف[٤]، وكتب إلى نوح الثاني يستعجله للحاق به، غير أن الوزير ابن عزيز نصح الأمير بعدم الخروج بقواته البائسة الموجودة تحت إمرته؛ لأن في ذلك تحقيراً للعرش.

عدَّ سبكتكين هذا الإحجام تقصيراً مقصوداً من الأمير الساماني، فعزم على إجباره على الخروج، فأرسل قوة عسكرية تُقدَّر بعشرين ألف مقاتل إلى بخارى بقيادة ابنه محمود وأخيه بغراجق، فكان هذا كافياً لحمل الحكومة السامانية على الإذعان. واشتبك الطرفان في رحى معركة طاحنة عند طوس[٥] في (جمادى الآخرة/ تموز) أسفرت على انتصار سبكتكين الذي طارد أبا علي الجغائي حتى خوارزم[٦].

والراجح أن الزعيم الغزنوي دخل في هذا الصراع حليفاً للسامانيين بشكل

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٥٤، ٣٥٥.

(٢) **كَش**: قرية على بُعد ثلاثة فراسخ من جرجان على جبل في بلاد ما وراء النهر. الحموي: جـ٤ ص٤٦٢.

(٣) ابن الأثير: جـ٧ ص٤٦٢، ٤٦٣.

(٤) **نسف**: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند. الحموي: جـ٥ ص٢٨٥.

(٥) **طوس**: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ. المصدر نفسه: ص٢٩، إنها مدينة مشهد الحالية في إيران.

(٦) ابن الأثير: جـ٧ ص٤٦٧.

ظاهري، وهو يُبطن الاستيلاء على أوسع مساحة ممكنة من أملاكهم واقتسامها مع القراخانيين، بدليل أنه عقد صلحاً مع هؤلاء تمَّ بموجبه الاتفاق على أن يكون الحد الفاصل بين أملاك السامانيين وأملاك القراخانيين مفازة قطوان[1]، في خطوة لضم الأملاك السامانية إلى أملاكه في غزنة.

وهيمن سبكتكين بعد ذلك على مقدرات السامانيين، وأضحى الحاكم المطلق على جميع الولايات الواقعة جنوبي نهر جيحون، ولم يعد لنوح الثاني من سلطة في مجريات الأحداث بخراسان.

توفي سبكتكين في (شعبان ٣٨٧هـ/آب ٩٩٧م) وهو في طريقة عائداً إلى بلاد ما وراء النهر حيث عرَّج على مدينة طوس، ثم ذهب منها إلى مدينة بلخ التي اختارها في أواخر أيامه عاصمة له حيث توفي فيها، وكان قد عقد العزم على التوجه إلى غزنة للاسترواح بطيب هوائها والاستشفاء بنسيم أرضها وصفاء مائها[2].

كان سبكتكين قد عهد إلى ابنه الأصغر إسماعيل بالأمر من بعده، ولم يكن هذا التعيين متوافقاً مع المصلحة العامة في ظل دولة ناشئة تتطلب مهارات سياسية وإدارية وعسكرية لم تكن تتوفر في إسماعيل، الذي استغل فرصة وجوده إلى جانب والده عند وفاته وبُعد أخيه محمود في نيسابور بخراسان، فأقنع والده بتوليته العهد[3].

حاول إسماعيل أن يُثبِّت أقدامه في الحكم من خلال:

- توزيع الأموال على كبار رجال والده، من عسكريين ومدنيين، لاستقطابهم وضمان ولائهم له.

- أرسل كتاباً إلى الأمير الساماني في بخارى نوح الثاني بن منصور يُعرِب له فيه عن ولائه وإخلاصه له والتبعية المطلقة للحكم الساماني وذلك بهدف كسب وده، وإضفاء الشرعية على حكمه وقطع الطريق على أخيه من التقرب للسامانيين، والمعروف أن الغزنويين كانوا آنذاك لا يزالون يعدُّون أنفسهم أتباعاً للسامانيين من الناحية الإسمية على الأقل، ولم يستقلوا تماماً إلا بعد زوال هؤلاء.

- رفض طلب أخيه محمود باقتسام أراضي والده، فيأخذ محمود غزنة، ويحتفظ إسماعيل ببلخ. والواضح أن محموداً خصَّص أخاه بخراسان ليجعل منه سداً في وجه أخطار القراخانيين الآتية من الشمال والشمال الشرقي، أما تخصيص نفسه بغزنة، فهذا يعني اعتلاء السلطة وذلك بحكم موقع هذه المدينة وكونها قصبة دولة

(١) **قطوان**: قرية من قرى سمرقند على خمسة فراسخ منها. الحموي: جـ٤ ص٣٧٥.

(٢) العتبي، أبو نصر محمد بن عبد الجبار: التاريخ اليميني جـ١ ص٢٥٥، ٢٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٧٤. ابن الأثير: جـ٧ ص٤٨٩.

والده ومركز انطلاق الجيوش الغزنوية للفتوح في بلاد الهند والسند.

كان من الطبيعي، في ظل هذه الأجواء، أن ينشأ نزاع بين الأخوين، إذ أن محموداً رأى نفسه أحق بخلافة والده بوصفه الابن الأكبر، لذلك غادر خراسان عندما علم بنبأ وفاته ونازع أخاه على السلطة، وانتصر عليه بظاهر غزنة، فعفا عنه وأكرمه وأحسن إليه، وأعلى منزلته[1].

أعلن محمود، بعد أن اعتلى العرش في غزنة، ولاءه وطاعته للدولة السامانية المتداعية في بخارى، فارسل إلى أميرها منصور الثاني بن نوح يطلب منه الاعتراف به والياً على غزنة وتوابعها بالإضافة إلى خراسان، وكان قد وضع خطة لفتح الهند والسند، وكان عليه قبل القيام بهذه المهمة تأمين حدود بلاده من جهة الشرق بالمحافظة على خراسان وما جاورها، ومنع أي قوة من المساس بأمنها أو إخراجها من تحت سلطانه ومحاولة السيطرة عليها.

لَبَّى الأمير الساماني طلب محمود جزئياً فقط، فأخرج خراسان من إمرته لأنه سبق ومنحها للقائد بكتوزون، فعقد له على بلخ وترمذ وما والاهما، وبُست وهراة وما جاورهما، وتلطَّف في الاعتذار إليه من أمر نيسابور حرصاً على ترضيته وكراهية لصرف بكتوزون عنها[2].

كان امتناع الأمير الساماني عن منح محمود إمارة خراسان ذريعة لهذا الأخير لمهاجمة هذا الإقليم واستخلاصه من بكتوزون بالقوة المسلحة، وفعلاً نجح في السيطرة عليه بعد أن تغلب على بكتوزون في (٢٧ جمادى الأولى ٣٨٩هـ/١٦ أيار ٩٩٩م)، وأضحى سيد خراسان بلا منازع منهياً بذلك سيطرة السامانيين على هذا الإقليم، وخطب للخليفة العباسي القادر (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م) الذي لقَّبه بـ «يمين الدولة»[3].

والواقع أن محموداً كان يسعى لتصفية منافسه على السلطة في البلاط الساماني، والاستحواذ على أكبر قدر ممكن من ممتلكات السامانيين الذين أضحى سقوطهم قاب قوسين أو أدنى، والتسابق في اقتسامها مع قوة تركية أخرى قادمة من شرقي نهر سيحون هي الإمارة القراخانية.

(١) العتبي: جـ١ ص٢٨١، ٢٨٢. ابن الأثير: جـ٧ ص٤٨٩، ٤٩٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٤٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٠٣.

الفَصْلُ الثَّاني

السلاجقة

أصلهم - تأسيس دولتهم في خراسان

أصل السلاجقة

عندما يدرس الباحث تاريخ آسيا يلاحظ المدى الذي تأثر به هذا التاريخ في العصور القديمة والوسطى بتحركات الشعوب البدوية والحضرية، ويرى في الوقت نفسه كيف نعمت هذه البلاد أو عانت عقب وصول كل موجة جديدة من الفاتحين.

وإذا ما تفحصنا أحداث التاريخ في آسيا الوسطى[١] منذ القرن السادس الميلادي، نلاحظ أنها تأثرت بالدور الذي كانت تؤديه العشائر البدوية التركية الذين عرفهم العرب والفرس باسمهم العرقي: الغز[٢].

كانت منازل الشعوب التركية، ومنها الغز، في سهول أوراسيا، وقد عرف الجغرافيون العرب هذه البلاد باسم تركستان[٣]، وآسيا الوسطى، وعاشت هذه الشعوب في الصحراء الواسعة والسهوب التي تبدأ عند حدود الصين وتمتد حتى

---

(١) يُفهم من المصطلح الجغرافي آسيا الوسطى تلك المناطق الشاسعة التي تشغل منغوليا والتركستان الصيني والتيبت وتفرعاتها السياسية العرقية واللغوية مما يجاور الهند أو يشارف إيران.

(٢) **الأوغوز** وفي اللغة العربية **الغز**، على أن هذا اللفظ جرى إطلاقه فيما يبدو على القبيلة الكبيرة التي وحَّدت، في القرن السادس الميلادي، جميع القبائل في امبراطورية واحدة امتدت من الصين إلى البحر الأسود ودامت حتى القرن الثامن الميلادي، ووردت الإشارة إليهم في نقوش أورخون باسم التغزغز، أي القبائل العشر، كما تردَّد ذكر الأوغوز، طوقوز أي القبائل التسع، استناداً إلى عدد قبائلهم.

(٣) **تركستان**: اسم جامع لجميع بلاد الترك، وتنقسم إلى قسمين: التركستان الغربية أو الروسية والتي كانت تُعرف ببلاد التتر وعُرفت بعد ذلك ببلاد ما وراء النهر، وتركستان الشرقية أو الصينية، وهي ولاية مستقلة عن الصين، وتشكل بلاد التركستان الآن جمهوريات آسيا الوسطى الروسية، وكانت هذه البلاد موطن الأتراك الذين عرفهم التاريخ.

شواطىء بحر الخزر[١]، واستوطنت الأراضي الواقعة بين كاشغر وخوطان في أقصى بلاد التركستان.

اتصفت القبائل الغزية بالرعوية، وعُرفت بشدة مراسها في الحروب، وهي في تنقُّل دائم وراء الماء والكلأ، وكانت حتى القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي تابعة لامبراطورية الخزر[٢].

تحركت القبائل الغزية في نهاية القرن المذكور باتجاه الغرب عبر سهوب سيبيريا نحو بحر الآرال[٣]، وإلى حوض نهر الفولغا في جنوبي روسيا، وأغاروا في عهد الخليفة المأمون على أشروسنة في بلاد ما وراء النهر بين نهر سيحون وسمرقند[٤]، فوصلت أخبارهم نتيجة ذلك إلى أسماع المسلمين فراحوا يهتمون بأخبارهم. واستمر الغز في تحركهم نحو الغرب حتى وصلوا إلى الأراضي الإسلامية، وكانوا تسع قبائل، لكل منها أمير ومقدم - بك - دعاه المسلمون باسم دهقان[٥]، ومنذ أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كان لفظ تركمان يُستعمل بكثرة في كتابات المؤرخين المسلمين بدلاً من الغز كمرادف أو بديل[٦]، ويذكر الكاشغري عن الترك «أغز قبيلة، من الترك وهم التركمانية»، ويقول «تركمان هم الغزية»، ويقسمهم إلى اثنين وعشرين بطناً لكل بطن منها علامة وسمة على دوابهم يعرف بعضهم بعضاً بها[٧]، وكان بطن قنق المتقدم على البطون كافة، ومن هذا البطن خرج السلاجقة الذين يبدو أن أسرتهم لم تكن أكبر أسر القنق أو أكثرها شهرة وقوة وعدداً، ولكنها أصبحت كذلك بفضل الشخصيات التي ظهرت في صفوفها.

وظلت هجرات هؤلاء التركمان إلى شاطىء نهر جيحون لا تنقطع بعد الفتح الإسلامي، وقد فرضت عليهم البيئة نوعاً من الحياة شبيهاً بحياة الصحراء، والجدير بالذكر أن معظم سكان السهوب الواقعة في أعالي نهر جيحون ووراءه هم من أصل تركي أو مغولي، ولقد قامت في بلاد ما وراء النهر مدن ذات أنظمة شبيهة بأنظمة دول المدينة، وكانت على شيء من الحضارة والاستقرار.

---

(١) **بحر الخزر** هو بحر قزوين.

(٢) **الخزر**: شعب تركي سكن الأراضي الواقعة بين مجرى نهر الفولغا الأدنى وجبال القوقاز، وامتدت حتى نهر جيحون، وكانت لهم حروب طويلة مع المسلمين.

(٣) **بحر آرال** هو الذي سماه المسلمون ببحيرة خوارزم، وكانت تجاوره بلاد التركمان.

(٤) الطبري: جـ٨ ص٥٨٠.

(٥) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض ص٣٨٧.

(٦) المقدسي: ص٢٢٠.

(٧) الكاشغري، محمود بن الحسن محمد: ديوان لغات الترك: جـ١ ص٥٦ - ٥٨.

كان من العسير على سكان السهوب التسرب إلى هذه المدن وإقامة صلات وثيقة مع سكانها، لذلك اتجهوا نحو المناطق الإسلامية، وأقاموا علاقات تجارية مع المسلمين وذلك قبل دخولهم في الإسلام بفضل التجار ورجال الدين من المتصوفة[١].

ونتيجة لهذه العلاقات الجيدة، فقد توفر للمسلمين، منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بعض المعلومات عن قبائل التركمان وأجناسهم وممالكهم وعاداتهم.

والواقع أن أهم المجموعات التركية التي عرفها المسلمون هم الغز، والراجح أن هؤلاء قد فقدوا منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي قوتهم الاتحادية التي شكَّلوها في القرن السادس الميلادي[٢]، لذلك كانوا أقل شأناً من الناحية السياسية من غيرهم من المجموعات التركية الأخرى.

ثم حدث أن تحرَّكت هذه القبائل الغزية على شكل هجرة نحو الجنوب الشرقي ازدادت كثافة في أثناء حكم السامانيين، واستقرت في بلاد ما وراء النهر وخراسان، وكان الباعث على هذه الهجرة سبباً أو أكثر من الأسباب التالية:

- ضيق مساحة الأراضي العشبية.
- التنازع واستمرار الحروب فيما بينهم.
- تعرضهم لغزو قبائل أكثر قوة وسيطرتهم على أراضيهم.
- ازدياد عدد السكان وعجز موارد الرزق عن كفايتهم.
- حصول قحط جعل مقومات الحياة لا تصلح للاستمرار[٣].

بدأ الإسلام ينتشر بين الأتراك على نطاق واسع حين بسطت الدولة السامانية نفوذها على أواسط آسيا في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر

(١) ابن فضل الله العمري شهاب الدين: مسالك الأبصار وممالك الأمصار ص٣٩.

(٢) أسَّس الأخوان تومين (ت٥٥٢م) وأستامي (ت٥٧٦م) في القرن السادس الميلادي دولتين مستقلتين، عُرفت الدولة الأولى باسم دولة الترك الشمالية، وعُرفَت الدولة الثانية باسم دولة الترك الغربية. وخاضت الدولة الأخيرة غمار الحرب ضد المسلمين في حوض نهر سيحون، ويتألف سكانها من عشر قبائل، أقام خمس منها في شمالي نهر أيلة وخمس منها في جنوبه. وأدَّت الحروب المستمرة التي خاضها خانات الغرب ضد المسلمين إلى انقسام هذه الدولة التركية، وظلت بعد ذلك تغرق في الفتن والقلاقل حتى حل محلها الأتراك القارلوق في عام ٧٦٦م. انظر: بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص٣٧.

(٣) الراوندي، محمد بن علي بن سليمان: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص١٤٥.

الميلاديين. وكان الجغرافيون المسلمون يتحدثون عن العنصر التركي بوصفه عدواً للمسلمين، إلا أن هذا الوضع أخذ يتغير منذ القرن الأخير[١]. وتأسست أول إمارة تركية إسلامية في عام (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) ألا وهي الدولة القراخانية، وأسلم، خلال القرن المذكور، الأتراك الغز المقيمون عند مصب نهر سيحون، وافتتح أميرهم عهده بالإسلام بتحرير المدن الإسلامية التي كانت تدفع ضريبة للأتراك الوثنيين[٢].

وعندما كان ألب أرسلان السجلوقي ما يزال أميراً شاباً صُنِّف له كتاب اسمه «ملك نامه» تحدَّث فيه كاتبه عن أخبار التركمان والسلاجقة، وذكر أنه استفاد لدى تدوين أنسابهم وأحسابهم من الأمير إينانغ بك الذي كان أسنَّ القوم وأعرفهم بأنسابهم، والواقع أن هذا الكتاب لم يصل إلينا سوى من خلال بعض النقول عنه، إذ اعتمدت عليه المصادر كافة في تأريخها عن أصل السلاجقة وعاداتهم.

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغزية وينتمون إلى جد هو سلجوق بن دقاق[٣]، وكان دقاق هذا من أعيان ترك الخزر وكان وزيراً للخاقان بيغو[٤] أحد خانات تركستان[٥]، ويبدو أنه حصل نزاع بينهما بسبب الغارات التي كان يشنها بيغو ضد الأراضي الإسلامية، غير أن هذا النزاع سُوِّي باسترضاء دقاق الذي استمر في خدمة سيده حتى وفاته[٦].

إن غيرة دقاق على الإسلام دفعته إلى الضغط على بيغو لوضع حد لغاراته على المناطق الإسلامية، ويدفعنا هذا إلى الاستنتاج بأن دقاق هو أول من دخل في الإسلام من قبائل الغز، كما أن أسرته تُعدُّ من أوائل الأسرالغزية التي دخلت في الإسلام أيضاً[٧]، لكن الواضح أن سلجوق هو أول زعيم غزي دخل في الإسلام

(١) بارتولد: ص٥٧. (٢) المرجع نفسه: ص٧٧.

(٣) يقاق: اسم مقدم السلاجقة، وصل إلينا بصيغ مختلفة. فقد ورد عند ابن الأثير تقاق، وعند الحسيني يقاق، وفي بعض المصادر الأخرى دقاق، وقد عُرف بـ تيمور بلغ أي ذي القوس الحديد. انظر حول ذلك: أخبار الدولة السلجوقية ص١. الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٥. ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان ص٨٧، المستوفي القزويني: تاريخ گزيدة ص٤٣٤.

(٤) يجب قراءتها يبغو؛ لأنه لا يوجد في اللغة المغولية الاسم بيهو الذي يرتفع عادة إلى بيغو أو بايو، وبخلاف ذلك يوجد في اللغة التركية اللفظ بيغو، وهو طير جارح أشبه بالعقاب. الحسيني: ص١. بارتولد: تركستان، هامش ص٤٠٨.

(٥) استناداً إلى الأساطير الأويغورية فإن يبغو علي هو ملك الترك الأويغوريين.

(٦) الحسيني: ص١، ٢. (٧) المصدر نفسه.

حين ترك الخدمة في بلاط بيغو كما سنرى[١]. ووُلد الأمير سلجوق في صحراء الخزر ونشأ نشأة عسكرية، فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة، واشتهر بالفروسية والشجاعة، وعندما توفي دقاق خلفه في رئاسة القبيلة، فقرَّبه بيغو وعينه قائداً لجيشه ولقَّبه صوباشي[٢]، فأطاعه أفراد القبيلة وانقادوا له، وأجاز له ملك الترك حضور مجالسه وأن يحضر إلى حرمه ما أثار حفيظة زوجته فأغرت زوجها بقتله وبالغت في ذلك.

الواقع أن بيغو كان عقيماً فخشيت زوجته أن يستغل سلجوق مركزه المتقدم ويسعى إلى قتل زوجها والجلوس مكانه[٣]، وعندما علم سلجوق بهذا الحوار الذي دار بين سيده وزوجته خشي من بطشه، فغادر تركستان مع قبيلته، وهاجر من سهوب القرغيز إلى المنطقة التي توجد فيها مدينة جَنْد في الوادي الأدنى لنهر سيحون بالقرب من سمرقند في بلاد ما وراء النهر، وأقام صلات مع سكانها المسلمين فتأثر بهم واعتنق الإسلام على المذهب الحنفي، ويكاد يُجمع المؤرخون أن السلاجقة أخذوا الإسلام عن السامانيين حكام تلك المنطقة في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وسعد سلجوق وأتباعه بالدين الجديد وأمنوا بمجاورتهم السامانيين والخانيين[٤].

كان لدخول السلاجقة في الإسلام أثر كبير في التقارب بينهم وبين السامانيين الذين عهدوا إليهم بالدفاع عن أراضيهم من غارات الأتراك الوثنيين لقاء منحهم بعض المراعي.

كانت الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر ملائمة لدخول سلجوق وأتباعه في المعترك السياسي حيث السامانيون يقاتلون القراخانيين على السيادة، وأخذت قوة سلجوق تزداد يوماً بعد يوم حتى أضحى مشهوراً في المنطقة، وغدا بلاطه ملاذاً للمضطهدين، فطلب منه السامانيون أن يساعدهم في حربهم ضد هارون بن أيلك القراخاني الذي استولى على بعض بلادهم، فاستجاب سلجوق وشارك في الحرب حليفاً للسامانيين[٥]، غير أنه كان ينتهز الفرص لتحسين أوضاع قبيلته، ويُعدُّ هذا

(١) اختلف المؤرخون حول أول زعيم من قبيلة قنق دخل في الإسلام، دقاق أم ابنه سلجوق، وهم يذكرون روايتين متشابهتين حول الخلافات التي حصلت بين بيغو وكل من دقاق وسلجوق، إنما تختلفان في نهايتهما.

(٢) صوباشي: معناها قائد الجيش.

(٣) الحسيني: ص٢.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٦.

(٥) المرجع نفسه.

الاتصال الأول من نوعه بين السلاجقة والسامانيين، وتجربتهم الأولى في الحياة السياسية.

ويبدو أن هدف سلجوق من خلال هذه التجربة هو تحسين أوضاع قبيلته فقط، من خلال تقديم الخدمات لمن يطلبها مقابل دفع المال أو السماح له بالإقامة وتأمين المراعي لماشيته، ولم يُفكِّر مطلقاً في تأسيس إمارة له ولأولاده من بعده الأمر الذي أنجزه هؤلاء.

كان لهذه المساعدة أثرها الحسن في نفوس السامانيين فأذنوا لسجلوق وأتباعه بالمرور عبر بلادهم والاستقرار عند شواطىء نهر سيحون لقاء تعهده بحراسة المناطق الحدودية مع الأتراك الوثنيين، واتخذ سلجوق مدينة جنْد قاعدة له ولأتباعه، حيث راحوا ينتشرون في تلك المنطقة بعد أن اكتملت هجرتهم من التركستان. ومن جنْد راح يجاهد في سبيل دينه، فغزا الأتراك الوثنيين وطرد عمالهم من المنطقة، وبدت غيرته الدينية فيما بذله من جهود لحماية سكان المناطق المجاورة من غاراتهم، ولم ينزل سلجوق بجنْد يرعى مصالح قبيلته حتى توفي وله أربعة أولاد هم: بيغو أرسلان، المدعو إسرائيل، وميكائيل وموسى ويونس[١].

لا تتوفَّر لدينا تفاصيل دقيقة وموثوقة حول ما وصلت إليه أوضاع أولاد سلجوق بعد وفاته، في بلاد ما وراء النهر، وكل ما نعلمه يقيناً أن القبيلة اتخذت اسم سلجوق لقباً لها وعُرف أتباعها بالسلاجقة وأن السامانيين أفسحوا المجال لهم وأنزلوهم بنواحي نور بخارى[٢]، وذلك في عام (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)، ولكن يبدو أنهم لم يستطيعوا العيش مع المسلمين الذين حرَّروهم، فغادروا المنطقة متوجهين نحو الجنوب إلى خراسان.

وما وافى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلا وهم ينزلون بالقرب من موارد المياه حيث الأراضي الخصبة، وكانت منازلهم لا تزال في نور بخارى

(١) الراوندي: ص١٤٦، وقارن بالحسيني ص٢، وُبابن الأثير جـ٨ ص٦.
يلاحظ أن أسماء الآباء الأُوَل للسلاجقة وردت في العهد القديم حتى ليبدو أن سلجوق قد تأثر بالديانة اليهودية والمعروف أن القبائل الرعوية ومنها الأتراك كانت تجوب المنطقة الشمالية لبحر قزوين امتداداً إلى دولة الخزر اليهودية وأقامت علاقات تجارية معها، وأن السلاجقة ظهروا على مسرح الأحداث بعد القضاء على هذه الدولة على يد الروس في القرن التاسع الميلادي، وعليه يُحتمل أن بعض الأتراك الغز ومنهم سلجوق قد اعتنقوا الديانة اليهودية في وقت مبكر متأثرين بيهود الخزر قبل أن يتحولوا إلى الإسلام بعد انتقالهم إلى المناطق الإسلامية واتصالهم بالمسلمين.

(٢) **نور بخارى**: نور من قرى بخارى عند جبل بها مزارات ومشاهد للصالحين. الحموي: جـ٥ ص٣١٠.

يقضون فيها فصل الشتاء، أما في الصيف فإننا نراهم في سمرقند[1].

ظل السلاجقة حلفاء للسامانيين حتى زالت دولتهم في عام (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م)، فقد انضموا إلى قوات المنتصر إسماعيل بن نوح الساماني في حربه ضد القراخانيين، وكانوا يأملون، بالإضافة إلى المكاسب السياسية، الحصول على الغنائم على عادة القبائل البدوية، وقد مكّنوه من هزيمة جيش صوباشي تكين على مقربة من ضفاف نهر زرفشان[2]، ثم جيش الأيلك خان بعد ذلك قرب سمرقند في عام (٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م) وأسروا ثمانية عشر قائداً من قادته. وقد مرّت العلاقات بينهما بعد ذلك في مرحلة فتور، حيث رفض السلاجقة تسليم أسراهم إلى المنتصر طمعاً في الفدية ما أثار شكوكه، كما شعر بأنهم مالوا إلى التفاهم مع الأيلك، لذلك قرّر هجرهم، غير أننا نراهم مرة أخرى حلفاء للمنتصر حين هزم جيش الأيلك في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م)، ثم تراجعوا بعد ذلك إلى معسكراتهم مكتفين بما حصلوا عليه من غنائم[3].

العلاقة السلجوقية ـ الغزنوية

في عهد السلطان محمود الغزنوي

بعد زوال الدولة السامانية عن مسرح الأحداث، في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حلَّ الغزنويون محلهم، وكان السلاجقة خلال ذلك قد أنشأوا قوة عسكرية نظامية يُخشى بأسها ويُرهب جانبها. ويبدو أن إسرائيل، الابن الأكبر لسلجوق، قد تبوَّأ مركز الزعامة حيث نجد له ذكراً بوصفه حليف علي تكين الأمير الخارج عن طاعة القراخانيين، والمعارض للسلطان محمود الغزنوي، وكان يطمع بالانفراد بحكم بلاد ما وراء النهر، فاستولى على بخارى متحدياً بذلك سلطة الزعيم الغزنوي وقدرخان يوسف، زعيم القراخانيين وملك المشرق[4]، ما دفع الأول إلى القيام بحملة عسكرية ضد بلاد ما وراء النهر لخلعه، فعبر نهر جيحون مبرراً حملته بأن سكان بخارى ومدن ما وراء النهر استنجدوا به ليخلِّصهم من ظلم علي تكين، كما أن هذا رفض السماح لرسله بالمرور عبر أراضيه في طريقهم إلى ملوك تركستان

(١) الحسيني: ص٢. الراوندي: ص١٤٥.

(٢) نهر زرفشان: هو نهر الصغد (ناشر الذهب)، وكانت تقوم عليه سمرقند وبخارى، وهو يفصل بين أنهار إقليم الصغد من جهة، وأنهار الصغانيان ووخشاب من جهة أخرى، ينبع من جبال البتَّم. لسترنج ص٥٠٣، ٥١٠.

(٣) بارتولد: تركستان ص٤٠٨، ٤٠٩.

(٤) الراوندي: ص١٤٨. ابن الأثير: جـ٨ ص٧.

الشرقية[1]. كانت نتيجة الحملة أن هرب علي تكين من دون أن يصطدم بالقوات الغزنوية، أما إسرائيل فقد دخل الصحراء مع أتباعه للاحتماء من جيش السلطان محمود الغزنوي[2].

أدرك السلطان محمود الغزنوي بعد هذه الحملة ما للسلاجقة من قوة وبأس، كما شعر بمدى الخطر الذي يُمكن أن يُشكِّلوه على دولته واحتمال الاستيلاء على بعض الولايات إذا ما سار إلى الهند؛ فقرَّر القضاء عليهم، وشجَّعه قدرخان القراخاني على ذلك. وعقد العاهلان اجتماعاً خارج سمرقند[3] في عام (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) لتحديد أسس التفاهم بينهما وتعيين مناطق الحدود بين الدولتين الغزنوية والقراخانية، واتفقا بنتيجة المباحثات على:

ـ توحيد قواتهما وجهودهما لانتزاع بلاد ما وراء النهر من علي تكين، وإعطائها إلى يغان تكين الابن الثاني لقدرخان.

ـ التقارب الأُسري بالزواج، فيتزوج يغان تكين كريمة محمود، زينب، ويُزوِّج قدرخان كريمته لمحمد، الابن الثاني لمحمود[4].

ويبدو أن موضوع السلاجقة جاء عرضاً خلال مباحثاتهما، حيث شكا قدرخان من ازدياد قوتهم وكثرة جنودهم واستيلائهم على المراعي الموجودة في نور بخارى والصغد وسمرقند، وطلب من محمود العمل على القضاء عليهم قبل نهوضه لغزو الهند، والواقع أن محموداً لم يكن بحاجة إلى من يحثُّه على تحجيم قوة السلاجقة المتعاظمة؛ لأنه كان قد وجَّه اهتمامه إليهم منذ بداية تواجدهم في المنطقة.

وهكذا، فإن ظهور السلاجقة كقوة جديدة على المسرح السياسي أصبح يُحسب حسابها في تقدير الموقف الذي سيسود هذه المنطقة من جراء التوسع السلجوقي، وأخذ الغزنويون يتوجَّسون خيفة من ذلك، لذا قرَّر السلطان محمود استعمال الحيلة للقبض على إسرائيل وتشتيت أتباعه، فأرسل إليه يدعوه للقائه بالقرب من شاطىء نهر جيحون لعقد اتفاق صداقة وتعاون بينهما[5].

خُدع السلاجقة بهذه الحيلة، وصدَّقوا بما جاء في رسالة السلطان محمود ووثقوا بها اعتماداً منهم على الوفاء بين المسلمين[6]، فهرع إسرائيل مع بعض خواصه وأعيان قومه مع عشرة آلاف فارس، فلما علم السلطان محمود بمقدمهم، خشي

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٧. (٢) المصدر نفسه.

(٣) يذكر البيهقي أن اللقاء بين العاهلين تمَّ على باب سمرقند ص٧٩. الراوندي: ص١٤٧، ١٤٨.

(٤) البيهقي: المصدر نفسه: ص٢١١. (٥) الراوندي: ص١٤٧، ١٤٨.

(٦) المصدر نفسه: ص١٤٨.

العاقبة، فأرسل إلى إسرائيل يطلب منه القدوم من دون قوته العسكرية؛ لأن هدفه أن ينعم برؤيته ويستظهر به.

امتثل إسرائيل لطلب السلطان وسار إليه مع بعض خواصه وأعيان قومه مصطحباً ابنه قُتلُمُش في جماعة من خيرة فرسان السلاجقة يُقدَّرون بثلاثمائة فارس، فاستقبلهم السلطان محمود وبالغ في إكرام إسرائيل، فأجلسه على طرف سريره، وأراد الوقوف على القوة الفعلية للسلاجقة ليحدد خطوته التالية، فعرض عليه عقد ميثاق تحالف وتعاون للقضاء على كل ثائر على الدولة الغزنوية في خراسان، والاشتراك معه في غزوته لبلاد الهند حباً بالجهاد[١]. رحَّب إسرائيل بهذه الفكرة وأجابه: «لن يكون منا تقصير في خدمتكم»[٢] وهو يجهل ما يُدبَّر له ولقومه. وتظاهر السلطان محمود بالمحبة وهو يُضمر الخديعة والشر، ثم استدرجه ليعلم منه مقدار ما يستطيع أن يمده من الجيوش، فأخبره، وهو غافل عن أمره، بأنه يمكنه أن يُجند نحو مائتي ألف فارس، ما هال السلطان محمود فازدادت مخاوفه من كثرة عدد جنوده[٣].

وأقام السلطان محمود الولائم لأعضاء الوفد مدة ثلاثة أيام حتى أسرفوا في الشراب، واستغرقوا في نوم عميق، عندئذٍ قيَّدهم بالحديد وحملهم إلى السجون. أما إسرائيل فقد سُجن في قلعة كالنجر في بلاد الهند حيث بقي سبع سنوات رهينة تكفل للسلطان محمود إخلاد السلاجقة إلى الهدوء والسكينة، ونكَّب ببعض أتباعه وهجَّر بعضهم الآخر إلى خراسان حيث وضع الخراج عليهم[٤].

كان لتلك الحادثة أثرها المؤلم في نفوذ السلاجقة الذين صمَّموا على الثأر لزعيمهم إسرائيل بالانتقام من الغزنويين، كما ازدادوا حذراً وحيطة.

خلف ميكائيل بن سلجوق أخاه إسرائيل في زعامة السلاجقة، وأدرك بثاقب بصره أن قوة السلاجقة أضعف من قوة الغزنويين بعدما تفرَّقوا، وأن الصواب هو مهادنتهم، لذلك آثر التريث وأخذ يجمع شتات قومه، وأرسل إلى السلطان محمود يلتمس منه الإذن بعبور نهر جيحون إلى نسا[٥]، وباورد[٦] في خراسان؛ لأن مقامهم

(١) الراوندي: ص١٤٨، ١٤٩؛ اليزدي، محمد بن محمد بن عبد الله بن النظام الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص٢٢.

(٢) الراوندي: ص١٤٩. (٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٧.

(٥) **نسا**: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام. الحموي: جـ٥ ص٢٨٢.

(٦) **باورد** هي أبيورد: بلد بخراسان بين سرخس ونسا. المصدر نفسه: جـ١ ص٣٣٣.

ضاق بهم، وأن مراعيهم أضحت لا تفي بحاجة مواشيهم[١].

علم أرسلان الجاذب، حاكم طوس، بالتماس السلاجقة، فكان له رأي آخر، فنصح السلطان محمود برفض التماسهم؛ لأنهم سوف يُشكلون خطراً على الدولة الغزنوية بسبب كثرة فرسانهم ووفرة أعدادهم، وأشار عليه بأن يقطع إبهام كل رجل منهم ليأمن شرهم، أو أن يُغرقهم جميعاً في نهر جيحون، فهال السلطان هذا العقاب، فتجاهل نصيحة حاكم طوس ظناً منه أن السلاجقة قد ضعفوا بعد الأحداث الأخيرة بدليل:

- أنهم يفتقرون إلى قيادة قوية تُؤمِّن استمرار مسيرتهم بعد أسر زعيمهم إسرائيل.
- أنهم لم يثوروا احتجاجاً لما حلَّ بقادتهم.
- أنهم توقفوا عن مضايقة الدولة الغزنوية.

ونتيجة لهذا الظن ردَّ على الحاكم قائلاً: «إني لا أهتم بأمرهم، ولا خشية لي من أمثالهم»، ثم سمح لهم فعبروا النهر واستقروا في إقليم خراسان بين نسا وباورد، وكان ذلك في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)[٢].

والواقع أن السلاجقة منذ دخولهم في الإسلام، كانوا يحاولون، تحت ضغط الأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية، أن يجدوا لهم مخرجاً وأرضاً يهاجروا إليها، وقد حقَّقوا هدفهم بعبور النهر إلى خراسان.

والحقيقة أن السلطان محمود أخطأ حين وافق على السماح لجموع السلاجقة بعبور النهر إلى خراسان، وقد ندم فيما بعد على ذلك[٣]؛ لأن هذا العبور يسَّر لهم حرية الحركة والانتشار في مرج دندانقان[٤]، وكان بداية لمرحلة جديدة في حياتهم أتاحت لهم تأسيس دولة ومضايقة الدولة الغزنوية.

لم يكد السلاجقة يستقرون في المناطق الجديدة حتى راحوا يُنمُّون قدراتهم العسكرية، ويتحيَّنون الفرص للانقضاض على أراضي الدولة الغزنوية، ويبدو أنهم تخلوا عن حياة الهدوء والاستقرار، وعادوا إلى طبيعتهم البدوية، فقاموا بأعمال الشغب ومضايقة الناس والإغارة على المدن والقرى المجاورة، ما دفع سكانها إلى الطلب من السلطان محمود العمل على إبعادهم من جوارهم.

استجاب السلطان محمود لنداء الاستغاثة، فخرج من غزنة في عام (٤١٩هـ/

(١) الراوندي: ص١٥٣.

(٢) المصدر نفسه: ص١٥٤. المستوفي القزويني: ص٤٣٥.

(٣) الحسيني: ص٣.

(٤) **دندانقان**: بلدة بين سرخس ومرو. الحموي: جـ٤ ص٤٧٧.

١٠٢٨م) على رأس جيش كبير قاصداً طوس عن طريق بُست، الواقعة بين غزنة وهراة وسجستان، واجتمع بحاكم المدينة الذي شرح له حقيقة الموقف، فأمره السلطان بأن يخرج على رأس الجيش ويجلي السلاجقة عن المنطقة، ثم لحق به.

والتقى الجيشان الغزنوي والسلجوقي في رباط فراوة[1]، ودارت بينهما رحى معركة طاحنة انتصر فيها الجيش الغزنوي، وقتل من السلاجقة أعداد كبيرة من بينهم أربعة آلاف فارس، وفرَّ من نجا إلى بلخان[2]، ودِهِستان[3].

توفي السلطان محمود الغزنوي في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، وكان ميكائيل قد توفي قبله في السنة نفسها، وكان له ثلاثة أولاد هم: بيغو وجفري بك داوود وطغرلبك محمد، فخلفه الأخير الذي أعاد توحيد العشائر السلجوقية الضاربة في إقليم ما وراء النهر وتدعيم قوتها، وساعده أخوه جفري في تلك المهمة[4].

كان طغرلبك وجفري بك فارسين مقدامين، نشآ تنشئة عسكرية حتى لنراهما يشتبكان في حروب متلاحقة مع أقوى الأمراء في آسيا الوسطى، أمثال أيلك خان في بخارى، وبغراخان في كاشغر، وتمتعا بنفوذ كبير داخل العشائر السلجوقية، وبدا من أمرهما ما يُنبِىء بأنهما سوف يبلغان بالسلاجقة ذروة القوة، ووضعا نصب أعينهما هدفاً هو إقامة دولة للسلاجقة، فمضيا متحدين في العمل على تنفيذه، وراحا يتحيَّنان الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية في منطقة خراسان، وإقليم ما وراء النهر، وصرفا حياتهما الأولى في الهرب من وجه خصومهما اتقاء لعداوتهم، ولما آنسا من نفسيهما القوة ارتدَّا إلى مواجهة هؤلاء الأعداء[5].

في عهد السلطان مسعود الغزنوي

استغل السلاجقة فرصة وفاة السلطان محمود الغزنوي، وتراجع قوة الغزنويين بسبب

(١) **رباط فراوة**: بليدة من أعمال نسا، بينها وبين دِهِستان وخوارزم. الحموي: جـ٤ ص٢٤٥.
(٢) **بلخان**: مدينة خلف باورد. المصدر نفسه: جـ١ ص٤٧٩.
(٣) **دِهِستان**: بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان، بناها عبد الله بن طاهر في خلافة المهدي. المصدر نفسه: جـ٢ ص٤٩٢. انظر: الكرديزي، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود: زين الأخبار ص٧٠، ٧١.
(٤) طغرلبك وجفري لفظان تركيان، الأول مصغَّر دوغراول أي القصَّاب، وهو مشتق من فعل دوغرامق أي أن يذبح. أما الثاني فمعناه اللامع أو المتألق وهو من مصدر جقمق أي أن يلمع. انظر: الحسيني ص٤.
(٥) فامبري: ص١٢٩.

التنافس على السلطة بين ولديه محمد ومسعود[1]، لتوسيع دائرة نفوذهم، فسيطروا على المناطق المجاورة لمساكنهم، ونشروا نفوذهم في أرجاء إقليم ما وراء النهر.

شعر علي تكين حاكم بخارى بتزايد الضغط السلجوقي، فحاول تفرقة السلاجقة وضرب بعضهم ببعض، فاستدعى يوسف بن موسى بن سلجوق وعيَّنه زعيماً على جميع الأتراك الموجودين في خدمته، وأقطعه إقطاعات كثيرة، ومنحه لقب الأمير إينانغ بيغو، وعندما علم يوسف بنواياه تخلَّى عن هذا المنصب ما حمل علي تكين على قتله، وعظمت هذه الحادثة في نفوس أولاد عمه، وبخاصة طغرلبك وجفري بك، فقرَّروا الأخذ بثأره.

كان علي تكين هو البادىء بالهجوم إلا أنه هُزم ورُدَّ على أعقابه، وذلك في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) وقَتَل الأخوان طغرلبك وجفري بك ألب قرا، قائد جيشه مع ألف من رجاله. لم ييأس حاكم بخارى، وأمل في تحقيق الانتصار، فأعاد تنظيم صفوف قواته وكرَّ على السلاجقة وهزمهم واستولى على ممتلكاتهم، وأسر عدداً من نسائهم وأطفالهم، إلا أنه عفا عنهم بعد ذلك واستمالهم بالقول الطيب والمال، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى السيء الذي وصلت فيه علاقته بالغزنويين.

ركن السلاجقة إلى الهدوء في شتاء عام (٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م) ليستأنفوا بعد ذلك غاراتهم في الخريف على نطاق أوسع من ذي قبل، وتردَّد السلطان مسعود، الذي خلف أباه السلطان محمود، في الاضطلاع بقيادة الجيش وعهد إلى قائده بذلك، ولم يكن بأكفأ منه، إذ عجز عن منع انسحاب الأتراك المفاجىء من صفوفه وانضمامهم إلى السلاجقة كما عجز عن وقف غارات هؤلاء المفاجئة التي كانت تفد من الصحراء. وظلَّت خراسان تتعرَّض لغارات السلاجقة المتواصلة مدة ثلاثة أعوام تمكَّن جفري بك في نهايتها من طرد الغزنويين من المناطق الشمالية منها، واستولى على مدينة مرو، قصبة خراسان، وأضحى الحاكم الفعلي على كل شمالي البلاد. ودخل الأخوان طغرلبك وجفري بك المدينة في موكب النصر، واقتسما الأعمال الحكومية، فاضطلع طغرلبك بشؤون الإدارة، وأخذ جفري بك على عاتقه مهمة الدفاع عن الإقليم[2].

واستدعى في هذه الأثناء هارون بن التونتاش، حاكم خوارزم، السلاجقة للانضمام إليه، وكان على عداء مع الغزنويين، فأراد أن يستقوي بهم. سارع السلاجقة إلى انتهاز هذه الفرصة، ولبوُّا دعوة هارون الذي منحهم أرضاً قرب شراه خان ورباط ماش.

(١) البيهقي: ص١ ـ ٧.
(٢) فامبري: ص١٣٣.

كان بين السلاجقة وشاه ملك، حاكم جَنْد، خصومة قديمة وثأر، فلما علم بأنهم أقاموا قريباً منه داهمهم وقت السحر في (١٤ ذي الحجة ٤٢٥هـ/ ٣٠ تشرين الأول ١٠٣٤م)، وأجرى فيهم مقتلة عظيمة، واستولى على كثير من دوابهم، وسبى جمعاً غفيراً من النساء والأطفال وفرَّ من نجا من معابر خوارزم، فعبروا نهر جيحون وساروا إلى رباط نمك، وعندما بلغ هارون بن التونتاس ما جرى، اغتم وخشي من انهيار آماله في محاربة الغزنويين وانتزاع خراسان منهم، فتصرف على محورين:

الأول: أنه واسى السلاجقة وطلب منهم العودة، فعادوا.

الثاني: أرسل رسالة إلى شاه ملك عاتبه فيها على فعلته، لكنه اتفق معه على الاجتماع والتعاون في محاربة الغزنويين. غير أن شاه ملك تملَّكه الخوف عندما رأى كثرة عدد جيش حليفه، فانسحب من المحالفة ما أثَّر على قوة هارون بن التونتاش الذي خسر المعركة ودفع حياته ثمناً لذلك متأثراً بالجروح التي أصابته، وكان ذلك في (جمادى الآخرة ٤٢٦هـ/ نيسان ١٠٣٥م)[١].

طلب السلاجقة، عقب هذه الأحداث، من والي نيسابور بخراسان سوري بن المعتز، أن يسمح لهم بالإقامة بالقرب من هذه المدينة، وتعهدوا له بالإخلاد إلى الهدوء والسكينة، ووعدوه بأن يساعدوا الدولة الغزنوية في إخماد الثورات وأن يكونوا عوناً للسلطان مسعود الغزنوي[٢].

أرسل الوالي طلب السلاجقة إلى السلطان وكان في مدينة جرجان[٣]، فعقد اجتماعاً مع مستشاريه للتشاور في الموقف واتخاذ القرارالمناسب، وقد علم بأن السلاجقة سيطروا على مرو وسرخس، وباذغيس[٤] في عام (٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م)، ووضعوا أقدامهم في خوارزم حين تحالفوا مع أميرها هارون بن التونتاش، وانحازوا إلى علي تكين الثائر على الدولة الغزنوية؛ ما يشكل تهديداً خطيراً للوجود الغزنوي ويهيء لهم الفرصة للنصر على الغزنويين.

وتمخَّض الاجتماع عن رفض طلب السلاجقة، وردَّ السلطان عليهم رداً غليظاً، وراح يُفكِّر بالوسيلة التي تقضي عليهم، فأعدَّ جيشاً كبيراً عهد بقيادته إلى قائد حرسه بكتغدى الحاجب يعاونه تسعة قادة آخرون، وأمره بقهر أبناء الصحراء وإجلائهم

(١) البيهقي: ص٧٤٨ ـ ٧٥٣.

(٢) تجد نص الرسالة عند البيهقي: ص٥٠٣، ٥٠٤.

(٣) **جرجان**: مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان. الحموي: جـ٢ ص١١٩.

(٤) **مرو وسرخس وباذغيس**: مدن في خراسان.

عن خراسان[١].

زحف الجيش الغزنوي إلى نسا للقاء السلاجقة، فباغتهم وتغلَّب عليهم وأسر وغنم منهم الشيء الكثير، فتراجع هؤلاء تحت ضغط الخسارة واحتموا بالمغاور والأودية، وشُغل العسكر الغزنوي بجمع الغنائم ما أتاح الفرصة للسلاجقة لإعادة تنظيم صفوفهم وكروا على الجيش الغزنوي المنهمك. ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية في الصحراء بين فراوة وشهرستان في (٢١ شعبان ٤٢٦هـ/الأول من تموز ١٠٣٥م) أسفرت عن انتصار واضح للسلاجقة، وانهزم الجيش الغزنوي وفرَّ من نجا إلى نيسابور، وهرب القائد بكتغدى وأُسر القائد حسين بن علي ميكائيل، وحاز المنتصرون على خزنة السلطان وفيها عشرة ملايين دينار وغنموا كثيراً من الأسلحة والألبسة والأمتعة والدواب[٢].

تُعدُّ هزيمة الغزنويين هذه أول هزيمة جدية يتعرضون لها، وهيَّأت السبيل أمام السلاجقة لامتلاك خراسان كلها، غير أن هؤلاء، على الرغم من انتصارهم وشعورهم بالأمان والطمأنينة، استدركوا واقعهم السياسي والعسكري بالمقارنة مع واقع الدولة الغزنوية، ورأوا أنهم ما زالوا بحاجة إلى مسالمتها لاكتساب شرعية هم بأمس الحاجة إليها، فأرسلوا رسالة إلى السلطان مسعود يلتمسون منه العفو وعقد صلح يقرهم فيه على ما بيدهم من بلاد[٣]، فلما وقف عليها هدأ روعه، وأفضى إلى وزيره بنيته الاستجابة لطلب السلاجقة، وكان بصدد التوجه إلى الهند، لكن مستشاريه عارضوا هذا التوجه السياسي وحذَّروه من عاقبة الاستهانة بقوتهم وطموحهم، ونصحوه بعدم ترك خراسان لهؤلاء المغامرين الجدد، إلا أنه لم يصغ إليهم، وترك المنطقة ليتفرَّغ إلى ترتيب أمور الهند وإقرار الأوضاع فيها بعد أن شهدت بعض الفتن.

والواقع أن السلطان مسعود أخطأ تقدير الموقف السياسي، أو أنه هاله اندفاع السلاجقة باتجاه خراسان مع كثرة أعدادهم؛ «وعلم أن هيبتهم قد تمكَّنت من قلوب عساكره، وأنهم قد طمعوا بهذه الهزيمة وتجرأوا على قتال العساكر السلطانية بعد الخوف الشديد، وخاف من أخوات هذه الحادثة»، فآثر ترك خراسان لهم والتوجه إلى الهند، ومن أجل ذلك رفض نصائح وزيره ومستشاريه بأنه يتحتم عليه السير إلى مرو واتخاذ السبل لردهم، وكان معتداً برأيه وبقوته الجسمانية وبطموحه وتوثبه الذي

(١) البيهقي: ص٥٠٦، ٥١٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٥١٧ ـ ٥٢٠. الراوندي: ص١٥٦. ابن الأثير: جـ٨ ص٩.

(٣) البيهقي: ص٥٢٣ ـ ٥٢٥.

وصل إلى حد التهور، وكان يتخذ القرارات الهوجاء والخطوات غير الملائمة[١].

وفي المقابل، كانت سياسة السلاجقة تنم عن بُعد نظر، فعلى الرغم من انتصارهم، فقد ركنوا إلى الاستقرار وآثروا التفاهم مع السلطان ليكسبوا أرضاً واعترافاً منه بحقهم.

ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الطرفين تمَّ الاتفاق على ما يلي:

- تُعطى إلى بيغو بك وطغرلبك وداوود بك ولايات فراوة ونسا ودِهِستان، ومخاطبتهم بلقب دهقان.
- تُعطى لكل واحد من هؤلاء خلعة ومنشور ولواء[٢].
- أن يذهب القاضي أبو نصر الصيني ليسلمهم الخلع ويأخذ عليهم الميثاق بالوفاء بالعهد مع السلطان.
- أن يأتي أحد هؤلاء الأمراء إلى البلاط الغزنوي ليكون في خدمة السلطان[٣].

واقترح السلطان مسعود أن يرتبط برباط المصاهرة السياسية مع السلاجقة، فيتزوج الأمراء الثلاثة من ثلاث أميرات غزنويات، لكنهم رفضوا ذلك. ويبدو أن السلاجقة لم يثقوا بمسعود وما زالت حادثة والده محمود عندما نكَّل بآبائهم ماثلة أمامهم، كما استخفُّوا بإجراءاته وبخاصة عندما علموا بأنه أرسل جيشاً للقضاء عليهم، فاصطدموا بهذا الجيش وانتصروا عليه.

قيام الدولة السلجوقية في خراسان

كان لهذا الصلح واعتراف السلطان مسعود رسمياً بنفوذ للسلاجقة في خراسان أثر كبير في بعث القوة والاستقرار لهؤلاء، وصار أمرهم يعلو في نطاق الدهاقين الولاة بمرور الأيام، وأخذوا في توسيع رقعة أراضيهم التي ضاقت بهم في ظل ابتعاد السلطان الغزنوي عن خراسان، فاشتد بأسهم وازدادت قوتهم، وتهيَّأت لهم الأسباب لتدعيم نفوذهم وبسط سلطانهم، وإقامة سلطنة لهم في ربوع خراسان تكون نداً للغزنويين.

ويبدو أن السلطان مسعود استدرك الواقع السياسي الذي استجدَّ بعد ذهابه إلى الهند، فعندما عاد إلى غزنة في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧ ـ ١٣٠٨م) وعلم بعلو شأن

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٩.

(٢) تشمل الخِلع الغزنوية قلنسوة ذات ركنين، ولواء، وحلية مطرزة، وجواداً، وسرجاً، وكمراً من ذهب، وثلاثين ثوباً غير مخيطة. البيهقي: ص٥٢٨.

(٣) المصدر نفسه.

السلاجقة وتمكُّنهم من خراسان؛ شعر بخطرهم الذي بات يُهدِّد الدولة الغزنوية، فكتب إلى الحاجب صوباشي بوجوب محاربتهم وإبعادهم عن خراسان[١]، فردَّ عليه: «إن أمر السلاجقة قد علا بحيث لا أستطيع أنا ولا غيري أن نقاومهم»[٢]، ولكن السلطان ألحَّ عليه القيام بذلك، فانصاع للأمر وذهب إلى الحرب على رأس جيش يُقدَّر بخمسة عشر ألف فارس وخمسة آلاف راجل. وجرى اللقاء بين الطرفين على باب مدينة سرخس، وجرت بينهما رحى معركة ضاربة استمرت من الصباح إلى العصر، وأسفرت عن انتصار واضح للسلاجقة، وفرَّ الحاجب صوباشي من أرض المعركة بعد أن أصيب بسهم، وغنم السلاجقة متاعه وتجهيزاته[٣].

شكَّلت معركة سرخس انعطافة لصالح القضية السلجوقية، فقد كان انتصار السلاجقة والفراغ الذي أحدثه خروج القوات الغزنوية من خراسان حافزاً لهؤلاء على الإسراع في إعلان قيام دولتهم، فبادر طغرلبك إلى السير على رأس جيشه إلى نيسابور، فدخلها واستولى عليها وجلس على عرش السلطان مسعود معلناً نفسه سلطاناً، وذلك في (ذي القعدة ٤٢٩هـ/ آب ١٠٣٨م) وتلقَّب بلقب «السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبو طالب محمد»، وأمر أن تُقرأ الخطبة باسمه على منابر المدينة، وأعطى أهلها الأمان، كما أمر أن تُضرب النقود باسمه في البلاد الواقعة تحت سيطرة السلاجقة. فخُطب باسمه في مرو وسرخس، وكانت بلخ أقوى قواعده في الشرق[٤] في حين كانت نيسابور أهم مراكزه في الغرب.

ويُعدُّ التاريخ المذكور بداية قيام الدولة السلجوقية في خراسان نظرياً على الأقل؛ لأن السلطان السلجوقي بحاجة إلى تفويض شرعي من الخليفة العباسي لحكم البلاد التي استولى عليها، وليُضفي على حكمه صفة الشرعية أمام المسلمين على الرغم من كونها موافقة شكلية.

وهكذا، أضحى للسلاجقة كيان سياسي قوامه رقعة كبيرة من الأرض، وحاكم له الزعامة السياسية، وشعب اعترف بهذه الزعامة وتقبَّلها، وهي مقومات قيام الدول، وفُتحت منذ ذلك التاريخ صفحة جديدة سياسياً وعسكرياً لمنطقة خراسان وما وراء النهر بخاصة وللمشرق الإسلامي بعامة.

---

(١) الراوندي: ص١٥٧. (٢) المصدر نفسه.

(٣) البيهقي: ص٥٣٥، ٥٣٦، ٥٩٠ ـ ٥٩٣، ٦٠٠.

(٤) إن انتقال بلخ نهائياً إلى حكم السلاجقة، وبالتالي انقطاع الصلة بين الغزنويين وإقليم ما وراء النهر، لم يحدث إلا في عام (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) وذلك وفقاً لنصوص معاهدة تمَّت بين داوود والسلطان الغزنوي إبراهيم. انظر: ابن الأثير: جـ٨ ص١٦٤، ١٦٥. بارتولد: تركستان ص٤٥٠.

رد الفعل الغزنوي ـ معركة دندانقان

شكَّل وجود السلاجقة كقوة كبيرة ذات بأس متمركزة في خراسان خطراً جدياً على الدولة الغزنوية التي أخذ الضعف يدب في جسمها وصار جيشها يُصاب بالنكسات والهزائم، ذلك أن السلطان مسعود لم يستسلم للأمر الواقع في خراسان، كما لم يقبل بهيمنة السلاجقة على هذا الإقليم، لذلك قرَّر أن يقضي عليهم ويضع حداً لنفوذهم، لكن هؤلاء كانوا يتغلَّبون على جيوشه التي كان يُرسلها بشكل متلاحق، وأخيراً قرَّر قيادة الجيش الغزنوي بنفسه، فغادر غزنة في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) على رأس جيش جرَّار يُقدَّر بمائة ألف جندي وثلاثمائة فيل، سالكاً طريق بُست ـ تكيناباذ، ودخل خراسان[1]، لكن هذا الجيش واجه أزمة شديدة في المؤن أثَّرت على وضع ومعنويات أفراده، ووصف البيهقي ذلك فقال: «... وركب السلطان وسلك طريق مرو، فسار الجند وراءه متخاذلين كأنهم حقاً يُقدمون رِجلاً ويؤخرون أخرى، وكان اليوم شديد القيظ، والمؤن قليلة، والعلف لا وجود له، والدواب هزيلة، والناس صيام»[2].

كان طغرلبك في هذه الأثناء في مدينة طوس بعيداً عن أخيه جفري الذي كان في نسا وباورد، وقضت خطة السلطان مسعود بمنع اجتماعهما وضربهما منفردين، فتوجَّه أولاً إلى طوس وهاجمها غير أنه فشل في اقتحامها، كما لم تنجح خطته العسكرية التي أعدها لمهاجمة معسكرات السلاجقة بالقرب من سرخس، إلا أنه استطاع استرداد مدينتي بلخ ونيسابور ولكن إلى حين، ذلك أن الأخوين جمعا شتات قواتهما وتصديا للجيش الغزنوي المتقدم باتجاه خراسان عند دندانقان بين سرخس ومرو، ودارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة قاتل فيها السلاجقة ببسالة ورجحت كفتهم، وقد نفَّذوا خطة عسكرية محكمة كفلت لهم النصر في النهاية. فقد ردموا آبار المياه الموجودة خارج حصن دندانقان ثم خرجوا من الحصن، وكمنوا للجنود الغزنويين خارجه، ولما وصل الجيش الغزنوي المنهك إلى المنطقة دخل الحصن لكنه افتقر إلى الماء، ولم تكف الآبار الموجودة داخل الحصن لسقاية أفراده، ولما خرج هؤلاء إلى خارج الحصن بحثاً عن الماء، هاجمهم السلاجقة بغتة، فاختل نظامهم القتالي وتضعضعوا، عندئذٍ حمل عليهم هؤلاء بشكل متلاحق حتى انتهى الأمر بهزيمتهم، وجرت المعركة في (٩ رمضان ٤٣١هـ/ ٢٤ حزيران ١٠٤٠م)[3].

وعندما رأى السلطان مسعود تشتُّت عسكره، انسحب من أرض المعركة قانعاً

(١) البيهقي: ص٦٦٣ وما بعدها. (٢) المصدر نفسه: ص٦٨٠.
(٣) المصدر نفسه: ٦٢٧، ٦٦٣ ـ ٦٩٧ حيث تفاصيل مسهبة عن المعركة.

بالنجاة بنفسه، بعد أن كاد يفقد حياته تاركاً إقليم خراسان فريسة سهلة في أيدي السلاجقة[1].

نتائج معركة دندانقان

- وضعت معركة دندانقان حداً نهائياً لحكم الغزنويين في خراسان، ونصب طغرلبك التخت في مكان المعركة وجلس عليه، وجاء الأعيان يُسلمون عليه بإمارة خراسان.
- حرَّر طغرلبك الرسائل إلى الأمراء المجاورين لإعلامهم بخبر الانتصار.
- طاردت القوات السلجوقية القوات الغزنوية المنهزمة حتى شواطىء نهر جيحون بهدف قسرهم على الهرب إلى ما وراء النهر حتى يُقدِّموا برهاناً ملموساً على النصر.
- أتاحت المعركة قيام سلطنة إسلامية جديدة وانحسار ظل واحدة، كما تُعدُّ إحدى المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي، بل إن نتائجها تعدَّت العالم الإسلامي وأثَّرت على عالم العصور الوسطى.
- أعرب السلطان مسعود من ناحيته، في رسالة أرسلها إلى القراخانيين، عن ثقته في قيامهم بمساعدته في حملته المقبلة لاستئصال شأفة السلاجقة، غير أن صدمة الخسارة قد أذهلته لدرجة فَقَدَ معها الرغبة في المقاومة، فخُيِّل إليه أنه لا بد من ترك ليس بلخ وتوابعها بل وغزنة أيضاً على الرغم من محاولات أركان حربه وكبار رجال دولته إقناعه بانتفاء أسس هذه المخاوف، وقرَّر الانسحاب نهائياً إلى الهند[2].
- يُعدُّ عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) البداية الفعلية لقيام السلطنة السلجوقية في خراسان، كما ذكرنا؛ لأن طغرلبك باشر منذ ذلك التاريخ مهامه السياسية والقيادية والإدارية. أما اعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً والذي جاء متأخراً في عام (٤٣٢هـ/ ١٠٤١م)، فإنه لم يُغيِّر من الواقع، فاعتراف الخليفة هو بمثابة اعتراف بالأمر الواقع كما أنه شكلي فقط لإضفاء الشرعية على السلطة الجديدة الناشئة حتى يرضى عنها الناس، ويقبلوا بحكمها؛ لأن الخلافة لم تكن تملك قوة مادية تسمح لها بالتدخل والمساهمة في الأحداث السياسية، وكان الخليفة يعترف عادة بالسلطان المنتصر والدولة المنتصرة.

(١) البيهقي: ص٦٦٣ ـ ٦٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٧٢٧، ٧٢٨. على أثر إصرار السلطان مسعود على الهجرة إلى الهند وثب عليه غلمانه في الطريق وخلعوه عن العرش وعيَّنوا أخاه محمد مكانه، وظل السلطان مسعود مسجوناً في قلعة كيرى حتى قتله ابن أخيه أحمد في عام ٤٣٣هـ. انظر: ابن الأثير جـ٨ ص١٥، ١٦.

ـ كان لقيام السلطنة السلجوقية أثر كبير في تاريخ المشرق الإسلامي وغربي آسيا بخاصة والتاريخ الإسلامي بعامة، ذلك أن هذه السلطنة قد ساهمت في توجيه الأحداث السياسية في المشرق الإسلامي بشكل بارز وفي رسم سياسة توسعية باتجاه العالم النصراني لنشر العقيدة الإسلامية.

ـ إن ما حقَّقه طغرلبك من نجاح أغراه بالتمدد نحو العراق قلب العالم الإسلامي للسيطرة على الخلافة العباسية، وإقامة دولة سلجوقية مترامية الأطراف، ويُعدُّ هذا التوجه طبيعياً، فكل من سبقوه في السيطرة على خراسان تطلَّعوا إلى التمدد نحو الغرب للسيطرة على بغداد والتحكم بمقدرات الخلافة العباسية، ولنا في محاولات السامانيين والصفَّاريين والغزنويين أمثلة على ذلك، ثم إن هدف طغرلبك هو إنقاذ الخلافة والمذهب السني من السيطرة البويهية الشيعية.

الفَصْلُ الثَّالِث

السلطان طغرلبك

(٤٢٩ ـ ٤٥٥هـ/ ١٠٣٨ ـ ١٠٦٣م)

التوسع السلجوقي باتجاه إيران

واصل السلاجقة سياستهم التوسعية بعد معركة دندانقان، باتجاه الغرب. ففي عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤١م)، زحف طغرلبك على رأس جيش كبير إلى بلاد فارس، وكانت معظمها تحت حكم الديالمة غير أن هؤلاء كانوا في نزاع مستمر ما أضعفهم وسهَّل مهمة الزعيم السلجوقي.

كانت فاتحة أعمال طغرلبك انتزاع جرجان وطبرستان من أنوشروان الزياري الديلمي، والواقع أن هذا الأمير أدرك أنه لا طاقة له في صدِّ السلاجقة فقرَّر الخضوع لهم، وأعلن تعهده بطاعتهم وأداء إتاوة سنوية لهم، فضمَّ طغرلبك هذين الإقليمين إلى دولته ثم لم يلبث أن قضى على حكم الزياريين فيهما وعيَّن عليهما والياً من قبله، والجدير بالذكر أن الدولة الزيارية حكمت بين عامي (٣١٦ ـ ٤٣٣هـ/ ٩٢٨ ـ ١٠٤١م).

توجَّه طغرلبك في العام التالي إلى خوارزم فأخضعها للسلاجقة، وكان أخوه إبراهيم ينال قد استولى على همذان[(١)] وما جاورها، والتقى الأخوان في هذه المدينة وسارا معاً إلى كرمان[(٢)] في جنوبي إيران للاستيلاء عليها، فصدَّهما أهلها، كما أرسل الملك البويهي أبوكاليجار جيشاً من العراق لصدهما أيضاً؛ فاضطرا تحت ضغط المقاومة إلى تركها، غير أن نشاط السُلاجقة اتسع حتى غطَّى كل الأقاليم الإيرانية، من بحر قزوين في الشمال إلى كرمان في الجنوب، وشملت أراضيهم خراسان وكرمان وأذربيجان وهمذان وجرجان[(٣)].

---

(١) **همذان**: أكبر مدينة بالجبال شرقي عراق العجم، وكانت أربعة فراسخ في مثلها. الحموي: جـ٤ ص٤٥٤.

(٢) **كرمان**: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة، ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. المصدر نفسه: ج٤ ص٤٥.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٥، ٣٢ ـ ٣٧.

تنظيم الأراضي المستولى عليها

قسَّم السلاجقة الأراضي التي استولوا عليها إلى أقاليم، وعيَّنوا على كل إقليم منها حاكماً من أفراد الأسرة السلجوقية أطلقوا عليه لقب شاه أو ملك، يتمتع بالاستقلال الداخلي ويُعدُّ بلاطه صورة مصغَّرة عن بلاط السلطان، فله جيشه الخاص ووزيره وحجَّابه ومعاونوه في الحكم والإدارة، وأُطلق على رئيس الدولة لقب سلطان، وكانت له الكلمة النافذة في جميع أنحاء الدولة لكنه لم يعمل على إقامة حكم فردي ينحصر في شخصه، في بداية عهد الدولة على الأقل.

والواقع أن السلاجقة كانوا، في هذه الرحلة المبكرة من حياتهم السياسية، بحاجة إلى الوحدة، فقد اجتمع طغرلبك وأخوه جفري بك مع عمهما موسى بن سلجوق ومع أبناء عمومتهم وكبار قادتهم، وتعاهدوا على الاتحاد والتعاون، واقتسموا الأراضي التي سيطروا عليها، فكان من نصيب جفري بك مدينة مرو، فاستقر بها واتخذها عاصمة لملكه كما ملك خراسان، وكان نصيب أبو علي الحسن بن موسى كلان ولاية بُست وهراة وسجستان وما يجاور ذلك من النواحي، وأخذ قاورد، أكبر أبناء جفري بك، ولاية الطَّبس[1]، ونواحي كرمان، وحصل إبراهيم ينال على همذان، كما حصل ياقوتي بن طغرلبك على أبهر[2]، وزنجان[3]، ونواحي أذربيجان[4]، وكان نصيب قُتلُمش بن إسرائيل جرجان ودامغان[5].

الواقع أن فكرة التقسيم هذه تتعارض مع الفكرة الإيرانية عن الملك بوصفه صاحب السلطة، المطلقة في الدولة، وهي غريبة على السلاجقة الأوائل، إلا أن المسؤولين السلاجقة هدفوا من وراء ذلك إلى:

- إشباع أطماع الأمراء السلاجقة في السلطة، وتجنيب دولتهم الناشئة خضَّات سياسية داخلية من واقع حدوث صراع أسري على السلطة.

---

(١) **الطَّبس**: قصبة ناحية بين نيسابور وأصفهان. الحموي: جـ٤ ص٢٠.

(٢) **أبهر**: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل. المصدر نفسه: جـ١ ص٨٢.

(٣) **زنجان**: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها قريبة من أبهر وقزوين. المصدر نفسه: جـ٣ ص١٥٢.

(٤) **أذربيجان**: إقليم واسع مشهور، يحده من الشمال بلاد الديلم والجيلو الطَّرم، ومن الشرق بردعة، ومن الغرب أرزنجان، أشهر مدنه تبريز. المصدر نفسه: جـ١ ص١٢٨، ١٢٩.

(٥) **دامغان**: بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبة قومس. المصدر نفسه: جـ٢ ص٤٣٣. وانظر فيما يتعلق بهذا التقسيم: الراوندي: ص١٦٧، ١٦٨ وقارن بالحسيني: ص١٧.

- إحاطة السلطنة الغزنوية ومنعها من محاولة استعادة خراسان، ثم تأمين فتح طريق جيحون من أجل قدوم مهاجرين غز جدد.

ويُحدِّد هذا التقسيم المجال الذي وصل إليه نفوذ السلاجقة في ذلك الوقت.

واتخذ طغرلبك مدينة الري داراً لسلطنته، والحقيقة أن السلاجقة كانوا يحترمون طغرلبك ويرون فيه المقدرة والكفاية وحسن التدبير، ويخضعون لرئاسته، وقد نجح هذا الزعيم السلجوقي في تأسيس كيان سياسي قوي للسلاجقة، ولم يبق للدولة التي أنشأها إلا أن تستكمل آخر عنصر من عناصر مقوماتها وهو الحصول على اعتراف الخليفة العباسي بها؛ لأن مثل هذا الاعتراف وحده، بفعل نظم هذا العصر، هو الذي يكسبها شرعيتها بحكم المناطق التي تسيطر عليها.

اعتراف الخلافة العباسية بشرعية حكم السلاجقة

بدأ السلاجقة الاتصال بالخليفة العباسي القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٥٧م) لشرح ما آلت إليه الأوضاع في خراسان والحصول منه على اعتراف بشرعية حكمهم، وكان السلاجقة بأمسِّ الحاجة للدعم المعنوي من الخليفة العباسي صاحب النفوذ الروحي على العالم الإسلامي السني، فكتبوا إليه كتاباً تضمَّن ولاءهم له، وتأكيد تمسكهم بالدين الإسلامي، والتزامهم بالجهاد، وحبهم للعدل، والتماسهم الحصول على اعتراف الخليفة بقيام دولتهم، حمله إلى بغداد المعتمد أبو إسحاق الفقاعي[1] في عام (٤٣٥هـ/ ١٠٤٤م)، وما إن وصل كتاب السلاجقة إلى دار الخلافة حتى بادر الخليفة بإيفاد رسول إلى طغرلبك هو أبو الحسن علي بن محمد الماوردي وصحبه هبة بن محمد المأمون، يحمل رسالة تُعبِّر عن رغبة الخليفة في عقد صلح بين طغرلبك وبين كل من الأمير البويهي أبي كاليجار والملك جلال الدولة، وتضمَّنت استياء الخليفة ورفضه لما ارتكبه أصحابه من فساد، وأمره بالإحسان إلى الرعية، وكان الخليفة قد أمر رسوله بالتقرب من طغرلبك ودعوته للحضور إلى دار الخلافة في بغداد لتتشرف بحضوره، وحمَّله الخلع السلطانية مع كتاب تفويض بحكم البلاد التي تحت يديه[2].

عاد الماوردي إلى بغداد في عام (٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م) حاملاً انطباعاً بطاعة طغرلبك للخليفة، وتعظيمه لأوامره والتزامه بها، بالإضافة إلى هدية مادية للخليفة وأخرى لحاشيته تبلغ عشرين ألف دينار له، وعشرة آلاف دينار لحاشيته[3].

---

(١) الراوندي: ص١٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ص١٦٨، ١٦٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧.

(٣) المصدران نفساهما.

كان لاعتراف الخليفة العباسي بقيام الدولة السلجوقية وبشرعية وجودها، أثر كبير في تقرُّب السلاجقة من الخلافة العباسية، فأخذت العلاقات بين الخليفة العباسي القائم وطغرلبك تتوطَّد، كما اكتمل بهذا الاعتراف الكيان الشرعي لدولة السلاجقة أمام رعاياها من المسلمين في المشرق الإسلامي.

التوسع السلجوقي باتجاه العراق

تمهيد

شكَّل العصر العباسي الثالث (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥م) رد فعل مناهض للنفوذ التركي الذي تمكَّن أفراده من السيطرة على مقدرات الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦م) ومثَّل حركة فارسية شيعية لإعادة الاعتبار الذي تراجع خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، واختلف هذا العصر بمظاهره عن العصر العباسي الثاني بالتركيز على المشرق.

وثمة ظاهرة برزت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي هي أن المجتمع الإسلامي قبل دخول السلاجقة إلى العراق، كان يسوده جو من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني. فقد تعاظمت قوة الإمارات الانفصالية وانحسر نفوذ الخلافة عن أقاليم الأطراف التي أضحت تخضع لحكومات إقليمية مستقلة إلى حد كبير، لا يربطها بالخلافة العباسية سوى رباط شكلي يتمثل في منحها الشرعية، وذِكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة.

وعندما اعتلى الخليفة العباسي الراضي سدة الخلافة في عام (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) كانت بغداد وأعمالها بيد الخليفة لكن الحكم الفعلي كان بيد ابن رائق وليس للخليفة حكم، وأما الأطراف، فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الأخشيد، وأفريقيا في يد أبي القاسم القائم بأمر الله ابن المهدي العلوي، والأندلس في يد عبد الرحمٰن بن محمد الملقب بالناصر، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي.

وظهر في غضون ذلك بنو بويه على المسرح السياسي الذين سيؤدون دوراً مهماً في مسار التاريخ الإسلامي الشرقي، ولما كان لهؤلاء علاقة مباشرة بموضوعنا فمن المفيد أن نلم إلمامة وجيزة بأوضاعهم عشية التسرب السلجوقي إلى العراق.

تأسيس الدولة البويهية

يمثل البويهيون العنصر الديلمي الذي كان يسكن في جنوبي بحر قزوين، ولعلهم مزيج من الفرس والأتراك وشعوب أخرى، وتشكل منطقتهم، الواقعة بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر قزوين القسم الجبلي من جيلان التي تحدها ولاية قزوين من الجنوب ومنطقة غالوس من الشرق وبعض أذربيجان وبلاد الران[1] من الغرب.

ظهر بنو بويه على مسرح الأحداث في أوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وأسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان، وبسطوا هيمنة فعلية على العراق، فشاركوا الخلافة العباسية في حكمه، وعظم نفوذ هذه الأسرة حتى سُمي باسمها أحد عصور الخلافة العباسية.

هاجرت هذه الأسرة من الشمال من بلاد الديلم، المنطقة المجاورة لبحر قزوين، واشتهرت على يد الأخ الأكبر من الإخوة البويهيين الثلاثة، وهو علي بن شجاع بن بويه، الذي ولّاه مرداويج الزياري[2] بلاد الكرج[3].

ويبدو أن علياً كانت تراوده نزعات تتعدى الاستقلالية إلى التوسع على حساب جيرانه، بالإضافة إلى الطموح السياسي الذي تحقَّق له سريعاً حيث ما لبث أن أصبح صاحب شوكة في هذه النواحي، واستمال الناس بحسن سياسته، وتمكَّن بفضل مقدرته العسكرية والإدارية، وكرمه، وحسن معاملته لأتباعه؛ من بناء جيش قوي انتزع بواسطته معظم بلاد فارس في خلال مدة قصيرة، واتخذ مدينة شيراز عاصمة لحكمه[4].

كان علي يضم هذه البلاد باسم الخلافة العباسية ظاهراً، لكن في باطن الأمر كان يهدف إلى إقامة دولة خاصة به مستغلاً ضعف الخلافة السياسي والعسكري، وعجزها عن التدخل في هذه المناطق لترتيب أوضاعها، ثم أرسل إلى الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م) يطلب منه الاعتراف بسلطانه[5]، وهذا طبيعي، فإنه كان عليه أن يأمن جانب الخلافة؛ لأنه سيطر على إحدى ولاياتها على الرغم من

---

(١) **الران**: ولاية واسعة من نواحي أرمينيا. الحموي: جـ٣ ص١٩.

(٢) مرداويج الزياري: مؤسس الدولة الزيارية الانفصالية في طبرستان في عام ٢١٦هـ.

(٣) **الكرج**: مدينة بين همذان وأصفهان في منتصف الطريق. الحموي: جـ٤ ص٤٤٦. وانظر: مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم جـ١ ص٢٧.

(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص١٤ ـ ١٦. **وشيراز** قصبة بلاد فارس، بينها وبين نيسابور مائتان وعشرون فرسخاً. الحموي: جـ٣ ص٣٨٠.

(٥) مسكويه: جـ١ ص٢٩٩، ٣٠٠.

إرادتها، فأراد أن يُكسب حكمه صفة شرعية، وقد تمَّ له ما أراد[1].

التفت علي بعد ذلك إلى مرداويج الزياري، فعمل على كسب رضاه، فعرض عليه أن يدخل في طاعته، وأن يكون ما بيده من بلاد تابعة له يخطب له فيها، وكان طبيعياً أن يُرحِّب مرداويج بهذا العرض، فقلَّده أرَّجان، وأرسل إليه علي أخاه حسن رهينة ليكفل له حسن التنفيذ[2].

ويبدو أن الظروف السياسية كانت تعمل لمصلحة البويهيين، ففي عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) قُتل مرداويج على أيدي غلمانه الأتراك، فاستغل علي هذه الفرصة وسيطر على بلاد الجبال[3]، التي كانت تحت حكم وشمكير، شقيق مرداويج، وأرسل أخاه حسن الذي فرَّ بعد مقتل مرداويج إلى عراق العجم، فسيطر على أصفهان والري وهمذان والكرج وبقية بلاد العراق العجمي، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له[4].

تطلع علي بن بويه بعد ذلك إلى تأمين حدود الأقاليم التي استولى عليها، وتطلَّبت سياسته الاستيلاء على كرمان والأهواز قبل الدخول إلى العراق الذي كان محط أنظاره؛ لأن هذين الإقليمين يشكلان ممراً طبيعياً لأي غزو محتمل لإقليم فارس، إن من ناحية الشرق أو من ناحية الشمال، لذلك أرسل أخاه أحمد على رأس قوة عسكرية، فاستولى على كرمان في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) بعد معركة القنطرة، وأضافها إلى أملاك آل بويه، ثم سيطر على الأهواز، ما أثار الخلافة العباسية، فأرسلت جيشاً بقيادة بجكم لاسترداد الأهواز وطرد البويهيين منها، إلا أن هذا القائد اضطر إلى التراجع تحت ضغط الأحداث العسكرية[5].

نتيجة لهذه التطورات تمَّ لبني بويه توسيع قاعدتهم بما يتماشى مع تطلعاتهم التوسعية، وأضحى نزولهم من الأهواز إلى العراق أمراً ميسوراً، فراحوا يراقبون الأحداث في عاصمة الخلافة حتى تسنح لهم الفرصة لدخولها.

دخول البويهيين إلى العراق

كانت الأوضاع في العراق مضطربة بفعل اشتداد الخلافات بين ابن رائق والي

(١) مسكوية: جـ١ ص٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٣.

(٣) **بلاد الجبال**: هي عراق العجم، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك. الحموي: جـ٢ ص٩٩.

(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٧، ٤٤. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ٢ ص١١٨.

(٥) ابن الأثير: جـ٧ ص٥٤، ٥٥، ٦٧ ـ ٦٩.

البصرة وأمير الأمراء[1] من جهة، وبين أبي عبد الله البريدي والي الأهواز السابق، والفار من وجه قوات الخلافة من جهة أخرى، وقد التجأ هذا الأخير إلى علي بن بويه وأطمعه في دخول العراق.

ومن جهة أخرى، كانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر عجزها في إقرار الأمور في العراق، فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي، وبفشل أمراء الأمراء، كما اختلَّت المالية العامة للدولة، وفرغت خزائن الخلافة، ووقع الخلفاء في ضائقة مالية شديدة.

نتيجة لذلك، تطلع الناس إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم لتنشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين النامية، آملين بأن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حُرموا منها أو أُبعدوا عنها. وأخيراً مال الخليفة العباسي المتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤ ـ ٩٤٥م) إلى طلب المساعدة من البويهيين لوضع حد للنزاعات الداخلية بين الأمراء وبخاصة نزاعه مع أمير الأمراء توزون، فدعا أحمد بن بويه إلى دخول بغداد، فسار إليها في عام (٣٣٢هـ/ ٩٤٣ ـ ٩٤٤م)، ودخلها في (١١ جمادى الآخرة ٣٣٤هـ/ ١٨ كانون الثاني ٩٤٦م) بعد أن خرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٦م)، فوقف الأمير البويهي طويلاً بين يديه، ثم بايعه وأقسم له على الطاعة، ومن جهته احتفى به الخليفة وخلع عليه وعيَّنه أميراً للأمراء ولقَّبه معز الدولة، ولقَّب أخاه علياً عماد الدولة، كما لقَّب أخاه حسن ركن الدولة، وأمر بأن تضرب الدنانير باسمهم[2].

وهكذا أسس البويهيون إمارات وراثية في فارس والعراق والأهواز وكرمان والري وهمذان وأصفهان دامت حتى عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، وقد أدَّى نظام الوراثة هذا إلى إيجاد نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية سيطر البويهيون خلاله على مقاليد الأمور، وتصرَّفوا بشكل مطلق، لكن شاب هذا الاستقرار بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيع الأسرة البويهية.

(١) لقد حدث تطور جديد في شؤون الحكم في عهد الخليفة الراضي، حين بُذلت محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك، وانتهى هذا التطور بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر متقلده على مقاليد الحكم، وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة فهيمن على الخلافة وأزال نفوذ الوزراء.

(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص١٥٧، ١٥٨.

علاقة الخلافة العباسية مع البويهيين

كان من المتوقع أن يُعيد البويهيون الاستقرار والوحدة إلى أقاليم الخلافة بفرض سيطرتهم عليها، وكبح جماح جندهم، وإتاح المجال أمام الخليفة كي يضطلع بمسؤولياته وتجنُّب إثارة الفتن المذهبية، إلا أن ذلك لم يتحقق؛ لأنهم دخلوا بغداد وهم يحملون روح العداء للخلفاء العباسيين المخالفين لهم في المذهب، وقد فكَّر معز الدولة، بعد دخوله وسيطرته على مقاليد الأمور فيها، في إلغاء الخلافة العباسية وإقامة خلافة شيعية على أنقاضها، وتنصيب أحد الزعماء الشيعة الزيدية[1] أو البيعة للمعز لدين الله الفاطمي، اعتقاداً منه بأحقية آل بيت الرسول ﷺ بتولية أمور المسلمين، وكان بإمكانه تحقيق ذلك، غير أنه أحجم بعد أن رفض الزعيم الشيعي العرض، ونصح الأمير البويهي بالعدول عن هذه الفكرة؛ لأن عامة الناس في الأقطار والأمصار قد اعتادوا على حكم بني العباس وأطاعوهم كطاعة الله ورسوله، وعدُّوهم أولي الأمر، كما نصحه مستشاروه بالتغاضي عن هذا التوجه؛ لأن مثل هذا التغيير يُعرِّض العالم الإسلامي لهزات عنيفة بالإضافة إلى زعزعة الحكم البويهي، ذلك أن شيعة العراق الذين حاول معز الدولة استمالتهم إليه كانوا على مذهب الإمامية، وأن تنصيب خليفة زيدي أو فاطمي سيكون مماثلاً في نظرهم بالمقارنة مع الخليفة العباسي، ولهذا أدرك معز الدولة من خلال تفكيره الثاقب بأن البقاء على الخلافة العباسية أجدر، متبعاً المبدأ الزيدي القائل: «بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل» وأجاز على هذا الأساس الذي أقرَّه المبدأ الزيدي بالإضافة إلى المصلحة السياسية؛ أن يدين بالولاء لخليفة سني[2]، إلا أنه اتبع سياسة ترمي إلى الحد من سلطته مقابل تقوية نفوذه.

لقد ساد العهد البويهي شيء من الاستقرار السياسي من حيث طول مدة حكم الخلفاء، فقد تولى الخليفة المطيع الحكم مدة تسعة وعشرين عاماً (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٧٤م) والطائع ثمانية عشر عاماً (٣٦٣ ـ ٣٨١هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١م) والقادر واحداً وأربعين عاماً (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م)، ولعل مرد ذلك يعود إلى أن إمرة الأمراء التي تولاها البويهيون، كانت تتحمَّل تبعات الحكم كافة، وأضحوا في ظلها مطلقي التصرف في العراق مقابل استمرار تحديد نفوذ الخليفة الذي ظل رمزاً لا يتولى من مقاليد الأمور شيئاً يمكن أن ينازعه فيه أحد، واقتصر عمله على إضفاء الصفة الشرعية على أعمالهم.

(١) هو أبو الحسن محمد بن يحيى الزيدي.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص١٦٠.

غير أن بني بويه أذلُّوا الخلفاء العباسيين وسلبوهم سلطاتهم، ولم يتورَّعوا عن التعدي على أشخاصهم، كما فعل معز الدولة مع الخليفة المستكفي[1]، والأمير بهاء الدولة مع الخليفة الطائع[2]، كما فقدت الخلافة هيبتها في عهدهم وضعف شأنها، وأضحى الخليفة ألعوبة في أيديهم يلحقون به الأذى والاعتداء.

والحقيقة أن بني بويه لم يكونوا السبب المباشر في ضعف الخلافة العباسية، إذ أنهم ورثوا وضعاً قائماً بدأ قبل عهدهم، فَقَدَ الخليفة خلاله كل اختصاصاته كمصدر أول للسلطة في الدولة، ومن جهة أخرى فقد فوَّض الخليفة إلى الأمير البويهي إدارة الدولة بصفة رسمية ما أضفى الشرعية على تصرفاته وأعماله. ولعل أوضاع الخلافة العباسية في عهدهم كانت أفضل مما كانت عليه في عصر نفوذ الأتراك، وذلك بفعل استقرار الحكم لبني بويه ما أبعد الخلفاء عن المشكلات التي كانوا عُرضة لها في الأيام السابقة نتيجة لتنازع القادة وأمراء الأمراء، وقد شكَّل ذلك سبباً مباشراً لخلعهم في أوقات متقاربة، والاعتداء عليهم، بل إن الأمراء البويهيين حرصوا على إظهار الطاعة والولاء لمقام الخليفة العباسي أمام الناس نظراً للنفوذ الديني الذي كان يتمتع به بين المسلمين بوصفه الرئيس الأعلى للجماعة الإسلامية، وأن معاملتهم للخلفاء جرت على النسق الذي كان متبعاً قبلهم، ولعل التغيير الذي جرى في عهدهم هو جعل منصب إمرة الأمراء وراثياً في بيتهم، فانتهى الصراع على السلطة، ولم يعد هناك من داع للاحتكاك بالخليفة[3].

والواقع أن الأمراء البويهيين لم يتدخلوا في اختيار الخليفة العباسي وفي عزله من منصبه سوى مرتين[4].

الأولى: جرت في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) أي عقب دخولهم بغداد مباشرة، فقد قبض معز الدولة على الخليفة المستكفي وخلعه من منصبه وبايع المطيع[5]، والراجح أن الأمير البويهي سلك هذا النهج بفعل عاملين سياسي وديني[6].

أما السبب السياسي، فمرده أن الخليفة المستكفي كان يُراسل ناصر الدولة

(١) مسكويه: جـ٢ ص٨٦.
(٢) الروذراوري، أبو شجاع ظهير الدين: ذيل تجارب الأمم ص٢٠١.
(٣) الزهراني، محمد مسفر: نظام الوزارة في الدولة العباسية: العهدان البويهي والسلجوقي: ص٢٤.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن: مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ٤ ص٢٧٦.
(٦) الزهراني: ص٢٤.

الحمداني أثناء الصراع العسكري الذي كان دائراً بينه وبين معز الدولة في الموصل، ويخبره بأسرار الجيش البويهي العسكرية وتحركاته[١].

وأما السبب الديني، فقد قبض الخليفة المستكفي على الشافعي، رئيس الشيعة، وكان يتولى الإفتاء في بغداد، وأهانه أمام معز الدولة، فاستاء هذا الأخير وأقدم على خلع المستكفي الذي أظهر أمامه عدم احترام لمذهبه[٢].

الثانية: جرت في عام (٣٨١هـ/ ٩٩١م) عندما خلع بهاء الدولة الخليفة الطائع وأجلس القادر على سدة الخلافة[٣]، وذلك بفعل أن الخليفة الطائع قبض على أبي الحسن بن المعلم، وكان من خواص بهاء الدولة، وفقيه الإمامية، وسجنه، فعظم ذلك على بهاء الدولة فقبض على الخليفة وخلعه واستولى على أمواله وعلى كل ما وجده في دار الخلافة[٤]. والراجح أن وراء حادثة الخلع قضية مالية، فقد وقع بهاء الدولة في ضائقة مالية، وكثر شغب الجند عليه، فزيَّن له أبو الحسن بن المعلم القبض على الخليفة والاستيلاء على أمواله[٥].

أما فيما يتعلق بنفقات الخليفة، فإن أمراء الأمراء، قبل العهد البويهي، قد خصَّصوا لتلك النفقات ضياعاً تسمى الضياع المستخلصة[٦]، أما بنو بويه فجعلوا للخليفة راتباً. فقد خصَّص مقر الدولة للخليفة المستكفي راتباً يومياً حدَّده بمبلغ خمسة آلاف درهم[٧]، ويبدو أنه وجد أن ذلك غير عملي؛ لأن الأموال قد تتأخر، لذلك أضاف إلى المياومة، بعد فتح البصرة في عام (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م)، ضياعاً مستخلصة بمثابة إقطاعات[٨]، ومع ذلك فقد كانت أموال الخليفة عُرضة للمصادرة.

تمتع الأمراء البويهيون ببعض الامتيازات التي دلّت على قوتهم وتميزهم عمن سبقهم من الأمراء والقادة، منها:

ـ لقد جرت العادة عند تعيين الخليفة لأمير ما أن يحضر ذلك الأمير إلى مجلس الخليفة فيطوقه ويُسوره ويُقلده سيفاً ويعقد له لواء مطعَّماً بالفضة، ويكتب له عهداً بالإمارة أو بالولاية، إلا أنه حدث تغيير في هذه العادة في العهد البويهي، فكان

(١) المسعودي: ص٢٧٦. (٢) مسكويه: جـ٢ ص٨٦.
(٣) ابن عمراني، محمد بن علي بن محمد: الأنباء في تاريخ الخلفاء ص١٤٨.
(٤) الروذراوري: ص٢٠١.
(٥) ابن الأثير: جـ٧ ص٤٤٢، وقارن بتاريخ الأنطاكي الذي يذكر أن بهاء الدولة خلع الخليفة الطائع بغير ذنب ص٢٢١.
(٦) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أخبار الراضي بالله والمتقي بالله ص١٣١ ـ ١٤٥.
(٧) ابن الأثير: جـ٧ ص١٥٨. (٨) المصدر نفسه.

الأمير البويهي يحضر إلى دار الإمارة بصحبة الجند والأشراف والقضاة والأعيان، فيقلِّده الخليفة ويعقد له لوائين بيده، أحدهما مفضَّض على رسم الأمراء والآخر مذهَّب على رسم ولاة العهود، ويُلقبه بألقاب سلطانية، وتُقرأ العهود بحضرته، والمعروف أن العهود كانت تُدفع إلى الولاة بحضرة الخليفة، فإذا أخذه الرجل منهم قال له: «هذا عهدي إليك فاعمل به»[١]، وأضحت هذه العادة، وهي عقد لوائين وقراءة عهد الإمارة بحضرة الخليفة، حقاً من حقوق الأمراء البويهيين الذين تعاقبوا على السلطة بعد عضد الدولة.

ـ اكتسب البويهيون ميزة أخرى هي ضرب الطبول أمام دورهم إيذاناً بدخول وقت الصلاة، وكانت هذه العادة من أهم مظاهر سيادة الخليفة لم يشاركه فيها أحد حتى أولياء العهد. وقد حاول البويهيون منذ عهد معز الدولة التمتع بهذه العادة لكنهم فشلوا، حتى إذا تولى عضد الدولة أمور العراق في عام (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) طلب من الخليفة الطائع أن يمنحه حق ضرب الطبول أمام داره خمس مرات، فأجاز له ثلاث مرات فقط في أوقات الصبح والمغرب والعشاء[٢]. ويبدو أن الخلاف الذي نشأ بين الرجلين خلال النزاع الذي حصل بين بني بويه والأتراك، كان الدافع على منح هذه الميزة بهدف تحسين علاقة الخليفة بالأمير البويهي[٣]، وأضحت هذه الميزة بعد ذلك حقاً من حقوق الأمراء البويهيين، حتى إذا تولى سلطان الدولة الحكم في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) أمر بأن تُضرب الطبول أمام داره خمس مرات في اليوم من دون أن يستأذن الخليفة، وحذا حذوه جلال الدولة في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) واضطر الخليفة إلى الموافقة تحت الضغط[٤].

ـ جرت العادة بأن يُخطب للخلفاء ولأمراء الأمراء على جميع المنابر في الولايات باستثناء بغداد حيث كان يُخطب للخليفة وحده، ولكن في عام (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) أمر الخليفة الطائع بأن يُخطب لعضد الدولة على منابر بغداد بعد الخطبة للخليفة[٥]، أما كتابة اسم أمير الأمراء البويهي على السكة، فقد كان أمراً جرت به العادة من قبل[٦].

ـ تلقَّب الأمراء البويهيون بالألقاب، ففي عام (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) لقَّب الخليفة المطيع الأمير شجاع فناخسرو بلقب عضد الدولة[٧]، وفي عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) لقَّب

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم جـ٧ ص٨٧.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٥٨. (٣) الزهراني: ص٢٧.
(٤) ابن الجوزي: جـ٨ ص٣٠. (٥) المصدر نفسه.
(٦) محمود، حسن أحمد، وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٥٢٠.
(٧) مسكويه: جـ٢ ص١٩٢.

أحمد بن بويه مؤيد الدولة[1]، ولقَّب الأمير بختيار عز الدولة[2]، وفي عام (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م) لقَّب أبا الحسن علي بن ركن الدولة بـ فخر الدولة[2].

كان الخليفة هو الذي يختار اللقب للأمير البويهي، وعلى الأخير أن يقبل به وعدم الاعتراض عليه، غير أن ذلك لم يدم طويلاً. فمنذ عام (٣٦٩هـ/ ٩٧٩م) أضحى الأمير البويهي هو الذي يختار اللقب لنفسه ثم يحصل على موافقة الخليفة عليه، وتمادى الأمراء البويهيون عندما اشتد ساعدهم في إضفاء العظمة على هيبتهم من خلال الألقاب، فقد تلقَّب عضد الدولة بلقب ملك الملوك، ولم يكن الخليفة راضياً عن ذلك، وتلقَّب أبو كاليجار بلقب ملك الأمة[3]، وزيد في ألقاب جلال الدولة في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) لقب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك، فنفرت العامة من ذلك ورموا الخطباء بالآجر، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك[4]، وتلقَّب الأمير خسرو فيروز في عام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) بلقب الملك الرحيم، وقد امتنع الخليفة عن منحه هذا اللقب؛ لأنه من صفات الله تعالى[5] لكنه على أي حال استمر يُعرف به.

تراجع قوة البويهيين

اضطربت أوضاع البويهيين بعد وفاة بهاء الدولة في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)، وتراجعت قوتهم، واستمرت في التراجع حتى دخول السلاجقة بغداد، ولعل مرد ذلك يعود إلى:

ـ تنازع أبنائه، ذلك أن البيت البويهي لم يتبنَّ قاعدة ثابتة لولاية العهد فاختلف أفراده فيما بينهم، ولم يحتفظوا بتضامنهم، ففقدوا جزءاً من حيويتهم ومن نشاطهم. فقد استأثر كل واحد من أبناء بهاء الدولة بناحية، فأقام سلطان الدولة في شيراز، وولَّى أخاه مشرف الدولة إمرة الأمراء في بغداد، كما ولَّى أخاه جلال الدولة منطقة البصرة، وأخاه أبا الفوارس كرمان[6]، فتطلع كل منهم إلى الاستقلال بما في يده وطمع بانتزاع ما بيد أخيه حتى دبَّ الشقاق داخل الأسرة.

ـ اعتمد البويهيون منذ عهد معز الدولة (ت٣٥٦هـ) على الأتراك، فجنَّدوا الكثير منهم، ووصل بعضهم إلى مناصب قيادية، فازدادت قوتهم وأضحوا عنصراً لا يمكن

(١) مسكويه: جـ٢ ص٢٢١. (٢) المصدر نفسه: ص٣٥٤.
(٣) ابن الجوزي: جـ٧ ص١١٣، ١١٤.
(٤) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء: البداية والنهاية في التاريخ جـ١٢ ص٤٣.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٧٠. (٦) المصدر نفسه: جـ٧ ص٥٩٠.

للأمراء البويهيين المتأخرين أن يستغنوا عنهم، فخصُّوهم بوحدات الفرسان، وشكَّلوا هم فرق المشاة.

كان من الطبيعي في ظل هذا الوضع أن ينشأ التنافس بين الطرفين ما سبَّب الكثير من المتاعب للبويهيين، مثل اندلاع الثورات ونشوب الحروب الأهلية، ولم يتورَّع الجند الأتراك عن نهب العاصمة أحياناً، كما لم يتورَّعوا حتى عن نهب قصور الأمراء مطالبين بزيادة مرتباتهم وبتعويضات إضافية، في ظل ضعف الجيش البويهي.

ونظراً لعجزهم عن معالجة هذه المشكلات وتلبية حاجات جنودهم، لجأ البويهيون إلى تبني سياسة جديدة تمثَّلت بظهور نظام اجتماعي جديد هو نظام الإقطاع، فلجأوا إلى منحهم القرى مقابل خدماتهم. تميز هذا الإقطاع بالمرحلي، أي أنه أُقطع لمدة محدودة بهدف تأمين حياة الجند ما جعل التغيير المتكرر في المستفيدين من الإقطاعة، السمة البارزة، فأهمل المقطعون صيانة الأرض، فأصاب القرى الخراب، وتدهور الاقتصاد، وتراجعت واردات الدولة.

ـ اتبع البويهيون في العراق سياسة مذهبية ضيقة تقوم على دعم المذهب الشيعي ما أدَّى إلى إحداث الفرقة في المجتمع العراقي، ونشوب القلاقل والاضطرابات والفتن. والواقع أنه ساد هذا المجتمع في ذلك العصر الخصومات الطائفية والمذهبية، وقد أثارها البويهيون، إذ كان الأتراك الذين استخدموهم في الجيش على المذهب السني في الوقت الذي تطرَّف البويهيون بشيعيتهم ما جرَّ المصائب على البلاد. ففي عام (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) قامت فتنة في الكرخ[1]، فأرسل الوزير أبو الفضل العباس بن الحسن حاجبه صافي لقتال العامة، وكان شديد التعصب للسنة، فاضرم النار في أماكن كثيرة فاحترق الكرخ «حريقاً عظيماً»، وكثرت الفتن بين العامة في بغداد وزالت هيبة الدولة[2].

ـ تقلَّصت موارد بني بويه المالية وفرغت خزائنهم، فاضطر جلال الدولة (٤١٦ ـ ٤٣٥هـ/ ١٠٢٥ ـ ١٠٤٤م) إلى بيع ثيابه وآلاته في الأسواق، وخلت داره من حاجب وفرَّاش وبوَّاب، وصار أكثر الأبواب مغلقاً، وانقطع ضرب الطبل على بابه في أكثر الأحيان لانقطاع الطبَّالين[3]، وفي عام (٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م) نهب الأتراك داره وسلبوا الكتَّاب وأرباب الديوان ثيابهم، وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهلي فهرب إلى حلة كمال الدولة غريب بن محمد، وقطعوا الخطبة باسمه (جلال الدولة)[4].

(١) الكرخ: محلة في بغداد. (٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٣١٠، ٣١١.
(٣) ابن الجوزي: جـ٧ ص٦٠. (٤) ابن الأثير: جـ٧ ص٧٥٢.

- تفاقمت الخلافات الأسرية داخل البيت البويهي. ففي عام (٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م) ظهر التنافس واضحاً بين جلال الدولة وبين ابن أخيه أبي كاليجار، كما ثار الجند على حكمه في عام (٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م) فنهبوا داره ودواوينه وكتبه، وغدت بغداد مسرحاً للشغب والنزاعات الأسرية والمذهبية، ولم تتمكَّن الخلافة من تهدئة الوضع نظراً لضعفها الظاهر. وفي عام (٤٣٥هـ/ ١٠٤٤م) توفي جلال الدولة وخلفه ابنه أبو منصور فيروز الذي لقَّبه الخليفة بالملك العزيز، إلا أنه لم يتمكَّن من ممارسة الحكم، فقد نازعه أبو كاليجار الذي نجح في دخول بغداد بعد أن استقطب كبار القادة البويهيين، وبعد أن ثبَّت أقدامه في الحكم أُقيمت له الخطبة في عام (٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م)[1].

- انكمش البويهيون على أنفسهم ضمن دائرة نفوذهم، وأهملوا في الوقت نفسه الاهتمام بما كان يجري من أحداث في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، فلم يشاركوا فيها، ما أتاح نشوء إمارات أخرى أخذت على عاتقها القيام بهذه المهمة، أمثال العقيليين في شمالي العراق وبعض مناطق الجزيرة الفراتية، والنميريين في حران والرها والرقة، والمروانيين في ديار بكر وميافارقين وغيرهم، وقد نتج عن ذلك حدوث اصطدامات بينهم وبين هذه القوى الناشئة.

- لم يُعر البويهيون، على الصعيد الخارجي، اهتماماً لتنامي القوة البيزنطية المتجددة في عهد الأسرة المقدونية، كما لم يتطلعوا إلى بلاد الشام التي شهدت، في بعض الأحيان، نزاعات حادة بين الطولونيين والأخشيديين ثم بين الخلافة العباسية والدولة الحمدانية.

- لم يُشارك البويهيون، في الشرق، السامانيين والغزنونيين في الدفاع عن مناطق الحدود مع الهند والترك الوثنيين، والراجح أن الخلافات الداخلية بين أفراد الأسرة منعتهم من الاهتمام بالشؤون الخارجية والحرص على تأدية دور فعَّال في العالم الإسلامي.

دوافع التمدد السلجوقي باتجاه العراق

ظل أبو كاليجار، بعد أن تولى الحكم في العراق، يتطلع إلى فارس للاستيلاء عليها، فقضى على الثورات التي نشبت في أصفهان وكرمان، لكنه جوبه بقوة السلاجقة النامية، فاضطر إلى التفاهم مع طغرلبك الذي كان قد استولى على خراسان والري، فعقد صلحاً معه في عام (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م)، وتوثَّقت عرى المودة

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٨.

بينهما بالمصاهرة، فتزوج طغرلبك ابنة أبي كاليجار في حين تزوَّج أبو منصور بن أبي كاليجار ابنة الملك داوود أخي طغرلبك[1].

وعلى الرغم من هذا التقارب، ظل أبو كاليجار يخشى من التمدد السلجوقي باتجاه العراق، ومن احتمال دعوة الخليفة السلاجقة لدخول بغداد ما يُشكل تهديداً لسلطته، لذلك تقرَّب من الفاطميين في مصر كي يتخذهم وسيلة ضد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

كانت الدولة الفاطمية[2] تسعى آنذاك للسيطرة على العراق والقضاء على الخلافة العباسية، فأرسلت الدعاة إلى هذا البلد لنشر المذهب الإسماعيلي[3]، مستغلة الاضطراب السياسي الذي ساده بسبب التنازع بين أمراء البيت البويهي بالإضافة إلى ثورات الجند المتكررة، وأشهر هؤلاء الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي.

وكانت الدعوة الفاطمية قد صادفت تأييداً عند ديالمة فارس على يد هذا الداعي الذي قام بدور بارز في نشر الدعوة للمستنصر الفاطمي (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م) في فارس والعراق وتمكَّن من استمالة أبي كاليجار إلى هذه الدعوة، فكان يجتمع به مساء كل خميس ليُلقِّنه أصول الدعوة[4]. وطاف هذا الداعي في الأهواز ينشر الدعوة، وأمر الناس بإقامة الخطبة للمستنصر الفاطمي، وأدخل على الأذان عبارة «حي على خير العمل»، فأرسل قاضيها أبو الحسن عبد الوهاب بن منصور

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠.

(٢) نسب الفاطميون أنفسهم إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، وقد أسسوا دولة شيعية على المذهب الإسماعيلي في شمالي أفريقيا في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) ثم انتقلوا إلى مصر في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م). وشكَّل الفاطميون تحدياً للزعامة الدينية السنية في بغداد، ثم ولوا وجوههم شطر المشرق الإسلامي للقضاء على الخلافة العباسية ووراثتها، فاستولوا على بلاد الشام ومدنه الساحلية الجنوبية مثل طرابلس وصور وصيدا وعكا.

(٣) ظهرت الدعوة الإسماعيلية في أواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق. وبعد وفاته، انقسمت الشيعة الإمامية إلى قسمين، بفعل اختلاف الرأي حول كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام، هما الإمامية الموسوية، وقد أُطلق عليها فيما بعد الإثنا عشرية، اعتقد أتباعها بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة أبيه، فقد حوَّل أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثمَّ أُطلق على هذه الطائفة اسم السبعية أو الإسماعيلية لتمييزهم عن الإثني عشرية.

(٤) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص٢٠ ـ ٢٤، ٣٤، ٦٧، ٦٨.

المشتري رسالة إلى الخليفة القائم يخبره بالأمر ويشير عليه أن يعمل على إيقاف الدعوة الفاطمية في بلاد فارس.

استاء الخليفة من ازدياد نشاط الداعي الفاطمي ورأى في ذلك خطراً يُهدِّد دولته ومذهبه السني في فارس والعراق، فأرسل وزيره رئيس الرؤساء أبا القاسم علي بن الحسين بن أحمد بن المسلمة إلى شيراز وحمَّله رسالة إلى أبي كاليجار تتضمَّن:

ـ أمراً بالقبض على المؤيد الفاطمي وتسليمه إياه.

ـ تهديداً بالاستعانة بالسلاجقة، وأنه سيدعوهم للاستيلاء على ما كان يسيطر عليه من أقاليم[١].

لم يحفل أبو كاليجار في بادىء الأمر بما تضمنته رسالة الخليفة ثم حملها على محمل الجد، فأرسل إلى الداعي الفاطمي يُحذِّره من عاقبة بقائه في شيراز، وأرسل إليه وفداً من كبار رجال دولته ليُعبِّروا له عن أسفه للصعوبات التي ستواجهه إذا لم يرحل عن البلاد، وقدَّموا إليه رسالة الخليفة التي تضمَّنت التهديد بالاستعانة بطغرلبك والطعن في نسب الفاطميين.

استمر الداعي على ولائه للفاطميين على الرغم من تهديد الخليفة العباسي بالقضاء على جهوده، واضطر أبو كاليجار إلى الانصراف عن تأييد دعوته، فرحل من شيراز إلى مصر في عام (٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م)[٢]، والواقع أن هذا الداعي يُعدُّ من أخلص الدعاة الفاطميين المشرقيين، حيث نجح في تحويل كثير من أهالي البلاد المشرقية إلى المذهب الإسماعيلي الفاطمي ما أدَّى إلى ازدياد ضعف النفوذ العباسي في بلاد المشرق بعامة، وأثار غضب الخليفة العباسي، ودفعه إلى محاربته.

كان الخليفة القائم يواجه آنذاك صعوبات عدة أعاقته عن استعادة نفوذه، فضلاً عن انتشار الدعوة الفاطمية في بعض بلاده لعل أهمها:

ـ استمرار النفوذ البويهي في العراق على الرغم من تنازع أُمرائهم في مدن فارس والعراق بخاصة.

ـ تجدُّد ثورات الجند من العرب والديلم والأتراك، وكان العِنصر التركي أقوى هذه العناصر نفوذاً، فراحوا يتدخلون في عزل الأمراء البويهيين وتوليتهم، كما قاموا بفتنة في بغداد في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) بسبب تذمرهم من وزير الملك أبي كاليجار الذي ماطلهم في رد الأموال المتبقية لهم، فحاصروا دار الخلافة، وخشي الناس

(١) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص٦٩ ـ ٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ص١٠٢، ١١٤، ١١٥.

على أموالهم، فأخفوها. وبلغت ذروة الفوضى في بغداد حين نهب الأتراك دار الروم الوافدين إلى المدينة، ما أدَّى إلى ندرة الأقوات، وارتفاع الأسعار، وحاول الخليفة عبثاً تهدئتهم، وظلوا مصدر قلق واضطراب حتى بعد أن أعاد إليهم الملك الرحيم البويهي أبو نصر خسرو فيروز ما تبقَّى لهم من أموال[١].

ـ بروز أبي الحارث أرسلان البساسيري كأحد القادة الأتراك الأقوياء، وكان قد ساعد الملك البويهي في انتزاع البصرة من يد أخيه أبي علي في عام (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، وتصدَّى للأكراد والأعراب الذين عاثوا فساداً في بعض مدن العراق، وقطعوا الطرق، وامتنع عن مساعدة الأتراك عندما قاموا بالفتنة المشار إليها، واستاء من حركتهم[٢]، وازداد نفوذه في العراق عندما عيَّنه الخليفة العباسي القائم رئيساً للأتراك، وقلَّده الأمور كلها، وما لبث أن استبد بالسلطة في بغداد وسيطر على ما جاورها، وتمتَّع بنفوذ كبير لدرجة أنه أضحى يخطب له على منابر العراق والأهواز ونواحيها، وأشرف على بيت المال[٣]، ولم يعد بإمكان أي من الخليفة العباسي والملك البويهي اتخاذ قرار يتعلق بأمور الدولة إلا بعد موافقته، وأثار ازدياد نفوذه الحقد في نفس الوزير أبي القاسم علي الملقب برئيس الرؤساء، فأخذ يدس بينه وبين الخليفة والأمراء.

على أن البساسيري ما لبث أن واجه صعوبات عدة نتيجة ما قام به أبو المعالي قريش بن بدران أمير الموصل من حصار الأنبار والاستيلاء عليها، وكانت تابعة له، وإقامته الخطبة لطغرلبك السجلوقي، فاستاء من ذلك، وغضب حين علم بوصول رسولين من قِبل أبي المعالي إلى بغداد حيث استقبلهما الخليفة بالترحاب، فعدَّ هذا الموقف من الخليفة تحدياً له، وقرَّر أن يقبض عليهما لكنه لم يتمكَّن من ذلك، فاتهم رئيس الرؤساء بأنه يقف حائلاً دون تحقيق رغباته، فتبدَّلت عندئذٍ علاقته بالخليفة. ومن جهته لم يفتأ رئيس الرؤساء في العمل على إضعاف شأنه، فاتهمه بأنه كان السبب في إنقاص رواتب الأتراك وإثارتهم ضده، فهاجم هؤلاء داره، واستولوا على جميع أملاكه في بغداد.

ـ تقرُّب بني بويه من الفاطميين على يد الداعي هبة الله الشيرازي، وميل عدد غير قليل من جندهم من الديلم والأتراك إلى دعوتهم، بل إن البساسيري نفسه تأثر بهذه الدعوة وانحاز إلى جانب الفاطميين، وراسل المستنصر بمصر بعد أن ساءت علاقته بالخليفة القائم الذي اتهمه بأنه يعمل على خلعه، والواقع أن الخليفة القائم أرسل

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ٩ ص٣٩٩، ٤٠٠.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص١١٦. (٣) ابن خلكان: جـ١ ص١٩٢.

إلى الملك الرحيم البويهي رسالة يقول فيها: «إن البساسيري خلع الطاعة، وكاتب الأعداء، وأن الخليفة له على الملك عهوداً، وله على الخليفة مثلها، فإن آثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد وتولى الديوان تدبير أمره»[1]. فأعرب الملك الرحيم عن استعداده لإجابة طلب الخليفة، ولما علم البساسيري بأمر هذه الرسالة رحل إلى الحلة[2]، ونزل ضيفاً على الأمير دُبيس بن مزيد لمصاهرة كانت بينهما، ثم اضطر إلى مغادرتها إلى الرحبة[3] بعد أن دخل السلطان طغرلبك بغداد في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)[4].

الواقع أن تلك الصعوبات التي واجهها الخليفة القائم لم تكن خافية عن السلاجقة الذين ازداد نفوذهم في الأقاليم الشرقية، فانتهزوا هذه الفرصة للتمدد نحو العراق وبسط سيادتهم عليه.

في هذا الجو المضطرب، أخذ كل طرف يسعى لمصلحته، أما الخليفة الذي فَقَدَ ثقته بمن حوله، فقد رأى أن مصلحته تقضي عليه الاتصال بالقوة الجديدة النامية، وبخاصة أنها كانت تدين بالمذهب السني وتحترم مقام الخلافة وتدين لها بالولاء، فاستنجد بطغرلبك طالباً مساعدته ضد البساسيري[5].

دخول السلاجقة إلى العراق وزوال الدولة البويهية

تُعدُّ سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) فاصلة في تاريخ الدولة البويهية وانعطافة كبرى في تاريخ الخلافة العباسية التي انتقلت من عصر إلى عصر، ففي تلك السنة قطع فولاذ، أحد قادة الديلم وحاكم شيراز، الخطبة لطغرلبك وخطب للملك الرحيم البويهي آخر الملوك البويهيين[6].

عدَّ طغرلبك هذا التصرف بمثابة انقلاب على الوجود السلجوقي في إيران، وخطراً يُهدِّد دولته الناشئة ما دفعه إلى التحرك لإزالته من خلال القضاء على البويهيين في إيران والعراق، فاستغل تردي الأوضاع في هذا البلد وتحرَّك باتجاهه، فدخل همذان في (محرم ٤٤٧هـ/ نيسان ١٠٥٥م)، مظهراً أنه يريد الحج وإصلاح طرق مكة والمسير إلى الشام ومصر للقضاء على الدولة الفاطمية، وهذا تدبير تمويهي

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص١٢٥.
(٢) تُعرف بحلة بني مزيد بين الكوفة وبغداد. الحموي: جـ٢ ٢٩٤.
(٣) هي رحبة مالك بن طوق، تقع بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل من قرقيسياء. المصدر نفسه: جـ٣ ص٣٤.
(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص١٢٦.
(٥) الحسيني: ص١٨.
(٦) ابن الأثير: جـ٨ ص١٢٢.

بطبيعة الحال، وعندما وصل إلى النهروان[1] أرسل رسالة إلى الخليفة القائم يُعلن فيها ولاءه وطاعته ويستأذنه في دخول بغداد، فأذن له، وسلكت الجيوش السلجوقية طريق حلوان المؤدي مباشرة إلى قلب العراق.

انتشر خبر الزحف السلجوقي بين العامة في بغداد بسرعة ملفتة، وكان الملك الرحيم في وضع صعب لا يسمح له بمقاومة الزحف السلجوقي والتصدي للسلاجقة، لذلك آثر التفاهم مع الخليفة في كيفية التعاون مع طغرلبك، والراجح أنه جرى اتفاق بين الرجلين على وجوب التعاون مع الزعيم السلجوقي، ومعنى هذا أن البويهيين ارتضوا أن يكونوا تابعين للسلاجقة مع ضمان بقائهم.

وخرج الوزير رئيس الرؤساء علي بن الحسين بن أحمد بن المسلمة لاستقبال طغرلبك في موكب عظيم ضمَّ القضاة والنقباء والأشراف والشهود والخدم وأعيان الدولة والأمراء من عسكر الملك الرحيم، فلما علم طغرلبك بهم أرسل إلى طريقهم الأمراء ووزيره أبا نصر الكندري، فلما وصل رئيس الرؤساء اجتمع بالسلطان السلجوقي، وأبلغه رسالة الخليفة واستحلفه للخليفة وللملك الرحيم وأمراء الأجناد. ودخل طغرلبك بغداد يوم الاثنين (٢٥ رمضان ٤٤٧هـ/ ١٨ كانون الأول ١٠٥٥م) ونزل بباب الشماسية، ووصل إليه قريش بن بدران صاحب الموصل، وكان في طاعته[2]، وتدل هذه المظاهر على أن دخول طغرلبك إلى بغداد إنما اتخذ شكل حملة عسكرية، لكن الحقيقة كان الدخول عبارة عن موكب مهيب حضره وجوه القوم من الطرفين.

واعترف الخليفة بطغرلبك سلطاناً على جميع المناطق التي كانت بحوزته وتحت يده، وأمر بأن يُذكر اسمه في الخطبة وأن يكون لقبه السلطان ركن الدولة أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين، على أن يذكر بعد اسمه اسم الملك الرحيم أبو نصر بن أبي كاليجار سلطان الدولة البويهية[3].

وهكذا تحقَّق للسلاجقة ما كانوا يطمحون إليه، فقد جاوروا الخلافة العباسية رمزهم الديني وجعلوا من الدولة البويهية دولة تابعة لهم، ودخل طغرلبك بغداد دخول الفاتحين، كما دخل العراق ضمن دائرة نفوذهم.

ذيول دخول السلاجقة إلى العراق

القضاء على الدولة البويهية: يبدو أن السلطان السلجوقي طغرلبك أراد أن يقضي

(١) **النهروان**: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدُّها الأعلى متصل ببغداد. الحموي: جـ٥ ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.
(٢) الراوندي: ص١٦٩. الحسيني: ص١٩. ابن الأثير: جـ٨ ص١٢٦، ١٢٧.
(٣) الراوندي: المصدر نفسه.

على الدولة البويهية الشيعية المذهب ولا يدع منافساً أو قسيماً له في الخطبة والألقاب، على الرغم من أن الملك الرحيم البويهي قبل أن يكون تابعاً له، وأن الزعيم السلجوقي أعطى الخليفة العهود والمواثيق بعدم التعرض له، فقبض عليه بعد أن اتهمه بتحريض العامة في بغداد ضده، وأرسله مقيداً إلى قلعة طَبَرك بالري، وظل هناك حتى توفي في عام (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)[١]، وأسقط اسمه من الخطبة، وقد غضب الخليفة القائم من تصرُّف السلطان على الرغم من ترحيب الدوائر العباسية الرسمية بهذه الخطوة. وبذلك زالت الدولة البويهية الديلمية الشيعية المذهب لتأخذ مكانها الدولة السلجوقية التركية السنية المذهب.

ثورة العامة في بغداد: عندما دخل السلطان طغرلبك مع جنده إلى بغداد أظهر العامة تذمرهم نتيجة لبعض الحوادث التي أثارها جنده، كذلك أمر السلطان بمصادرة أموال الأتراك البغداديين، وانتشر الجنود السلاجقة في نواحي بغداد، فنهبوا الأسواق والمنازل، وأسرفوا في ذلك «فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل[٢]، ومن الشرقي إلى النهروان وأسافل الأعمال... وخُرِّب السواد وأُجلي أهله عنه»[٣]، وارتكبوا الجرائم الكثيرة، الأمر الذي حمل الخليفة أن يُرسل إلى السلطان من يُبلغه استياءه من هذه الأفعال، وهدَّده بمغادرة بغداد إن استمرت[٤].

الواقع أن أحداث بغداد هي نتيجة طبيعية في هذه الحال، فالجيوش السلجوقية هي جيوش أجنبية محتلة لا يتقبلها الأهالي للوهلة الأولى على الأقل.

حركة البساسيري: خرج البساسيري على طاعة الخليفة العباسي القائم وانحاز إلى الفاطميين، وظل يوالي الاتصال بهم، ويوطد علاقته معهم، فأرسل إلى المستنصر يعلن له دخوله في طاعته، ويلتمس منه الإمداد السريع بالمال والخيل والسلاح لإظهار الدعوة الفاطمية في العِراق، كما تبادل الرسائل مع الداعي هبة الله الشيرازي الذي كان آنذاك في القاهرة[٥]. أوْلى المستنصر رسالة البساسيري اهتماماً جدياً ووافق على التماسه على الرغم مما كانت تعانيه مصر من غلاء وأزمة اقتصادية حادة، فيما عُرف بالشدة المستنصرية.

---

(١) الراوندي: ص١٦٩. الحسيني: ص١٩. **وطَبَرك**: قلعة على رأس جُبيل بقرب مدينة الري (طهران الحالية) على يمين القاصد إلى خراسان وعن يساره جبل الري الأعظم. الحموي: جـ٤ ص١٦. وقارن بابن الأثير الذي يذكر قلعة سيروان: جـ٨ ص١٢٨. **والسيروان**: بلد بالجبل وموضع قرب الري. الحموي: جـ٣ ص٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) **النيل**: بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد. الحموي: جـ٥ ص٣٣٤.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(٤) المصدر نفسه: ص١٢٨.

(٥) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص١٥٨ ـ ١٦٠.

كانت أجواء القاهرة مليئة بالمؤامرات بين أصحاب النفوذ، فانتهز الوزير أبو محمد الحسن البازوري هذه الفرصة لإبعاد الداعي هبة الله الشيرازي عن مصر لاستئثاره بنفوذ كبير عند المستنصر، فرأى أن يكون سفيره إلى البساسيري يحمل إليه الأموال والأسلحة. رفض الداعي، في بادىء الأمر، هذه المهمة بعد أن أدرك حيلة البازوري، ثم قَبِل بعد إلحاح منه، إلا أنه اشترط على المستنصر عدم توجيه اللوم إليه إذا فشل في أداء المهمة[١]، ويبدو أنه هاله ضخامة المهمة، وهي القضاء على الخلافة العباسية، في ظل ضعف إمكانات الدولة الفاطمية.

خرج الداعي المؤيد هبة الله الشيرازي من القاهرة متوجهاً إلى بلاد الشام مع فئة قليلة من الرجال تحمل الأموال والسلاح والخلع لمقابلة البساسيري في الرحبة وتقديم ما يحمله إليه، ويساعده في ثورته، وكان الوزيرالبازوري قد طلب منه استمالة الأمراء العرب في العراق وبلاد الشام، وتجنيد ثلاثة آلاف جندي من العرب الكلبيين بالشام.

وعندما وصل المؤيد إلى دمشق في طريقه إلى الرحبة اتصل بثمال بن صالح المرداسي صاحب حلب، وطلب منه إمداده بالرجال، وتأمين وصول الإمدادات الفاطمية إلى البساسيري، وبعد شيء من التردد، وافق أمير حلب على استقباله في إمارته، وقابله قرب بلدة الرستن على نهر العاصي، وصحبه من هناك إلى حلب، وأبدى استعداده للاعتراف بحكم الفاطميين، وجدَّد البيعة للمستنصر[٢].

وورد إلى المؤيد في غضون ذلك كتاب من نصر الدولة أحمد بن مروان، صاحب ميافارقين ودياربكر[٣]، يُعلن فيه خلع طاعة السلاجقة والدخول في طاعة الفاطميين معتذراً عن إقامة الخطبة للسلاجقة على منابر بلاده خوفاً من بطشهم. رحَّب المؤيد بموقفه وطلب منه إقامة الخطبة للمستنصر على منابر بلاده[٤].

وسار المؤيد وبصحبته الأمير ثمال بن صالح إلى الرحبة، وعندما اقترب منها خرج البساسيري لاستقبالهما على رأس قوة عسكرية، فالتقى بهما على بُعد مرحلتين من المدينة، فرحَّب بوصولهما، واطمأن بإجابة المستنصر إلى طلبه، وقام المؤيد من

---

(١) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص١١٩ ـ ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ص١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٤١. ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد ابن أبي جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ١ ص٢٢٩.

(٣) **دياربكر**: بلاد كبيرة واسعة تُنسب إلى بكر بن وائل، حدُّها ما غرَّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين. الحموي جـ٢ ص٤٩٤.

(٤) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص١٤٢ ـ ١٥٠.

جانبه بتوزيع الخِلع الفاطمية على البساسيري وأصحابه، ومنحهم الأموال، وأخذ البيعة منهم بالطاعة للمستنصر، وعبَّر الجميع عن ولائهم له(١).

بعد أن نجح المؤيد في استقطاب أمراء الشام للقضية الفاطمية، التفت إلى استقطاب أمراء العراق بهدف تكوين جهة قوية تقف في وجه السلاجقة، فكتب إلى نور الدولة دبيس بن مزيد صاحب الحلة طالباً الاجتماع به في الرحبة، وأقنعة بمساندة البساسيري، وقرأ عليه عهد المستنصر بتلقيبه «الأمير سلطان ملوك العرب سيف الخلافة صفي أمير المؤمنين»، وقلَّده زعامة عرب العراق، ومنحه حكم ما يفتح من البلاد شرقي نهر الفرات(٢).

سار البساسيري على رأس الجيش الذي أعدَّه، ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد باتجاه الموصل، وانضمت إليه قوة عسكرية قدمت من دمشق قوامها الكلبيون، فتصدَّى له قريش بن بدران صاحب الموصل وقُتْلُمُش ابن عم السلطان طغرلبك عند سنجار في (شوال ٤٤٨هـ/ كانون الثاني ١٠٥٧م)، ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية دارت الدائرة فيها على قريش بن بدران وقُتْلُمُش، وجُرح الأول في المعركة ولجأ إلى نور الدولة دبيس بن مزيد حيث انحاز إلى جانب البساسيري، وسار بصحبته إلى الموصل، وأقام الخطبة فيها للمستنصر الفاطمي(٣).

بعد هذا النجاح السياسي والعسكري، رأى المؤيد استقطاب كبار قادة السلاجقة في بغداد لصرفهم عن تأييد العباسيين، فارسل كتاباً إلى عميد الملك الكندري وزير السلطان طغرلبك قلَّل فيه من شأن الخليفة العباسي ونوَّه بعلو شأن المستنصر الفاطمي، وبسيادته على الأراضي المقدسة في الحجاز وبما لديه من الأموال والأسلحة(٤)، غير أن هذه الوسيلة لم تؤدِّ إلى الغاية المنشودة، ذلك أن عميد الملك الكندري كان يعمل آنذاك على مواجهة المخطط الفاطمي، فاتبع سياسة قائمة على تفريق شمل الأمراء العرب وإغرائهم ببعض الولايات حتى ينفضُّوا عن البساسيري. آتت هذه السياسة أُكلها وأدَّت إلى عدول هؤلاء عن مساندة حركة البساسيري، فاضطر هذا نتيجة ذلك إلى العودة إلى الرحبة بعد انفضاض نور الدولة دبيس بن مزيد وقريش بن بدران عنه(٥).

ومن جهته، حاول المؤيد مواجهة سياسة عميد الملك الكندري، وظل حريصاً

(١) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص١٤٢ ـ ١٥٠.
(٢) المصدر نفسه: ص١٦٠ ـ ١٦٥. (٣) ابن الأثير: جـ٨ ص١٣٩، ١٤٠.
(٤) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ١٩٥ ـ ١٩٨.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص١٤٢، ١٤٣.

على التودد للأمراء العرب في العراق، فأرسل إلى الأميرين المذكورين مبدياً الرغبة في الإبقاء على مودتهم، ثم غادر الرحبة إلى حلب ولحق به البساسيري، فنزل في بالس على مقربة منها وبصحبته قريش بن بدران ونخبة من وجوه بني عقيل، ولم يقدم لنا المؤيد سبباً لهذا التحرك سوى أنه كان قد طلب من نصر الدولة أحمد بن مروان، حاكم ميافارقين، أن يمنحه مأوى في بلاده، وعندما لم يتسلم منه أي رد، فَقَدَ صبره وتحرك نحو حلب(١).

إن قراءة متأنية لهذه الرواية تبين لنا أن الداعي المؤيد هبة الله الشيرازي كان يحاول تجنُّب ذكر الحقيقة، فقد كان هدف البساسيري بغداد، وكانت الرحبة أفضل قاعدة للنجاح في مهمته حيث لم تكن بعيدة عن عاصمة الخلافة وقريبة من بادية الشام للالتجاء إليها عند الحاجة، بالإضافة إلى وجود عدد كبيرمن القبائل البدوية القاطنة في وادي الفرات هي على استعداد لتقديم المرتزقة من المقاتلين؛ فكان ذهاب المؤيد والبساسيري إلى الدولة المروانية لطلب العون العسكري وليس الحماية(٢).

في غمرة هذه الانتصارات التي حقَّقها السلطان طغرلبك، قام البساسيري بحركات ارتدادية عدة، عسكرية وسياسية، من مقره في الرحبة بهدف إخراج السلاجقة من بغداد والسيطرة عليها.

فعلى الصعيد العسكري، نجح في الاستيلاء على الموصل بعد أن هزم السلاجقة في سنجار، وأخذ يستعد لدخول بغداد.

وعلى الصعيد السياسي، انتهز فرصة خروج السلطان طغرلبك من بغداد لإخماد ثورة أخيه إبراهيم ينال؛ لدخول المدينة والسيطرة عليها. ذلك أن السلطان طغرلبك واجه آنذاك مشكلة جديدة تمثَّلت بما قام به أخوه إبراهيم ينال من تمرد، فاستولى على بلاد الجبال وهمذان، وامتد سلطانه إلى حلوان فضلاً عن ولاية الموصل وما والاها من الأعمال(٣).

استغل الداعي المؤيد هذا الخلاف السلجوقي فعمل على استقطاب إبراهيم ينال، وجرى تبادل الرسائل بينهما، وطلب الأمير السجلوقي الخِلع والألقاب والأموال من المستنصر الفاطمي حتى إذا ما تغلَّب على أخيه السلطان طغرلبك وخلفه في زعامة السلاجقة، خطب للمستنصر، وتعهد له المؤيد بتلبية طلباته وشجَّعه على محاربة أخيه وأنه سيكون عوناً له(٤)، فغادر إبراهيم ينال الموصل إلى بلاد الجبال في عام

(١) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص٢١٣، ٢١٤.
(٢) زكار، سهيل: إمارة حلب: ص١٢٢. (٣) ابن الأثير: جـ٨ ص١٥٢.
(٤) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص٢١٧ ـ ٢١٩.

(٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، وأعلن العصيان على أخيه، وترك فيها حامية عسكرية قليلة العدد. وغادر المؤيد حلب متوجهاً إلى مصر بعد أن اطمأن على نجاح جهوده، وحرَّض كلاً من البساسيري وقريش بن بدران على انتزاع الموصل من السلاجقة، وشجعهما على مواصلة جهودهما في نشر نفوذ الفاطميين في مدن العراق. وفعلاً استولى البساسيري على الموصل كما أشرنا.

أدرك السلطان طغرلبك مدى الخطر الذي يُهدِّد سلطانة نتيجة خروج أخيه وانحيازه إلى جانب الفاطميين، فقرَّر القضاء على ثورته ومن ثمَّ العودة إلى الغرب لاجتياح بلاد الشام، ومواصلة الزحف إلى مصر، وخرج من بغداد من أجل هذه الغاية.

استغل البساسيري خروج السلطان من بغداد، فزحف إليها على رأس قوة عسكرية تُقدَّر بأربعمائة فارس، حاملاً الرايات المستنصرية وقد كتب عليها «الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين»، وسار معه قريش بن بدران العقيلي في مائتي فارس، وتمكَّنا من دخول المدينة في (٨ ذي القعدة ٤٥٠هـ/ ٢٧ كانون الأول ١٠٥٨م) من دون مقاومة تُذكر، واضطر الخليفة القائم إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأجابه إلى طلبه، وأرسله إلى حديثة عانة[1]، وكان البساسيري يرغب في إرساله إلى مصر[2]، وأرغمه، قبل مغادرته بغداد، على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لاحقَّ لبني العباس ولا له في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء، ثم بعث بهذا العهد إلى القاهرة[3]، كما أرسل ثوب الخليفة وعمامته وشبَّاكه الذي كان يجلس فيه، مع الهدايا والتحف، وقد أثار وصولها إلى القاهرة موجة عارمة من الفرح، وأعد المستنصر القصر الذي بناه العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م) وهو القصر الغربي الصغير ليكون مقراً للخليفة القائم إذا ما تحقَّق أمله في القبض عليه[4].

ودُعي يوم الجمعة (١٣ ذو القعدة ٤٥١هـ/الأول من كانون الثاني ١٠٥٩م) للمستنصر الفاطمي في جامع المنصور ببغداد، وقُطعت الخطبة للعباسيين، وزيد في الآذان عبارة «حي على خير العمل»، ثم أُقيمت الخطبة للفاطميين في جميع مساجد

(١) **حديثة عانة**: عانة بلد مشهور بين الرقة وهيت، يُعدُّ من أعمال الجزيرة، مشرف على الفرات قرب حديثة النورة. الحموي: جـ٤ ص٧٢.
(٢) ابن الجوزي: جـ٨ ص١٩٠ - ١٩٥.
(٣) ظل هذا العهد محفوظاً في القصر الفاطمي حتى استولى صلاح الدين الأيوبي على محتوياته عام ٥٦٧هـ، فأرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء في بغداد على أثر وفاة العاضد، آخر الحكام الفاطميين في مصر.
(٤) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية جـ٢ ص١٩٥.

بغداد، وكان أهل الكرخ من أوائل من دعا للمستنصر[1]، وأرسل الخليفة وهو في الأسر رسالة إلى السلطان طغرلبك يستنجد به[2].

وما جرى من اصطدام السلطان طغرلبك بأخيه إبراهيم ينال بالقرب من الري وتغلُّبه عليه وقتله أن ارتدَّ إلى العراق لإعادة الأمور إلى نصابها، فطلب من البساسيري وقريش بن بدران إعادة الخطبة للخليفة القائم مقابل عدم دخوله المدينة، وأنه يقنع بذكر اسمه في الخطبة والسكة بعد الخليفة، فرفض البساسيري إجابة طلبه، كما أن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيي الدين مهارش العقيلي صاحب الحديثة ليحول دون عودة الخليفة القائم إلى بغداد، ورأى أن تحقيق هذه الغاية قد يؤدي إلى عدول السلطان طغرلبك عن دخول العراق[3].

الواقع أن نجاح الدعوة الفاطمية في بغداد لا يدل على أي قوة حقيقية كانت للفاطميين بعدما ضعفوا وتقلَّصت ممتلكاتهم، وأثَّرت عليهم الأزمات الاقتصادية المتتالية، بقدر دلالته على الدسائس، والمكائد السياسية في دار الخلافة[4].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها البساسيري في خدمة الدولة الفاطمية ومحاولته نشر النفوذ الفاطمي في بغداد، فإنه لم يتلقَّ من المستنصر ما يُشجعه على مواصلة القيام ببسط سلطانه على العراق، ويبدو أن المستنصر لم يكن يملك القوة الكافية لإمداده حتى يحتفظ بما وصل إليه نفوذه، كما يبدو أن ثقته في هذا الرجل لم تكن كبيرة، والراجح أن حقد الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي عليه، كان وراء ذلك، وكان هذا الوزير قد رحل إلى بغداد وانضم إلى البساسيري، وما لبث أن انقلب عليه، وفرَّ إلى مصر وأخذ يُحذِّر المستنصر من عاقبة أطماعه[5]، فخشيه المستنصر وأهمل طلباته، ولم يقم بعمل جدِّي لنجدته، وتركه يواجه الموقف منفرداً أمام قوة السلطان السجلوقي. وعلى الرغم من ذلك، حرص البساسيري على إخلاصه للمستنصر، فتابع غاراته في بلاد العراق، فاستولى على واسط والبصرة وأقام الخطبة فيهما للمستنصر[6]، إلا أنه لم يتمكَّن من مواجهة الجيش السلجوقي، لذلك خرج من بغداد مع جنده وقصد الكوفة، وذلك في (٦ ذي القعدة ٤٥١هـ/ ١٤

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص١٥٤.
(٢) ابن العبري: ص١٠٤.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص١٥٧، ١٥٨.
(٤) سيد، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية ص١٣٣، ١٣٤.
(٥) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ٥ ص١١.
(٦) ابن الأثير: جـ٨ ص١٥٧.

كانون الأول ١٠٥٩م)[١].

وعلّق ابن تغري بردي[٢] على موقف المستنصر من البساسيري بعد خروجه من بغداد بقوله: «ولولا تخوف المستنصر من البساسيري وترك تحريضه على ما هو بصدده، لكانت دعوته تتم بالعراق زمناً طويلاً».

أعاد الأمير محيي الدين مهارش العقيلي الخليفة العباسي القائم إلى بغداد، فاستقبله السلطان طغرلبك عند وصوله إلى النهروان، وبالغ في الاحتفاء به وأبدى اغتباطه بعودته، واعتذر له عن تأخره في نجدته لانشغاله في إخماد ثورة أخيه، وأبدى نيته في المضي خلف البساسيري والمسير إلى الشام، ثم إلى مصر ليعامل المستنصر معاملة تتلاءم مع أفعاله[٣]، وأُعيدت الدعوة للعباسيين في بغداد بعد انقطاع دام سنة.

ولم يكد الخليفة يستقر في بغداد حتى عهد السلطان طغرلبك إلى خمارتكين الطغرائي بالمسير على رأس ألفي فارس إلى الكوفة حيث يقيم البساسيري، وضمَّ إليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخفاجي، وسار بنفسه في إثرهم، ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية عند الكوفة في (١٥ ذي الحجة ٤٥١هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١٠٦٠م)، أسفرت عن انتصار السلاجقة ومقتل البساسيري[٤]، وبذلك تمكَّن السلطان طغرلبك من القضاء على حركة البساسيري التي أقضَّت مضاجع الخلافة العباسية.

وأدرك السلاجقة مدى الخطر الذي يتهدَّدهم نتيجة انتشار النفوذ الفاطمي، لذلك وجَّهوا جهودهم، بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد، إلى مناهضته، وحقَّقوا الكثير من النجاح كما سيمر معنا.

الواقع أن ما قام به السلاجقة تحت زعامة السلطان طغرلبك من إنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السني، أضفى عليه مكانة خاصة في العالم الإسلامي، واستطاع بذلك أن يُحقق للمسلمين نوعاً من الوحدة كانوا بحاجة ماسَّة إليها، فأضحت إيران

---

(١) ابن الأثير: ص١٥٨.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ٥ ص١١.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص١٥٩.

(٤) المصدر نفسه. البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص١٩١، ١٩٢، وهو اختصار كتاب: نصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية، لعماد الدين محمد بن محمد ابن حامد الأصفهاني في الكاتب. الراوندي: ص١٠٩.

والعراق تؤلفان وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسي وبالزعامة السياسية للسلطان السلجوقي.

علاقة الخلافة العباسية مع السلطنة السلجوقية

ابتدأت العلاقات العباسية ـ السلجوقية بالظهور ابتداء من عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) عندما أعلن طغرلبك قيام دولته في خراسان، وأضحى السلاجقة منذ ذلك التاريخ يمثلون ظاهرة جديدة في حياة دولة الخلافة العباسية، فقد اختلف موقفهم عن موقف أسلافهم البويهيين، فكانوا يحترمون الخلفاء تديناً ينبع من عقيدتهم ونشأتهم السنية.

وظلَّت العلاقات وثيقة بين الطرفين ما يقارب ثمانية عشر عاماً، والراجح أن الظروف السياسية التي أحاطت بهما ومن بينها مقاومة النفوذ الشيعي المتمثل بالبويهيين، وبأبي الحارث أرسلان البساسيري والدولة الفاطمية؛ حتَّمت أن تكون هذه العلاقات وثيقة.

لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الطرفين إثر دخول السلطان طغرلبك بغداد حيث اعترف به الخليفة القائم سلطاناً على جميع المناطق الخاضعة لسيطرته، وفوَّض إليه حكم ما يفتحه من المناطق الغربية، فقد حدث أن بدأ هذا السلطان يبسط سيطرته على العراق واستقر جنده في بغداد، واستأثر بالسلطة دون الخليفة، فأقام نظاماً جديداً قائماً على الثنائية من واقع الفصل بين سلطان الخليفة الروحي وبين السلطات المدنية التي اختص بها السلطان السلجوقي، فالخليفة هو القائد الروحي والسلطان السلجوقي هو الحاكم الفعلي المدني، وصارت هذه الثنائية بعد ذلك أمراً مقرراً معترفاً به في الوضع الدستوري الإسلامي[١]، وانعزل الخليفة في قصره وفوَّض الأمر كله إلى السلطان طغرلبك، وأضحى مقيداً لا يستطيع التصرف حتى بأملاكه الخاصة، وصار يعيش من إقطاعات مقررة يحصل على دخلها لسد نفقاته الخاصة[٢].

الواضح أن محاولة السلطان طغرلبك الاستئثار بجميع السلطات في العراق حتى المتعلقة باختصاصات الخليفة، دفعت بالعلاقات بين الجانبين إلى التدهور، فقد أناب السلطان السلجوقي عنه في حكم بغداد، وقبل أن يعود إلى الري، موظفاً

---

(١) معوض، أحمد: أضواء على تاريخ المشرق الإسلامي وحضارته، ذروة عصر السلاجقة العظام ص٦٨.

(٢) الراوندي: ص١٧٦.

سلجوقياً أطلق عليه اسم العميد[١]، وعيَّن موظفاً آخر لحفظ الأمن يُعرف بالشحنة[٢] يأتمر بأمره، ويتمتع بنفوذ واسع حتى على الخليفة، كما ترك في بغداد حامية عسكرية، وأقطع المدن لخواصه، وحمل معه موارد العراق المالية إلى الخزانة السلجوقية، فأضحى الخليفة، نتيجة هذه الإجراءات، مجرداً تماماً من سلطاته، واستأثر نواب السلطان بالسلطة.

ومما زاد الأمور تفاقماً، محاولة السلطان ربط البيتين العباسي والسلجوقي بالمصاهرة، فخطب ابنة الخليفة متجاوزاً تقاليد الخلافة العباسية، وهذا مطمح لم يسع إليه أحد من قبل[٣].

ويبدو أن إقدامه على هذه الخطوة، كان وسيلة لتدعيم نفوذه السياسي برابطة أدبية قوية مع الخلافة العباسية، لكن الراجح أن السلاجقة طمعوا في منصب الخلافة، إلا أنهم افتقروا إلى شرط النسب بوصفهم أعاجم، وهدى التفكير السلطان طغرلبك إلى الزواج من ابنة الخليفة أملاً في أن يلد منها ولداً يكون له من شرعية النسب وقوة السلاجقة ما يوصله إلى سدة الخلافة[٤].

كان رد فعل الخليفة سلبياً، فقد انزعج من هذا الطلب، واستعفى السلطان، فلم يُعفه، فاشترط الخليفة صداقاً كبيراً للتعجيز وإبطال الزواج، فلجأ السلطان عند ذلك إلى استعمال الشدة، فأمر وزيره عميد الملك الكندري بأن يقبض الإقطاعات العائدة للخليفة ولا يترك له إلا ما كان باسم الخليفة القادر سابقاً[٥]، كما أن الوزير الكندري أخذ أيضاً يُضيق الخناق على عمال الخليفة ويوقف أرزاقهم[٦]، فاضطر الخليفة عندئذٍ، نتيجة عوامل الضعف والخوف، وتحت الضغط، إلى قبول طلبه، وجرى حفل الزفاف ليلة الاثنين (١٥ صفر ٤٥٥هـ/ ١٧ شباط ١٠٦٣م) بخراسان[٧]، ولما تمَّ الزواج أمر السلطان برفع الحجر عن أملاك الخليفة[٨].

وعبَّر الخليفة عن استيائه من معاملة السلطان الجائرة له في رسالة بعثها إليه، ومما جاء فيها: «ما رجونا من ركن الدين ما صنع، وما توقعنا ما وقع، وبين يديك الإقطاعات فاقطعها، وقد ارتفعت الموانع فامنعها»[٩].

---

(١) **العميد**: موظف يساعد الشحنة في إدارة الولاية.

(٢) **الشحنة**: هو المحافظ في عصرنا. (٣) البنداري: ص٢١.

(٤) أمين، حسين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص١٣٥، ١٣٦.

(٥) البنداري: ص١٨ ـ ٢٠. (٦) الراوندي: ص١٧٦، ١٧٧.

(٧) الحسيني: ص٢١. (٨) ابن الجوزي: جـ٨ ص٢٢٤.

(٩) البنداري: ص١٩٣، ١٩٤.

لم ينجم عن زواج السلطان طغرلبك بابنة الخليفة القائم ما خططَّ له السلطان، بفعل أنه كان عقيماً وطاعناً في السن، كما أنه كان عليلاً وقت الزواج، فلم ينعم بعروسه، فتوفي من دون أن يترك وريثاً يخلفه في الحكم، وكان ذلك يوم الجمعة (٨ رمضان ٤٥٥هـ/ ٤ أيلول ١٠٦٣م) عن عمر يناهز السبعين عاماً[١].

التوسع السلجوقي باتجاه الأراضي البيزنطية

تمهيد

تعاونت الدولة البيزنطية مع الأتراك منذ زمن طويل، إذ أن مشروعاً لقيام تحالف تركي ـ بيزنطي كان قائماً منذ القرن السادس الميلادي، وقد خدم الأتراك في الجيش البيزنطي كمرتزقة، كما التحقت أعداد كثيرة منهم في صفوف الجيوش الإسلامية المرابطة على الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية، إلا أنه لم يكن للعنصر التركي أي أثر على الامبراطورية إلى حين ظهور السلاجقة على حدودها الشرقية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فتبدَّل الموقف السياسي والعسكري عندئذٍ. فبعد أن كانت بيزنطية تجد على حدودها في القرن السابق دولة إسلامية ضعيفة ومنقسمة على نفسها مذهبياً وسياسياً، فإذا بها تجد سلطنة قوية متماسكة مكَّنت المسلمين من استئناف التوسع على حسابها، وكان ذلك في الوقت الذي دخلت الأمبراطورية البيزنطية في مرحلة من الركود والضعف بعد زوال الأسرة المقدونية في عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) وما تبع ذلك من صراع الطبقتين العسكرية والمدنية[٢].

دوافع التوسع

كان الباعث على التوسع السلجوقي باتجاه الأراضي البيزنطية ثلاثة أسباب: دينية، اقتصادية وسياسية.

ففيما يتعلق بالسبب الديني، فقد وضع السلاجقة الكبار نصب أعينهم هدفاً راحوا يعملون على تحقيقه ألا وهو نشر الإسلام فيُ أوسع رقعة ممكنة، وبخاصة بين جيرانهم النصارى، وأعني بهم الأرمن والبيزنطيين، الأمر الذي يكسب حروبهم طابع الجهاد الديني كما يكسبهم عطف المسلمين جميعاً، وأن اقترابهم من حدود الكرج والبلاد الأرمنية[٣] والبيزنطية، هيَّأ لهم الفرصة لأن يواصلوا حركة الجهاد المقدس

---

(١) الراوندي: ص١٧٨. الحسيني: ص٢١، ٢٢. ابن الأثير: جـ٨ ص١٨٣.

(٢) Vasiliev: History of the Byzantine Empire I p429.

(٣) **أرمينية**: تشتمل أرمينية على أوسط البقاع وأكثرها ارتفاعاً من المنطقة الجبلية الواقعة في غرب آسيا وهي البلاد الجبلية الشاسعة التي تحدها غرباً آسيا الصغرى وشرقاً هضبة أذربيجان =

الذي سبق أن قاموا به في الشرق ضد الأتراك الوثنيين، وقد حرص السلطان طغرلبك على أن يجعل أتباعه الأتراك تحت تصرفه بشكل دائم يوجههم في حملات مختلفة ويستفيد منهم في الجهاد ضد الكفار.

وفيما يتعلق بالسبب الاقتصادي، فإن تدفق الأتراك من بلاد ما وراء النهر في أفواج جديدة بعد تأسيس الدولة السلجوقية في خراسان وإيران والعراق، جعل الأرض تضيق بهم، فأخذوا يبحثون عن مراع جديدة وغنية، فوجدوا ضالتهم في أراضي الدولة البيزنطية، يؤكد ذلك ما رواه ابن الأثير في سبب غزو إبراهيم ينال، أخ السلطان طغرلبك، للأراضي البيزنطية «أن خلقاً كثيراً من الغز مما وراء النهرقدموا عليه، فقال لهم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم (البيزنطيين) وتُجاهدوا في سبيل الله وتغنموا»[1].

أما فيما يتعلق بالسبب السياسي، فقد كان لبلاد الأرمن أهمية سياسية وعسكرية في علاقة المسلمين ببيزنطية، وكانت الدول الإسلامية على مر العهود لا تُفرِّط بهذه البلاد حتى انتزعتها الأسرة المقدونية من أيديهم في عهد الامبراطور باسيل الأول (٢٥٣ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٦٧ ـ ٨٨٦م)، فارتبطت أرمينية عندئذٍ بنوع من التحالف والعلاقات الودية مع بيزنطية، وذلك في عهد ملكها آشوط الأول من الأسرة البغراطية، وأضحت دولة حاجزة ضد المسلمين في الشرق[2]، لكن هذه التبعية بقيت مزعزعة بسبب انقسام الأرمن فيما بينهم. وهكذا تناوب الطرفان، الإسلامي والبيزنطي على البلاد إلى أن خضعت نهائياً للبيزنطيين في عهد باسيل الثاني (٣٦٥ ـ ٤١٦هـ/ ٩٧٦ ـ ١٠٢٥م) عندما تنازل حنا سمباد في عام (٤١٢هـ/ ١٠٢١م)

= والشاطىء الجنوبي لبحر قزوين، ومن الشمال والشمال الغربي البلاد الواقعة على البحر الأسود، وبلاد القوقاز. وإذا نظرنا إلى أرمينية من الوجهة الجغرافية فإن الجبال الوعرة التي تمتد بين بحيرة أرغيش شمالاً وسهول آشور جنوباً يجب أن تُعدُّ كذلك جزءاً من أرمينية. وتشكل هذه المنطقة فاصلاً بين الساميين في الجنوب والأرمن الذين ينتسبون للجنس الآري في الشمال. وأرمينية هي بلاد الأنهار التي تنساب في جميع الجهات وأشهرها دجلة والفرات والرس الذي يفصلها عن بلاد القوقاز، وأهم بحيراتها، بحيرة أرغيش. وتقسم البلاد الأرمنية إلى قسمين: أرمينية الكبرى، وتمتد من نهر الفرات غرباً إلى الإقليم المجاور لنهر كر شرقاً، وتتوسطه مدينة خلاط. أما أرمينية الصغرى فتشمل إقليم تفليس وما حوله. الحموي: جـ١ ص١٥٩ ـ ١٦١.

(١) الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٦٨، ٦٩.

(٢) العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية ص٣٣٨، ٣٣٩.
Cambridge Medieval History IV p140.

للامبراطور البيزنطي عن أملاكه بعد وفاته على أن يظل يحكمها أثناء حياته[1]، وقد أقدم على هذه الخطوة بهدف حماية بلاده من غارات السلاجقة والأبخاز[2] فضلاً عن تهديد أخيه آشوط له والحروب الداخلية التي شهدتها البلاد، وجرى على نهجه سنحاريب، ملك فاسبوركان[3]، بعد أن أدرك أنه ليس بوسعه أن يقاوم السلاجقة، وذلك مقابل الحصول على سيواس[4].

أدرك السلطان طغرلبك عندئذٍ أهمية السيطرة على أرمينية وكسر الطوق البيزنطي من أمام المسلمين تمهيداً للتوغل داخل الأراضي البيزنطية لمواصلة حركة الجهاد وإشباع رغبة أتباعه.

وعلى هذا النحو يصح أن ندرك الأسباب التي من أجلها بدأ التوسع السلجوقي باتجاه الأراضي البيزنطية.

العمليات العسكرية

نفذ السلاجقة إلى الجهات الشمالية الغربية من إيران وقاموا بغارات ضد الكرج والأرمن، والبيزنطيين، سالكين الطرق التقليدية للغزو[5]، ولا يبدو أن الحملات الأولى التي قاموا بها اتخذت طابعاً مفاجئاً؛ لأن الدولة البيزنطية تعرَّضت سابقاً، وعلى مراحل متقطعة منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، لغارات كان يقوم بها بعض المغامرين من الأتراك، غير أنها لم تُشكِّل تهديداً فعلياً للامبراطورية البيزنطية، إذ كان هدفها استطلاع أوضاع المنطقة ونهبها، ولم تتعرَّض بيزنطية لغارات خطيرة من قبل السلاجقة إلا منذ عهد الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس (٤٣٣ ـ ٤٤٧هـ/ ١٠٤٢ ـ ١٠٥٥م) حيث بدأ التهديد الفعلي الذي انتهى بفتح السلاجقة القسم الأكبر من آسيا الصغرى.

(١) توفي سمباد في عام ١٠٤٠م فخلفه في الحكم ابنه كاجيك الثاني الذي تنازل نهائياً عن أملاكه لبيزنطية.

(٢) **الأبخاز**: اسم ناحية من جبل القبق (القبجاق) المتصل بباب الأبواب، وهي جبال صعبة المسالك وعرة لا مجال للخيل فيها، تجاور بلاد اللان، يسكنها أمة من النصارى يقال لهم: الكرج، وفيها تجمعوا ونزلوا إلى نواحي تفليس. الحموي: جـ١ ص٦٤.

(٣) **فاسبوركان**: إحدى مقاطعات أرمينية.

(٤) Cambridge Medieval History: IV p163.
وسيواس: هي سبسطية، ولاية تركية تقع في شمالي بلاد الروم (آسيا الصغرى) تحدها شمالاً قسطموني وطرابزون، وشرقاً أرزن الروم ومعمورة العزيز، وجنوباً حلب وأدرنة، وغرباً أنقرة.

(٥) Cahen, C: Pre-Ottoman Turkey p23.

ارتكب الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس خطأ فادحاً عندما استبدل الخدمة العسكرية في المناطق الحدودية الشرقية لآسيا الصغرى، بضريبة سنوية؛ لأن ذلك قلَّل من عدد الرجال في جيش الحدود، واضطر أن يلجأ في معالجة أمر السلاجقة إلى الأسلوب نفسه الذي لجأ إليه أسلافه في درء الخطر الفاطمي من قبل وهو الامتناع عن مقاومة الغزاة[١].

وقام السلاجقة في عهد الامبراطور المذكور بغارتين كبيرتين على الأراضي البيزنطية، قاد الاولى إبراهيم ينال في عام (٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، في حين قاد الثانية السلطان طغرلبك في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م)، ونتيجة لهاتين الغارتين تهيأت الفرصة للمغيرين القيام بخطوات مستقبلية، بهدف الاستيطان.

أغار إبراهيم ينال على الأبخاز (الكرج) وأرمينية فوصل إلى ملازكرد[٢]، وتابع إلى أرزن[٣]، وقاليقلا[٤]، وبلغ طرابزون[٥] على شاطىء البحر الأسود[٦]، ودمَّر خلال غاراته القرى والضياع والقلاع، وسبى وغنم كثيراً، غير أن الكارثة الكبيرة حلَّت بأرزن المدينة المعروفة بثرائها، ذلك أن إبراهيم ينال حاول انتزاع هذه المدينة التجارية الغنية غير أنه جوبه بمقاومة ضارية من جانب أهلها، فأضرم النار فيها فاحترقت بكاملها، وهلك عدد كبير من سكانها وأُسر الباقون الذين بيعوا في أسواق الرقيق، وشكَّل خراب المدينة أفدح كارثة حلَّت بأرمينية، وتُعدُّ بداية انهيار الوطن الأرمني[٧].

تردَّد الولاة البيزنطيون في بادىء الأمر في اتخاذ أي إجراء ضد المغيرين، غير أنه لما انحاز إليهم أمير الكرج ليبارتس، الذي يُعدُّ من أتباع الامبراطور، نهضوا لقتال إبراهيم ينال، فاشتدت الحرب بين الطرفين، وأحرز المسلمون السلاجقة النصر،

---

(١) رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، جـ٢ ص٦٩، ٧٠.
(٢) **مانزيكرت أو منازكرد أو ملازكرد:** بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم، يُعدُّ من أرمينية وأهله أرمن. الحموي: جـ٥ ص٢٠٢.
(٣) **أرزن أو أرزن الروم:** مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. المصدر نفسه: جـ١ ص١٥٠.
(٤) **قاليقلا:** بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد. المصدر نفسه: جـ٤ ص٢٩٩.
(٥) **طرابزون:** ميناء بآسيا الصغرى يقع على البحر الأسود.
(٦) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٨، ٦٩.
(٧) Chamician: History of Armenia II p138. Finlay. G: History of the Byzantine Empire p522.

وألحقوا الهزيمة بالجيش البيزنطي، في معركة كابوترو[١]، وكان يساند الجيش البيزنطي في هذه المعركة، حكام أرمينية البيزنطية مثل كاميناس وأهارون البلغاري وغريغوار، أحد الأمراء الأقوياء، بالإضافة إلى الأمير الكرجي ليبارتس الذي وقع في الأسر مع جماعة من قادته، «وغنم المسلمون من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه إحصاء»[٢].

ويبدو أن السلطان طغرلبك لم يكن راغباً في فتح باب العداء آنذاك مع القسطنطينية، ولعله أراد إظهار قوة السلاجقة وأن بإمكانه تهديد الأراضي البيزنطية في الوقت الذي يريد، أو أنه أراد التفاهم مع البيزنطيين وتحييدهم في الصراع الذي كان ينوي فتحة مع الفاطميين في بلاد الشام، لذلك أطلق سراح القائد الكرجي ليبارتس بعد مفاوضات جرت بين الجانبين، السلجوقي والبيزنطي، والواضح أن الامبراطور بدوره لم يجد حلاً لإطلاق سراح الأمير الكرجي ووقف الغارات السلجوقية على الأراضي البيزنطية، سوى الدخول في مفاوضات مع السلطان السلجوقي[٣].

وطلب السلطان طغرلبك من الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس في عام (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) السماح له باجتياز أراضي بلاده للوصول إلى بلاد الشام ومصر، لكن الامبراطور رفض الطلب بحجة وجود هدنة بينه وبين المستنصر الفاطمي، ثم طلب منه مقاطعة الفاطميين فأجابه: «صاحب مصر مجاور لنا وبيننا وبينه هدنة وقد بقي منها سنتان ولا يمكن فسخها»[٤].

ويبدو أن الدولة البيزنطية لم تكن راغبة في السماح للسلاجقة المندفعين بقوة بالتمركز على حدودها؛ لأنهم قد يشكلون خطراً عليها، وفضَّل البيزنطيون التعاون مع الفاطميين الضعفاء للوقوف في وجه الزحف السلجوقي.

وهكذا فشلت محاولة السلطان التفاهم مع البيزنطيين للتفرغ للقضاء على الدولة الفاطمية، ولا شك بأن هذا الرفض لمشروُع المشاركة في تدمير الفاطميين كان من الأسباب التي حملت السلطان طغرلبك على مباشرة الحرب بنفسه على جبهة أرمينية قبل أن يتوجه إلى بغداد، وأذن لأتباعه التركمان بمهاجمة إقليم قارص. والواقع أن

---

(١) **كابوترو:** قلعة تقع في إقليم أردشوفيد الواقع بالقرب من سهل باسيان.
(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩.
(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص١٣٩.
Grousset, R: Histoire de L'Armenie pp588 - 590.
(٤) المقريزي: جـ٢ ص٢٢٤.

غارات هؤلاء لم تنقطع، واستمر المغامرون منهم يشعلون نار الحرب[١]، وكان اجتياح الإقليم المذكور مقدمة للحملة الكبيرة التي سيقوم بها السلطان طغرلبك ضد الأراضي البيزنطية.

وفعلاً قاد السلطان في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) الحملة الكبيرة الثانية إلى داخل الأراضي الأرمنية وقد تجهَّز بالفيلة والعربات وآلات الحصار، فأغارت عساكره على المناطق الواقعة بين بحيرة ڤان وسهل أرزن والجبال الواقعة خلف طرابزون بالإضافة إلى أنحاء متفرقة من أرمينية، وفتحت مدينة باركري، الواقعة على الطريق بين أرجيش وخوي شمال غربي بحيرة ڤان، ثم سارت نحو أرجيش القريبة من خلاط، فطلب أهلها الأمان لقاء فدية، وقد شملت كميات كبيرة من الذهب والخيول والبغال، توجَّهت بعدها إلى ملازكرد وحاصرتها وضيَّقت على أهلها، ولكنها فشلت في اقتحامها، فرفع السلطان الحصار عنها، وأرسل بعض فرقه العسكرية لتغير على أنحاء متفرقة من أرمينية، وتوجَّه مع بقية الجيش نحو مدينة أرزن الواقعة إلى الشمال الغربي من إقليم باسيان، فاستولى عليها، ثم عاد أدراجه إلى ملازكرد ليضع عليها الحصار مرة أخرى، إلا أنه اضطر للمرة الثانية إلى رفعه والعودة إلى أذربيجان، ولعل لذلك علاقة بمقتل أبسجود ـ زام، والد زوجته، وتدمير أكبر منجنيق لديه أثناء الحصار، والمعروف أن باسيليوس حاكم المدينة قاد عملية التصدي للقوات السلجوقية بنجاح، ودمَّر السلطان أثناء انسحابه ما صادفه من قرى ومزارع مجاورة ونهبها، وذلك بهدف تدمير البنية الاقتصادية للبلاد وإضعاف قدرة السكان والدولة على المقاومة، وترك في المنطقة جماعة من أتباعه الرواد لمواصلة الغارة[٢].

كانت نتيجة التوغل السلجوقي في عمق الأراضي البيزنطية، ونجاح السلاجقة في تنفيذ غارات ناجحة، أن عرض السلطان على الامبراطور مشروعاً للتحالف موجَّه ضد الفاطميين، فرفض الامبراطور العرض وأخبر الفاطميين بذلك[٣].

تغيَّر الموقف العسكري لصالح السلاجقة بدءاً من عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) حينما تقرر سحب العساكر البيزنطية من المناطق الأرمنية لمساندة إسحاق كومنين في ثورته ضد ميخائيل السادس[٤]، فشغرت المراكز الحدودية من أي مقاومة جديَّة ما أغرى

---

(١) Grousset: pp 596, 597. Finlay: p533.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص١١٦، ١١٧.

Chamician: II pp 142 - 146.

(٣) سيرة المؤيد في الدين داعي دعاة الدولة الفاطمية: ص١٢٥.

(٤) دخلت الامبراطورية البيزنطية عقب وفاة الامبراطور باسيل الثاني عام (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) في =

السلاجقة فاجتاحوا كبادوكيا، وهاجموا ملطية وأغاروا على الأقاليم الواقعة عند ملتقى فرعي نهر الفرات، وتوغَّل قُتُلْمُش بن إسرائيل في جوف آسيا الصغرى، ففتح قونية[١]، وآقسرا[٢] ونواحيهما[٣].

وجدَّد السلاجقة هجماتهم على الأملاك البيزنطية في عهد الامبراطور قسطنطين العاشر دوكاس (٤٥١ ـ ٤٥٩هـ/ ١٠٥٩ ـ ١٠٦٧م)، فتوغَّلوا في العام الأول من حكمه في عمق الأراضي البيزنطية، فبلغوا مدينة سيواس، وقتلوا جماعة من أهلها ممن قاومهم وعادوا محملين بالغنائم بعد أن أحرقوا المدينة[٤].

رد الفعل البيزنطي

شكَّلت الغارات السلجوقية الأولى على أرمينية والكرج والأراضي البيزنطية ضغطاً متزايداً على صدر الامبراطورية التي بدت عاجزة عن صدها، ما اضطر الساسة البيزنطيين للتحرك على ثلاثة محاور متباعدة ومتناقضة من أجل وقف المد السلجوقي الذي وصل إلى مسافة قريبة من العاصمة البيزنطية.

كان المحور السلجوقي هو الأول في سياسة البيزنطيين من أجل احتواء خطر السلاجقة، فقد أرسل الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس سفارة إلى السلطان طغرلبك في عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م)، عقب معركة كابوترو، من أجل:

- عقد هدنة بين الجانبين مدتها أربع سنوات.
- إطلاق سراح الأمير الكرجي ليبارتس.
- إقامة علاقات ودية بين الجانبين.
- الدعاء للخليفة العباسي وللسلطان السلجوقي في مسجد القسطنطينية بدلاً من المستنصر الفاطمي.

= مرحلة اضطراب سياسي، وشهدت تغييرات مستمرة فيمن تولى العرش من الأباطرة. وفي عام (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) اشتد ضغط رجال البلاط على الامبراطورة تيودورا كيما تختار من يلي الحكم من بعدها، فاختارت ميخائيل السادس، ولما توفيت اعتلى العرش، غير أنه لم يحكم سوى سنة واحدة، فقد نادى الجيش المرابط في آسيا الصغرى بالقائد إسحاق كومنين امبراطوراً، فزحف إلى العاصمة فدخلها وتولى الحكم.

العريني: ص٨٢٢، ٨٢٣.

Grousset: pp596, 597.

(١) **قونية**: من أعظم المدن بالروم وبها وبآقسرا سكنى ملوكهم. الحموي: جـ٤ ص٤١٥.

(٢) **آقسرا**: مدينة مشهورة بالروم.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن...: تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص١٦٢.

(٤) Psellus: Chronographia: pp 277 - 302. Grousset: p608.

وافق السلطان طغرلبك على البنود أعلاه[1]، وهو لم يشأ أن يعادي البيزنطيين في هذه الأثناء، كما أشرنا.

ويبدو أن الخطبة أقيمت بعد عودة رسول السلطان من العاصمة البيزنطية.

وأرسلت الامبراطورة تيودورا (٤٤٧ ـ ٤٤٨هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٠٥٦م) في العام الأول من حكمها سفارة أخرى محملة بالهدايا إلى السلطان طغرلبك الذي كان آنذاك في بغداد، وقد عبر أفرادها أراضي الإمارة المروانية في ديار بكر، ثم انحدروا إلى بغداد، والمعروف أن الأمراء المروانيين كانوا آنذاك حلفاء الطرفين، السلجوقي والبيزنطي، كان هدف السفارة رغبة الامبراطورة في إقامة علاقات ودية بين الجانبين، وكان رد السلطان إيجابياً حيث أرسل سفارة إلى القسطنطينية تحمل الهدايا وطلباً بإعادة بعض المدن الحدودية الإسلامية، مثل ملازكرد والرها وأنطاكية، ودفع جزية سنوية[2].

الواقع أن غارات القبائل التركمانية ضد الأراضي البيزنطية لم تنقطع طيلة مدة الهدنة، ويبدو أن السلطان طغرلبك فشل في كبح جماحها، بفعل أن السلب والنهب من عادة القبائل البدوية ويرون فيها وسيلة طيبة للكسب، لكن السلطان نفسه التزم بنصوصها، فلم يُرسل أي حملة إلى المناطق الخاضعة للنفوذ البيزنطي.

وكان المحور الغربي هو الثاني، إذ في الوقت الذي كان البيزنطيون يجرون مفاوضات مع السلاجقة من أجل تبريد مناطق الحدود بينهما، سعى الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس إلى التقرب من البابا ليو التاسع (٤٤١ ـ ٤٤٦هـ/ ١٠٤٩ ـ ١٠٥٤م)، فأرسل إليه كتاباً في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) دعاه فيه إلى عقد سلام بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، ردَّ البابا عليه بجواب ودي طمأنه فيه بوقوفه إلى جانبه[3].

وجدَّد الامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوقاس (٤٥١ ـ ٤٥٩هـ/ ١٠٥٩ ـ ١٠٦٧م) اتصاله بالبابوية، فكتب إلى البابا إسكندر الثاني (٤٥٣ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦١ ـ ١٠٧٣م) في أوائل عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) يدعوه إلى ما دعا سلفه، البابا الراحل ليو التاسع، إلا أنه تمادى حين أبدى استعداده لـ:

---

(١) Cahen: La diplomate Orientale de Byzance Face a La Poussée Seldjukide p12.

(٢) Aristakes de Lastivert: Histoire d'Armenie Tr: M. Canard p96.
Cahen: p14.

(٣) الجدير بالذكر أنه في هذا العام حدث الانفصال النهائي بين الكنيستين اللاتينية الغربية والأرثوذكسية الشرقية.

ـ الاعتراف بتقدم كنيسة روما من أجل تحرير القبر المقدس في فلسطين من أيدي المسلمين الفاطميين.

ـ وضْع ابنه كرهينة لديه.

ـ وضْع خزانة الامبراطورية تحت تصرفه من أجل إنجاح المشروع[1].

الواضح أن البيزنطيين كانوا يسعون بأي وسيلة لوقف التمدد السلجوقي في أراضيهم، والذي كان يُهددهم تهديداً مباشراً، وكان دافع الأباطرة إلى هذا التصرف هو الخوف من قوة السلاجقة المتنامية في الوقت الذي اعترى الضعف الفاطميين في مصر[2].

وشكَّلت محاولة البيزنطيين التقارب مع الفاطميين، المحور الثالث في سعي بيزنطية لاحتواء الخطر السلجوقي، فقد سعت إلى إيجاد علاقة ود وتحالف مع الفاطميين للوقوف في وجه المد السلجوقي الذي مثَّل خطراً مشتركاً على كليهما، وكان هدف السفارة التي أرسلها الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس سنة (٤٣٩هـ/ ١٠٣٧م) إلى المستنصر، التعاون في وجه الخطر السلجوقي، وأهم ما طلبه هو تجديد معاهدة سابقة بين الطرفين[3]. وفعلاً تجدَّدت الهدنة بينهما، وأرسل الامبراطور البيزنطي هدية إلى المستنصر اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر، فاستغل هذا الأخير هذه العلاقات الجيدة لتحسين الأوضاع الاقتصادية في دولته، وأرسل على أثر المجاعة التي شهدتها مصر في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م)، رسالة إلى الامبراطور البيزنطي حملها القاضي أبو عبد الله القضاعي، يطلب منه أن يمده بأربعمائة ألف إردب من القمح[4].

أبدى الامبراطور استعداده لإجابة الطلب، غير أنه توفي قبل أن يُنفِّذ ذلك، وخلفته الامبراطورة تيودورا، فاشترطت لمساعدة مصر اقتصادياً أن يوافق المستنصر على عقد معاهدة دفاع مشترك، وأن ينجدها بعساكره إذا تعرَّضت بلادها للاعتداء، ومما لا شك فيه أنه لو تمَّ عقد هذه المعاهدة لكانت موجهة ضد السلاجقة.

ويبدو أن المستنصر كان لا يملك القوة الضرورية للمساعدة، أو أنه كان حريصاً

---

(١) Gay, J: L'Italie Meridonal et L'Empire Byzantine P867.

(٢) العبد الغني، عبد الرحمن محمد: موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة ص٤٠.

(٣) الإشارة هنا إلى معاهدة عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م).

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ٢ ص١٨٢. خطط المقريزي: جـ٢ ص١٥٧.
Schlumberger: Un Empereur Byzantine au dixiéme siècle III pp 188-189.

على ألا يظهر بمظهر من يتعاون مع قوة نصرانية ضد أخرى مسلمة أمام رعاياه من ناحية وأمام المسلمين بعامة من ناحية أخرى[1]، لذلك رفض طلب الامبراطورة، وردَّت هذه بأن منعت إرسال الغلال إلى مصر، فتعرَّضت العلاقات بين الدولتين إلى نكسة قوية أعادت الصراع من جديد إلى ساحل بلاد الشام بخاصة، وتوجَّهت الامبراطورة نحو السلاجقة للتعاون معهم ضد الفاطميين، فرحَّبت برسول السلطان الذي قدم من العراق يحمل رسالة تتضمن التماساً من السلطان بالسماح لرسوله بالصلاة في جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك وأُقيمت الخطبة فيه للخليفة العباسي القائم.

الواضح أن العلاقات بين الجانبين، الفاطمي والبيزنطي، وصلت إلى درجة من السوء تبادلا فيها المناوشات العسكرية على الحدود بينهما في شمالي بلاد الشام، وعلى الرغم من محاولة كل منهما الوقوف في وجه الخطر السلجوقي إلا أنهما فشلا في احتوائه، ومما لا شك فيه أن السلاجقة شكَّلوا خطراً حقيقياً على مصالح كل منهما في شمالي بلاد الشام، وكان ذلك دافعاً قوياً لبيزنطية للسعي لإبرام المعاهدات مع السلاجقة[2].

---

(١) العبد الغني: ص٤٢.

(٢) المرجع نفسه.

الفصل الرابع

السلطان ألب أرسلان

(٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م)

ظروف اعتلاء ألب أرسلان العرش

تُوفي السلطان طغرلبك من دون أن يُخلِّف ولداً يرثه في الحكم من بعده فبرزت فوراً مشكلة وراثته، وشكَّلت وفاة أخيه جفري بك المبكرة في (صفر ٤٥٢هـ/ آذار ١٠٦٠م) سبباً آخر لنشوب النزاع الداخلي على العرش، وكان هذا قد ترك عدداً من الأبناء أكبرهم ألب أرسلان، فخلفه في حكم خراسان وما وراء النهر، وكان حاكماً على هذه المناطق عندما توفي عمه السلطان طغرلبك يساعده وزير ذكي قدير واسع الحيلة يُسمى أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي، ويُلقب بنظام الملك، ورأى ألب أرسلان أنه أحق بوراثة عمه واعتلاء عرش السلاجقة، ورغب وزيره في أن يصبح وزيراً لسلطان السلاجقة، فشجعه على إعلان نفسه سلطاناً على السلاجقة وخليفة لعمه المتوفي[1].

غير أن السلطان طغرلبك كان قد تزوج بأرملة أخيه جفري بك، فأقامت معه هي وابنها سليمان بن جفري الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره، وقد طمعت في تعيينه ولياً للعهد وأقنعت زوجها السلطان، فكتب وصية بذلك. وما إن توفي حتى نهض وزيره أبو نصر الكندري فنفَّذ وصيته وأجلس سليمان على عرش السلاجقة بالري، وأمر بأن يُخطب له على المنابر، وهكذا بُرزت على المسرح السياسي مشكلة التنازع على العرش السلجوقي واحتمال حدوث اشتباك بين الطرفين المتصارعين ما يُهدِّد كيان الدولة[2].

وعلم ألب أرسلان بجلوس سليمان على العرش في الري، فاستاء وصمَّم على السير إلى مدينة الري للقبض عليه، وصادف هذا التوجه هوى في نفوس كثير من

---

(١) الراوندي: ص١٨٥، ابن الأثير: جـ٨ ص١٨٥.

(٢) البنداري: ص١٩٨، ١٩٩.

أمراء البيت السلجوقي فساندوه، فأدرك عندئذٍ الوزير الكندري خطورة الوضع السياسي، ورأى من حسن السياسية الخضوع للأمر الواقع خشية أن يتعرض لغضب ألب أرسلان، وطمعاً في أن يظل متمتعاً بشيء من الجاه، فأعلن انضمامه إلى ألب أرسلان وأمر بقراءة الخطبة باسمه في الري، وبأن يكون سليمان ولياً لعهده[١].

وهكذا انتهت هذه الفتنة، واستتبَّ الأمر لألب أرسلان في (ذي الحجة ٤٥٥هـ/ كانون الأول ١٠٦٣م)[٢]، واعترف أكثر أفراد الأسرة السلجوقية به سلطاناً.

التنازع على منصب الوزارة

لم يكد التنازع على العرش السلجوقي ينتهي لصالح السلطان ألب أرسلان، واستتباب الأمور له حتى لاحت في الأفق السياسي ملامح بروز مشكلة جديدة تمثَّلت بالتنافس على منصب الوزارة، بين عميد الملك الكندري، وزير السلطان طغرلبك، ونظام الملك، وزير السلطان ألب أرسلان، فقد كان الأول مقيماً بالري عندما وصل إليها السلطان ووزيره، فتقرَّب إليه بالهدايا، وأكَّد ولاءه له حتى تطمئن نفسه، ولاحظ الثاني ميل كثير من الجند إلى جانب عميد الملك الكندري بسبب ما كان يغدق عليهم من أموال والتفافهم حوله، فخشي مغبة هذا الأمر، وأدرك أنه يود الاحتفاظ بمنصب الوزارة ما يُشكِّل خطراً على مستقبله السياسي، لذلك قرَّر التخلص منه قبل أن يُمكِّن لنفسه، فراح يُحرض السلطان عليه ويضخم له خطره، ولم يزل به حتى أوجس السلطان خيفة منه، فأمر بالقبض عليه وأودعه السجن في نيسابور. واستقر نظام الملك في كرسي الوزارة من دون منافس، غير أن حياته لم تزل تؤرقه، فحثَّ السلطان على التخلص منه، فنقله إلى مرو الروذ وأمر، فقُتل يوم الأحد (١٦ ذو الحجة ٤٥٦هـ/ ٢٩ تشرين الثاني ١٠٦٤م)[٣]، فهدأت نفس الوزير نظام الملك واطمأن على ضمان منصب الوزارة.

شكَّل مقتل الوزير عميد الملك الكندري فاتحة أعمال التخلص من عدد من الوزراء السلاجقة عبر تاريخهم، وطال القتل الوزير نظام الملك نفسه، وقد حذَّر الوزير عميد الملك الكندري من هذه السُنَّة السيئة، فحمَّل قاتله رسالتين شفويتين، واحدة للسلطان ألب أرسلان والثانية للوزير نظام الملك.

(١) البنداري: ص٣٠، ٣١. ابن الأثير: جـ٨ ص١٨٥.

(٢) الراوندي: ص١٨٥.

(٣) الحسيني: ص٢٤، ٢٥. الراوندي: ص١٨٦، ١٨٧. يذكر الراوندي أن السلطان قتل وزيره وهو في مدينة نسا. ابن الأثير: جـ٨ ص١٨٨.

جاء في الرسالة الأولى: «هذه منة مباركة أسديتها لي، فلقد أعطاني عمك هذه الدنيا لأحكمها، وأعطيتني أنت الدار الأخرى باستشهادي، وعلى ذلك قد أحرزت الدنيا والآخرة بخدمتكم».

وجاء في الرسالة الثانية: «لقد ابتدعت بدعة سيئة، ووضعت قاعدة خبيثة بقتل الوزراء، وإني لأرجو أن تُتَبَعَ فيك وفي أعقابك هذه السُنَّة التي ابتعتها معي»[١].

الثورات التي واجهت السلطان ألب أرسلان في بداية حياته السياسية

ثورة شهاب الدولة قُتْلُمُش بن إسرائيل: واجه السلطان ألب أرسلان، في مستهل حياته السياسية، ثورة قام بها مطالب بالعرش هو ابن عمه شهاب الدولة قُتْلُمُش بن إسرائيل، وذلك في (١٠ محرم ٤٥٦هـ/ ٣ كانون الثاني ١٠٦٤م)، وأعلن أنه أحق من ألب أرسلان بالسلطة، فجمع جيشاً كبيراً وزحف به باتجاه الري مركز السلطة ليستولي عليها، فلما علم السلطان بذلك أرسل قوة عسكرية على وجه السرعة للتصدي له، بقيادة ساوتكين، ثم جهَّز جيشاً كثيف العدد وخرج على رأسه من نيسابور واصطحب معه وزيره نظام الملك، فلما وصل إلى دامغان[٢]، أرسل إلى قُتْلُمُش ينهاه عن الخروج مقابل العفو عنه ومراعاة قرابته، فرفض واغتر بمن معه من جموع، فنهب قرى الري، وحتى يوقف تقدم الجيش السلطاني أجرى الماء على وادي الملح وهي سبخة، فحجز بينهما، وسلك السلطان طريقاً في الماء وتبعه جنده، والتقى بقُتْلُمُش وجيشه بالقرب من الري. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية ظهرت خلالها مواهب الوزير نظام الملك وحنكته العسكرية، وهو الذي أدَّى دوراً كبيراً في إدارة المعركة التي أسفرت عن انتصار السلطان. وفرَّ قُتْلُمُش من أرض المعركة وقد أُصيب بجراح متوجهاً إلى قلعة كردكوه وهي من معاقله، غير أنه وُجد ميتاً في حظيرة غنم، والراجح أنه مات متأثراً بجروحه[٣].

ثورة بيغو: لم يكد السلطان ألب أرسلان يقضي على ثورة ابن عمه شهاب الدولة قُتْلُمُش بن إسرائيل حتى فوجىء بثورة أخرى قادها عمه بيغو بن ميكائيل، حاكم هراة وأكبر السلاجقة سناً، وقد عزَّ عليه أن يكون تابعاً لابن أخيه. واجه السلطان هذه الثورة بحزم، فقضى عليه ودخل هراة، فعفا عن عمه وأكرمه وأحسن صحبته[٤].

(١) الراوندي: ص١٨٧.

(٢) **دامغان**: بلد كبير بين الري ونيسابور وهو قصبة قومس. الحموي جـ٢ ص٤٣٣.

(٣) الحسيني: ص٣٠ ـ ٣٢. ابن الأثير: جـ٨ ص١٩٢، ١٩٣.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص١٩١.

ثورة أمير ختلان[1]: انتهز أمير ختلان وفاة السلطان طغرلبك والتنازع الداخلي حول خلافته، فتوقف عن دفع الخراج وتحصَّن بقلعته، فسار إليه السلطان وقاتله. وحدث أن أصيب الأمير الثائر بسهم، أثناء القتال وهو على شرفة من سور القلعة يُحرض الناس على القتال، أودى بحياته، فاختل نظام جنده وانهزموا، ودخل السلطان القلعة وضمَّها إلى أملاكه[2].

ثورة أمير صغانيان[3]: خرج أمير صغانيان موسى على حكم السلطان ألب أرسلان وتحصَّن بإحدى قلاعه، فهاجمه السلطان واستولى على قلعته قهراً وأخذه أسيراً وأمر بقتله، واستولى على ولايته كلها، وعاد إلى مرو ومنها إلى نيسابور[4].

ثورة ملك كرمان: خرج أميركرمان قرا أرسلان في عام (٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م) على حكم السلطان ألب أرسلان بتحريض من وزيره، فاستبد بالبلاد وقطع الخطبة للسلطان، فسار إليه ألب أرسلان وقاتله وهزمه، فتحصَّن هذا بقلعة جيرفت[5]، وأرسل إلى السلطان يُظهر الطاعة ويسأل العفو عن زلته، فعفا عنه السلطان[6]. انتهز السلطان فرصة وجوده في المنطقة، فسار إلى فارس، فاستولى على قلعة اصطخر، وهي من أهم مدنها وحصونها، وأطاعه أمراء الحصون كلها[7].

وعلى هذا الشكل استطاع السلطان ألب أرسلان القضاء على كل الحركات المناوئة لحكمه، وبسط سلطانه على أرجاء الدولة السلجوقية كافة، واستتبَّ له الأمر، وتوطَّد سلطانه، وراح يخطط للتوسع وزيادة رقعة دولته.

العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

كان على السلطان ألب أرسلان أن يحصل من الخليفة على اعتراف يُضفي على حكمه شرعية في نظر المسلمين، جرياً على عادة الدول السلطانية واقتداء بسلفه السطان طغرلبك، ولتحقيق ذلك عمل على التقرب من الخليفة القائم وكسب رضاه، فأعاد ابنته، زوجة السلطان طغرلبك، إلى بغداد مدركاً أن الزواج قد تمَّ من دون رضا الخليفة، ومنحها خمسة آلاف دينار لتستعين بها في طريق العودة، وأرسل معها الأمير أيتكين السليماني ليقوم على خدمتها إلى بغداد وعيَّنه شحنة بها، فوصل الركب

(١) **ختلان**: بلاد مجتمعة وراء النهر بسمرقند. الحموي: جـ٣ ص٣٤٦.
(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص١٩٠، ١٩١.
(٣) **صغانيان**: ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ. الحموي: جـ٣ ص٤٠٨، ٤٠٩.
(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص١٩١.
(٥) **جيرفت**: مدينة بكرمان ومن أعيان مدنها. الحموي: جـ٢ ص١٩٨.
(٦) الحسيني: ص٤١، ٤٢. (٧) المصدر نفسه.

إلى بغداد في (١٥ ربيع الآخر ٤٥٦هـ/ ٦ نيسان ١٠٦٤م)، وخرج عميد الدولة ابن الوزير فخر الدولة بن جهير لاستقبال ابنة الخليفة الذي سُرَّ بعودتها، ورحَّب برسل السلطان السلجوقي الجديد ومنحهم التقليد بالسلطنة، وأمر بأن تُقام الخطبة للسلطان ألب أرسلان في مساجد بغداد، وأن يكون لقبه «السلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملة أبا شجاع ألب أرسلان محمد بن داوود»[1].

كان السلطان ألب أرسلان مقيماً آنذاك في أذربيجان، فاستقبل رسل الخليفة ولبس الخلع وبايع للقائم العباسي، وكان من الطبيعي أن يُعبِّر له عن شكره بالهدايا، فأرسل إليه عشرة آلاف دينار وزناً، ومائتي ثوب إبريسمية أنواعاً، كما أمر الناظر ببغداد بتسليم الخليفة عشرة آلاف دينار أخرى وعشر أفراس وعشر بغلات[2].

وهكذا حقَّق السلطان ألب أرسلان ما كان يرنو إليه وهو إضفاء الشرعية على حكمه واستقطاب الخليفة العباسي إلى جانبه، والملفت أنه لم تُتح له ظروفه السياسية زيارة العراق، ولم يدخل بغداد طيلة مدة حكمه، لكننا نلاحظ استمرار الحال كما كانت عليه أيام السلطان طغرلبك من استئثار السلطان السلجوقي بالسلطة من دون الخليفة. ففي عام (٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، عيَّن السلطان ابنه ملكشاه ولياً للعهد من بعده، وأمر بأن يُخطب له في جميع البلاد التي يحكم فيها ومنها بغداد؛ من دون أن يأخذ رأي الخليفة في ذلك التعيين، وفي تلك الخطبة، ولم يُبلِّغه رسمياً إلا في عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م) أي بعد ستة أعوام[3].

وبلغ من استئثار السلطان ألب أرسلان بالسلطة أنه عيَّن في العام المذكور أبا العلاء محمد بن الحسين وزيراً، وخلع عليه، ولقَّبه بوزير الوزراء، وأمر بإقطاعه نصف إقطاع الوزير فخر الدولة بن جهير، ثم أرسله إلى بغداد ليتولى مهام وزارة الخليفة، وجرى ذلك كله من دون علم الخليفة، فاستاء لذلك وعدَّه تدخلاً في شؤون الخلافة الخاصة، ورفض استقبال أبي العلاء ولم يسمح له بمقابلته[4].

وكان الشُحن الذين يعينهم السلطان السلجوقي يتمتعون بنفوذ كبير في بغداد يفوق قدرة الخليفة على الحد منه، وعلى الرغم من وجودهم في عاصمة الخلافة، فهم لا يأتمرون إلا بأمر السلطان، وكان الخليفة لا يملك إلا أن يخضع لنفوذهم وسلطتهم

(١) ابن الجوزي: جـ٨ ص٢٣٤، ٢٣٥. ابن الأثير: جـ٨ ص١٩١، ١٩٢. ابن كثير، الحافظ، أبو الفداء. البداية والنهاية جـ١٢ ص٩١.
(٢) ابن الجوزي: المصدر نفسه.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٠٦. ابن كثير: جـ١٢ ص٩٤.
(٤) البنداري: ص٢١١.

أو يرفع الشكوى من تصرفاتهم في بعض الأحيان إلى السلطان السلجوقي، من ذلك أنه في عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م) قدم إلى دار الخلافة أيتكين السليماني، شحنة بغداد، فقصد الخليفة لينال عفوه، وأقام أياماً فلم يُجب إلى ذلك، وكان سبب غضب الخليفة عليه أنه استخلف ابنه في منصب الشحنة ببغداد قبل أن يغادرها لمقابلة السلطان، فقتل أحد مماليك دار الخلافة ولم يستطع الخليفة، أن يرد على ذلك العدوان بالاقتصاص منه، فكتب إلى السلطان يطالب بإخراجه من المدينة وتعيين غيره. استجاب السلطان لطلب الخليفة، فعزل أيتكين السليماني وعيَّن سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد مكانه، فاستقبله الخليفة[1].

التوسع السلجوقي باتجاه أرمينية

الواضح أن غارات السلاجقة ضد الأراضي البيزنطية ظلّت، حتى وفاة السلطان طغرلبك في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) تستهدف غالباً السلب والنهب من دون محاولة الاستقرار[2]، إنما كانت خطوة تمهيدية استطلعت خلالها القوات السلجوقية أوضاع وطبيعة المنطقة، هذا على الرغم من أن السلطان السلجوقي كان شديد الاهتمام بالطرف الشمالي الغربي لسلطنته، إلا أن ابن أخيه وخليفته السلطان ألب أرسلان أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين، فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطية بالسيطرة على أرمينية، وبلاد الكرج، والاستقرار في ربوعهما قبل أن يمضي لتحقيق هدفه الأساس، وهو مهاجمة الفاطميين في بلاد الشام، وبدا واضحاً أن الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين سوف يزداد عنفاً وبخاصة أن البيزنطيين أدركوا أخيراً مدى فداحة الخطر الذي يُهدِّد الامبراطورية في الشرق[3].

ونتيجة لذلك، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الامبراطورية البيزنطية في دور جديد، وكان السلطان ألب أرسلان قبل قيامه بغزو البيزنطيين قد وثّق علاقاته مع كل من السلطتين الغزنوية والخانية عن طريق المصاهرة، فزوَّج أحد أبنائه من ابنة السلطان إبراهيم الغزنوي، كما زوَّج ابنه الأكبر ملكشاه من ابنة طمغاج خان ملك الخانيين، ثم أخضع أذربيجان، بعد أن خرج أهلها على حكمه، وطوَّع تركمان المناطق الحدودية، وكان التحكم في تحركات هؤلاء وتوجيههم وفق ما يخدم مصالحه ويُحقِّق طموحه من المشكلات المعقدة التي واجهته، وبخاصة أن السلب

(١) البنداري: ص٢١٠. ابن الأثير جـ٨ ص٢٢٨.

(٢) Grousset: Histoire des Croisades I p30.

(٣) عنَّان، محمد عبد الله: موقعه ملازكرد. مجلة الثقافة، العدد ٥٠٠، السنة ١٩٤٨م، ص٧.

والنهب كان عماد حياتهم، ما هيَّأ له أن يُركِّز اهتمامه ويتفرَّغ لغزو البيزنطيين وهو مطمئن.

قام السلطان ألب أرسلان بحملة كبيرة ضد الأقاليم النصرانية المجاورة لحدود دولته، وقاد جيشه نحو جنوبي أذربيجان ثم توجَّه غرباً لفتح بلاد الكرج والمناطق المطلة على بلاد البيزنطيين، وكان سكان الكرج يُكثرون الغارة على أذربيجان فأضحوا مصدر قلق لسكان المنطقة، وانضم إليه وهو في مدينة مرند بأذربيجان أحد أمراء التركمان ويُدعى طغتكين، وكان دائم الغارة على تلك المنطقة، عارفاً بمسالكها. اجتاز الجيش السلجوقي نهر الرس[1] على جسر من السفن في طريقة إلى بلاد الكرج، ولما وصل إلى نخجوان[2] فصل قوة بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره نظام الملك وأمرهما بالغارة على وادي الرس، فهاجما حصوناً ومدناً بيزنطية منها حصن سُرماري[3]، ومدينة ميريم نشين الحصينة وفتحاهما[4]، وتوجَّه هو على رأس القسم الآخر من الجيش إلى بلاد الكرج، فأغار على خوي[5] وسلماس[6] ونخجوان وثرياليت[7]، وكويليسكور[8]، كما اجتاح أقاليم عدة أخرى، وبذلك يكون السلطان السلجوقي قد اجتاح شمالي أرمينية كله حتى وصل إلى إقليم التاو وطاييك في بلاد الكرج، وبسط نفوذه على البلاد الجبلية الواقعة شمالي

(١) **الرس**: نهر يجري في أرمينية ويصب في بحر قزوين، ويسميه ابن الأثير نهر أرس، ويسميه ابن حوقل نهر الرس، ويُسمى في المراجع الأجنبية بنهر أراكس.
انظر: الكامل في التاريخ جـ٨ ص٦٥٣. صورة الأرض: ص٢٨٧. الحسيني: ص٣٥.
Saint Martin, J: Mémoires Historiques et Geographiques sur L'Armenie II p434.

(٢) **نخجوان**: يطلق عليها الجغرافيون المسلمون نشوي، وهي بلد بأقصى أذربيجان، تقع شمالي نهر الكر على مسافة ٩٠ كلم من مدينة خوي الشهيرة.
ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا ص١٨٩. الحموي: جـ٥ ص٢٧٦، ٢٨٦، ٢٨٧.

(٣) **سُرماري**: قلعة عظيمة، وولاية واسعة بين تفُليس وخلاط. الحموي: جـ٣ ص٤٤.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص١٩٤، ١٩٥. Grousset: Histoire de L'Armenie p.612.
وميريم نشين: تقع في إقليم شِراك الواقع بدوره في مقاطعة أرارات في أرمينية.

(٥) **خوي**: مدينة مشهورة من أعمال أذربيجان تقع على نهر يصب في نهر الرس المشهور، على مسافة ١٨٠ كلم من مدينة باركري. الحموي: جـ٢ ص٤٠٨.

(٦) **سلماس**: مدينة مشهورة في أذربيجان، تقع على مسافة ٤٢كلم من مدينة خوي. المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٣٨، ٢٣٩.

(٧) **ثرياليت**: منطقة جبلية تقع بين نهر الكر وبحيرة باركري في أرمينية.

(٨) **كويليسكور**: تقع في بلاد الكرج.

آني(١) حتى حدود بلاد الكرج.

عند هذه المرحلة من الفتوح استدعى السلطان ألب أرسلان ابنه ووزيره للانضمام إليه عند مدينة ميريم نشين، وساروا منها إلى سبيذشهر وفتحوها بعد قتال، وتابعوا سيرهم إلى مدينة أعال لال الحصينة، فقاتلهم أهلها، إلا أنهم تغلَّبوا عليهم وفتحوا المدينة وغنموا «ما لا يُحد ولا يُحصى»(٢) ومضوا إلى آني وحاصروها وضيَّقوا على أهلها الذين قاوموا الحصار بضراوة، فاضطروا إلى رفع الحصار والتراجع، فظن السكان أن الجيش السلجوقي إنما تراجع ليعيد تنظيم صفوفه ليكر ثانية على المدينة، فهرب قسم كبير منهم، ولما علم السلطان ألب أرسلان بذلك أمر بعودة الجيش إلى آني وتجديد حصاره لها، ثم اقتحمها وسيطر عليها وذلك في عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، وعيَّن السلطان عليها حاكماً من قِبله، كما ترك فيها حامية عسكرية كبيرة(٣)، وفي ذلك إشارة إلى بداية الاستقرار السلجوقي في الأراضي الأرمنية، وبعد سقوط آني بحوالي العام سقطت قارص بأيدي السلاجقة، ويبدو أن ملك الكرج هاله هذا التوغل السلجوقي في عمق الأراضي الأرمنية فهادن السلطان وصالحه على دفع الجزية، وذلك في عام (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)(٤).

نتيجة لهذا التوغل السلجوقي، سيطر السلاجقة على أرمينية التي كانت بمثابة الحصن المنيع لبيزنطية من الشرق، وأضحى الطريق مفتوحاً أمامهم للعبور إلى شمالي بلاد الشام والأناضول.

التنازع في شمالي بلاد الشام ـ ضم حلب

بعد نجاح السلطان ألب أرسلان في فتح أرمينية، وأضحى الطريق أمامه مفتوحاً للعبور إلى شمالي بلاد الشام والأناضول، هاجم في عام (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) القلاع البيزنطية في الرها(٥) وأنطاكية(٦).

(١) **آني**: عاصمة أرمينية، وقلعة حصينة ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجة، وتقع على الشاطىء الأيمن لنهر أخوريان على بُعد عشرين ميلاً عند ملتقى هذا النهر بنهر الرس، وهي بلد في الجبال. الحموي: جـ١ ص٥٩.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص١٩٦. Grousset: p612.

(٣) المصدر نفسه؛ ابن العبري: ص١٠٦. Chamichian: II pp149 - 151.

(٤) Grousset: pp 613 - 615.

(٥) **الرها**: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. الحموي جـ٣ ص١٠٦.

(٦) **أنطاكية**: قصبة العواصم، من الثغور الشامية وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، بينها وبين حلب يوم وليلة. المصدر نفسه: جـ١ ص٢٦٦، ٢٦٧.

وأغارت جماعة من الغز على المناطق الحدودية في الأناضول فاستولوا على دروب الأمانوس في عام (٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م)، وهاجموا قيصيرية(١)، حاضرة كبادوكيا في العام التالي، ووصلوا إلى نيكسار(٢) وعمورية(٣) وقونية وخونية، القريبة من ساحل بحر إيجه. وفي عام (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م) استسلمت بلاد الكرج للسلطان واستطاع إخضاع بني شداد في حرَّان(٤)، وبني عقيل في الموصل، لنفوذه، وجعلهم موالين له، وفي أوائل عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) انتزع أرجيش وملازكرد من بيزنطية، ثم عبر الفرات متوجهاً إلى حلب.

والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي، من الناحيتين السياسية والعسكرية، أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام، ثم مصر من دون تقدير الموقف البيزنطي من جهة ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى؛ لأن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف مِن شأنه أن يُهدِّد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيداً عن قواعده الخلفية.

واشتدت في هذه الأثناء غارات الأتراك على أراضي الدولة البيزنطية منطلقين من حلب، وتوغلوا فيها، ففتح هارون بن خان أرتاح(٥) في (٢٧ رمضان ٤٦٠هـ/ أول تموز ١٠٦٨م)، بعد أن حاصرها خمسة أشهر(٦).

نهض الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس (٤٦٠ ـ ٤٦٣هـ/ ١٠٦٨ ـ ١٠٧١م)، الذي خلف قسطنطين العاشر دوكاس، ليوقف تقدم المغيرين ومنعهم من التوغل أكثر في عمق الأراضي البيزنطية مدركاً أن سلامة الامبراطورية تقضي باسترداد أرمينية، فبذل جهداً كبيراً في حشد جيش من أجل هذه الغاية، وقام بثلاث حملات عسكرية ضد بلاد الشام، وأعالي الجزيرة الفراتية في الأعوام (٤٦١ ـ ٤٦٣هـ/ ١٠٦٩ ـ ١٠٧١م).

توجَّهت الحملة الأولى إلى إمارة حلب الواقعة تحت الحكم المرداسي(٧)،

(١) **قيصرية**: مدينة عظيمة في بلاد الروم هي كرسي ملك بني سلجوق ملوك الروم. الحموي: جـ٤ ص٤٢١.

(٢) **نيكسار**: إحدى مدن ولاية سيواس، تقع حالياً في شمال شرقي تركيا.

(٣) **عمورية**: مدينة في بلاد الروم.

(٤) **حرَّان**: مدينة عظيمة مشهورة في الجزيرة، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وهي على طريق الموصل والشام والروم. الحموي: جـ٢ ص٢٣٥.

(٥) **أرتاح**: اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب. المصدر نفسه: ص١٤٠.

(٦) ابن العديم: جـ١ ص٢٥٦.

(٧) **المرداسيون**: عشيرة عربية أقامت إمارة وراثية في حلب في عهد صالح بن مرداس بدءاً من عام ٤٥١هـ ودامت حتى عام ٤٤٧هـ.

واستناداً إلى ما ذكره المؤرخ والفيلسوف البيزنطي بسللوس، الذي عاش هذه الأحداث وشارك فيها وإن شاب حديثه كثير من التحامل على الامبراطور، أن رومانوس الرابع خرج من عاصمته بصحبة جيشه وزحف ضد البرابرة (الأتراك) من دون تخطيط مسبق، لا يعرف أين سيمضي أو ماذا يفعل، يُخطط ليمضي في طريق لكنه يسير في طريق آخر، توغَّل في أراضي الشام، وكل ما حقَّقه من نجاح كان فقط قيادة جيشه داخل هذه الأراضي مكتفياً بأنه زحف ضد العدو[١].

الواقع أن رومانوس الرابع اعترض، أثناء حملته هذه، جماعة من الأتراك كانت قد هاجمت نيكسار، وأرغمها على أن تتخلَّى عن الغنائم التي ظفرت بها، بالإضافة إلى أنه شنَّ بعض الغارات على إمارة حلب، واستولى على أرتاح الواقعة شرقي أنطاكية، وترك فيها حامية عسكرية، كما استولى على حصن بالس[٢]، ثم انسحب من المنطقة إثر ورود أخبار عن تقدم قوة من الأتراك بقيادة الأفشين باتجاه عمورية، والجدير بالذكر أن السلطان ألب أرسلان أرسل قائده الأفشين على رأس قوة عسكرية للتوغل داخل أملاك الامبراطورية.

وغزا رومانوس الرابع إمارة حلب أيضاً في حملته الثانية انطلاقاً من أراضي إقليم الجزيرة الفراتية، فسلك طريق سيواس - قيصرية للوصول إلى مرعش[٣] على الحدود بين بلاد الشام ومنطقة كيليكيا، ثم تابع طريقه إلى منبج[٤] الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات، فنهبها وقتل أهلها وضمَّها إلى أملاك الامبراطورية، واصطدمت قواته بقوات محمود بن صالح المرداسي وبني كلاب وابن حسان الطائي، ومن معهم من جموع العرب وانتصرت عليهم[٥].

الواضح أن رومانوس الرابع حقَّق بعض أمانيه في أطراف بلاد الشام، فحدَّ من تحركات الأتراك، بل إنه تابع مهماته العسكرية، فوصل إلى ملازكرد وعاث في أطرافها وأطراف خراسان، ثم انسحب من المنطقة عائداً إلى بلاده بسبب قلَّة المؤن[٦].

---

(١) Chronographia: p532.

(٢) **بالس**: بلد بالشام بين حلب والرقة. الحموي: جـ١ ص٣٢٨.

(٣) **مرعش**: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. المصدر نفسه: جـ٥ ص١٠٧.

(٤) **منبج**: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ، وجعلها الخليفة العباسي هارون الرشيد مدينة العواصم. المصدر نفسه: ص٢٠٥، ٢٠٦.

(٥) العظيمي: محمد بن علي: تاريخ حلب ص٣٤٧.

(٦) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد: ذيل تاريخ دمشق ص١٦٦. سبط ابن الجوزي، =

لم يكن لهاتين الحملتين نتائج خطيرة، ولم ينجم عنهما أي تغيير في وضع الأراضي باستثناء الاستيلاء على أرتاح ومنبج وبالس، وما أحرزه الامبراطور من انتصارات جزئية لم يكن حاسماً بدليل مواصلة الأتراك ضغطهم على أراضي الامبراطورية وتوغلهم في أرجائها ما اضطره إلى القيام بحملته الثالثة لوضع حد لتعدياتهم[١].

لم يسع رومانوس الرابع، بعد عودته إلى عاصمته من حروب الشام، إلا أن يعود أدراجه لمواجهة السلاجقة وإخراجهم من المناطق التي استقروا فيها، وبخاصة حول قيصرية وكبادوكيا، بالإضافة إلى السيطرة على بعض المواقع داخل الأراضي الإسلامية ليشحنها بالجند ويتخذها مراكز أمامية تواجه كل تحرك تركي في المستقبل، فترك قسماً من جيشه بالقرب من ملطية تحت قيادة فيلاريت الأرمني، وأمره أن يعترض سبيل الأتراك، غير أن هؤلاء استطاعوا إنزال الهزيمة به وفتحوا ملطية، وانسابت جموعهم إلى قلب آسيا الصغرى، ونهبوا قونية، وعندما سمع الامبراطور البيزنطي بما أصاب هذه المدينة تابع تقدمه ليوقف زحف المغيرين إلا أنه لم يكن بوسعه أن يهزمهم، فعاد إلى القسطنطينية في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) لتجهيز جيش آخر عهد بقيادته إلى مانويل كومنين، ولم يكن مصير هذا الجيش بأفضل ممن سبقه، إذ أنزل السلاجقة الهزيمة بالقائد البيزنطي قرب سيواس وأسروه[٢].

وعلى الرغم من أن توغل الأتراك في الأناضول كان يُهدد النظام البيزنطي من الداخل، إلا أن الخطر الحقيقي جاء من الشرق من خراسان، وكان لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه أوضاع الدولة الفاطمية في مصر من تدهور، وكان السلطان ألب أرسلان ينتظر فرصة سانحة ليُحقِّق حلمه بضمِّ بلاد الشام ومصر إلى الأملاك السلجوقية، وأتاح له النزاع الذي حصل بين أركان الحكم في مصر، من أجل السيطرة والتسلط على المستنصر الفاطمي، هذه الفرصة.

كان ناصر الدولة الحسين بن الحسن الحمداني، أحد أبرز القادة، في القاهرة قد انتصر على تحالف ضمَّ الوزير ابن أبي كدية وقائد عسكر الأتراك ألدكوز، وذلك في

= شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان جـ٨ ص٢٥٤.

(١) المصدران نفساهما . Psellus: pp 363, 364

(٢) Grousset: P624.

Cahen, CL: Pre - Ottoman Turkey, p71.

عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، وتمادى في تخطيطه عندما قرَّر القضاء على الدولة الفاطمية، وإقامة الدعوة للخليفة العباسي، فأرسل أبا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب إلى السلطان السلجوقي بطلب منه أن يُرسل جيشاً إلى مصر يساعده في تحقيق هدفه.

وفور تسلمه الدعوة، جهَّز السلطان ألب أرسلان جيشاً كبيراً وخرج على رأسه من خراسان متوجهاً إلى بلاد الشام لإخضاعها لسيطرة السلاجقة، ومن ثمَّ متابعة زحفه إلى مصر لإسقاط الدولة الفاطمية، وضمِّ هذا البلد إلى السلطنة السلجوقية، لكن تحركه كان بطيئاً بسبب ما صادفه من عقبات كانت أولاها في الرها الواقعة تحت الحكم البيزنطي، فحاصرها في (أوائل ٤٦٣هـ/ أواخر ١٠٧٠م). قاوم الرهاويون الحصار ببسالة بقيادة باسيل بن أسار، حاكم المدينة، واضطر السلطان إلى التفاهم مع السكان بعد نيف وثلاثين يوماً من الحصار والضرب المتواصل، ثم تابع طريقه إلى حلب(١) لضمها حتى يمنع أي محاولة التفاف من جانب البيزنطيين من جهة الجنوب، غير أن قسماً من جيشه تقاعس عن المضي معه بسبب تأخير أرزاقهم، فاضطر أن يتابع زحفه بمن بقي معه من الجيش وعددهم أربعة آلاف مقاتل، فعبر نهر الفرات في (١٤ ربيع الآخر ٤٦٣هـ/ كانون الثاني١٠٧١م) ودخل أراضي الإمارة، وقدَّم له جميع أمراء الجزيرة الفراتية الولاء، أمثال شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل، ونصر بن مروان أمير ميافارقين، وابن وثَّاب، أمير حرَّان بالإضافة إلى أمراء الترك والديلم(٢).

وتقاعس محمود بن نصر المرداسي أمير حلب عن تقديم الولاء للسلطان السلجوقي، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه معارضة الشيعة في المدينة لإعادة مذهب أهل السنة، وربما أدرك أنه سيفقد استقلاله إذا تجاوب مع مطالب السلطان السلجوقي، فأرسل إليه السلطان القاضي أبا جعفر محمد بن البخاري يدعوه للقدوم إليه لتقديم الولاء والطاعة ودوس بساطه أسوة بسائر أمراء الجزيرة الفراتية، وفتح أبواب حلب لاستقباله(٣)، لكن محموداً رفض الدعوة بتحريض من ابن خان أحد القادة الأتراك، وآثر الاعتصام بحلب والدفاع عنها، واستنفر الرجال من جميع أنحاء بلاد الشام، وتأهب لمقاومة الحصار الذي سوف يفرضه الجيش السلجوقي على المدينة، ويبدو أنه اطمأن إلى أن ولاءه للعباسيين

(١) ابن العبري: ص١٠٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٢. ابن العديم: جـ١ ص٢٦١.
(٢) ابن العديم: المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٦١، ٢٦٢.

وللسلطان السلجوقي وارتداء خِلَع الخليفة، التي أُرسلت إليه في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، كافيان لحمايته من هجوم السلطان، لكنه فوجيء بوصوله إلى حلب في (أواخر جمادى الآخرة ٤٦٣هـ/ أوائل نيسان ١٠٧١م) وضَرْبه الحصار عليها، واتخذ السلطان من الفنيدق(١) مركزاً لقيادته «وكانت الخيام والعساكر من حلب إلى نقرة بني أسد إلى عزاز إلى الأثارب، متقاربة بعضها من بعض، ولم يتعرَّض أحد من العسكر بمال أحد، ولا سُبيت حَرمة، ولا قاتل حصناً، ولم يأخذ عليقة تبن من فلاح إلا بثمنه. استمر الحصار مدة شهر ويومين، ولم يجر قتال غير يوم واحد وكان يقول لأتباعه: أخشى أن أفتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم»(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد فشل السلطان في اقتحام المدينة، ولعل مرد ذلك يعود إلى شدة المقاومة، ومتانة الأسوار، وإشراك محمود بن نصر جميع القبائل العربية في الدفاع عنها، بالإضافة إلى طبيعة تكوين الجيش السلجوقي الذي يعتمد على الفرسان الخفاف، والمعروف أن عمليات الحصار تتطلب جنوداً من المشاة وهو ما افتقده الجيش السلجوقي. ولم تتوقف المفاوضات خلال أيام الحصار للوصول إلى حل، لكن من دون جدوى، بسبب التصلب في المواقف، واضطر السلطان أخيراً إلى فك الحصار عن المدينة، إلا أنه خشي على سمعته بعد إخفاقه في اقتحام الرها وأَخْذِ حلب، ما ينعكس سلباً على دولته الناشئة وبخاصة بعد ورود أنباء عن ظهور الامبراطور رومانوس الرابع في أرمينية وهو عازم على مهاجمة خراسان(٣)، لذلك لجأ إلى السياسة لتفريق الكلابيين وإضعاف موقف محمود بن نصر، فاستدعى جميع أمراء بني كلاب ليختار أميراً منهم يُعينه على حلب ويُفوِّضه السعي للاستيلاء على المدينة، وانتزاعها من محمود بن نصر، على أن يتفرغ هو لمواجهة الخطر البيزنطي(٤).

لبَّى الأمراء دعوة السلطان، وامتثلوا لأمره، ويدل ذلك على أن التنازع كان متفشياً بين العشائر الكلابية، وأن محموداً لم يتمكَّن من جمع شمل القبيلة تحت رايته، وعندما علم محمود بهذا التحول، خشي على سلطته في حلب وبخاصة أن «البلد قد أشرف على الفتح»، فتحرك بسرعة باتجاه السلطان، وسعى إلى التوصل إلى مصالحة معه تحفظ ملكه وتُفوِّت الفرصة على خصومه من الأمراء الكلابيين(٥).

(١) **الفنيدق**: من أعمال حلب، ويُعرف الآن بتل السلطان، نسبة إلى السلطان ألب أرسلان. الحموي: جـ٤ ص٢٧٩.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص٢٦٢، ٢٦٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٦٣.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص٢٦٣، ٢٦٤.

وإذا كان لنا أن نُقوِّم تصرف الكلابيين، فإنهم أخطأوا، فلم يستغلوا الفرصة التي سنحت لهم للتضامن ومقاومة الخطر السلجوقي، فأتاحوا للسلاجقة أن يفرضوا سلطتهم عليهم، وقد يعود ذلك إلى طبيعتهم البدوية وتنافسهم على الزعامة.

ومهما يكن من أمر، فقد خرج محمود بن نصر من حلب متخفياً بزي الأتراك (ليلة الأول من شعبان ٤٦٣هـ/ ٤ أيار ١٠٧١م) بصحبة والدته منيعة بنت وثاب النميري، وتوجَّه إلى معسكر السلطان، فرحَّب به هذا الأخير، وجرت بين الرجلين مفاوضات أسفرت عما يلي:

- يخرج محمود بن نصر في اليوم التالي علناً ليزور معسكر السلطان ويدوس بساطه، ويُقدِّم فروض الولاء والطاعة.

- يوافق السلطان على بقاء محمود أميراً على حلب على أن يكون تابعاً له، ويدعو للخليفة العباسي وللسلطان السلجوقي[1].

وفعلاً خرج محمود في اليوم التالي من حلب وتوجَّه إلى معسكر السلطان وحمل معه مفاتيح المدينة، واصطحب معه والدته، فاستقبلهما السلطان ورحَّب بهما وأكرمهما وأحسن إليهما، وثبَّت محموداً في حكم حلب وكتب له توقيعاً بذلك[2]، فأضحى بموجبه تابعاً فعلياً ورسمياً للسلطان، ومتولياً من قِبله وبتوقيعه، وليس أميراً حاكماً بقوته الذاتية يستطيع في كل لحظة نقض الولاء[3].

الاصطدام السلجوقي - البيزنطي في ملازكرد

قرَّر الامبراطور رومانوس الرابع القيام بمحاولة أخرى لاسترداد أرمينية ووقف غارات الأتراك على آسيا الصغرى، مستغلاً انهماك السلطان ألب أرسلان بالحرب في بلاد الشام، لكن يبدو أن أهدافه كانت أبعد من ذلك، فقد أراد اختراق ثغور المسلمين من ناحية الجزيرة الفراتية والتوغل في عمق الأراضي الإسلامية، بدليل أنه أقطع قادته، الذين كانوا يرافقونه، مصر والشام وخراسان والري والعراق مستثنياً بغداد، وأوصى بعدم التعرض للخليفة؛ لأنه كان صديقه، واستناداً إلى ما أورده أحد المؤرخين المسلمين[4] أن رومانوس الرابع أراد أن يُشتّي في العراق ويُصّيف في العجم، وعزم على تخريب بلاد المسلمين، فخرج في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) على

(١) ابن العديم: جـ١ ص٢٦٤. الحسيني: ص٣٩.
(٢) ابن القلانسي: ص١٦٧. العظيمي: ص٣٢٦. الحسيني: ص٣٧.
(٣) ضامن، محمد: إمارة حلب في عهد السلاجقة: ص٩٦، ٩٧.
(٤) سبط ابن الجوزي: ص٢٨٠.

رأس جيش ضخم[1] تألف معظمه من المرتزقة الروم والفرنج والنورمان والروس والبجناك والكرج والكومان، لم يكن من بينهم جميعاً غير فئة قليلة من الجنود المحترفين ما جعل هذا الجيش يفتقر إلى حسن التنظيم والقدرة القتالية[2].

ووضع رومانوس الرابع خطة تقضي بالاستيلاء على حصون أرمينية وشحنها بالجند قبل قدوم السلاجقة من جهة الجنوب، ثم مهاجمة مؤخرة الجيش السلجوقي في محاولة لتطويقه، فتابع زحفه حتى وصل إلى قيصرية، وهنا بدأ يُفكِّر جدياً بالعودة إلى القسطنطينية تحت أي عذر، ولا تمدنا المصادر التي بين أيدينا بسبب محدد لذلك حتى أن بسللوس نفسه الذي رافق الامبراطور في هذه الحملة لم يذكر سبباً معيناً حمل الامبراطور على التفكير بالتراجع وهو الأقوى على الساحة العسكرية، وحاول قبل انسحابه من المنطقة أن يتوصل إلى اتفاق مع السلطان ألب أرسلان.

كان السلطان ألب أرسلان آنذاك في وضع حرج؛ لأن قسماً من جيشه قد تقاعس عن المضي في الحرب بسبب تأخير أرزاقه، واضطر أن يحاصر حلب بعد أن رفض أميرها المرداسي تقديم الولاء له، بمن بقي معه من الجيش وعددهم أربعة آلاف مقاتل، وبعد أن أخضع المدينة، غادرها إلى بلاده عن طريق الفرات، ووصلت رسل الامبراطور وهو يتهيأ لمغادرة المدينة[3].

لم يوضح بسللوس الوسيلة التي اتبعها الامبراطور من أجل التوصل إلى عقد اتفاقية الصلح[4]، في حين ذكر سبط ابن الجوزي، نقلاً عن غرس النعمة الذي عاش هذه الأحداث، أن رسل رومانوس حملت عرضاً إلى ألب أرسلان برد منبج، وأرجيش، وملازكرد إليه، وبحمل الهدية[5]، من دون أن يوضح ما سيكسبه الامبراطور مقابل ذلك.

(١) اختلفت المصادر حول عدد أفراد جيش الامبراطور، فقدَّره ابن القلانسي بستمائة ألف جندي، في حين روى سبط ابن الجوزي أنه، إي الامبراطور البيزنطي، كان في مائة ألف مقاتل ومائة ألف نشاب ومائة ألف جرجي ومائة ألف صانع وأربعمائة عربة يجرها ثمانمائة جاموس، وألف عجلة عليها السلاح والمسامير وآلات الحصار، وكثير من الذهب والثياب الفاخرة. أما ابن الأثير فقد قدَّر عدد أفراد الجيش البيزنطي بمائتي ألف جندي. وذكر أومان أن العدد هو ستون ألفاً. انظر: ذيل تاريخ دمشق ص١٦٧. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ص٢٨٢. الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٢٢٣. History of the Art of war in the Middle Ages I p219.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.
Psellus: p352 Note 1.
(٣) سبط ابن الجوزي: ص٢٨١.
(٤) The Chronographia: p354.
(٥) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: جـ٨ ص٢٨٠.

ولئن لم يقدم لنا المؤرخان المذكوران، وهما ممن عاش هذه الأحداث تفصيلاً لشروط الصلح، فإننا نجد عند ابن العبري رواية أكثر توضيحاً، لكنها جاءت مخالفة لما رواه غرس النعمة، وتفيد بأن الامبراطور عرض على السلطان أن يتنازل له عن منبج مقابل تخلي الأخير عن أرجيش وملازكرد، كما يدفع جزية سنوية، ويضيف بأن السلطان قَبِلَ مقترحات الامبراطور وتنازل له عن جميع الأراضي حتى خلاط[1]، ويتبنى الباحث هنا رواية ابن العبري؛ لأن منبج كانت آنذاك تحت السيطرة البيزنطية في حين كانت أرجيش وملازكرد تحت السيطرة السلجوقية[2].

والواضح أن السلطان ألب أرسلان كان مدفوعاً بثلاثة عوامل عندما قَبل مقترحات الامبراطور رومانوس الرابع:

الأول: كانت سياسته آنذاك تقضي بمد نفوذه إلى العالم الإسلامي، ولم تكن له أطماع سياسية في أراضي الامبراطورية البيزنطية سوى كفالة جناح جيشه أثناء زحفه نحو بلاد الشام، ورأى أن هذه الاتفاقية تؤمِّن له ذلك. أما إرساله قوة عسكرية عقب ذلك بقيادة الأفشين إلى عمق الأراضي البيزنطية[3]، فلم تكن سوى قوة استطلاع، وربما هدف إلى إجبار الامبراطور البيزنطي على سحب قسم من جيشه كي يُخفِّف الضغط عن ساحة المواجهة في بلاد الشام.

الثاني: تأخُّر الأفشين الذي كان قد أرسله للتوغل داخل الأراضي البيزنطية، فخشي أن يكون البيزنطيون قد قضوا عليه.

الثالث: إن قسماً من جيشه، وهو القسم القادم من العراقين[4]، وكان أفراده يعملون من قبل في جيش عمه السلطان طغرلبك، قد تقاعسوا من المضي في الجهاد ومحاصرة حلب، وذلك بسبب تأخير أرزاقهم، فاضطر إلى حصار المدينة بشرذمة من جنده الباقين الذين بلغوا أربعة آلاف مقاتل كما ذكرنا، فاختل نظام جيشه، واضطر إلى تغيير خططه العسكرية والسياسية؛ لأنه بهذا العدد لا يمكنه مواجهة الجيش البيزنطي الجرَّار، فجنح إلى السلم وعاد إلى الشرق عن طريق الفرات، شبه هارب.

إلا أن تسارع الأحداث عطَّل تنفيذ هذه الاتفاقية المبرمة، ويروي بسللوس «إما

(١) تاريخ الزمان: ص١٠٩. **وخلاط**: مدينة عامرة مشهورة، وهي قصبة أرمينية الوسطى، ولها بحيرة. الحموي: جـ٢ ص٣٨٠، ٣٨١.

(٢) ابن القلانسي: ص١٦٦. سبط ابن الجوزي ص٢٧٨.

(٣) ابن العبري: ص١٠٩، ١١٠.

(٤) المقصود بالعراقين: العراق العربي والعراق العجمي.

في يأس أو بسبب أنه، أي الامبراطور، كان واثقاً من نفسه أكثر مما ينبغي، زحف إلى القتال»[1].

إن في هذا الكلام بعض الغموض، لكن على الرغم من ذلك، فإنه قد فعل ذلك بغرور[2]، وهو موقن بأن النصر سيكون حليفه بعد الاستعدادات الضخمة التي اتخذها، وربما كان تصرفه هذا ناتجاً عن المعلومات التي نقلتها بعثته التي عادت من عند السلطان، فوصفت له رحيل ألب أرسلان من حلب، وحال الفوضى التي انتشرت في صفوف جيشه نتيجة تمرد بعض جنده؛ فسار باتجاه ملازكرد وخلاط.

ووصلت إلى مسامع السلطان ألب أرسلان آنذاك، وكان في خُوَي، أنباء عن ضعف القوات البيزنطية على الرغم من ضخامتها، فطمع في اغتنام الفرصة للحصول على قدر أكبر من التنازلات، لذلك قرَّر التصدي للزحف البيزنطي، ونظراً للفارق العددي بين الجيشين لجأ إلى خطة أخرى، فتابع انسحابه من المنطقة، وعبر الفرات، ما أغرى الامبراطور رومانوس الرابع فطارده، غير أنه (السلطان) توقف فجأة، فأعاد تنظيم صفوف قواته، وتأهب لملاقاة الامبراطور، وبخاصة أنه عزَّز مقدرته القتالية بمن انضم إليه من الأكراد وسائر الناس، فأضحى عديد قواته خمسة عشر ألف مقاتل[3].

وعندما وصل الامبراطور إلى أرزن، ارتكب خطأ عسكرياً عندما قسَّم قواته إلى قسمين: أرسل القسم الأول، وهم العساكر الروسية، إلى حصن خلاط الواقع على شاطىء بحيرة ڤان لمهاجمته، في حين سار بالقسم الثاني باتجاه ملازكرد واستولى عليها[4]، فأضعف هذا التقسيم قدرة الجيش البيزنطي القتالية، وتلقى وهو في ملازكرد أنباء عن اقتراب السلطان، فانحرف إلى الجنوب الغربي ليلحق بالقسم الأول من الجيش قبل أن ينقضَّ عليه الأتراك[5]، غير أن السلاجقة كانوا قد هزموا مقدمة جيشه، التي هاجمت خلاط[6]، عندئذٍ وجد رومانوس الرابع نفسه وجهاً لوجه

(١) The Chronographia: p355.

(٢) ابن العبري: ص١١٠.

(٣) ابن العديم: جـ١ ص٢٦٦. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٣. سبط ابن الجوزي: ص٢٨٥. اختلفت المصادر أيضاً في تقدير عدد أفراد الجيش السلجوقي، فذكر ابن القلانسي أنه كان أربعمائة ألف مقاتل، في حين قدره ابن كثير بعشرين ألفاً، ويذكر أومان أنه مائة ألف. انظر: ذيل تاريخ دمشق: ص١٦٧. البداية والنهاية: ج١٢ ص١٠١.
A History of the Art of War in the Middle Ages p214.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٣.   (٥) Oman: p219.

(٦) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٣.

أمام الجيش السلجوقي في جنوبي ملازكرد، وتحديداً بين ملازكرد وخلاط في مكان يُعرف بالزهوة[1].

حاول السلطان ألب أرسلان استغلال نصره الجزئي على العساكر الروسية كي يتفاوض مع الامبراطور رومانوس الرابع لتسوية الأمور العالقة بينهما بالتفاهم، فأرسل مبعوثاً إلى الامبراطور يعرض عليه عقد هدنة[2]، لم تذكرالمصادر شروطها، لكن يبدو أن السلطان عرض على الامبراطور:

- انسحاب الجيشين السلجوقي والبيزنطي من المنطقة.
- عدم مهاجمة أي طرف للطرف الآخر.
- الإبقاء على الوضع الراهن فيما يتعلق بالأراضي.

إلا أن الامبراطور رفض العرض وأشاح بوجهه بكبرياء، ولم يحاول حتى الاستماع إلى مقترحات السلطان، وتمادى حين طلب إبلاغه أن «لا هدنة إلا بالري»[3] مع ما يشكل ذلك من تحدٍّ واضح، ويذكر أومان أن الامبراطور البيزنطي أبلغ السلطان السلجوقي بأنه يجب عليه الانسحاب من المنطقة بدون شروط لينتشر فيها الجيش البيزنطي[4].

أدرك السلطان ألب أرسلان عندئذٍ حقيقة الموقف البيزنطي الهادف إلى القضاء على الدولة السلجوقية ومن ثَمَّ القضاء على دولة الخلافة الإسلامية، وأن السبيل الوحيد بمنع ذلك هو القضاء على الجيش البيزنطي، فحرَّض جنوده على الاستماتة في الدفاع عن دين الله حفاظاً على دولة المسلمين[5].

وفي المعركة الحاسمة التي دارت بين الجيشين يوم الأربعاء (٢٥ ذي القعدة ٤٦٣هـ/ ٢٤ آب ١٠٧١م)، حلَّت الهزيمة بالجيش البيزنطي ووقع الامبراطور في الأسر بعد أن جُرح «وقُتل من الروم ما لا يُحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى»[6]، كما غنم المسلمون كميات كبيرة من الذهب والفضة بحيث تقاسموها بالأرطال، وعاد المسلمون إلى أذربيجان بعد انتهاء المعركة[7].

لم يستثمر السلطان السلجوقي انتصاره، وفضَّل التفاهم مع الامبراطور البيزنطي، ربما لأنه كان ينوي التفرغ لأمور الشام، فأراد تحييده في الصراع مع الفاطميين،

(١) ابن كثير: جـ١٢ ص١٠١.
(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) Art of War... P220.
(٥) الحسيني: ص٥٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٤.
(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٧) الفارقي، ابن الأزرق: تاريخ ميافارقين ص١٨٩.

فعامله معاملة طيبة، وأجرى معه مباحثات تمَّ الاتفاق بموجبها على ما يلي:

- إطلاق سراح الامبراطور من الأسر.
- عقد هدنة بين الدولتين السلجوقية والبيزنطية.
- يؤدي الامبراطور فدية[1].
- تدفع الحكومة البيزنطية للحكومة السلجوقية جزية سنوية[2].
- إطلاق سراح كل الأسرى المسلمين في بلاد الروم[3].
- يمد الامبراطور السلطان بالعساكر اللازمة عند الطلب[4].
- الإبقاء على الوضع الراهن فيما يتعلق بالأراضي والمواقع، فيظل بأيدي السلاجقة آني وقارص وفاسبوركان وملازكرد، وتحتفظ الامبراطورية البيزنطية بأقاليم الأطراف لا سيما أرزن، ونتيجة لذلك عيَّن السلطان قبل مغادرته المنطقة والياً سلجوقياً على خلاط وملازكرد[5].

وأرسل السلطان بعد عقد الاتفاقية حاجبين ومائة غلام رافقوا الامبراطور، وشيَّعه فرسخاً[6].

نتائج معركة ملازكرد

- تُعدُّ معركة ملازكرد أقصى ما بذله البيزنطيون من جهد لوقف غارات السلاجقة، وقد أبلى الامبراطور رومانوس الرابع بلاء حسناً، وحارب بشجاعة، لكن الخيانة أدَّت دوراً مهماً في إضعاف قوته، فجيشه المرتزق الذي تألف من عناصر مختلفة متنافرة ساد بينها الكراهية كالذي وقع بين اليونانيين والأرمن وبين الكومان[7] الذين كان هواهم مع السلاجقة لانتمائهم إلى العنصر التركي، بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلوا عن امبراطورهم في تلك اللحظة الحرجة. فقد قرَّر روسل بايليل ومن معه من الفرنج الغربيين عدم خوض المعركة، كما انسحب القائد البيزنطي أندرونيقوس دوقاس من المعركة عندما أدرك أن القضية خاسرة تاركاً الامبراطور يواجه مصيره من دون أن يُخفي عداءه، وأشاع بعض القادة أثناء احتدام القتال خبر الهزيمة، ففرَّ

(١) حدَّدتها المصادر العربية بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. سبط ابن الجوزي: ص٢٨٣. وعشرة آلاف دينار: ابن العبري: ص١١١.
(٢) حدَّدتها المصادر العربية بثلاثمائة وستين ألف دينار. سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٤.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الفارقي: ص٨٩١ .Grousset: p629
(٦) سبط ابن الجوزي: ص٢٨٤، ٢٨٥.
(٧) أطلق المجريون والبيزنطيون على القبجاق، وهم من أصل تركي، اسم الكومان، في حين اشتهروا عند الروس باسم بولفتسي.

الجند تاركين الامبراطور يقع في قبضة أعدائه(١)، ولا شك بأن الصراع الداخلي بين البيزنطيين، ثم بينهم وبين العناصر الغربية في الامبراطورية لا سيما النورمان؛ انعكس سلباً على نتيجة المعركة، فكانت الهزيمة.

- أثّرت معركة ملازكرد تأثيراً بالغاً على أوضاع الجيش البيزنطي، إذ أن ما أصاب قوته الضاربة من دمار، أفقده القدرة على الدفاع عن حدود آسيا الصغرى، وبذلك لم تتمكّن الامبراطورية من مقاومة زحف الأتراك السلاجقة في تلك المنطقة، ما هيّأ لهؤلاء الفرصة كي ينسابوا إلى جوفها ويستقروا في أراضيها(٢).

- على أن ثمة حقيقة أخرى أكسبت معركة ملازكرد أهميتها الخطيرة في التاريخ، هي أن البيزنطيين لم يُقدِّروا خطورة تلك الكارثة للوهلة الأولى، وأن انتصار السلاجقة لا يعني أكثر من امتلاكهم أرمينية ثم أنطاكية والرها وكبادوكيا، غير أن هذه المقاطعات التي كانت موطن كثير من الأباطرة المشهورين، والمحاربين، والتي شكّلت في وقت من الأوقات عماد الدولة، قد فُقدت إلى الأبد، وأن الأتراك أقاموا مضاربهم على أنقاض الأمجاد الرومانية القديمة(٣).

- تُعد معركة ملازكرد، أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلّت بالامبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وجاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية النصرانية من ضغط الإسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين(٤)، وتراءى للصليبيين فيما بعد أن البيزنطيين فقدوا على أرض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم النصراني، وبرّرت هذه المعركة ما جرى من تدخل الغرب الأوروبي؛ لأن بيزنطية لم يعد بوسعها حماية العالم النصراني من جهة الشرق، وأضحت عاجزة عن أن تُلقي بجيش في المعركة لأعوام عديدة(٥).

- كانت معركة ملازكرد نقطة تحول مهمة في تاريخ غربي آسيا بخاصة وفي التاريخ الإسلامي بعامة؛ لأنها يسّرت القضاء على سيطرة البيزنطيين على أكثر أجزاء منطقة آسيا الصغرى، ما ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها بعد ذلك على أيدي الأتراك العثمانيين(٦).

---

(١) Grousset: pp628, 629. Vasiliev: p431. Oman: p221.

(٢) Vasiliev: p431. (٣) Ibid: p432.

(٤) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية جـ١ ص٨٨.

(٥) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية جـ١ ص١١٠.

(٦) حسنين، عبد النعيم محمد: سلاجقة إيران والعراق ص٥٧.

- لقد سبق لبيزنطية أن هُزمت أمام المسلمين أكثر من مرة، ومعركة ملازكرد تبقى معركة عسكرية كان بإمكان العالم البيزنطي تجاوزها، وبخاصة أن السلاجقة لم يستثمروا انتصارهم بسبب توجههم لإخضاع العالم الإسلامي ووفاة السلطان ألب أرسلان المبكرة، لكن المجتمع البيزنطي لم يكن في ذلك الوقت في وضع سليم يسمح له بتجاوز هذه الكارثة، فلقد استمر الصراع حول السلطة بين مختلف فئاته، وظل الجيش ألعوبة في أيدي الطامعين بالعرش.

- لم يكد السلاجقة ينتصرون في معركة ملازكرد حتى عملوا على إزالة آثار المعالم البيزنطية من الطرق الرئيسة في أرمينية وكبادوكيا، بالإضافة إلى الإدارة المدنية في المدن بعد أن تخلّى معظم السكان عن البيزنطيين، واستسلموا للحكام الجدد خوفاً من المجاعة. ومع ذلك، فإن السلاجقة تركوا المدن تحكم نفسها بنفسها، ولم يتدخّلوا في شؤونها الداخلية، إلا أن صورة الحياة فيها قد تغيّرت عندما أخذت تصطبغ بالصبغة الإسلامية، إذ إن انحسار النفوذ البيزنطي عن المنطقة شجّع السكان على الدخول في الإسلام، دين الفاتحين الجدد، إلا أن اعتناقهم للإسلام اتسم بالطابع الظاهري وظل أغلبهم يشرب الخمر، كما كانوا يُساقون إلى الصلاة، وخانوا المدن أثناء حصارها من قِبَل النصارى كلما سنحت لهم الفرصة(١).

- يُعدُّ الأتراك أكثر العناصر العسكرية الأجنبية إفادة من الأوضاع المضطربة التي سادت المجتمع البيزنطي والوضع السياسي بعد معركة ملازكرد، فقد حاولت الأطراف المتنازعة في بيزنطية أن تستعين بالقوات التركية ضد بعضها البعض ما أتاح للسلاجقة التوغل في صميم الحياة البيزنطية.

- أقدمت السلطات البيزنطية في القسطنطينية على عزل الامبراطور رومانوس الرابع، وأجلست مكانه ميخائيل السابع بن قسطنطين العاشر دوقاس (٤٦٣ - ٤٧١هـ/ ١٠٧١ - ١٠٧٨م)، وحاول رومانوس الرابع في غمرة هذا الصراع أن يستعين بالقوات التركية، غير أن الهزيمة لحقت به وتقرَّر إلقاء القبض عليه وسمل عينيه.

- انتهج معظم الأباطرة البيزنطيين بعد رومانوس الرابع نهجه في الاستعانة بالأتراك كلما واجهتهم محنة، فعندما أعلن روسل بايليل، قائد قوات الفرنج المرتزقة، العصيان على الدولة البيزنطية، استعان ميخائيل السابع بالقوات التركية لقمع حركته، كما استعان بالأخوين منصور وسليمان، من أقارب السلطان ألب

---

(١) Vasiliev: P412. Osman Turan: L'Islamisation dans La Turquie du Moyen Age. Studia Islamica X 1959 p148.

أرسلان، للقضاء على ثورة نقفور بوتانياتس، على أن الأخوين لم يلبثا أن تخليا عن الامبراطور ودخلا في خدمة بوتانياتس، فأنزلهما في مدينة نيقية[1]، وعلى هذا النحو استولى الاتراك على مقاطعتي جالاتيا في وسط بلاد الأناضول وفريجيا المجاورة.

ـ الواقع أن ما جرى من استخدام القوات التركية، هيَّأ للسلاجقة الاستقرار والإقامة في غربي آسيا الصغرى وعلى الحدود الشرقية القديمة للامبراطورية البيزنطية، حيث للأرمن وسكان كبادوكيا علاقات حسنة معهم، نظراً لما يكنُّونه من الكراهية للبيزنطيين بالإضافة إلى ذلك، فقد أقام بعض حاميات الحدود علاقات ودية مع السلاجقة، فتعرَّض بذلك نظام الدفاع البيزنطي للتفكك.

ـ لقد حقَّق السلطان ألب أرسلان هدفه، إذ كفل الحماية لجناح جيشه، وأزال خطر التقارب بين البيزنطيين والفاطميين، وانصرف بعد ذلك لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر، غير أنه ترك بعض قواته وأتباعه بقيادة أتسز بن أوق الخوارزمي وكلَّفهم بالاصطدام بالفاطميين وإخراجهم من بلاد الشام.

التوسع السلجوقي باتجاه جنوبي بلاد الشام

غادر السلطان ألب أرسلان المنطقة بعد المعركة، وترك بعض قواته وأتباعه بقيادة أتسز بن أوق الخوارزمي مع إخوته، جاولي والمأمون وقرلو وشكلي، وأذن لهم بالاصطدام بالفاطميين وإخراجهم من بلاد الشام.

وكان القاضي أمين الدولة، أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار، قد استبدَّ بحكم طرابلس وخلع طاعة أمير الجيوش بدر الجمالي الفاطمي، وضمَّ مدينة جبيل الساحلية إلى نفوذه واضعاً بذلك النواة الأولى لقيام إمارة بني عمار المستقلة.

وحتى يُدعم موقفه في طرابلس تقرَّب من السلاجقة، فأرسل إليه السلطان ألب أرسلان، قبل أن يغادر المنطقة، قوة عسكرية بقيادة أحد كتَّابه، ابن جابر بن سقلاب الموصلي[2].

لم يُوضِّح المؤرخون ما تقرَّر بين السلطان ألب أرسلان وأمير طرابلس، لكن يغلب على الظن أن معاهدة عدم اعتداء عُقدت بين الطرفين سُمح بموجبها لجماعة من الأتراك بالإقامة في أعمال طرابلس، بدليل ما ذكره سبط ابن الجوزي، أنه بعد

(1) **نيقية**: مدينة من أعمال القسطنطينية على البر الشرقي، وهي المدينة التي اجتمع فيها آباء الملة النصرانية وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر أباً، وهو أول المجامع لهذه الملة. الحموي: جـ٥ ص٣٣٣.

(2) ابن العديم: بغية الطلب، سيرة السلطان ألب أرسلان، ملحق بكتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية بقلم سهيل زكار ص٢٨٢.

رحيل ألب أرسلان عن حلب تخلَّف عنه جماعة كبيرة من التركمان عُرفوا بالناوكية[1]، فنزلوا الشام، وأقام قسم منهم عند طرابلس[2]، ولم يكن ذلك ليتم لولا الاتفاق بين أمين الدولة والسلاجقة، وكان على رأسهم مقدمهم قرلو، وهو الذي استنجد به ابن أبي عقيل قاضي صور لدفع الفاطميين عنه، فأنجده، ما يعني أن السلاجقة انتشروا في المناطق الساحلية، ووصلوا إلى فلسطين، وأنهم عقدوا تحالفات مع كل أمراء بلاد الشام الذين خلعوا طاعة الفاطميين[3].

وتنفيذاً لأوامر السلطان، قاد محمود بن نصر وأيتكين السليماني قواتهما وتوجها جنوباً لمهاجمة دمشق وانتزاعها من أيدي الفاطميين، وذلك في (شعبان ٤٦٤هـ/ نيسان ١٠٧٢م)، وتوقفا في بعلبك ليُخطِّطا لحملتيهما، وعلم محمود بن نصر وهو في بعلبك بأن عمه عطية هاجم حلب بالتعاون مع البيزنطيين في أنطاكية وأحرق قسماً من معرة مصرين[4]، فاضطر للعودة إلى مقر إمارته للدفاع عنها.

توجه الأتراك بقيادة أتسز، بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن المنطقة، إلى دمشق بهدف ضمها، فضربوا حصاراً عليها، وأغاروا على أعمالها، وقطعوا الميرة عنها، ورعوا زرعها، ومع ذلك فشلوا في اقتحامها[5]، فغادروها إلى فلسطين، فضمُّوا الرملة، وبيت المقدس بعد حصار، وطردوا منها الحامية الفاطمية، وانتزعوا طبرية من أيدي الفاطميين، وحاصروا يافا فهرب حاكمها رزين الدولة الفاطمي، وألغى أتسز الدعوة للمستنصر الفاطمي وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وأرسل إلى بغداد يُخبر بما حقَّقه في بلاد الشام[6]، ثم هاجم عكا وقد تحصَّن فيها بدر الجمالي، وحاصرها، وتوفي قرلو أثناء الحصار، فانسحب أتباعه، وهاجموا أثناء انسحابهم المناطق المجاورة، فاضطر أتسز نتيجة ذلك إلى فك الحصار عن عكا، وزحف شمالاً باتجاه دمشق.

(1) **الناوكية**: إنهم إحدى الجماعات التركية الغزية الذين تسربوا إلى بلاد الشام وأدوا دوراً بارزاً في الأحداث التي سبقت ومهَّدت للحملات السلجوقية النظامية إلى هذه البلاد، ويبدو أن الناوكية أُطلقت أيضاً على جموح محددة من المرتزقة الأتراك الذين يدينون بالطاعة للسلطان ألب أرسلان، ولم تكن اسماً لإحدى العشائر التركية، لكن الأتراك شكَّلوا الأكثرية العددية بينهم، ومن المحتمل أن الناوكية تعني الخوارج على السلطة. انظر: زكار ص١٣٢.

(2) مرآة الزمان: ص١٦٨.

(3) تدمري، عمر عبد السلام: لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ص١٦٢.

(4) **معرة مصرين**: بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها. الحموي: جـ٥ ص١٥٥.

(5) ابن القلانسي: ص١٦٦ ـ ١٦٨.

(6) المصدر نفسه: ص١٦٦ ـ ١٦٨. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٢٦.

لا شك بأن انتصارات أتسز وأصحابه قد فتح الآمال للأتراك الآخرين بالتحرك إلى بلاد الشام، كما أن انسحاب بدر الجمالي من عكا في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م) وذهابه إلى القاهرة بدعوة من الإمام الفاطمي لمساعدته على تمرد الجيوش هناك؛ جعل بلاد الشام خالية من أي مقاومة فاطمية ومهَّد للأتراك الطريق لضمِّها إلى الأملاك السلجوقية.

نهاية السلطان ألب أرسلان

لم يعش السلطان ألب أرسلان لينعم بجني ثمار انتصاراته، ولم يُقدَّر له أن يُواصل فتوحه ويُحقِّق أهدافه، فقد قُتل بعد عام وبضعة أشهر من فوزه الكبير في معركة ملازكرد على يد أحد الثائرين.

والواقع أن السلطان غادر بلاد الشام في (أوائل ٤٦٥هـ/ أواخر ١٠٧٢م) متوجهاً إلى بلاد ما وراء النهر، فعبر نهر جيحون على رأس جيش يُقدَّر بمائتي ألف مقاتل لقمع تمرد أصهاره الخانيين حكام تلك البلاد، حيث ساءت العلاقات بينه وبينهم بعد وفاة طمغاج خان، والد زوجة ابنه ملكشاه في عام (٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)، وقد حاول ابنه شمس الملك تكين أن يستقل عن السلاجقة، فاضطر السلطان إلى تأديبه، فحاصره وفتح قلاعاً كثيرة.

وجيء بأحد الثائرين إلى السلطان موثوقاً، ويدعى يوسف الخوارزمي، وهو صاحب قلعة بهذا الاسم، فأمر أن تُضرب له أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها، ويعذبه ثم يقتله، فقال له يوسف: «يا مخنَّث. مثلي يُقتل هذه القتلة؟»، فاحتد السلطان وقرَّر التخلص منه، فأمر بتحريره من وثاقه ثم تناول سهماً وأطلقه عليه، وكان جالساً على عرشه، فأخطأه، فنزل فعثر ووقع على وجهه، فبادره يوسف الخوارزمي وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، فوثب عليه فرَّاش أرمني فضربه على رأسه بمرزبة وقتله. وحُمل السلطان الجريح إلى خيمة أخرى للعلاج، وأحضر وزيره نظام الملك فأوصى بأن يكون ولده ملكشاه ولياً لعهده، وتوفي بعد أربعة أيام في (١٠ ربيع الأول ٤٦٥هـ/ ٢٤ تشرين الثاني ١٠٧٢م) ودفن بمرو إلى جانب والده[1].

أهمية السلطان ألب أرسلان

تكمن أهمية السلطان ألب أرسلان في أنه أرسى دعائم دولة السلاجقة ووسَّع رقعتها، فامتدت من أقاصي بلاد ما وراء النهر إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى، بعد

(١) الحسيني: ص٥٣، ٥٤. الراوندي: ص١٩١، ١٩٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٣١، ٢٣٢.

أن انتصر على البيزنطيين، ويُعد عهده من أهم عهود سلاطين السلاجقة، وأقام لخلفائه دولة قوية ثابتة الأركان، وقد ساعده في تشييدها وزيره نظام الملك الذي أنشأ المدارس النظامية وأشهرها نظامية بغداد، وقد بدأ بإنشائها عام (٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م)، كما أنشأ شرف الملك أبو سعد مدرسة للأحناف في مشهد أبي حنيفة، في السنة نفسها[1].

(١) الحسيني: ص٦٨، ٦٩.

الفَصْلُ الخَامِسُ

السلطان ملكشاه

(٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م)

اعتلاء ملكشاه السلطة

اجتمع أعيان الدولة وقادة الجيش بعد وفاة السلطان ألب أرسلان لتنفيذ وصيته، وإجراء مراسم جلوس ابنه ملكشاه على العرش السلجوقي، فبويع بالسلطنة وعمره ثمانية عشر عاماً، فألقى خطاب العرش أمام الحاضرين، وجاء فيه: «الأكبر منكم أبي، والأوسط أخي، والأصغر ابني، وسأفعل معكم ما لم أُسبق إليه. فأمسكوا، فأعاد القول، فأجابوه بالسمع والطاعة»[١]. وتدل هذه الكلمات على نزعة السلطان الجديد العادلة وامتثاله الآداب الإسلامية. والواقع أن الوزير نظام الملك كان وراء مضمون هذا الخطاب، وهو الذي تولى مع أبي سعد المستوفي أخذ البيعة له من الأمراء والوجهاء، وأغدق الأموال عليهم لاستقطابهم، وحافظ على تماسك الدولة في مرحلة انتقال السلطة.

كان السلطان ملكشاه يرافق والده في حملته ضد الخانيين، فلما خلفه عاد على رأس الجيش إلى خراسان، وجلس على العرش في نيسابور، وأسند الوزارة إلى نظام الملك، وكتب إلى حكام الأطراف بذلك حتى يطيعوا أمره ويخضعوا له، ولما اطمأن إلى خضوع الأمراء له، رأى أنه بحاجة إلى اعتراف الخليفة العباسي بسلطته، فأرسل إلى دار الخلافة يبلغها بوفاة والده ويطلب من الخليفة القائم تفويضاً بحكم البلاد التي تحت يده، وذكر اسمه في الخطبة[٢]، فوافق الخليفة على ذلك. وفي عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م) قدم سعد الدين كوهرائين إلى بغداد موفداً من قبل السلطان ملكشاه، فجلس له الخليفة ووقف على رأسه ولي العهد المقتدر، وسلّمه الخليفة عهد السلطان ملكشاه بالسلطنة، وقرأ الوزير أوله، كما سلّمه أيضاً لواء عقد الخليفة بيده[٣].

---

(١) ابن كثير: جـ١٢ ص١٠٦. (٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٤٧.

وهكذا استقر الأمر للسلطان ملكشاه، فانتقل من نيسابور إلى الري ليستكمل ما بدأه والده من مشروعات توسعية، وثبّت نظام الملك في منصب الوزارة.

المشكلات الداخلية التي واجهت السلطان ملكشاه

خروج عمه قاورد: واجه السلطان ملكشاه، في مستهل حياته السياسية، ثورة قام بها عمه قاورد بن داوود حاكم كرمان الذي أدرك أن حلمه القديم بتولي عرش السلاجقة قد أضحى ممكناً بعد وفاة أخيه ألب أرسلان، وحتى يُقوي موقفه استقطب القادة والجنود السلاجقة من واقع وعدهم بزيادة أعطياتهم وتحسين أوضاعهم في حال تسلم الحكم، فطالب هؤلاء بتنصيبه سلطاناً، وكتب إلى ابن أخيه محذراً: «أنا الأخ الكبير وأنت الولد الصغير، وأنا أولى بميراث أخي السلطان ألب أرسلان منك. فأجاب السلطان ملكشاه فقال: الأخ لا يرث مع وجود الابن»[١].

وخرج الامير قاورد من كرمان على رأس جيشه متوجهاً إلى الري لاعتلاء العرش السلجوقي، واستولى في طريقه على الأقاليم المختلفة، وأدرك نظام الملك خطورة هذه الثورة وأنها تُهدد عرش السلطان الفتى ومنصب وزيره، وأنها ستقضي عليهما وعلى آمالهما، لذلك قرَّر التصدي لقائدها، وكان الجيش السلطاني آنذاك في طريقه إلى الري، وتلقَّى مساعدات من بعض أمراء العرب والأكراد، أمثال مسلم بن قريش العقيلي وبهاء الدولة منصور بن دُبَيْس بن مزيد، فسبق جيش قاورد والتقى به بالقرب من همذان في (٢٦ جمادى الأولى ٤٦٦هـ/ ٢٧ كانون الثاني ١٠٧٤م)، ودارت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار الجيش السلطاني، ووقع قاورد في الأسر فسيق إلى ابن أخيه السلطان ملكشاه، فوَّبخه على فعلته، ولكنه رفض قتله بفعل صلة الرحم، على الرغم من إلحاح وزيره نظام الملك بالتخلص منه، وأمر به فأودع السجن[٢].

ويبدو أن الجنود الذين وعدهم قاورد بزيادة أعطياتهم وتحسين أوضاعهم، ما زال ذلك يدفعهم إلى التظاهر والعصيان، وهدَّدوا بمبايعة الأمير السجين إذا لم تلبَّ مطالبهم.

وشعر نظام الملك بحرج الموقف ودقته، وأنه لا بد من اتخاذ قرار حازم في هذه القضية لحسم النزاع، فوافق على مطالب الجنود ووعدهم بتلبيتها بعد أن يُحدِّث السلطان ويُقنعه بتنفيذها، فهدأت الأوضاع، ثم اجتمع بالسلطان وأخبره بما انتهى إليه الوضع، وأشار عليه بقتل عمه، فأمر السلطان بالتخلص منه خنقاً، ولما عاد قادة الجنود ليستفسروا عما تَمَّ بشأن مطالبهم أجابهم الوزير نظام الملك بأنه لم يستطع مفاتحة

---

(١) الحسيني: ص٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٧، ٥٨. الراوندي: ص١٩٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٣٥، ٢٣٦.

السلطان بذلك حيث وجده حزيناً على وفاة عمه الذي امتصَّ السم من خاتم في إصبعه وهو في السجن، فعادوا واجمين خائفين، وهدأت حالهم، واستتبَّ الأمن في البلاد[1].

وأقرَّ السلطان ملكشاه كرمان بيد سليمان شاه بن قاورد، وتوارثها أبناؤه حتى عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وسُميت دولتهم في التاريخ باسم سلاجقة كرمان، وأقطع السلطان أمراء العرب والأكراد الذين ساعدوه إقطاعات كثيرة لما أبدوه في الحرب من بسالة[2].

تأديب حاكم سمرقند: بعد أن أخمد السلطان ملكشاه ثورة عمه، توجَّه إلى سمرقند ليثأر من مقتل والده، فعبر نهر جيحون في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م)، ولما وصل إلى بلخ استقبله أعيانها وأكابرها من الأئمة السادة وتظلموا من الخاقانيين بسبب الغارات التي كانوا يقومون بها ضدهم، وكان خاقان تكين صاحب سمرقند قد استولى على تِرمذ عقب وفاة السلطان ألب أرسلان وضمَّها إلى أملاكه، وطلب من السلطان ملكشاه الاعتراف بحكم الأمراء الخاقانية لها، فرفض طلبه وزحف إلى هذه المدينة وحاصرها، فردم خندقها وضربها بالمنجنيق، فخاف سكانها وطلبوا الأمان فمُنحوا إياه، وكان في المدينة أخ لخاقان تكين، فأكرمه السلطان وأمره بعمارتها وتحصينها وعمارة سورها بالحجر المحكم وحفر خندقها وتعميقه، ثم غادرها متوجهاً إلى سمرقند، ففرَّ صاحبها خاقان تكين من وجهه، ثم طلب الأمان واعتذر لتعرضه لترمذ، وأخذ يضرع إلى نظام الملك لإقناع السلطان بمنحه إياها، فاستجاب لطلبه، وعندما استقرت أوضاع بلاد ما وراء النهر عاد السلطان إلى خراسان ومنها إلى الري، وأقطع بلخ وطخارستان لأخيه شهاب الدين تكش[3].

خروج أخيه تكش: سار السلطان ملكشاه في (شعبان ٤٧٣هـ/ شباط ١٠٨١م) إلى الري وعرض الجيش، فأسقط منهم سبعة آلاف جندي لم يرض عنهم على الرغم من تحذير وزيره نظام الملك؛ لأن من شأن ذلك أن يشكل تهديداً للدولة، وفعلاً مضى هؤلاء إلى أخي السلطان، المدعو تكش، وكان ببوشنج[4]، فانضموا إليه، فقوي بهم وأظهر العصيان على أخيه السلطان واستولى على مرو الروذ ومرو الشاهجان[5]، وترمذ وغيرها، وسار إلى نيسابور طامعاً في مُلك خراسان.

(١) الحسيني: ص٥٨. (٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٣٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٨، ٢٤٩. الحسيني: ص٦١.

(٤) **بوشنج**: بلدة من نواحي هراة بينهما عشرة فراسخ؛ الحموي: جـ١ ص٥٠٨.

(٥) **مرو الروذ، ومرو الشاهجان**: مدينتان في خراسان بينهما خمسة أيام، والأخيرة قصبة خراسان. المصدر نفسه: جـ٥ ص١١٢، ١١٣.

لم يتأخر السلطان ملكشاه في الخروج إلى خراسان لقمع ثورة أخيه، وسبقه إلى نيسابور وتحصَّن تكش بترمذ، فهاجمه السلطان وضرب حصاراً حول المدينة، ويبدو أن تكش لم يكن يملِك مقومات التصدي والصمود وآثر التفاهم مع أخيه، فأطلق سراح جماعة من أصحاب السلطان كان قد أسرهم، دلالة على حسن نيته، كما تنازل عن تِرمذ، ثم استسلم لأخيه الذي عفا عنه[1].

ثورات متفرقة: استغل حكام بلاد ما وراء النهر مرحلة انتقال السلطة في الدولة السلجوقية فثاروا على السلطان الجديد ملكشاه وخلعوا طاعته، فعزم على تأديبهم، ففي عام (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) استقل والي خوارزم، فهاجمه السلطان وردَّه إلى الطاعة. واستكمل السلطان ضمَّ سمرقند وبخارى في عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٧م) بعد أن شكا علماء سمرقند من ظلم واليها أحمد خان، أخو شمس الملك الخاقان تكين، فعبر النهر على رأس جيش كبير متوجهاً إلى بخارى، وضمَّ في طريقه مدناً وقرى عديدة، ولما وصل إليها دخلها وسيطر عليها وملك ما جاورها من البلاد، ثم قَصَدَ سمرقند، فحاصرها وضيَّق عليها وأعانه أهلها. ووزَّع أحمد خان أبراج السور على الأمراء الذين يثق بهم، وسلَّم برجاً يُقال له العيَّار إلى رجل علوي كان مختصاً به، فحدث أن وقع ابن له في أسر السلطان، فهدَّده بقتله، فتراخى عن القتال الأمر الذي سهَّل على القوات السلجوقية دخول المدينة، وعندما رأى أحمد خان العساكر السلجوقية على السور اختبأ في أحد منازل العامة، لكن وُشي به وحُمل إلى السلطان وفي رقبته حبل، فأرسله إلى أصفهان ومعه من يحفظه. ورتَّب أمر سمرقند، فعيَّن العميد أبا طاهر عميد خوارزم والياً عليها، ثم سار قاصداً كاشغر فبلغ أوزكند، فأرسل إلى ملك كاشغر يأمره بإقامة الخطبة وضرب السكة باسمه، وهدَّده إن خالف بالمسير إليه، ففعل وأطاع، وحضر عند السلطان، فأكرمه وأنعم عليه وأعاده إلى بلده[2].

وعاد السلطان إلى خراسان بعد أن سيطر على بلاد ما وراء النهر، غير أن الثورات تجدَّدت بعد رحيله، فتمردت قبائل الأتراك بالقرب من سمرقند بسبب عدم وصول مرتباتهم، وانضم إليهم حاكم فرغانة[3]، كما انتفض أهل سمرقند على الوالي العميد أبي طاهر بفعل الاختلاف معه في التوجهات السياسية، فخرج من المدينة ومضى إلى خوارزم، وكان مقدم الجنود الجاكلية فيها، وهو عين الدولة، قد

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٢٦ ـ ٣٢٨. الحسيني: ص٦٥، ٦٦.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٢٦.

ساند أهلها، فخشي عاقبة ذلك، فاستنجد بيعقوب تكين، أخا ملك كاشغر وصاحب آب نباشي، فلما حضر قبض على عين الدولة وقتله واستولى على الحكم في سمرقند[1].

وعندما علم السلطان ملكشاه بانتفاضة سكان سمرقند وقتل عين الدولة عاد إلى المدينة، ولما وصل إلى بخارى هرب يعقوب ومضى إلى فرغانة ولحق بولايته، وتابع السلطان طريقه إلى سمرقند فدخلها وعيَّن الأمير أبرد والياً عليها، ثم سار في أثر يعقوب حتى نزل بأوزكند وأرسل العساكر إلى النواحي للقبض عليه، فالتجأ إلى أخيه ملك كاشغر، فتوعدَّه السلطان إن لم يُسلِّمه إياه، فأرسله إليه، وحدث آنذاك أن تعرضت كاشغر لهجوم قام به طغرل بن ينال، فاقتحمها عنوة وقبض على حاكمها، وأخذه أسيراً[2].

ويبدو أن السلطان ملكشاه خشي فشل جهوده في إخضاع الثائرين أمام تعقد الموقف السياسي وسعة البلاد، فاتفق مع يعقوب وجعله مقابل طغرل يمنعه من السيطرة على البلاد، «وكل منهما يقوم في وجه الآخر»[3].

العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

ظلَّت العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، في عهد السلطان ملكشاه، كما كانت في عهد السلطان ألب أرسلان من استئثار السلطان بالسلطة دون الخليفة، وتعرَّض الخليفة في عهده لكثير من الامتهان سواء من السلطان السلجوقي نفسه أو من نوابه والمقربين إليه، وتجرأ بعض نوابه على مشاركة الخليفة في بعض مظاهره الدينية، فضرب سعد الدولة كوهرائين، شحنة بغداد، الطبول على باب داره رغماً عن الخليفة[4]، وفي عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) كتب السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدي (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م) الذي خلف الخليفة القائم، يطلب منه عزل وزيره فخر الدولة أبا نصر بن جهير، ولا يراجعه في هذا الأمر، وأن لا يكون في دار الخلافة غلمان أتراك للخاص ولا للخدم والأتباع[5]، وكلَّف شحنة بغداد سعد الدولة كوهرائين بمتابعة هذا الموضوع، فكان هذا يُرسل جنوده لملازمة دار الخلافة للضغط على الخليفة بتعجيل عزل الوزير، ووصل النزاع بين الطرفين بشأن هذه المسألة إلى حد تهديد الخليفة نفسه، وكتب الخليفة إلى السلطان يخبره بأن

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٢٦.
(٢) المصدر نفسه: جـ٨ ص٣٢٧، ٣٢٨.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٢٨.
(٤) البنداري: ص٢١٦.
(٥) ابن الجوزي: جـ٨ ص٣١٧.

وزيره هو عميد الدولة وأن والده فخر الدولة ينوب عنه فقط، غير أن جنود الشحنة قبضوا على رسوله الذي يحمل الرسالة وانتزعوها منه، وذهب الشحنة إلى دار الخلافة مطالباً بتسليم الوزير له، فاضطر الخليفة تحت هذا الضغط إلى عزل وزيره وأطلع الشحنة على أمر العزل، فانصرف[1].

وفي عام (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) ازدادت معاملة عميد العراق أبي الفتح بن أبي الليث للخليفة العباسي سوءاً، وأخذ يتدخل في اختصاصاته، فاضطر الخليفة إلى أن يبعث رسولاً إلى السلطان ملكشاه شاكياً من العميد، فكتب السلطان إلى العميد بكف يده عن جميع ما يتعلق بالخليفة[2].

لم يكتف السلطان ملكشاه باستئثاره بالسلطة وتجريد الخليفة من نفوذه، فعزم على طرده من عاصمة الخلافة وحمله إلى عاصمته أصفهان وتعيين خليفة آخر مكانه. وقد لاحظ الوزير نظام الملك تغيُّر السلطان على الخليفة المقتدي وهو ينوي خلعه من الخلافة فتدخل بدافع من تدينه وأقنع السلطان بالتراجع عن عزمه، وأرسل إلى الخليفة يُنبِّهه ويحثه على كسب ود السلطان، وأشار عليه أن يخطب ابنته لكي تتحسَّن العلاقة بينهما ويحل الود محل الوحشة بفعل المصاهرة.

استجاب الخليفة المقتدي لمشورة الوزير السلجوقي، فارسل في عام (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) وزيره فخر الدولة أبا نصر بن جهير إلى السلطان يخطب ابنته لنفسه، فسار فخر الدولة إلى أصفهان للاجتماع بالسلطان وطلب يد ابنته للخليفة، فأمره نظام الملك أن يمضي معه إلى خاتون زوجة السلطان لمخاطبتها بهذا الأمر، فقالت: «إن ملك غزنة وملوك الخانية بما وراء النهر طلبوها وخطبوها لأولادهم، وبذلوا أربعمائة ألف دينار، فإن حمل الخليفة هذا المال فهو أحق منهم. فعرَّفتها أرسلان خاتون زوجة الخليفة القائم ما يحصل لها من الشرف بالاتصال بالخليفة، وأن هؤلاء كلهم عبيده وخدمه، ومثل الخليفة لا يُطلب منه المال. فأجابت إلى ذلك واشترطت أن يكون الحمل المعجل خمسين ألف دينار، وأنه لا يُبقي له سرية ولا زوجة غيرها، ولا يكون مبيته إلا عندها». فأجيبت إلى ذلك، وعاد فخر الدولة إلى بغداد[3]، غير أن الزيجة لم تتم إلا في (المحرم ٤٨٠هـ/ نيسان ١٠٨٧م)، وبعد عامين أرسلت ابنة السلطان إلى أبيها تشكو من زوجها، فأرسل السلطان إلى بغداد يطلب إحضار ابنته، وألحَّ في ذلك، فأرسلها الخليفة ومعها ابنها جعفر من الخليفة[4].

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٦٧، ٢٦٨.
(٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة جـ٢ ص٢.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٧٨.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٢٨، ٣٢٩.

وفي عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) دخل السلطان ملكشاه بغداد بعد ضمِّ حلب والجزيرة، ونزل بدار المملكة، وأرسل إلى الخليفة هدايا كثيرة فقبلها[١].

وفي عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) توجَّه السلطان ملكشاه إلى بغداد للمرة الثالثة[٢]، ومعه نظام الملك وهو عازم على عزل الخليفة، وكانت العلاقة السيئة بينهما قد وصلت إلى ذروتها بسبب رفض الخليفة طلباً للسلطان بتعيين ابن ابنته ولياً للعهد، فبايع الخليفة ابنه المستظهر؛ لأنه الأكبر، فأجبره السلطان على أن يخلعه ويُعين ابن ابنته ولي عهده، وأن يغادر بغداد إلى البصرة لتكون مقر خلافته، فانزعج الخليفة من ذلك وطلب أن يمهله شهراً كي يُدبر أموره ويُهيء نفسه وأُسرته للرحيل، فرفض السلطان الطلب وأصرَّ على أن يخرج الخليفة فوراً، فتدخل، عند ذلك، وزيره تاج الملك أبو الغنائم واقترح أن يمهله عشرة أيام، فوافق السلطان ملكشاه على إمهاله هذه المدة[٣].

وكان السلطان ملكشاه عازماً على بناء دار للخلافة في عاصمته أصفهان يقيم فيها ابن ابنته من الخليفة، لكن القدر كان بانتظار السلطان، فقد توفي في (١٥ شوال ٤٨٥هـ/ ١٨ تشرين الثاني ١٠٩٢م) فكفى الخليفة شر عزله[٤].

انتهى بوفاة السلطان ملكشاه العصر الذهبي للدولة السلجوقية، وبدأ عهد الانقسامات السياسية والحروب بين أفراد الأسرة السلجوقية من أجل الوثوب إلى السلطة.

التوغل السلجوقي في بلاد الشام

أتسز يضمُّ دمشق

بعد أن ثبَّت السلطان ملكشاه أقدامه في الحكم، واطمأن على سلامة سلطته، التفت إلى بلاد الشام لإحياء مشروع والده بالسيطرة على هذه البلاد، والتمدد إلى مصر لضمها إلى الأملاك السلجوقية بعد القضاء على الدولة الفاطمية، فجدَّد تكليف أتسز بضم جنوبي بلاد الشام إلى الأملاك السلجوقية، وأرسل إليه قوة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة يوسف الخوارزمي[٥].

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٣١٠، ٣١١.
(٢) لقد زار السلطان بغداد للمرة الثانية عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م).
(٣) ابن الجوزي: جـ٩ ص٦١، ٦١. ابن كثير: جـ١٢ ص١٢٢، ١٢٣.
(٤) ابن عمراني: ص١٧٠. ابن خلكان: جـ٥ ص٢٨٨، ٢٨٩. الراوندي: ص٢١٦. الحسيني: ص٧١. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٥٩.
(٥) العظيمي: ص٣٤٨.

وفي عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م) تمكَّن شكلي بن أوق، أخو أتسز، من ضم عكا بعد حصار، وكان بدر الجمالي قد غادرها إلى القاهرة بناء لاستدعاء الفاطميين وترك فيها أهله وأكثر أمواله وذخائره، فحاز شكلي على جميع ما تركه، وأسر زوجته مع ابن له وابنة، فتزوج الابنة واستقلَّ بعكا[١].

أزعج هذا الانتصار أتسز الذي عُدَّ متقدماً على جميع العناصر التركية في بلاد الشام، فحرص على المحافظة على مركزه وزعامته، فتحرك ضده، وعمد شكلي إلى تقوية استحكامات عكا لمواجهة ما قد يقوم به أتسز من محاولات لانتزاعها منه، فحصَّن أسوارها، وصاهر حاكم دمشق الفاطمي، حيدرة بن المعلى بن منزو الكتامي، كما اتصل بزعماء قبيلة كلب، وتحالف معهم مُكوناً حلفاً يقف في وجه أتسز. وجرى اللقاء بين الأخوين في الساحل في (رمضان ٤٦٧هـ/نيسان ١٠٧٥م)، وأسفر عن انتصار أتسز، وتراجع شكلي إلى رفنية من أعمال طرابلس، ولم يطارده أتسز، بل توجَّه إلى دمشق للاستيلاء عليها ومن ثَمَّ عاد إلى بيت القدس[٢].

لم ييأس شكلي من تحقيق انتصار على أخيه أتسز، فجدَّد جهوده لتشكيل حلف ضده مع ابن لقتْلُمش بن إسرائيل بن سجلوق، وهو أحد الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى، فكتب إليه يستنجد به ويحثه على مهاجمة بلاد الشام ووعده بالانضمام إليه، والمعروف أن العلاقة بين البيتين التركيين السلجوقيين في إيران والعراق من جهة والأناضول من جهة أخرى، كانت متوترة بفعل قضاء السلطان ألب أرسلان على ابن عمه شهاب الدولة قُتْلُمُش في مطلع عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، ولهذا لم يكن مستغرباً أن يلتمس شكلي مساعدة سلاجقة الأناضول، كما لم يكن مستغرباً بالمقابل أن يستجيب هؤلاء للدعوة، كيداً بأولاد عمهم.

واجتمع الأمير السلجوقي بشكلي عند رفنية للتنسيق، ثم غادراها إلى طبرية عن طريق بعلبك وسهل البقاع، وأظهرا الطاعة للفاطميين في محاولة لاستقطابهم، وفعلاً مال هؤلاء إليهما ووعدوهما بالمساعدة، واصطدم بهما أتسز خارج بيت المقدس وانتصر عليهما، فقتل شكلي وولده صبراً بين يديه، وأسر ابن قُتْلُمُش وأخاً صغيراً له وابن عمه[٣].

ووصلت إلى أتسز في غضون ذلك القوة السجلوقية التي أرسلها إليه السلطان

(١) ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب: أخبار مصر ص٢٣، الجزء الثاني باعتناء هنري ماسيه المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩١٩م. ابن العديم: بغية الطلب سيرة أتسز بن أوق، ملحق بكتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية لسهيل زكار ص٢٦٥.
(٢) سبط ابن الجوزي: ص١٧١ ـ ١٧٥. (٣) المصدر نفسه.

ملكشاه، فتقوَّى بها، واستعدَّ لمهاجمة دمشق، والواقع أنه كان يغير عليها باستمرار عند نضوج المحاصيل الزراعية، فيتقوَّى بها على حساب أهل المدينة والحامية الفاطمية، وذلك بهدف إضعافها، لكن المدينة صمدت أمام هجماته على الرغم مما سبَّبته من ضائقة للسكان[١].

كان الوضع الداخلي في دمشق مضطرباً، فقد اتصف الوالي الفاطمي، معلَّى بن حيدرة بن منزو الكتامي، بالظلم والقسوة[٢]، فثار عليه الجند والرعية وأجبروه على مغادرة المدينة، فذهب إلى بانياس في عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م) ومنها إلى صور، ثم أُخِذَ إلى القاهرة وسُجن فيها، وولَّى أهل دمشق عليهم انتصار بن يحيى المعروف برزين الدولة[٣]، إلا أنه لم يستطع ضبط الأمور بسبب معارضة بعض السكان، وبعض فئات من الجند الفاطمي له.

استغل أتسز هذه الأوضاع القلقة، فحاصر دمشق وضيَّق على سكانها حتى فُقِدت الأقوات، واضطروا إلى تسليمها له بالأمان، فدخلها في (٢١ ذي القعدة ٤٦٨هـ/ ٢٦ حزيران ١٠٧٦م)، وأُقيمت الخطبة فيها للخليفة العباسي المقتدي وقُطِعت للمستنصر الفاطمي، ومُنع الأذان بـ «حي على خير العمل» بعد أن كان يُؤذَّن به على منابر دمشق وسائر بلاد الشام مائة وستة أعوام، وتلقَّب أتسز بلقب الملك المعظم[٤]، وأضحى سيد بلاد الشام تقريباً، فامتد نفوذه ما بين حمص حتى أقصى فلسطين باستثناء الساحل؛ لأن الفاطميين كانوا يسيطرون على المنطقة بين طرابلس حتى عسقلان، ودعاه المؤرخون والناس بصاحب الشام، وأخذ يمارس سلطانه باسم السلاجقة حيث بدأت تتشكَّل ملامح دولة السلاجقة في بلاد الشام[٥].

محاولة أتسز ضمَّ حلب

تطلَّع أتسز إلى مد سلطانه نحو الشمال بضم حلب إلى الأملاك السلجوقية وإخضاع تركمان رفنية، الذين ساندوا أخاه شكلي، فاستغل فرصة وفاة محمود بن نصر المرداسي في (جمادى الأولى ٤٦٧هـ/ كانون الثاني ١٠٧٥م) لمهاجمتها، والمعروف أن محموداً أوصى بالحكم من بعده إلى ابنه الأصغر شبيب، ويبدو أن أعيان البلد وقادة الجند كان لهم رأي آخر، فرفضوا تنفيذ الْوصية واختاروا نصراً،

(١) ابن القلانسي: ص١٦٧. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٥٦.
(٢) ابن القلانسي: ص١٦١. (٣) المصدر نفسه: ص١٧٤.
(٤) المصدر نفسه: ص١٧٥. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٥٦، ٢٥٧. ابن العديم: زبدة الحلب: جـ١ ص٢٨٢.
(٥) ضامن: ص١٠٠.

الابن الأكبر لمحمود، وبايعوه أميراً على حلب[١].

هاجم أتسز القرى الجنوبية لحلب في (رجب٤٦٨هـ/ شباط ١٠٧٦م) في خطوة تمهيدية لإخضاعها، فضمَّ رفنية ومنحها لأخيه جاولي، وتردَّدت سراياه في جميع بلاد الشام الشمالية، وتمادى في الضغط على السكان وعلى نصر بن محمود، وفجأة دخل الرجلان في مفاوضات للتفاهم على الصلح، فطلب أتسز:

١ ـ أن يتنازل له نصر عن حكم حلب.
٢ ـ التقارب الأسري بالزواج، وذلك بزواج أتسز من أخت محمود بن نصر.
٣ ـ أن يدفع له نصر قسماً من الأموال التي تركها والده محمود.

وافق نصر بن محمود على قبول البند الثالث وقَبِل أن يدفع لأتسز مبلغ خمسة عشر ألف دينار، ورفض الموافقة على البندين الأول والثاني[٢].

ويبدو أن المفاوضات لم تُستكمل، إذ أن أتسز تعجَّل بالعودة إلى دمشق، فما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟.

الواقع أن هناك أسباباً عدة دفعت أتسز إلى مغادرة حلب، لعل أهمها إثنان:

الأول: قوة حلب، واعتماد نصر بن محمود على بقايا الناوكية بقيادة أحمد شاه.

الثاني: علم أتسز بنية السلطان ملكشاه بإقطاع بلاد الشام إلى أخيه تاج الدولة تُتُش[٣].

ترك أتسز، قبل عودته إلى دمشق، أخاه جاولي في الشمال، وأمره بتنفيذ سياسته تجاه حلب والمناطق الشمالية، فراح يُغير على المدينة منطلقاً من رفنية ما دفع نصراً بن محمود إلى أن يُرسل قوة عسكرية بقيادة أحمد شاه لقتاله ووقف غاراته، واصطدم الطرفان في رحى معركة ضارية في حماة أسفرت عن انتصار القوات الحلبية، وفرَّ جاولي في جو الهزيمة القاتم إلى رفنية ثم غادرها إلى دمشق[٤].

محاولة أتسز ضمَّ مصر

أراد أتسز، بعد أن أضحى سيد بلاد الشام، المحافظة على مكتسباته، واعتقد أنه إذا نجح في ضمِّ مصر، فإنه سوف يقطع الطريق على مشروع السلطان ملكشاه بإرسال أخيه تُتُش إلى بلاد الشام، فأحيا المشروع السلجوقي العام بالقضاء على الدولة الفاطمية في مصر، وربما فكَّر في اتخاذ مصر ملجأً ومُلكاً له فيما إذا حاول السلاجقة الاستئثار ببلاد الشام، أو أنه خشي أن يُقدم الفاطميون على مهاجمته، كما

(١) ابن القلانسي: ص١٧٣. ابن خلكان: جـ٤ ص٤٤٠. ابن العديم: جـ١ ص٢٨٠.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص٢٨١، ٢٨٢. ضامن: ص١٠١.
(٣) ضامن: ص١٠٢. (٤) ابن العديم: جـ١ ص٢٨٢.

أن كاتبه ابن بلدكوز أغراه بغزو مصر بعد أن ساءه تحكُّم بدر الجمالي واستبداده بالأمور فيها[1]. ورأى قبل أن يزحف نحو مصر أن يحمي مؤخرة جيشه بضمِّ المدن الساحلية وضمان عدم مساعدة حكامها لمصر أثناء مهاجمتها، ولعله اعتقد أن سيطرته على الطرق التجارية الداخلية في وسط بلاد الشام، سوف يعطيه الفرصة للتضييق على الثغور الساحلية، والسيطرة عليها وبخاصة طرابلس وصور، إذا استثنينا عكا التابعة مباشرة لبدر الجمالي.

خرج أتسز من دمشق في جمع عظيم قاصداً الساحل، فهاجم طرابلس، لكن جلال الملك ابن عمار صدَّه عنها، فتوجَّه جنوباً طمعاً في ضمِّ صور، ولما لم يتمكَّن من دخولها عقد هدنة مشروطة مع أميرها، النفيس بن محمد بن أبي عقيل، تقضي بالسماح للأتراك بدخول المدينة فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها[2].

ولا شك بأن أتسز حقَّق بعض أهدافه بأن أخذ من حاكم صور عهداً بمنح الأتراك ميزات تجارية حيث تمَّ له فتح أبوابها للتجارة مع الداخل في ظل استمرار إقامة الخطبة للفاطميين.

وبعد أن هيَّأ الظروف التي تسمح له بمهاجمة مصر، تقدم على رأس جيش من الأكراد والتركمان والعرب يُقدَّر بعشرين ألف مقاتل، باتجاه الدلتا عن طريق الساحل، فبلغ أطراف مصر في (ربيع الأول ٤٦٩هـ/ تشرين الأول ١٠٧٧م)، دون أن يصادف مقاومة تُذكر، وعسكر في الدلتا مدة خمسين يوماً من دون أن يزحف إلى القاهرة، مرتكباً خطأً عسكرياً؛ لأن بدر الجمالي المتسلط على الأمور العامة في مصر، كان آنذاك غائباً عنها لإخماد بعض الثورات في الصعيد، وكانت القاهرة خالية ممن يحميها أو يدافع عنها، وانتشرت القوات السلجوقية في ربض مصر وقراها، فضايقوا السكان وأساءوا السيرة، فكتب زعماء القرى إلى المستنصر الفاطمي يشكون ما أصابهم[3].

وعندما علم بدر الجمالي بوجود أتسز في مصر، عاد إلى القاهرة على وجه السرعة، فجنَّد القادرين على حمل السلاح، واستدعى من كان بالصعيد من العساكر السودان، كما جنَّد ثلاثة آلاف حاج كانوا يستعدون للسفر إلى بلاد الحجاز لمعاونته في القتال، فبلغ عدد أفراد جيشه زهاء ثلاثين ألفاً[4].

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ٢ ص٣١٧.
(٢) ابن القلانسي: ص١٧٦.
(٣) المصدر نفسه: ص١٧٦ ـ ١٨١. ابن ميسر: ص٢٥. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٦٠، ٢٦١.
(٤) المقريزي: جـ٢ ص٣١٧.

ولما تقدم أتسز نحو القاهرة، خرج بدر الجمالي للتصدي له، وحاول قبل بدء المعركة أن يُضعف قوة خصمه، فاستقطب العرب في جيشه عن طريق إثارة النعرات العنصرية، فخرج ألفا جندي من الجيش السلجوقي بقيادة حازم الكلبي، ما أثَّر سلباً على معنوياته، فقرَّر أتسز عند ذلك عدم خوض المعركة والعودة إلى بلاد الشام، لكن قادة جيشه أرغموه على القتال، فاشتبك مكرهاً مع قوات بدر الجمالي يوم الخميس (١٦ رجب ٤٦٩هـ/ ١٣ شباط ١٠٧٧م) وأسفر اللقاء عن هزيمته وفرار جنده، وطاردهم الجيش الفاطمي حتى الرملة، وعاد أتسز إلى دمشق[1].

نجم عن هزيمة أتسز نوعان من رد الفعل:

الأول: داخلي، تجلَّى بوقوف أهل دمشق إلى جانبه اصطناعاً بفعل ضعفهم، وعصيان مدن بلاد الشام الجنوبية على حكمه بعد أن عُدَّت هزيمته بمثابة النهاية له.

الثاني: خارجي، تمثَّل في شعور الدوائر السلجوقية في المشرق بعجز أتسز عن القيام بمثل هذه المهمة الضخمة، وعلى الرغم من أن الرجل لم يكن سلجوقياً إلا أن هزيمته كانت أول هزيمة بارزة للنفوذ السلجوقي أمام القوة الفاطمية، وقد أدرك أتسز هذه الظاهرة، لذلك أسرع بالكتابة إلى بغداد بأنه ينوي العودة إلى مصر، وأنه يجمع العساكر.

ويبدو أن السلطان ملكشاه لم يقتنع أن بإمكان أتسز مهاجمة مصر مرة ثانية، أو لعله أراد استغلال تراجع قوته للعودة إلى مشروعه السابق بمنح بلاد الشام إقطاعاً لأخيه تُتُش، وبخاصة أن الأوضاع لم تجر على نحو طيب هناك بعد ثورة سكان بيت المقدس على حكمه وعصيان بعض المدن الرئيسة في بلاد الشام. وهكذا أقطع السلطان ملكشاه أخاه تُتُش بلاد الشام، وما يفتحه من تلك النواحي في (أوائل ٤٧٠هـ/ منتصف ١٠٧٧م)، وهذا يعني أن أتسز سوف يخضع للنفوذ السلجوقي المباشر.

الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام

تعيين تُتُش حاكماً على بلاد الشام

بعد أن ثبَّت السلطان ملكشاه أقدامه في الحكم، واطمأن على سلطته، التفت إلى بلاد الشام، وأحيى مشروع والده السلطان ألب أرسلان بغزو هذه البلاد وضم مصر إليها والقضاء على الدولة الفاطمية، فاختار أن يولي على هذه الجبهة أميراً سلجوقياً لصيقاً به وبالأسرة السلطانية يعمل على إدخال هذه البلاد تحت النفوذ السلجوقي المباشر، ويشغله في الوقت نفسه عن التفكير بالشغب عليه أو منافسته، ويؤمِّن الإقطاع لقسم كبير من الجيش السلجوقي المتزايد.

(١) ابن القلانسي: ص١٨١.

وكان تُتُش قد اختص بمجموعة من المماليك الذين يتولون تربيته وتدريبه وشن الحملات باسمه والدفاع عنه على عادة السلاجقة؛ لأنه كان لا يزال فتى.

وسرعان ما انتشرت الأخبار بما عزم السلطان عليه، وبلغت مسامع أتسز صاحب بلاد الشام، فكتب إلى السلطان يشرح ما بذله من جهد في خدمة الدولة السلجوقية، وأنه ما يزال الخادم المطيع، ووعده بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار في السنة مقابل إبقائه حاكماً على بلاد الشام، غير أن السلطان أصرَّ على تنفيذ مشروعه، فولَّى أخاه تُتُش حكم بلاد الشام وما يفتحه من تلك النواحي، وأمره بالمسير إليها، وكتب إلى القوى المتمركزة في إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام بالإنضمام إليه ومساعدته، كان من بينها مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل ووثاب بن محمود وزعماء القوى التركية مثل الأفشين، وبكجي، وصندق الحاجب، ومحمود بن دملاج، وابن طولون، وابن بريق وغيرهم، وتكشف هذه الكتب الأخيرة أنه كان ثمة عدد من القادة الأتراك في المنطقة يعملون لحسابهم الخاص ضمن الولاء السلجوقي العام.

جاء تُتُش إلى بلاد الشام حاملاً معه المشروع السلجوقي، وعندما علم أتسز بقدومه أرسل إلى السلطان الهدايا والأموال ورسالة تزلف، فكتب السلطان إلى أخيه تُتُش أن لا يتعرض إلا إلى الشام الأعلى ويقصد حلب.

محاولة تُتُش ضمَّ حلب

تعرَّضت القوى السياسية في حلب للانقسام بعد وفاة نصر بن محمود في (شوال ٤٦٨هـ/ أيار ١٠٧٦م)، إذ تنازع أخواه سابق ووثَّاب على حكم الإمارة، ونجح الأول في اعتلاء الحكم بمساعدة أحمد شاه التركي ما أزعج الثاني ومن سانده من العرب، فالتجأ إلى السلطان ملكشاه في خراسان، وطلب منه أن يساعده ضد أخيه سابق وأقنعه بصوابية موقفه، فوعده بالمساعدة ووقَّع له إقطاعاً في بلاد الشام.

الواقع أن التجاء وثَّاب إلى السلطان السلجوقي أملته ظروف منطقة الشرق الأدنى، والواقع السياسي على الأرض، فالقوى المحيطة ببلاد الشام مثل البيزنطيين والفاطميين لا تملك القدرة على التأثير والتغيير، ودمشق واقعة تحت حكم أتسز، وأن القوة الوحيدة التي كانت تملك سلطة اتخاذ القرار وفرضه موجودة في خراسان وتتمثل في السلطان ملكشاه.

تحرَّك تُتُش غرباً في (محرم ٤٧٠هـ/ آب ١٠٧٧م) متوجهاً إلى حلب لانتزاعها من يد سابق بن محمود المرداسي وضمِّها إلى الأملاك السلجوقية، وعندما وصل إلى ديار بكر انضم إليه الحاجب أيتكين السليماني وعدد من أمراء بني كلاب العرب

ممن ساندوا وثَّاباً وساروا في ركابه[1].

وعندما علم سابق بزحف تُتُش باتجاه أراضي إمارته، استعدَّ للتصدي له، وأرسل إلى أحمد شاه، وكان يحاصر أنطاكية، يستدعيه لمساندته. وتعرَّضت حلب للحصار في (٣ ذي القعدة ٤٧٠هـ/١٨ آذار ١٠٧٨م) الذي استمر مدة أربعة أشهر تقريباً من دون أن يتمكَّن تُتُش من اقتحامها، واضطر أخيراً أن يفك الحصار عنها، ويبدو أن لذلك علاقة بـ:

- تجدُّد الصحوة العربية ضد الوجود التركي قادها مسلم بن قريش، وكان يعمل ضمنياً مع سابق، وذلك بدافع عروبته، إذ كان يُنكر على بني كلاب «خلطتهم بعسكر الترك»، ويبدو أن الذي شجَّعه على اتخاذ هذا الموقف مقتل أحمد شاه أثناء الحصار حيث ضعفت قوة الأتراك بعد مقتله وانحسر نفوذهم في المدينة[2]، ومن جهته رأى سابق أن مصلحته تقضي بفك ارتباطه مع الأتراك والعودة إلى الحظيرة العربية، فراسل بني كلاب وتألَّفهم[3].
- انسحاب مسلم بن قريش بعد أن كشف تُتُش توجهه العربي ووقوفه إلى جانب سابق، ما أضعف موقف الأمير السلجوقي، إذ لا يمكنه الاستمرار في حصار حلب من دون مساعدة العرب.
- تدمير النجدة التي طلبها تُتُش من أخيه بعد تخلِّي العرب عنه، وتُقدَّر بألف فارس مجهزين بآلات الحصار، بقيادة تركمان التركي، وقد قضى عليها سابق بالتعاون مع مسلم بن قريش في وادي بزاعة، فتحرَّج موقف تُتُش نتيجة ذلك.

وهكذا تفرَّق التحالف الذي أنشأه السلطان ملكشاه، وأخفق أمام أسوار حلب، وذلك بفعل وعي العرب. وكتب تُتُش من مشتاه إلى أخيه يشرح له ما آلت إليه الأوضاع في شمالي بلاد الشام، ويطلب منه نجدة أخرى، ولما وصلت وضع خطة عسكرية جديدة تقضي بتجريد حلب من أعمالها وعزلها قبل أن ينقض عليها، وبدأ بمنبج، فاستولى عليها كما استولى على حصون: الفايا، والدير، وبزاعة، وعزاز، وجبرين، وسرمين، والخناقية، وترك فيها حاميات عسكرية، وبذلك يكون قد عزل حلب، ثم توجَّه إليها ووصل إلى أسوارها في (ذي الحجة ٤٧١هـ/ حزيران ١٠٧٩م)، وقبل أن يستكمل استعدادات فرض الحصار، انقضَّت القوات الحلبية على قواته وفاجأتها، فأُسقط في يده، وأدرك عدم جدوى الاستمرار في الحصار

(١) ابن القلانسي: ص١٨١. ابن العديم: جـ١ ص٢٨٩.
(٢) العظيمي: ص٣٣١. ابن القلانسي: ص١٨٣. ابن العديم: جـ١ ص٢٨٩، ٢٩٠.
(٣) ابن العديم: جـ١ ص٢٩٠.

والاستيلاء على حلب، ويمّم وجهه نحو الجنوب[1].

تُتُش يستولي على دمشق

غادر تُتُش وقواته المنهكة مدينة حلب وفي نفسه شيء منها متوجهاً نحو الجنوب، فاستولى على حماة والمعرَّة وما جاورهما، وأطاعه أمير حمص خلف بن ملاعب فأقرَّه على حكمها.

وإذا كان الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام قد بدأ بوصول تُتُش إلا أنه لم يُحقِّق حتى ذلك الوقت أي إنجاز يُذكر، وتبيَّن من خلال أعماله أنه قائد تركي آخر لا يختلف عن القادة الذين سبقوه بما أحدثه من تدمير وسلب ونهب، لكن الفرصة ما لبثت أن سنحت له ليضع يده على مقدرات بلاد الشام، ويؤسس دولة سلجوقية في ربوعها، وكان لذلك علاقة بالمحاولات الفاطمية الهادفة إلى استعادة نفوذ الفاطميين في هذه البلاد. فقد حدث أن أرسل بدر الجمالي جيشاً فاطمياً بقيادة ناصر الدولة الجيوشي إلى بلاد الشام لإعادة بسط السيادة الفاطمية عليها، فحاصر دمشق في عام (٤٧١هـ/١٠٧٩م) واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين[2].

أدرك أتسز أنه لا قِبَلَ له بهذا الجيش الكبير، فاضطر أن يطلب المساعدة من تُتُش، ووعده بتسليمه دمشق، ويكون تابعاً له[3]، وكان هذا هو الحل الوحيد أمامه، وهو أن يضع نفسه تحت الحماية المباشرة للسلاجقة العظام.

رحَّب تُتُش بهذه الدعوة، وسار قاصداً المدينة لنجدتها، ولم يكد يقترب منها حتى فكَّ ناصر الدولة الجيوشي الحصار عنها وانسحب باتجاه الجنوب؛ لأن قواته كانت عاجزة عن أن تقف في وجه القوة السلجوقية، وبخاصة أن طرابلس وصور امتنعتا عن تقديم المساعدة له، بل إن حكامهما صانعا السلاجقة بالهدايا والملاطفات، وعندما وصل تُتُش إلى المدينة استقبله أتسز عند أسوارها ولم يذهب أبعد من ذلك للقائه، فسلمه إياها وبذل له الطاعة[4].

ويبدو أن تُتُش اغتاظ من هذا الاستقبال الفاتر، فعاتب أتسز، فاعتذر هذا بأمور لم يقبلها الأميرالسلجوقي، والراجح أنه خشي من طموحات أتسز، ولم يطمئن إلى

(١) ابن القلانسي: ص١٨٣. ابن العديم: جـ١ ص٢٩٣، ٢٩٤.
(٢) المصدران نفساهما: ص١٨٣. ص٢٩٣، ٢٩٤.
(٣) ابن القلانسي: المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص١٨٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٦٨، ٢٦٩.

وجوده إلى جانبه، فاتخذ من ذلك حجة وتخلَّص منه، كما قتل أخاه جاولي، وتسلَّم دمشق من دون قتال، وأسس لنفسه ولأسرته حكماً فيها[1].

والراجح أن هذا العمل يندرج ضمن لعبة التنافس على النفوذ الذي كان سائداً آنذاك بين الأمراء السلاجقة وبين ولاتهم في الجزرة الفراتية وبلاد الشام، وبذلك أضحى تُتُش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، وجهد بعد ذلك للعمل على:

- بسط سلطانه على كامل بلاد الشام، وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية أو تُحكم من قِبلها مباشرة.
- تأسيس دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها، بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان وإيران.

زوال الإمارة المرداسية وقيام الإمارة العقيلية في حلب

بعد أن تفرَّد تُتُش بحكم دمشق، هاجم حلب ليستولي عليها، فحاصرها أياماً، غير أنه عجز عن اقتحامها، ففكَّ الحصار عنها وتوجَّه شمالاً، فنهب القرى المحيطة بها ثم عاد إلى دمشق محملاً بالغنائم[2].

نتيجة هذا الضغط الشديد والمتواصل، رأى أهل حلب أنه لابد لهم من قوة تحميهم وتحفظ لهم مدينتهم، وبدا لهم بأن مسلم بن قريش العقيلي هو الرجل الذي يمكنه أن يقوم بهذه المهمة، وبخاصة أنه ساند حلب وأهلها في أيام محنتها مع تُتُش، كما أكرم وفادة الذين التجأوا إليه هرباً من الأفشين بالإضافة إلى أنه عربي، لذلك اختاروه ليُسلِّموه حلب، وقد استبعدوا الاستعانة بالسلطان ملكشاه؛ لأنه كان بعيداً عن مسرح الأحداث، ومنهمكاً بأمور المشرق، وربما ظنوا بأنه راض عن التخريب الذي أحدثه السلاجقة تحت سمعه بهدف السيطرة على بلاد الشام، وضمها إلى الأملاك السلجوقية، كما تجنَّبوا دعوة تُتُش أو الأفشين بفعل ما ظهر من أطماعهما وعدائهما نحو البلد وأهله.

نتيجة هذا التوجه السياسي، ذهبت وفود عدة وجماعات تُمثل شرائح المجتمع الحلبي إلى الموصل لطلب المساعدة، كما أرسل أحداث[3] حلب بقيادة الشريف حسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي، وكانوا يمثلون قوة ذات بأس، رسالة

(١) ابن القلانسي: ص١٨٢، ١٨٣. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٦٩.
(٢) المصدران نفساهما: ص١٨٣. ص٢٧٢. ابن العديم: جـ١ ص٢٩٩.
(٣) **الأحداث**: هم الشرطة غير الرسمية، وكانت تستعمل في بلاد الشام بخاصة.

استغاثة إلى مسلم بن قريش، وطلبوا منه التحرك إلى بلاد الشام لإنقاذها من السلاجقة، حتى أن سابق بن محمود أمير حلب كتب إليه يعرض عليه التنازل له عن الإمارة، وقال في رسالته: «أنت أولى بي من الغز، والعربية تجمعنا، فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت بآكلي»[١]. ويبدو منحى الصراع العنصري واضحاً في هذه الرسالة بين العرب والأتراك، وهو استمرار للصراع الذي بدأ في العصر العباسي الثاني.

اتصف مسلم بن قريش بالطموح السياسي من واقع تأسيس دولة قوية وقادرة على التصدي للزحف السجلوقي تضم بلاد الشام، وإقليم الجزيرة الفراتية، لذلك قرَّر الاستجابة الفورية لطلب الحلبيين، لكنه رأى أنه بحاجة إلى موافقة السلطان ملكشاه خشية أن يقوم هو أو أحد قادته بمهاجمة الموصل بعد أن يغادرها إلى بلاد الشام، بالإضافة إلى سلامة موقفه أمام تُتُش الطامع في السيطرة على حلب، وحتى لا يتهمه بالخروج على إرادة السلطان ويتخذ ذلك حجة لمهاجمته، فأرسل ابنه من زوجته خاتون، أخت السلطان ألب أرسلان وعمة السلطان ملكشاه، إلى خراسان، فاجتمع بهذا الأخير وعرض عليه دفع مبلغ ثلاثمائة ألف دينار سنوياً مقابل:

- الموافقة على توحيد بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية تحت حكم والده.
- يمارس مسلم بن قريش سلطاته باسم ملكشاه ويكون تابعاً له.
- يمتنع السلطان عن مهاجمة الموصل[٢].

وافق السلطان ملكشاه على العرض، وطلب من مسلم بن قريش التحرك باتجاه حلب، فتوجه هذا إليها ومعه بنو كلاب وسائر القبائل من كلب ونمير وغيرهما، وقد دخلوا في طاعته خوفاً من الغز[٣]، فوصل إليها في (١٦ ذي الحجة ٤٧٢هـ/ ٥ حزيران١٠٨٠م)، ودخلها بالأمان، ومع ذلك فقد جوبه بمعارضة سابق بضغط من أخويه شبيب ووثَّاب اللذيْن أزعجهما تنازل أخيهما عن الحكم لصالح بني عقيل ما يُنذر بزوال حكم المرداسيين، وتحصَّن بالقلعة، ثم جرى الاتفاق بينه وبين سابق على تسليمه القلعة مقابل زواجه بأخته ومالٍ يدفعه له. وما إن نزل سابق من القلعة حتى قبض عليه أخواه واستوليا عليها، فاضطر مسلم بن قريش إلى حصارها. واستمرت في غضون ذلك الخلافات الأسرية بين المرداسيين، فاستغل علي بن مقلد بن منقذ أمير كفرطاب هذه الفرصة وتوسط بينهم وبين مسلم بن قريش، وأقنع الأخوين بالتخلي عن القلعة وتسليمها لمسلم مقابل تعويضات مالية وإقطاعات لكل منهم. وتسلم مسلم القلعة يوم الأحد في (١٠ ربيع الآخر ٤٧٣هـ/ ٢٨ أيلول

(١) سبط ابن الجوزي: ص٢٠٣. (٢) المصدر نفسه.
(٣) العظيمي: ص٣٣١. ابن القلانسي: ص١٨٣. ابن العديم: جـ١ ص٣٠٠.

١٠٨٠م)، وأقطع شبيباً ووثَّاباً قلعتي عزاز والأثارب وضياع عدة أخرى، كما أقطع سابقاً مواضع في أعمال الرحبة[١]، فزالت بذلك الإمارة المرداسية بعد أن عمَّرت ستين عاماً تقريباً وقامت مكانها الإمارة العقيلية، وأضحى مسلم بن قريش حاكماً على شمالي بلاد الشام بالإضافة إلى إقليم الجزيرة الفراتية، وأجزاء من العراق.

العلاقة بين مسلم بن قريش وتُتُش

أجرى مسلم بن قريش ترتيبات إدارية جديدة في حلب، وأحسن إلى الحلبيين، فخفَّف عنهم أثقالاً كثيرة، وصفح عن كُلَف كانت عليهم في أيام بني مرداس، ونُقِلت الغلات إلى حلب فرخصت الأسعار بعد الغلاء الشديد[٢].

وراودت مسلم بن قريش أحلام التوسع وتوحيد بلاد الشام وإقليم الجزيرة تحت سلطانه من خلال القضاء على الإمارات العربية المنتشرة في بلاد الشام والتي تشكل عقبة أمام طموحه، ثم القضاء على تُتُش وضم دمشق، فتفاهم مع علي بن المقلد بن منقذ أمير شيزر بعد أن فشل في اقتحام المدينة، وهذه بداية متعثرة، وانتزع حران من بني نمير، وجرَّد جميع أفراد الأسرة المرداسية من أملاكهم، واستولى على القرى والأراضي الجبلية التي كانت في أيدي الأتراك حتى أضحى شمالي بلاد الشام حتى حماة خالياً من الأتراك[٣].

وتطلع مسلم بن قريش إلى التمدد باتجاه الشمال والشمال الشرقي، فمدَّ نفوذه إلى مدينتي الرها وأنطاكية التابعتين للدولة البيزنطية، ثم التفت مجدداً نحو الجنوب بهدف الوصول إلى دمشق ما أزعج تُتُش الطامع هو الآخر بضم شمالي بلاد الشام إلى نفوذه.

وهكذا أضحى الصراع مكشوفاً بين مسلم بن قريش، الذي كان يعمل على توحيد بلاد الشام والجزيرة الفراتية، وتأسيس إمارة عربية قوية وفاعلة تقف في وجه السلاجقة، وبين تُتُش الطامع في ضم حلب وتوحيد كامل بلاد الشام تحت سلطان السلاجقة. وتحرك كل طرف لاستقطاب الحلفاء.

أما مسلم بن قريش الذي كان يدين بالتشيع الإثني عشري فقد تطلَّع إلى الدولة الشيعية الوحيدة في المنطقة ألا وهي الدولة الفاطمية، وقد جمعت الطرفين مصلحة مشتركة هي القضاء على السلاجقة السنة وإخراجهم من بلاد الشام، فأجرى اتصالاً مع بدر الجمالي في القاهرة، تمَّ الاتفاق بينهما على أن يُرسل الفاطميون جيشاً

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٠١ ـ ٣٠٣. (٢) المصدر نفسه: جـ١ ص٣٠٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٠٧.

يساعد مسلم بن قريش في ضم دمشق عندما يصل إليها ويحاصرها(١).

وتسلَّم تُتُش في هذه الأثناء رسائل عدة من الأمراء العرب الذين هاجم مسلم بن قريش أملاكهم بمن فيهم بعض أمراء الأسرة المرداسية، وقد أضحى بنظرهم يُشكل خطراً حقيقياً عليهم، وعرضوا التعاون معه لطرده من بلاد الشام وتسليم أملاكه إليه. رحَّب تُتُش بالعرض في ظل الانقسام العربي، فجمع قواته وتوجه نحو أنطاكية، في حين تحركت القوات العربية المتحالفة معه باتجاه حلب، فاستولت على حماة والمعرة وتابعت زحفها نحو حلب، وقضت الخطة المتفق عليها باستيلاء تُتُش على المناطق الشمالية الغربية لحلب في حين يستولي المتحالفون على المناطق الواقعة في جنوبها، ثم تُضيِّق القوتان الخناق على المدينة وتستولي عليها، وتطرد مسلم بن قريش من الشام(٢).

كان مسلم بن قريش آنذاك في الموصل يجهز جيشاً كبيراً، فلما علم بأنباء تحرك المتحالفين، أسرع بعبور الفرات وتوجَّه إلى حلب للاصطدام بقوى التحالف، ثم الزحف نحو دمشق لانتزاعها من يد تُتُش الموجود في الشمال، وقد أجبر هذا التحرك السريع المتحالفين على الانفضاض والعودة كل إلى إمارته للدفاع عنها ضد هجوم محتمل من قِبَل مسلم بن قريش، وكان من بينهم تُتُش نفسه الذي عاد إلى دمشق في (١ محرم ٤٧٦هـ/ ٢١ أيار ١٠٨٣م)(٣).

وصل مسلم بن قريش إلى دمشق في (أواخر محرم/ منتصف حزيران) وضرب حصاراً مركزاً عليها، دام الحصار مدة شهر من دون أن ينال منها، ثم حدث أن فك الحصار عنها بشكل مفاجيء وعاد إلى حلب(٤)، ويبدو أن عوامل عدة دفعته إلى هذا التصرف، أهمها:

- فقدان التجانس القبلي بين قواته التي تألفت من عدد من قبائل كلاب ونُمَير وطيء وعُلَيْم وكلب، وأكراد الجزيرة الفراتية، وعدم إخلاص هؤلاء له باستثناء العقيليين، وكانوا قد انضموا إليه رهبة من بطشه أو رغبة في الحصول على الغنائم إذا سقطت دمشق(٥).
- تفوُّق القدرة القتالية للأتراك السلاجقة.
- مقاومة تُتُش الفعَّالة وهجماته المفاجئة التي كان يشنها ضد المحاصِرين.

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٨٤.
(٢) زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ص١٨٩. ضامن: ص١١٨.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٨٤.
(٤) المصدر نفسه؛ ابن العديم: جـ١ ص٣١٠.
(٥) ضامن: ص١١٩.

- عدم وفاء الدولة الفاطمية بوعودها من واقع إرسال جيش فاطمي إلى بلاد الشام لمساعدة مسلم بن قريش. والحقيقة أن بدراً الجمالي لم يكن يمتلك القوة الضرورية لمساعدته، بالإضافة إلى أنه كان منهمكاً بمعالجة الشؤون الداخلية المضطربة، ويبدو أنه خشي من ميل العرب في جيشه إلى صفوف مسلم بن قريش، فتثاقل عنه، وأحجم عن تقديم المساعدة المطلوبة(١).
- علم مسلم بن قريش أثناء الحصار بقيام ثورة ضد حكمه في حرَّان بقيادة القاضي ابن جلبة الحنفي، وأن الحرَّانيين قرَّروا تسليم مدينتهم إلى جُبُق أمير التركمان بوصفه سنياً ولكون مسلم شيعياً(٢).

محاولة السلطان ملكشاه ضم إقليم الجزيرة الفراتية

تعرَّض حكم مسلم بن قريش بعد ذلك لخضَّة عنيفة زلزلت كيان إمارته، فقد حدث أن قذف الأتراك السلاجقة بموجة جديدة من المهاجرين باتجاه غربي آسيا، وكان من أبرز قادتها جبُق وأُرتق بن أكسب.

وفي الوقت الذي كان فيه الأتراك يجتاحون العالم الإسلامي ويؤسسون إمارات في ربوعه، برز بعض الأشخاص المحترفين على مسرح الأحداث السياسية، نذكر منهم فخر الدولة محمد بن أحمد بن جهير الوزير العباسي وابنه عميد الدولة الذي خلفه في منصب الوزارة.

وكان فخر الدولة على علاقة جيدة مع الوزير السلجوقي نظام الملك، وتقرَّب إليه بالمصاهرة(٣)، ولما كانت علاقة هذه الاسرة بالسلاجقة جيدة، فقد توجه فخر الدولة إلى أصفهان ووضع نفسه بتصرف السلطان ملكشاه، فاستخدمه السلطان للقضاء على إمارة بني مروان وضمِّ ديار بكر إلى الأملاك السلجوقية، وعيَّن حاجبه قسيم الدولة آق سُنقر مسؤولاً عسكرياً عن الحملة(٤).

وعندما وصلت أنباء الحملة إلى الجزيرة الفراتية، تحالفت القوتان المتخاصمتان فيها، وهما الإمارة المروانية والإمارة العقيلية، لصد الزحف السلجوقي، وتنازل المروانيون عن مدينة آمد إلى مسلم بن قريش ثمناً لهذا التعاون، ولما أُخبر السلطان ملكشاه بهذا التعاون أمدَّ حليفه بقوة عسكرية إضافية كان من بين قادتها أُرتق بن أكسب. وعسكر الجيشان تجاه بعضهما ثم اصطدما في رحى معركة ضارية انتهت

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٠٩، ٣١٠. (٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٨٦، ٢٨٧.
(٣) زوَّج فخر الدولة ابنه عميد الدولة بابنتين من بنات نظام الملك واحدة بعد أخرى.
(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٨٦، ٢٩١.

بانتصار الجيش السلجوقي، وفرَّ مسلم بن قريش في جو الهزيمة القاتم إلى آمد وتبعه ابن مروان[1].

بلغت أنباء الانتصار السلطان السلجوقي، فأراد استغلاله للسيطرة على كامل إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، فخرج من أصفهان باتجاه الموصل ودخلها، وأخذ يستعد لمواصلة الزحف إلى بلاد الشام، لكن تطور الأحداث غيَّر قواعد اللعبة السياسية؛ فقد أعلن أخوه تكش بن ألب أرسلان الثورة عليه، وراح يستولي على مدن خراسان وهو يعتزم إعلان نفسه سلطاناً على السلاجقة بدلاً من ملكشاه. ومن جهة أخرى علم السلطان ملكشاه بنجاة مسلم بن قريش وتحصُّنه بآمد، فاضطر إلى تعديل خططه وقرَّر العودة إلى المشرق لمعالجة الموقف، وأراد قبل أن يغادر المنطقة التفاهم مع مسلم بن قريش بوصفه القوة القادرة على تهدئة الموقف، فاستقبله وصالحه[2].

وهكذا استعاد مسلم بن قريش أملاكه، على الرغم من الضربة العنيفة التي نزلت به، ونجت الإمارة العقيلية من السقوط، وكانت حملة ابن جهير أخطر ما تعرَّض له[3].

الصراع بين مسلم بن قريش وسليمان بن قُتُلمش

تأسيس سلطنة سلاجقة الروم[4]

أتاحت معركة ملازكرد للسلاجقة الإنسياب إلى جوف آسيا الصغرى، وشجَّعتهم النزاعات والحروب الداخلية بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها، وتأسيس سلطنة عُرفت باسم سلطنة سلاجقة الروم، أسَّسها سليمان بن قُتُلُمُش بن إسرائيل بن سلجوق الذي يُعدُّ بحق جد سلاطين آسيا الصغرى.

(١) يذكر ابن الأثير بأن فخر الدولة مال إلى الصلح عندما رأى اجتماع العرب عليه وقال: «لا أوثر أن يحل بالعرب بلاء على يدي»، فعرف التركمان ما عزم عليه، فركبوا ليلاً وأتوا إلى العرب، وأحاطوا بهم، ولم يحضر فخر الدولة ولا أُرتق بن أكسب المعركة، الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٢٩٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٢. (٣) ضامن: ص١٢٠، ١٢١.

(٤) سميت سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى بسلطنة سلاجقة الروم؛ لأن البيزنطيين في العصور الوسطى، الذين عرفهم العرب باسم الروم، كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سُميت باسمهم، فظَلت قروناً عديدة تُعرف باسم بلاد الروم، ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم سلاجقة الروم، كما أطلقوا على الفروع الأخرى من السلاجقة اسم البلاد التي استقروا فيها.

تولى سليمان حكم المنطقة الشمالية الغربية بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن آسيا الصغرى، وقرَّر إقامة سلطنة لنفسه في قونية وآقسرا وغيرهما من الولايات التي كانت بيد والده قُتْلُمش، ويتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة السلطان ملكشاه الذي عهد إليه إدارة المنطقة لصالح الأتراك[1].

ساعد سليمان على تحقيق غايته عاملان:

الأول: التغيير الديموغرافي الناتج عن الفتوح، إذ أصبحت المناطق الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى شبه خالية بعد أن هجرها سكانها.

الثاني: حال الفوضى التي أمست عليها الامبراطورية البيزنطية بسبب ازدياد النزاعات بين الأباطرة والقادة العسكريين.

واستفاد السلاجقة بعامة، خلال الأعوام التي انقضت بعد معركة ملازكرد، من الأوضاع المضطربة داخل الأجهزة البيزنطية، وراحوا يتدخلون في الشؤون الداخلية لأطراف النزاع، وظهروا كحلفاء ومساعدين لبعضهم ما يسَّر لهم التوغل بعيداً حتى وصلوا إلى المقاطعات الغربية لآسيا الصغرى.

وألفت الجموع التركية نفسها لأول مرة داخل المدن الكبيرة في غربي الأناضول، ووجدت الفرصة المناسبة للتوسع مقابل ما قدَّمته من مساعدة للامبراطورية في أزماتها، ويبدو أن ما جرى من استخدام القوات التركية، هيأ للسلاجقة الاستقرار والإقامة في غربي آسيا الصغرى، واعترف التركمان بسليمان زعيماً لهم، واتخذ من مدينة نيقية عاصمة لسلطنته الجديدة، وذلك في عام (٤٧١هـ/١٠٧٨م).

التوسع السلجوقي الرومي في شمالي بلاد الشام

فتح أنطاكية: بعد أن أمَّن سليمان بن قُتُلُمُش حدود سلطنته من جهة الغرب مع الامبراطورية البيزنطية، التفت نحو الجنوب، ذلك أنه لم يستطع السكوت على ازدياد نفوذ الإمارة الأرمنية التي أسَّسها فيلاريت في كيليكيا وشمالي بلاد الشام[2]؛ لأنها تُشكل عقبة في طريق توسعه نحو هذه البُلاد، وهو الهدف الذي وضعه نصب عينيه، كما أزعجه تقارب فيلاريت والسلطان ملكشاه، والمعروف أن فيلاريت كان على عداء مع بيزنطية فتقرَّب من الأمراء المسلمين حتى يُؤمِّن على سلامة ممتلكاته، وعدَّ هذا التقارب أنه مُوَجَّه ضده كما يحدُّ من أطماعه، ولذلك قرَّر القضاء على دولة فيلاريت.

وحدث أن غادر فيلاريت أنطاكية في عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) نتيجة الثورة التي

(١) الحسيني: ص٧٢. (٢) ابن العبري: ص١١٨.

قامت ضد حكمه، وترك فيها حامية عسكرية، فعيَّن السلطان ملكشاه والياً فارسياً على المدينة يُدعى إسماعيل، فانتهز خصوم فيلاريت، وبخاصة ابنه الذي كان مسجوناً، فرصة خروجه واتفقوا مع الوالي على تسليم المدينة لسليمان بن قُتْلُمش واستدعوه من أجل ذلك[١].

أسرع سليمان بن قُتْلُمُش مستغلاً فرصة الاضطراب الذي حصل في دولة فيلاريت وهو عازم على مباغتة المدينة، فخرج من نيقية على رأس جيش تألف من ثلاثمائة فارس وكثير من المشاة، وفتح أثناء زحفه بعض المدن الكيليكية، منها طرسوس وثوروس وأذنة والمصيصة وعين زربي[٢]، وعندما وصل إلى أنطاكية عسكر أمام أسوارها، ثم نصب السلالم عليها وصعد إلى السور حيث عقد اجتماعاً مع الوالي رتَّب بموجبه أمر دخول الجيش، وفعلاً دخل الفرسان السلاجقة إلى المدينة بعد أن فتحت الأبواب، وسيطروا عليها بعد مقاومة فئة قليلة من السكان[٣].

أرسل سليمان بن قُتْلُمُش بعد سيطرته على أنطاكية رسالة إلى السلطان ملكشاه يخبره بما فتح الله عليه ومظهراً طاعته[٤]، وقد هدف إلى اكتساب ودِّه حتى لا يعترض طريق تقدمه إلى بلاد الشام.

محاولة ضمِّ حلب: بعد أن ثبَّت حكمه في أنطاكية، أخذ سليمان بن قُتْلُمُش يعمل على ضمِّ المناطق التابعة لإمارة حلب كمقدمة للسيطرة على حلب نفسها، وقد انضم إليه عدد من الأمراء المرداسيين وبعض عساكر مسلم بن قريش ما سبَّب تهديداً مباشراً لوضع مسلم بن قريش، وحكمه في حلب، لذلك راح يُعد العدة لمقاومته والتصدي له، وعقد، من أجل ذلك، حلفاً مع أمير التركمان جُبُق وجموع أخرى من العرب[٥].

وتوضَّحت نية سليمان بن قُتْلُمُش في ضمِّ حلب، بدليل أنه جنَّد جماعة من بني كلاب وأرسلهم مع عسكره للقيام بغارات على حلب وسرمين وبزاعة.

وبعد أن تحقَّق مسلم بن قريش من نيته، أرسل إليه كتاباً يطلب منه ما كان يدفعه فيلاريت من المال بوصفه تابعاً له، ويُخوفه في الوقت نفسه من معصية السلطان[٦].

لم يكن مطلب مسلم بن قريش سوى ذريعة لشن الحرب وإخراج سليمان بن قُتْلُمُش من المنطقة، إلا أن هذا الأخير أجابه أن شعاره طاعة السلطان بدليل إقامة

(١) ابن العبري: ص١١٨.
(٢) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٩٤.
(٣) المصدران نفساهما: ص١١٨. ص٢٩٤. ابن العديم: جـ١ ص٣١٣، ٣١٤.
(٤) ابن الأثير: ص١١٨. (٥) المصدر نفسه: ص٢٩٥.
(٦) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ١ ص٣١٥، ٣١٦.

الخطبة له في بلاده، وضرْب السكة باسمه، وأما المال الذي كان يدفعه فيلاريت فهو جزية رأسه وأصحابه، أما هو فمؤمن ولا جزية عليه[١].

نتيجة لهذا الرفض، دخل الرجلان في صراع مكشوف، فأغار مسلم بن قريش على ضاحية أنطاكية، فردَّ سليمان بن قُتْلُمُش بنهب ضاحية حلب في غارات انتقامية[٢]، فاتخذ مسلم بن قريش ذلك مبرراً لقتال خصمه وانتزاع أنطاكية منه. وجرى اللقاء بين الرجلين في (٢٤ صفر ٤٧٨هـ/ ٢١ حزيران ١٠٨٥م) في طرف من أعمال أنطاكية على بئر راحل قرب عفرين[٣]، وأسفر عن انتصار سليمان بن قُتْلُمش وقُتل مسلم بن قريش في المعركة[٤].

الوضع الداخلي في حلب بعد مقتل مسلم بن قريش

تسلَّم الحكم في حلب بعد مقتل مسلم بن قريش أخوه إبراهيم، لكن سكان حلب رفضوا الخضوع له، في حين استولى ابن عمه سالم بن مالك على القلعة وتحصَّن بها، وأضحى مقدم أحداث حلب، الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي، الحاكم الفعلي للمدينة[٥].

وصل سليمان بن قُتْلُمُش في هذه الأثناء إلى أسوار حلب وهو يحمل جثة مسلم بن قريش، فطرحها أمام الأسوار، وكان يأمل بأن تستسلم المدينة له، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، عندئذٍ حاصرها وطلب من الحتيتي تسليمه إياها فرفض وأصرَّ على المقاومة، وأرسل في الوقت نفسه كتاباً إلى السلطان ملكشاه يعلمه فيه بمصرع مسلم بن قريش، ويدعوه للقدوم إلى حلب ليتسلمها، وتجنَّب الاستعانة بتُتُش؛ لأنه كان يعلم بطموحه في ضمِّ حلب إلى دمشق[٦].

وإذ أدرك سليمان بن قُتْلُمُش أن ضمَّ حلب سيتطلب منه وقتاً طويلاً، أمر بإعادة بناء جانب من مدينة قنسرين المجاورة لحلب واتخذها مقراً لقيادته، ثم راح يهاجم أراضي وبلدات إمارة حلب الجنوبية، فضمَّ معرة النعمان وكفرطاب ولطمين[٧].

الاصطدام السلجوقي ـ السلجوقي في حلب

استجاب السلطان ملكشاه لطلب حسن الحتيتي، فخرج من أصفهان على رأس

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٩٥. (٢) سبط ابن الجوزي: ص٢٧٧.
(٣) **عفرين**: اسم نهر في نواحي المصيصة يخرج إلى أعمال نواحي حلب. الحموي: جـ٤ ص١٣٢.
(٤) العظيمي: ص٣٥٣. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٩٥. ابن العديم: جـ١ ص٣١٧.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٩٥. ابن العديم: جـ١ ص٣١٨.
(٦) المصدران نفساهما: ص٣٠٣. ص٣١٨.
(٧) ابن العديم: جـ١ ص٣١٩.

قواته باتجاه حلب، لكن تحركه كان بطيئاً ما جعل سليمان بن قُتْلُمش يُضيق الحصار على المدينة، واضطر الحتيتي تحت ضغط الظروف القتالية إلى استدعاء تُتُش ووعده بتسليمه المدينة[١]، وكان هذا التصرف بنظره تدبيراً مؤقتاً، معتقداً بأن السلطان سيسبق تُتُش في الوصول إلى حلب، وبذلك يتخلَّص منه ومن سليمان بن قُتْلُمش في الوقت نفسه[٢].

وصلت دعوة الحتيتي إلى تُتُش وهو في دمشق، وكان عنده أُرتق بن أكسب، وإذ اغتبط بطلب الحلبيين ليُحقق حلمه القديم بضمِّ حلب إلى إمارته، وكان يأمل بالاستيلاء على أنطاكية بعد حلب، وطالما عدَّ سليمان بن قُتْلُمش ثائراً على سلطة السلاجقة العظام عندما احتفظ بأنطاكية لنفسه، لذلك أسرع بالزحف إلى حلب على رأس جيش كبير، وصحبه أُرتق بن أكسب، وذلك في (محرم ٤٧٩هـ/ أيار ١٠٨٦م)[٣].

ولما علم سليمان بن قُتْلُمش بذلك، فكَّ الحصار عن حلب، وسار نحو الدمشقيين وهو على غير تعبئة. والتقى الجيشان السلجوقيان في مكان يُعرف بعين سليم، بين أنطاكية وحلب، ودارت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن خسارة سليمان بن قُتْلُمش وفرار عسكره، وخرج هو من ساحة المعركة إلى مكان آمن، فخلع درعه واستلقى على الأرض، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتقاتل فيها جيشان سلجوقيان على أرض الشام[٤].

وأرسل تُتُش في هذه الأثناء يستدعي سليمان بن قُتْلُمش للمثول بين يديه، إلا أنه رفض الدعوة بعدما اشتمَّ منها رائحة الخطر على حياته، ولما أصرَّ عليه أركان حربه لتلبية الدعوة أخرج خنجراً وقتل نفسه به[٥].

واستولى تُتُش على معسكره ثم سار إلى حلب ليتسلَّمها، إلا أنه وجد الأبواب مغلقة في وجهه، وعندما استوضح عن السبب أجابه الحتيتي «أن السلطان أصبح قريباً من حلب، وهو يُحظِّر تسليمها لأحد غيره»[٦].

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٢٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٠٤.
(٢) ضامن: ص١٢٤.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٠٣، ٣٠٤. ابن العديم: جـ١ ص٣٢٠.
(٤) المصدران نفساهما: ص٣٠٣. ص٣٢٠. ضامن: ص١٢٤.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٠٣. منجم باشي: صحائف الأخبار: جـ٢ ص٥٦٠. ابن العديم: جـ١ ص٣٢٠.
(٦) ابن العديم: جـ١ ص٣٢٣.

ويبدو أن تُتُش لم يقتنع بهذا الكلام فأمر قواته بحصار حلب، وكان السكان يكرهون الحتيتي لشدة ما عانوه من تدابيره، ففتحوا أبواب المدينة للجيش السلجوقي. ودخل الجنود السلاجقة إلى المدينة التي سقطت بيد تُتُش في (٢٦ ربيع الأول ٤٧٩هـ/ ١١ تموز ١٠٨٦م)[١]، لكن امتنعت عليه القلعة، وقد تحصَّن بها سالم بن مالك، كما تحصَّن الحتيتي مع بعض أحداث حلب بقلعته التي بناها وهي قلعة الشريف، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق، ويبدو أن الأحداث خافوا على أسرهم في حلب، فغادروا قلعة الشريف، وبقي الحتيتي في قلعته مع نفر قليل، فاضطر إلى طلب الأمان من تُتُش، وتوسط له أُرتق بن أكسب، فعفا عنه تُتُش وتسلَّم القلعة، وسيَّره أُرتق إلى بيت المقدس[٢].

ووصلت في غضون ذلك طلائع قوات السلطان ملكشاه، وقد تجنَّب تُتُش الاصطدام بأخيه أو حتى الاجتماع به، لذلك جمع قواته وانسحب عائداً إلى دمشق[٣].

السلطان ملكشاه يتسلم حلب

وصلت طلائع السلطان ملكشاه إلى حلب بقيادة عدد من القادة منهم بُرسق وأياز وبوزان، أما السلطان قد خرج من أصفهان في (جمادى الآخرة ٤٧٩هـ/ أيلول ١٠٨٦م)، فاستولى في طريقه على حرَّان، ثم سار إلى الرها ومنها إلى حلب حيث وصل إليها في (٢٣ شعبان/ ٣ كانون الأول) فدخلها وتسلَّمها من دون قتال، كما تسلَّم القلعة من سالم بن مالك، وأقطعه قلعة جعبر بدلاً عنها[٤].

أمضى السلطان ملكشاه أياماً عدة في حلب قبل أن يستأنف زحفه باتجاه أنطاكية، فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قُتْلُمش وعاد إلى حلب، وتسلَّم وهو فيها رسالة من نصر بن علي بن منقذ أمير شيزر يعترف له بالطاعة ويتنازل له عن اللاذقية وأفامية وكفرطاب[٥].

الواقع أن السلطان ملكشاه ظهر في هذا الجو المضطرب بمظهر الموحِّد للأسر

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٢٣. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٠٤.
(٢) المصدران نفساهما: ص٣٠٤. ص٣٢٢.
(٣) المصدران نفساهما: ص٣٠٤، ٣٠٥. ابن القلانسي: ص١٩٤.
(٤) المصادر نفسها: ص٣٠٥، ص١٩٥، ص٣٢٤. العظيمي: ص٣٣٥.
وقلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقة قرب صفِّين، كانت قديماً تُسمى دوسر، فملكها رجل من بني قشير أعمى يُقال له جعبر بن مالك، فسميت باسمه. الحموي: جـ٢ ص١٤١، ١٤٢.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٠٥، ٣٢٥.

السلجوقية؛ لأنه كان يعدُّ نفسه سلطاناً على كل السلاجقة بمختلف فروعهم في الشرق والغرب، وكان يتدخل في كل مرة يحاول فيها أي فرع من فروع السلاجقة الظهور بمظهر المستقل.

ونظَّم السلطان أوضاع منطقة شمالي الشام وآسيا الصغرى، وتجنَّب التطرق إلى أوضاع جنوبي الشام، وكأنه جدَّد ثقته بأخيه تُتُش وأقرَّه على ما في يده من أملاك، فمنح حلب ومناطقها وحماة ومنبج واللاذقية وما يتبعها إلى حاجبه آق سُنقر، مؤسس البيت الزنكي، وأقطع أنطاكية لأحد ضباطه وهو ياغي سيان التركي، ومنح الرها لقائد تركي آخر هو بوزان، وعيَّن الأمير بُرسق حاكماً على أملاك السلاجقة في آسيا الصغرى، وقد حدث هذا التوزيع في المناصب في (شوال ٤٧٩هـ/ كانون الثاني ١٠٨٧م)[١].

وحتى يؤمِّن السلطان ملكشاه حدود دولته الغربية، دخل في مفاوضات مع الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (٤٧٤ ـ ٥١٢هـ/ ١٠٨١ ـ ١١١٨م) لتسوية الأوضاع العامة في آسيا الصغرى، وعرض على الامبراطور:

ـ أن يسحب الأتراك من الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى.
ـ أن يصلح القلاع المدمَّرة كافة.
ـ أن يساعد الامبراطور عندما تدعو الحاجة.
ـ أن يتزوج أميرة بيزنطية[٢].

غير أن المفاوضات لم تُستكمل بسبب مغادرة السلطان ملكشاه المنطقة عائداً إلى الشرق.

وعلى هذا الشكل استقر السلاجقة في بلاد الشام والأناضول.

الحركة الإسماعيلية (الحشيشية) في الشرق الإسلامي

انقسام الدعوة الإسماعيلية ونتائجه

ظهرت في عهد السلطان ملكشاه على المسرح السياسي في الشرق الإسلامي فرقة الإسماعيلية النزارية المعروفة بالحشيشية أو الباطنية، ولما كان لهذه الفرقة علاقة مباشرة بموضوعنا من خلال التعاون أو العداء مع السلاجقة العظام منذ عهد السلطان ملكشاه؛ فمن المفيد أن نلم إلمامة وجيزة بكيفية نشأة هذه الفرقة وانتشارها في خراسان.

(١) ابن القلانسي: ص١٩٦. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٠٥ ـ ٣٢٥. التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل ص٧.
(٢) Comnena, Anna: The Alexiad p154.

تعرَّضت الدعوة الإسماعيلية بعد وفاة المستنصر الفاطمي في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) لخضة سياسية ومذهبية نتجت عن تدخل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، وأدَّت إلى انقسامها إلى قسمين، وكان لذلك آثار جسيمة سواء في مصر أو في خارجها. والواقع أن المستنصر خلَّف أولاداً عدة، أكبرهم نزار وأصغرهم أحمد، فتوفي بعضهم في حياته وبقي منهم أربعة هم: نزار وعبد الله وإسماعيل وأحمد، وتبعاً للنظرية الإسماعيلية بانتقال الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر، كان نزار هو صاحب الحق الشرعي في خلافة أبيه في منصب الإمامة، وكان المستنصر قد رشَّحه ليخلفه، ولكن لم تُجر أي احتفالات لتنصيبه ولياً للعهد، وقد أراد قبل وفاته أخذ البيعة له من رجال الدولة لكن الوزير الأفضل ماطله حتى مات، لكراهته لنزار[١].

وتجاهل الوزير الأفضل التقليد الإسماعيلي، فأبعد نزاراً عن الحكم وأجلس أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد ولقَّبه بالمستعلي بالله، وذلك يوم الخميس (١٨ ذي الحجة ٤٨٧هـ/ ٢٩ كانون الأول ١٠٩٤م)[٢]، واستدعى أولاد المستنصر، فأخبرهم بوفاة أبيهم، وطلب منهم مبايعة أخيهم المستعلي، فامتعضوا وأنكروا ذلك، فقبض الوزير الأفضل على أخويه عبد الله وإسماعيل وسجنهما في المسجد بالقصر، وفرَّ نزار إلى الإسكندرية، وأعلن الثورة على أخيه.

أدَّى إقصاء نزار عن الإمامة على الرغم من أحقيته، إلى نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية، ويُعدُّ إبعاده وتولية المستعلي انقلاباً مذهبياً وسياسياً واضحاً قام به الوزير الأفضل ليحافظ على مكتسباته وسلطاته التي كان يتمتع بها منفرداً منذ أواخر عهد المستنصر.

الواقع أن ثورة نزار لم تنجح بسبب تأييد الجيش للوزير الأفضل الذي تمكَّن، بعد محاولتين، من هزيمته والقبض عليه، فسُجن في القصر وضُيِّق عليه حتى مات أو أنه قُتل بالقصر[٣]. واستطاع أحد الدعاة الزائرين لمصر في أيام المستنصر أن يثير معارضة جديَّة خارج مصر، هذا الداعية هو الحسن بن الصباح المشهور بالحِميري، نسبة إلى حِمير القبيلة اليمنية، والمولود في الري في بيت اشتهر بالتشيع الإثني عشري، ورحل في عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) إلى مصر ليتعمَّق في دراسة المذهب الإسماعيلي في دار الحكمة، وظل مقيماً في مصر زهاء ثمانية عشر شهراً كان

(١) ابن ميسر: ص٣٥. (٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ٣ ص١١.
(٣) الشهرستاني، محمد عبد الكريم: الملل والنحل، جـ١ ص١٩٢. الجويني، عطا ملك: تاريخ جهان كشاي: جـ٣ ص١٧٩، ١٨٠.

خلالها موضع حفاوة المستنصر، وأتاحت له إقامته في مصر التعرف على أوضاع الدولة الفاطمية، وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظل سيطرة بدر الجمالي، وقد عزم على إقامة الدعوة للمستنصر في إيران وخراسان، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي صرف يعمل أعضاؤه على نشر المذهب الذي عُرف بعد وفاة المستنصر بالإسماعيلية الجديدة، واعتقد أتباعه بأحقية ابنه الأكبر نزار بالإمامة، وعُرفوا من أجل ذلك بالنزارية أو الإسماعيلية الشرقية، كما عُرفت فرقته بالحشيشية، وهو الاسم الذي اشتهرت به، ربما لتعاطي أفرادها الحشيش أثناء قيامهم بعمليات انتحارية، وسماهم أعداؤهم بالباطنية؛ لأنهم يرون لكل ظاهر باطناً وسموا هم أنفسهم بالتعليمية[1] وعندما توفي المستنصر وخلفه ابنه المستعلي، خطب الحسن بن الصباح لنزار، وأذاع بين أنصاره أن المستعلي اغتصب الإمامة من نزار، وبذل جهداً كبيراً في الرد على حجج طائفة المستعلية، أتباع المستعلي، وبذلك انقسمت الحركة الإسماعيلية إلى فئتين متنافستين هما النزارية والمستعلية.

اتخذ الحسن بن الصباح في عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) قلعة ألموت[2] مقراً لدعوته، وكان قد استولى عليها في عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)، وأهم ما قام به من إنجازات غلبت عليها الصفة العملية، فاستطاع أن يُوجِّه أتباعه الشديدي الولاء له لتحقيق أهداف سياسية مناهضة لخصومه، وبخاصة الخلافة العباسية في بغداد التي تحدَّى شرعيتها، بالإضافة إلى بعض الأمراء المسلمين من السلاجقة، وأهم ما استخدمه من أسلحة هو الاغتيال. وبفعل ما اشتهر به أتباعه من التعلق الشديد به جعلهم على استعداد للمخاطرة والتضحية بأنفسهم متى أمرهم بذلك، فعظم أمرهم، وقويت شوكتهم، وخشيهم الناس، وامتلأوا منهم رعباً، ولم تكن كراهيتهم للنصارى تزيد كثيراً على بغض أهل السنة، لذلك لم يسع هؤلاء وأولئك إلا تقدير ذلك.

توسُّع الحشيشية

لم يكد الحسن بن الصباح يستولي على قلعة ألموت حتى بادر بالاستيلاء على القلاع المجاورة، في خطوة توسعية، فسيطرعلى المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين وقلاعها المتناثرة التي تبلغ نحو ستين قلعة، نذكر منها: طبس وخالنجان، على خمسة فراسخ من أصفهان، وأستوناوند بين الري وآمل، وأردهن وكردكوه وهي

(١) الشهرستاني، محمد عبد الكريم: الملل والنحل، جـ١ ص١٩٢. الجويني، عطا ملك: تاريخ جهان كشاي: جـ٣ ص١٧٩، ١٨٠.

(٢) **ألموت**: قلعة على جل شاهق من حدود الديلم. ابن الأثير: جـ٦ ص٧٢٨.

مشهورة، والناظر بخوزستان، والطنبور على مقربة من أرجان، وخلادخان بين فارس وخوزستان، وتشمل هذه القلاع مناطق الطالقان في الجنوب الشرقي حتى حدود قزوين جنوباً، وتمتد غرباً حتى بهرام آباد وروذبار على الحدود المتاخمة لشرقي أذربيجان، ويعني ذلك أن المناطق التي سيطر عليها الحشاشون الإسماعيليون كانت ذات حدود سياسية تفصلها عن المناطق المجاورة والتي تقع تحت سيطرة السلاجقة وغيرهم، غير أن هناك ولاية تقع خارج نطاق هذه الحدود، استطاع الحشاشون الاستيلاء عليها وضمُّوها إلى دولتهم هي ولاية قهستان الواقعة بين هراة ونيسابور، وذلك في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م). والملاحظ أن القلاع الرئيسة التي استولوا عليها كانت تقع في أماكن تتوفر فيها الحياة الاقتصادية وهي في الغالب وسط وديان صالحة للزراعة، وبالقرب من موارد المياه، وبخاصة نهر شاهرود وفروعه، وشكَّلت وحدة اقتصادية ـ عسكرية مستقلة بذاتها بفضل وفرة وتنوع المحاصيل الزراعية التي يمكن أن تُزرع فيها وطبيعة الأرض الجبلية المحيطة بالقلاع، وكان رؤوساء القلاع يتبعون مباشرة للحاكم الإسماعيلي في قلعة ألموت الذي كان يمثل السلطة العليا.

العلاقة بين السلطان ملكشاه والحشيشية

تراوحت سياسة السلطان ملكشاه مع الحشيشية بين المهادنة والعداء وفقاً لتقلب الظروف السياسية، فعندما استقر الحسن بن الصباح في قلعة ألموت وراح أتباعه يغتالون الآمنين، أرسل إليه السلطان الإمام أبا يوسف يعقوب بن سليمان، وكان فقيهاً عالماً بالأصول على مذهب أهل السنة، لمناظرته، غير أن هذه المناظرة لم تُحقِّق هدف السلطان بإقناعه بالحكمة والموعظة الحسنة، فاضطر عندئذٍ إلى اللجوء إلى استعمال القوة، فأرسل قوة عسكرية بقيادة الأمير أرسلان طاش في عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) حاصرت قلعة ألموت، لكنها هُزمت، وأرسل في العام نفسه قوة أخرى حاصرت قلعة ديرة، وهي إحدى مراكزهم[1].

مقتل الوزير نظام الملك

أدرك الوزير نظام الملك خطر نشاط الدعوة الإسماعيلية من خلال استقطابها أعداداً كبيرة من عامة الناس، فحاربها بسلاح القوة من خلال الحملات العسكرية التي أرسلها السلطان ملكشاه ضد أفرادها، كما حاربها بنشاط دعوي مماثل عن طريق المؤسسات الثقافية التي أنشأها في بغداد والموصل وأصفهان ونيسابور وبلخ

(١) الجويني: جـ٣ ص٣٠١.

وهراة وغيرها من المدن، والتي عُرفت بالمدارس النظّامية التي من أهم أهدافها نشر الفكر السني ليواجه تحديات الفكر الشيعي والعمل على تقليص نفوذه، والمعروف أن هذا الوزير بذل جهداً كبيراً للنهوض بالحركة العلمية والأدبية، وكان محباً للعلماء كثير الإحسان إليهم، رتَّب لهم رواتب ثابتة تُصرف بانتظام، وكان مجلسه عامراً بالعلماء والفقهاء والقرَّاء، وله صدقات ووقوف كثيرة للصرف عليهم، وبلغ من عنايته بهم أنه كان يقضي جزءاً كبيراً من وقته معهم حتى كانوا يشغلونه في بعض الأحيان عن أمور الدولة[1].

ومن أبرز ما قام به الحشيشية من أعمال، في عهد السلطان ملكشاه، اغتيال نظام الملك في (١٠ رمضان ٤٨٥هـ/ ١٤ تشرين الأول ١٠٩٢م)، فقد قتله رجل ديلمي من هذه الفرقة، تزيَّا بزي الصوفية، وهو أول ضحاياها[2].

وكانت مكانة نظام الملك قد تزعزعت في أواخر أيامه، وساءت علاقته مع السلطان ملكشاه بفعل:

- أن نظام الملك اعتمد على أبنائه الإثني عشر في إدارة شؤون الدولة السلجوقية المترامية الأطراف[3]، فاستبدوا بالحكم وتحكَّموا بمقدراته، وبخاصة أنه منحهم صلاحيات واسعة مطلقة، في الوقت الذي أضحى فيه شيخاً كبيراً[4] لا يستطيع القيام بجميع أعباء الدولة ومهامها، ما أغضب السلطان ملكشاه وأثار حفيظته.

- الخلاف بين نظام الملك وتركان خاتون، زوجة السلطان ملكشاه، حول ولاية العهد، فقد كان الوزير يرى أن بركياروق، الابن الأكبر للسلطان ملكشاه، هو أحق بولاية العهد، في حين كانت تركان خاتون تسعى جاهدة لتولية ابنها ولاية العهد، وكان صغيراً لا يتجاوز الخامسة من عمره الأمر الذي جعلها تكره نظام الملك وتنضم إلى أعدائه، وكانت ذات نفوذ كبير، تسيطر على السلطان وتتدخل في شؤون الدولة، فأوغرت صدره عليه، ومال إلى تصديق مفترياتها.

- كثرة الطامعين في منصب الوزارة والذين يكرهون نظام الملك، وكان أكثرهم طموحاً وأعظمهم كراهية تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز الشيرازي، صاحب ديوان الإنشاء، ومجد الدين القمي، صاحب ديوان الاستيفاء، وسديد الملك الشيرازي صاحب ديوان عرض الجيش، واستطاع الأول أن يتقرب من زوجة

---

(١) ابن خلكان: جـ٢ ص١٢٨، ١٢٩. ابن كثير: جـ١٢ ص١٤٠.

(٢) الحسيني: ص٦٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٣٥٤. الراوندي: ص٢٠٩.

(٣) الراوندي: ص٢٠٦.

(٤) وُلد نظام الملك في عام (٤٠٨هـ) أي أنه كان آنذاك في السابعة والسبعين من عمره.

السلطان ويكسب تأييدها لمناهضة نظام الملك[1].

- النزاع الذي نشب بين والي مرو قودن من قِبل السلطان ملكشاه، وعثمان بن جمال الملك بن نظام الملك، وكان جده قد ولّاه رئاسة مرو، فاعتدى على الوالي وكان من المقربين إلى السلطان ملكشاه، فقبض عليه وأودعه السجن، ثم أطلق سراحه، فسار إلى السلطان مستغيثاً وشاكياً[2]، ما أدى إلى سوء تفاهم بين السلطان ووزيره.

دفعت هذه الأسباب السلطان ملكشاه إلى التفكير في عزل وزيره، غير أنه تردَّد لما كان له محبة في قلوب الشعب، بالإضافة إلى أن قسماً كبيراً من الجيش كان يؤيده ويحميه هو وأولاده، وخشي أن تندلع الفتن، وتعمَّ الاضطرابات، وتختلَّ الأوضاع، لذلك آثر انتهاج أسلوب التهديد بدلاً من العزل فلعل ذلك يرهبه ويُقلِّل عدد أتباعه.

واتخذ السلطان من شكوى والي مرو ذريعة، فبعث إليه برسالة عتاب مع شخصين من ألد أعدائه إمعاناً في إغاظته وهما تاج الملك الشيرازي ومجد الملك القمي، جاء فيها: «إن كنت شريكي في الملك، ويدك مع يدي في السلطة فلذلك حكم، وإن كنت نائبي وبحكمي فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة، وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة، وولي ولاية كبيرة، ولم يقنعهم هذا حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا وفعلوا، فكأنك لي في الملك شريك، أتريد أن آمر برفع دولة الوزارة من بين يديك وأُخلِّص الناس من استطالتك»[3].

استشاط نظام الملك غضباً وغيظاً عندما وصلت إليه الرسالة، وردَّ على السلطان بكلام جاف يُبين فضله في تأمين الملك له، فقال لمن حملوها: «قولوا للسلطان: إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم، فإنك ما نِلتَ هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي، أما يذكر حين قُتل أبوه، فقمت بتدبير أمره، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم، منهم فلان وفلان - وذكر جماعة ممن خرج عليه، وهو ذلك الوقت يتمسك بي ويلزمني ولا يخالفني، فلما قدت الأمور إليه وجمعت الكلمة عليه، وفتحت الأمصار القريبة والبعيدة، وأطاعه القاصي والداني، أقبل يتجنى لي الذنوب، ويسمع في السعايات. قولوا له عني: إن ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة، وإن اتفاقهما رباط كل رغيبة، وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه زالت تلك، فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه، وليأخذ

---

(١) البنداري: ص٢٢٣. (٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٥٥. الحسيني: ص٦٩.

الحذر من الحادث أمام طروقه. ثم قال لهم: قولوا للسلطان عني مهما أردتم فقد أهَّمني ما لحقني من توبيخه وفتَّ في عضدي»[1].

وأُحيط السلطان علماً بجواب نظام الملك، فازداد حذراً منه ومع ذلك لم يجرؤ على عزله، فأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه بشكل لا يؤدي إلى نشوب الفتن والثورات، لذلك ليس من المستغرب أن يدفع تاج الملك الشيرازي على قتله، فأغرى الحشيشية فاغتالوه بالقرب من نهاوند، وكان عائداً مع السلطان من أصفهان[2].

يُعدُّ مقتل الوزير نظام الملك أمراً جللاً، وخسارة كبيرة أصابت السلاجقة العظام بخاصة والعالم الإسلامي بعامة.

كان هذا الوزير عاملاً أساسياً من عوامل تدعيم بنيان الدولة السلجوقية، وظهرت مكانته بوضوح بعد مصرعه، إذ دخلت الدولة في طور التفكك والضعف، فقد كان طيلة عهد السلطان ألب أرسلان وعهد السلطان ملكشاه يُشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية، واستطاع بحسن سياسته، وسلامة تفكيره، ودقة تدبيره، أن يجعل من السلاجقة العظام أكبر قوة في العالم الإسلامي.

وترك هذا الوزير بصمات مهمة في النواحي الاجتماعية والثقافية، فقد تمتع بثقافة واسعة، ومقدرة فذة في إدارة الأمور وممارسة العلم، ويكفي دليلاً ما خلَّفه من آثار كتابية وأهمها كتاب «سياسة نامه» الذي يتضَّمن رؤية أدبية واجتماعية وسياسية فريدة، بالإضافة إلى الأسس التي تُبنى عليها الدول، وتُساس الرعية، كما كان للمدارس النظَّامية التي أنشأها أثر كبير في النهضة العلمية آنذاك، والتي تُعد بداية عصر جديد من الازدهار المدرسي في التاريخ الإسلامي.

وفاة السلطان ملكشاه

بعد مقتل الوزير نظام الملك، عاد السلطان ملكشاه إلى بغداد، فاستقبله عميد الدولة بن جهير وزير الخليفة، فعيَّن تاج الملك أبو الغنائم الشيرازي في منصب الوزارة مكان الوزير نظام الملك المقتول، وتوفي بعد اغتيال وزيره بحوالي خمسة وثلاثين يوماً[3] في ظروف غامضة أدَّت إلى انتشار الشائعات حول موته. فذكر ابن الأثير أنه خرج إلى الصيد وعاد ثالث شوَّال مريضاً، وكان سبب مرضه أنه أكل لحم صيد فحُمَّ وافتصد، ولكنه لم يستوف إخراج الدم، فثقل عليه مرضه، وكانت حمَّى

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٥٥.
(٢) الراوندي: ص٢٠٩.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٥٦.

محرقة، فتوفي ليلة الجمعة النصف من شوال[1].

ويذكر آخرون أنه مات مسموماً بدس السم له في الشراب أو في شحم أرنب بحري بتدبير من فروك أحد أتباع نظام الملك[2]، ويُرجِّح مؤرخون آخرون بأنه مات ميتة طبيعية[3].

أهمية السلطان ملكشاه

يُعدُّ السلطان ملكشاه أعظم سلاطين السلاجقة العظام، إذ بلغت الدولة في عهده أقصى اتساعها وذروة قوتها، فامتدت من بحيرة خوارزم شمالاً إلى حدود الصين جنوباً، ومن حدود الصين شرقاً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً، وملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين آنذاك، فخُطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاسي البلاد الإسلامية في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحمل إليه الأباطرة البيزنطيون الجزية، وخضع له ملوك: طراز، أسبيجاب، كاشغر، بلاساغون وغيرها من الأقطار البعيدة، وكذلك حكام سمرقند وما وراء النهر. بنى الكثير من الأبنية الفخمة لا سيما في أصفهان التي أصبحت في عهده من أهم مدن العالم الإسلامي الشرقي، وحفر القنوات، وأقام الجسور والقلاع، ولعل من أشهر أعماله التقويم المعروف باسم تقويم جلالي، فدعا بتشجيع من وزيره نظام الملك، كل علماء الفلك البارزين، واتخذوا قراراً باعتماد النوروز، يوم ٢٢ آذار من كل عام، بداية السنة الجديدة[4]، كما أمر ببناء مرصد كبير عمل فيه كثير من علماء الفلك أشهرهم: عمر بن إبراهيم الخيامي، أبو المظفر الإسفزاري، ميمون بن النجيب الواسطي وغيرهم، وقد صرف على بنائه وتجهيزه أموالاً طائلة واستمر بالعمل حتى وفاه السلطان ملكشاه[5].

اشتهر السلطان ملكشاه بعمل الخير ونشر العدل، فأمنت السبل في عهده، وكثر الخصب، وخافه الناس وهابوه، وكفَّ المظالم وانتصف للمظلوم، وكان يقف للمرأة والضعيف والمظلوم فلا ينصرفون حتى يقضيَ حوائجهم[6].

حكم السلطان ملكشاه بذكاء وأخلاق وثبات وشجاعة وحكمة وفاق الكثير من

(١) الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٣٥٩.
(٢) ابن الجوزي: جـ٩ ص٧٤. ابن تغري بردي: جـ٥ ص١٣٥.
(٣) البنداري: ص٢٣. الحسيني: ص٧١. الراوندي: ص٢١٠. الجويني: جـ٣ ص٢٠٦.
(٤) ما زال هذا التقويم مستعملاً في إيران في الوقت الحاضر.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٢٥٥.
(٦) الحسيني: ص٧٤. ابن كثير: جـ١٢ ص١٤٢.

الملوك في ذلك، اهتم بالرعية وبالإدارة وتحقيق العدالة، فانتفى الحزن والقهر وغطرسة المتعجرفين في عهده، وخلّف من الأولاد: أبا المظفر ركن الدين بركياروق، وغياث الدين محمد، وأبا الحارث سنجر، ومحمود، وهو أصغرهم[1].

(١) بالإضافة إلى هؤلاء كان للسلطان ملكشاه ولدان آخران هما: أحمد، وقد توفي في مرو عام (٤٨١هـ) وعمره أحد عشر عاماً وكان ولي عهد أبيه، وداود وقد توفي في عام (٤٧٤هـ)، وست بنات. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٨٠، ٣٢٣.

الفصل السادس

تراجع قوة دولة السلاجقة العظام

تمهيد

انتهى بوفاة الوزير نظام الملك والسلطان ملكشاه عهد القوة والازدهار في دولة السلاجقة العظام في خراسان وإيران والعراق، وبدأ عهد جديد اتسم بالضعف والانقسام بسبب التنافس الداخلي على السلطة بين أمراء البيت السلجوقي. الواقع أن السلاجقة فقدوا بوفاة هاتين الشخصيتين ما كانا يتمتعان به من حنكة سياسية وخبرة إدارية وعسكرية، وهي التي نهضت بالدولة ونظَّمتها وذلَّلت الصعوبات التي واجهتها، ولم تعد الدولة السلجوقية في هذا العهد تخضع لسلطان واحد، بل راح يتنازعها أكثر من سلطان في وقت واحد، ويتقاسمها أمراء السلاجقة الذين لم يعد هدفهم توسيع رقعتها والمحافظة على مكتسباتها، بل محاولة القضاء على بعضهم البعض حتى يخلو الجو للمنتصر منهم، وأدَّت كثرة الحروب بينهم إلى انفراط عقد الدولة، وتمزق وحدتها، وتلاشي قوتها؛ فضعفت سيطرتها على مختلف أقاليمها، وسقطوا جميعاً في النهاية.

السلطان محمود بن ملكشاه

(٤٨٥ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٩٢ ـ ١٠٩٤م)

اعتلاؤه العرش

كانت المشكلة التي واجهت السلاجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه هي مسألة اختيار خلف، وقد برزت هذه المشكلة في أواخر عهد السلطان المتوفي، لكن وفاته المفاجئة حالت دون الوصول إلى حلٍّ حاسم فيها، وانحصر التنافس على العرش بين بركياروق، الابن الأكبر للسلطان المتوفي، والبالغ ثلاثة عشر عاماً من العمر، وكان في أصفهان، وتلقَّى تأييداً ومساندة من أتباع الوزير نظام الملك، وبين أخيه الأصغر محمود، البالغ من العمر أربعة أعوام وبضعة أشهر وكان في بغداد يوم وفاة والده، وهو ابن تركان خاتون الزوجة المحبوبة ذات النفوذ الواسع،

وتلقى تأييداً ومساندة من الوزير تاج الملك أبي الغنائم الشيرازي.

وهكذا انقسم السلاجقة على أنفسهم إلى فريقين متنازعين كل منهما يجاهر الآخر بالعداء.

وعندما توفي السلطان ملكشاه، كتمت زوجته نبأ وفاته حتى تُرتِّب أمور اعتلاء ابنها العرش، والواقع أن هذه السيدة كانت تسيطر على مقدرات الأمور في عهد زوجها، وتهيمن على الشؤون المالية، فأغدقت الأموال على الجند واستقطبتهم فبايعوا ولدها محمود، ثم أرسلت أحد القادة الأتراك، ويُدعى قوام الدين كربوغا، إلى أصفهان ومعه خاتم السلطان ملكشاه للقبض على بركياروق وإيداعه السجن؛ لأنها خشيت أن ينازع ولدها على السلطة، كما أرسلت إلى دار الخلافة تطلب أن يعهد الخليفة المقتدي بالسلطنة لابنها محمود بن ملكشاه، وأن تكون الخطبة باسمه، فرفض الخليفة ذلك بحجة أن ابنها صغير السن لا يليق بالملك، فهدَّدته بابنه الأمير جعفر، من خاتون ابنة السلطان ملكشاه، وكان يعيش مع جده في أصفهان، فاضطر الخليفة عندئذٍ إلى الاستجابة لطلبها لكنه اشترط:

- إعادة ابنه إليه.
- أن تكون السلطنة لولدها والخطبة له.
- يتولى الأمير أُنر، وهو أحد أمراء العسكر، تدبير الجيوش ورعاية البلد.
- يتولى تاج الملك أبو الغنائم الشيرازي جباية الأموال وترتيب العمال[1].

ويبدو أن تركان خاتون رفضت في بادىء الأمر شروط الخليفة، فقد كانت تريد أن تكون الأمور بيد ولدها، إلا أن الخليفة أصرَّ على موقفه وقال: «هذا لا يجيزه الشرع»، وكان الإمام أبو حامد الغزالي يتولى الوساطة بينهما، فأقنعها بعدم جواز ولاية ابنها؛ لأنه طفل صغير دون الخامسة من عمره، فوافقت على شروط الخليفة[2].

وخُطب لمحمود بالسلطنة على منابر بغداد في (٢٢ شوال ٤٨٥هـ/ ٢٥ تشرين الثاني ١٠٩٢م)، ولُقِّب بناصر الدنيا والدين، ومنحه الخليفة الخِلع السلطانية وأرسلها إليه مع عميد الدولة ابن جهير، فأفاضها عليه وأبلغ والدته بتهنئة الخليفة، وتمَّ تعيين تاج الملك أبو الغنائم وزيراً على أن يختص أُنر بتدبير الجيوش ورعاية البلاد[3].

---

(١) الراوندي: ص٢١٥، ٢١٦. (٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٦٣.

(٣) المصدر نفسه.

الصدام بين السلطان محمود وبين أخيه بركياروق ـ وفاة السلطان محمود

اعتقدت تركان خاتون أنها أمَّنت السلطة لابنها محمود، وأصبح في مأمن من أي منافسة، لكن فاتها ما يكنُّه الجنود النِّظَّاميون من كراهية لوزير ابنها تاج الملك أبي الغنائم الشيرازي بفعل عدائه الشديد لنظام الملك، فمالوا إلى بركياروق، فثاروا في أصفهان وأخرجوا بركياروق من السجن، وأجلسوه على العرش وخطبوا له[1]، وبذلك أصبح للسلاجقة سلطانان في وقت واحد، أحدهما في بغداد والآخر في أصفهان، وأضحت المواجهة بينهما أمراً لا مفر منه.

كانت تركان خاتون آنذاك قد خرجت من بغداد متوجهة إلى أصفهان، ومعها ابنها السلطان محمود ووزيره تاج الملك أبو الغنائم الشيرازي، ولما اقتربت من المدينة خرج بركياروق منها مع أتباعه النِّظَّامية، وتوجَّهوا إلى الري، فانضم إليهم في الطريق الأمير أرغش النِّظَّامي ومعه جماعة من الأمراء ممن ينقمون على الوزير تاج الملك أبي الغنائم الشيرازي، عدو نظام الملك والمسؤول عن مقتله، وتمكَّن بفضل مساعدتهم من الاستيلاء على قلعة طَبَرَك، ثم التقى بجيش أخيه السلطان محمود بالقرب من بروجرد[2] في (١٦ ذي الحجة ٤٨٥هـ/ ١٨ كانون الثاني ١٠٩٣م) ودارت بينهما رحى معركة ضارية، وعندما اشتد القتال انحازت جماعة من عسكر السلطان محمود إلى صفوف بركياروق، كان منهم: الأمير يلبرد وكمشتكين الجاندار، فرجحت كفته، وانتهى القتال بهزيمة جيش السلطان محمود، ووقع وزيره تاج الملك أبو الغنائم الشيرازي في الأسر، فقتله الجنود النِّظَّامية في (محرم ٤٨٦هـ/ شباط ١٠٩٣م) انتقاماً لمقتل صاحبهم نظام الملك على رغم إرادة بركياروق الذي كان يرغب في استيزاره نظراً لكفاءته[3].

وسارت تركان خاتون مع ابنها السلطان محمود بعد الهزيمة إلى أصفهان الخالية من أنصار بركياروق، فدخلتها وتحصَّنت بها، فتبعها بركيارق وحاصر المدينة، وبذلت تركان خاتون الأموال لبركياروق حتى بفك الحصار عن المدينة، ثم اتفق الطرفان على الصلح، وتقسيم أراضي السلطنة السلجوقية بين الأخوين على الشكل التالي:

- أن تكون بلاد أصفهان وفارس لتركان خاتون وابنها محمود.

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٦٣.

(٢) **بروجرد**: بلدة بين همذان وبين الكرج، بينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخاً، وبينها وبين الكرج عشرة فراسخ، وبروجرد بينهما. الحموي: جـ١ ص٤٠٤.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٦٣، ٣٦٤.

- أن تكون باقي أراضي السلطنة، لا سيما القسم الغربي، من نصيب بركياروق وهو السلطان.
- تدفع تركان خاتون مبلغ خمسمائة ألف دينار لبركياروق من ميراث أبيه[1].

ويبدو أن موافقة بركياروق على مبدأ الصلح والقسمة له علاقة بعاملين:

الأول: بروز خطر منافس سلجوقي آخر على السلطة هو عمه تُتُش، حاكم دمشق وما جاورها من بلاد الشام.

الثاني: عدم جهوزية قواته لفرض حصار قد يكون طويل الأمد، فأراد تجهيز جيش آخر كثير العدد، قوي العتاد، حتى يستطيع الاستيلاء على أصفهان.

ويبدو أن تركان خاتون لم تكن صادقة النية في التفاهم مع بركياروق، فما إن فكَّ هذا الحصار عن أصفهان حتى دخلت في مفاوضات مع خاله إسماعيل ياقوتي أمير أذربيجان، ووعدته بالزواج إذا استطاع هزيمة بركياروق، وأرسلت إليه الآلات والأسباب والأموال والدروع. وبالفعل توجَّه إسماعيل ياقوتي على رأس جيشه لمحاربة ابن أخته، والتقى الجيشان بنواحي الكرج في (رمضان ٤٨٦هـ/ تشرين الأول ١٠٩٣م)، وأسفر القتال بينهما عن انتصار بركياروق، وفرَّ إسماعيل ياقوتي إلى أصفهان في جو الهزيمة القائم، فاستقبلته تركان خاتون وأكرمته، فخطبت له وضربت اسمه على الدينار بعد ابنها محمود بن ملكشاه. وكاد أمر الزواج يتم بينهما غير أن الأمراء، ولا سيما الأمير أُنر، عارضوا ذلك خشية من بطشه وآثروا خروجه عنهم، ويبدو أنه خشي بدوره منهم، فغادر أصفهان ولحق بأخته زبيدة، والدة بركياروق، فأقام عندها أياماً، وحدث أن اجتمع مع بعض الأمراء وهم كمشتكين الجاندار، وآقُسنقر وبوزان، فبسطوه في القول، فاطلعهم على سره وأنه طامع بالسلطنة والتخلص من بركياروق، فوثبوا عليه وقتلوه، وأعلموا أخته بذلك، فسكتت عنه[2].

وسار بركياروق في (شوال ٤٨٧هـ/ تشرين الأول ١٠٩٤م)، بعد أن انهزم أمام عمه تُتُش صاحب دمشق، إلى أصفهان، وكانت والدة أخيه السلطان محمود قد توفيت في (رمضان/ أيلول)، فصدَّه أهلها، ثم أذنوا له، خديعة منهم ليقبضوا عليه، فلما اقترب من المدينة خرج أخوه السلطان محمود لاستقباله، وما إن دخلها حتى قبض عليه الأميران أُنر وبلكابك وسجناه في كوشك ميدان، وهمَّا بسمل عينيه، وحدث آنذاك أن حُمَّ أخوه السلطان محمود وجُدر ثم توفي، فأفرج الأمراء عنه

(١) الراوندي: ص٢١٨.

(٢) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٧١، ٣٧٢.

واختاروه سلطاناً على السلاجقة[1].

السلطان بركياروق

(٤٨٧ ـ ٤٩٨هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٠٤م)

اعتراف الخلافة العباسية بسلطنة بركياروق

توجَّه بركياروق في (١٧ ذي القعدة ٤٨٦هـ/ ٩ كانون الأول ١٠٩٣م) إلى بغداد بصحبة وزيره عز الملك الحسين بن نظام الملك، من أجل الطلب من الخليفة المقتدي الاعتراف به سلطاناً على السلاجقة، فاستجاب الخليفة لطلبه في (١٤ محرم ٤٨٧هـ/ ٣ شباط ١٠٩٤م)، وخُطب له على منابر المدينة ولُقِّب ركن الدين. وحمل الوزير عميد الدولة بن جهير إليه الخِلع فلبسها، وعُرض التقليد على الخليفة، ليعلِّم عليه فعلَّم فيه، ثم توفي الخليفة فجأة، فولي ابنه أبو العباس أحمد سدة الخلافة وتلقب بالمستظهر، فاعترف ببركيارق سلطاناً على السلاجقة، وبايعه السلطان بالخلافة، وظل السلطان في بغداد حتى (ربيع الأول ٤٨٧هـ/ نيسان ١٠٩٤م) ثم غادرها إلى الموصل[2].

الصراع بين السلطان بركياروق وبين عمه تُتُش

جهد تاج الدولة تُتُش، حاكم دمشق وما جاورها، خلال سني حكمه إلى:

- بسط سلطانه على كامل بلاد الشام ومدنه وبخاصة الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للفاطميين أو تُحكم من قِبلهم مباشرة.
- إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها مباشرة بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان وإيران.

فاصطدم من أجل ذلك بالقوى المختلفة الموجودة في هذه البلاد، وبخاصة بني عمَّار في طرابلس وآق سُنقر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها وبني عقيل في الموصل وبني مروان في آمد وميافارقين، بالإضافة إلى الفاطميين.

وعندما توفي السلطان ملكشاه طلب تُتُش السلطنة لنفسه مستغلاً الصراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفى، وتجهَّز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه، وأرسل إلى كل من آق سُنقر وبوزان يطلب مساعدتهما[3].

(١) الراوندي: ص٢١٩. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٨٠، ٣٨١.

(٢) الحسيني: ص٧٥. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٧٦.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٠٠، ٢٠١. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٦٧.

كان من المستحيل على آق سُنقر أن يظل بعيداً عن الأحداث السياسية، وبخاصة أن الأوضاع في إيران وخراسان كانت لا تزال غير واضحة، وأدرك في الوقت نفسه مدى خطورة تحركات تُتُش على وضعه في حلب، وأنه أعجز من أن يقف في طريقه، فاضطر تحت ضغط الأحداث إلى إجابة طلبه، وقَبِل مكرهاً الاعتراف بسلطانه، وأبدى استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه[1].

ومرَّ تُتُش في (محرم ٤٨٦هـ/ شباط ١٠٩٣م) بأراضي حلب في طريقه إلى إيران وخراسان، فانضمَّ إليه آق سُنقر وبوزان وياغي سيان حاكم أنطاكية، وضمَّ أثناء زحفه مدن الجزيرة الفراتية، مثل الرحبة ونصيبين، وأخضع الموصل التابعة لبني عقيل، ومَلَكَ آمد وميافارقين وأعمالهما، وانتزعها من بني مروان، فرتَّب أوضاع هذه البلاد وعيَّن حكامها وخطب لنفسه بالسلطنة، ثم سار منها إلى أذربيجان[2].

وقوي أمر تُتُش بعد هذا التوسع والانتشار، فأرسل إلى الخليفة العباسي المقتدي يطلب منه الاعتراف به سلطاناً على البلاد الخاضعة لحكمه، وأن يخطب له على منابر بغداد وبلدان الخلافة العباسية، فكان رد الخليفة بعدم الإيجاب والمماطلة[3]، بانتظار ما ستسفر عنه النزاعات الأسرية بين أولاد السلطان ملكشاه في إيران وخراسان.

وعندما استقرت أوضاع السلطنة السلجوقية في إيران وخراسان، وانتهى الصراع على السلطة لصالح بركياروق، قرَّر تُتُش أن يُسرع بالزحف باتجاه إيران لمحاربة ابن أخيه، ولما وصل إلى مدينة تبريز تخلّى عنه آق سُنقر وبوزان وانضمَّا إلى السلطان بركياروق عند مدينة الري، فقوي موقفه بهما.

شكَّل هذا الانسحاب صدمة عنيفة لتُتُش، وحطَّم طموحه وآماله المستقبلية، وأدرك فوراً مدى تأثيره السلبي على أوضاعه؛ لأنه أضعف موقفه في لحظة حرجة، وقوَّى موقف خصمه السلطان بركياروق، وأجبره على التوقف عن الزحف والاصطدام به، واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بلاد الشام.

وما جرى من تحذير كل من آق سُنقر وبوزان السلطان بركياروق من أطماع عمه تُتُش أن قرَّر هذا مطاردته والقضاء عليه، وتحرَّك الجميع باتجاه الرحبة التي توقَّف فيها تُتُش، للاصطدام به، فلما علم هذا الأخير بذلك غادرها على عجل، فاجتاز الفرات قاصداً أنطاكية، فبقي فيها مدة ثم عاد إلى دمشق[4]، ويدل ذلك على وجود

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص١٢.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٨ ص٣٦٧ ـ ٣٧٠.
(٣) المصدر نفسه. (٤) ابن القلانسي: ص٢٠٤.

تقارب بينه وبين حاكم المدينة ياغي سيان موجَّه ضد آق سُنقر وحلفائه.

وعُقد اجتماع رباعي في الرحبة ضمَّ السلطان بركياروق وآق سُنقر وبوزان وعلي بن مسلم بن قريش العقيلي، الزعيم العربي وصاحب الموصل، تمخَّض عن عقد تحالف بين الحاكميْن السلجوقيين والأمير العقيلي تحت إشراف السلطان، هدفه الوقوف في وجه طموحات تُتُش، وعاد السلطان بعد ذلك إلى بغداد بعد أن ترك قوة عسكرية تحت تصرف آق سُنقر في حين عاد بوزان إلى الرها وآق سُنقر إلى حلب[1].

قرَّر تُتُش بعد عودته إلى دمشق الانتقام من آق سُنقر وبوزان بعد أن خاناه وتخليا عنه في وقت الشدة ومنعاه من الحصول على السلطنة، فضمَّ ياغي سيان حاكم أنطاكية بعد أن صاهره بزواج ابنه رضوان من ابنته، كما انضم إليه جماعة من بني كلاب وأحداث حلب، واستعدَّ لقتالهما[2].

وخرج تُتُش من دمشق في (جمادى الأولى ٤٨٧هـ/ أيار ١٠٩٤م) متوجهاً إلى حلب، وعندما علم آق سُنقر بخروجه، خرج هو الآخر من حلب على رأس جيشه للتصدي له خارجها، ولم يتمكَّن حليفاه كربوغا وبوزان من اجتياز بعض سواقي نهر سبعين[3] ما حرمه من قوة عسكرية هو بأمس الحاجة إليها، واضطر إلى خوض المعركة منفرداً عند تل السلطان[4] والتي أسفرت عن خسارته ووقوعه أسيراً في يد خصمه تُتُش الذي قتله على الفور، وفرَّت فلول جيشه المنهزمة إلى حلب[5].

توجَّه تتش بعد انتصاره إلى حلب لضمِّها بعد أن خلت من القيادة ومن المدافعين عنها، في حين فرَّ كربوغا وبوزان واجتمعا بأهل حلب حيث تقرَّر طلب مساعدة عاجلة من السلطان بركياروق، لكن السرعة التي وصل بها تُتُش إلى أسوار المدينة أحدثت ارتباكاً بين سكانها والأحداث والأتراك. وحدث أن جماعة من الأحداث ممن هم مع تُتُش فتحوا أحد أبواب المدينة، ونادوا بشعاره، فدخلها وتسلَّمها يوم الاثنين (١١ جمادى الأولى/ ٣٠ أيار) كما تسلَّم قلعة الشريف، والقلعة الكبيرة من واليها نوح، وقبض على كل من كربوغا وبوزان، وضمَّ حرَّان والرها، فقتل بوزان وأرسل كربوغا إلى حمص وسجنه فيها، وملك الديار الجزرية كلها بما فيها

(١) ابن القلانسي: ص٢٠٤.
(٢) المصدر نفسه؛ ابن الأثير: جـ٨ ص٣٧٩. ابن العديم: جـ١ ص٣٣١.
(٣) **سبعين**: قرية من قرى حلب وهي بباب حلب. الحموي: جـ٣ ص١٨٥.
(٤) **تل السلطان**: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق، وفيه خان ومنزل للقوافل، وهو المعروف بالفنيدق. المصدر نفسه: جـ٢ ص٤٢.
(٥) ابن القلانسي: ص٢٠٦ ـ ٢٠٩.

الموصل، كما ملك ديار بكر بعد أن انتزعها من بني مروان[١]، فجاور بذلك أملاك السلاجقة العظام في إيران وأذربيجان، وبعد أن رتَّب أوضاع حلب أستأنف الزحف باتجاه الشرق، وأخضع أذربيجان، وأرسل يوسف بن آبق على رأس قوة عسكرية إلى بغداد للاستيلاء عليها والطلب من الخليفة المستظهر الخطبة له على منابرها[٢].

كان السلطان بركياروق آنذاك في نصيبين في الجزيرة الفراتية، فلما علم بتقدم عمه إلى أذربيجان، خرج منها وعبر نهر دجلة من بلد فوق الموصل وسار إلى إربل ومنها إلى بلد سُرخاب بن بدر إلى أن بقي بينه وبين عمه تسعة فراسخ، ولم يكن معه سوى ألف مقاتل، وكان عمه في خمسين ألفاً، فاصطدمت به قوة عسكرية شامية بقيادة الأمير يعقوب بن آبق وهزمته، فتراجع إلى أصفهان، وانتشرت أنباء هذه الهزيمة في بغداد، فقطعت الخطبة له وخُطب لعمه تُتُش[٣].

وتقدم تُتُش في هذه الأثناء نحو الري وكتب إلى ابنه رضوان يستدعيه من دمشق، فتوجَّه إليه ومعه بقية من تخلَّف من أصحابه في بلاد الشام. وراسل أمراء التركمان في أصفهان لاستقطابهم وبذل لهم الوعود الكثيرة، فأجابوه بالإيجاب ووعدوه بالانحياز إليه وهم ينتظرون جلاء وضع السلطان بركياروق الصحي حيث كان مريضاً بالجدري، فلما شُفي من مرضه، أرسلوا إلى تُتُش يخبرونه أن ليس بينهم وبينه إلا السيف، وساروا مع بركياروق إلى الري[٤].

كان موقف السلطان بركياروق دقيقاً وحرجاً، إلا أنه تعدَّل بما انضم إليه من الجند حتى أضحى عديد جيشه ثلاثين ألفاً، وجرى اللقاء بينه وبين عمه قرب الري يوم الأحد (١٧ صفر ٤٨٨هـ/ ٢٧ شباط ١٠٩٥م) عند قرية يُقال لها داشلو على بُعد اثني عشر فرسخاً من الري، وكان طاحناً، وأسفر عن انتصار السلطان، وقُتل تُتُش خلال القتال على يد أحد أصحاب آق سُنقر ثأراً له[٥].

وبمقتل تُتُش أضحى السلطان بركياروق حاكماً منفرداً على الدولة السلجوقية، إلا أنه اكتفى بحكم إيران وبغداد، ولم يحاول حكم بلاد الشام. إلا أن آثار هذا الصراع لم تنته، فقد تمزقت وحدة السلاجقة العظام وأصبحوا شيعاً وأحزاباً يتناحرون فيما بينهم من أجل الحصول على السلطة واعتلاء العرش، وتخلَّوا عن أهدافهم التوسعية.

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٨٠. (٢) المصدر نفسه: ص٣٨٠، ٣٨٩، ٣٩٠.
(٣) المصدر نفسه: ٣٨٠، ٣٨١.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٨١، ٣٩٠. ابن القلانسي: ص٢٠٩، ٢١٠. ابن العديم: جـ١ ص٣٣٥.
(٥) ابن القلانسي: ص٢١٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٣٩٠، ٣٩١. الحسيني: ص٧٦. ابن العديم: جـ١ ص٣٣٥، ٣٣٦.

الصراع بين السلطان بركياروق وبين عمه أرسلان أرغون

وظهر، في خضم النزاعات الداخلية بين أفراد البيت السلجوقي، منافس آخر للسلطان بركياروق على السلطة هو عمه أرسلان أرغون، وكان هذا في بغداد عند أخيه السلطان ملكشاه، فلما توفي السلطان غادر المدينة إلى نيسابور للاستيلاء عليها، فصدَّه أهلها وامتنعوا عن تسليمها له، فسار منها إلى مرو وتسلَّمها بمساعدة شحنتها قودن، وتدفَّقت عليه العساكر من كل مكان، فقوي أمره وملك بلخ وترمذ ونيسابور وسائر خراسان، وكتب إلى ابن أخيه السلطان بركياروق يخبره بما سيطر عليه وأنه لن يتعداها إلى مناطق أخرى، وأنه لن يخرج عن طاعته وسيستمر في تنفيذ أوامره[١].

كان السلطان بركياروق في صراع مع أخيه السلطان محمود، فأظهر موافقته على ما جاء في رسالة عمه وهو في الحقيقة غير راض عن ذلك، وما لبث أن أرسل إليه قوة عسكرية لإخضاعه بقيادة عمه الآخر بوربرس ابن السلطان ألب أرسلان اصطدمت به في خراسان، وتغلَّبت عليه، ففرَّ إلى بلخ حيث جمع الكثير من العساكر، وانضمَّت إليه حشود كبيرة من التركمان، وعندما شعر بقوته، سار إلى مرو، واستولى عليها عنوة، فخرَّب أسوارها وقتل كثيراً من أهلها، فسار إليه بوربرس من هراة، واصطدم به في مرو إلا أنه تعرَّض للهزيمة، فتراجع إلى بلخ في جو الهزيمة القاتم غير أنه قُبض عليه، وحُمل إلى أرسلان أرغون، وهو أخوه، فسجنه بترمذ، ثم أمر به فخُنق بعد سنة من حبسه، وذلك في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م)[٢].

لم يسكت السلطان بركياروق على هزيمة عمه بوربرس، وخشي أن يستقل عمه أرسلان أرغون بحكم خراسان، ما دفعه إلى إرسال جيش آخر لمحاربته والقضاء عليه بقيادة أخيه سنجر، وقد عيَّنه والياً على خراسان، وأرسل معه الأمير قماج، وهو أتابكه[٣]، وكان أرسلان أرغون قد قُتل في غضون ذلك على يد أحد غلمانه بسبب شدته عليهم، ولم يعلم سنجر بذلك، فلما وصل إلى دامغان علم بخبر مقتله، فتوقف في هذه المدينة حتى لحق به السلطان، وساروا جميعاً إلى نيسابور، فملكوها في (٥ جمادى الأولى ٤٩٠هـ/ ٢٠ نيسان ١٠٩٧م) ودانت للسلطان بلاد خراسان

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٠٦، ٤٠٧. (٢) المصدر نفسه.
(٣) أتابك: لفظة تركية مركبة من كلمتين، آتا: معناها أب، وبك معناها مؤدب ومربي، وكانت تُطلق على الوصي أو المؤدب لأمراء الأتراك الذين يعهد يأمر تربيتهم نظراً لحداثة سنهم، في أيام السلاجقة، وإلى بعض الأمراء الذين يمتون بصلة القرابة من جهة الأب.

كلها، ثم عاد إلى بغداد، وقد تولّى سنجر الحكم على هذه البلاد في عهد أخيه السلطان بركياروق مدة عشرين عاماً، وكان والياً على بلاد ما وراء النهر أيضاً، ومن ثَمَّ فقد سمي ملك المشرق[1].

التنازع على منصب الوزارة وأثره على الأوضاع الداخلية

تأثرمنصب الوزارة إلى حد كبير بالظروف السياسية والاقتصادية التي مرَّت بها الدولة السلجوقية، كما أثَّر التنازع على هذا المنصب على الأوضاع الداخلية لهذه الدولة. لقد شكَّل تنافس أبناء نظام الملك على منصب الوزارة في عهد السلطان بركياروق، وكذلك تنافس النِّظامية مع غيرهم من الطامعين؛ سبباً في انقسام السلاجقة وقيام النزاعات بين أبناء السلطان ملكشاه، فالحروب التي نشبت بين ابني ملكشاه السلطان بركياروق والسلطان محمود، عقب موت ملكشاه مباشرة، كانت نتيجة لتنافس نظام الملك وتاج الملك أبي الغنائم الشيرازي على وزارة ملكشاه، كما أن الحروب التي اندلعت بين السلطانين بركياروق وأخيه محمد في المدة بين (٤٩٢ ـ ٤٩٨هـ/ ١٠٩٨ ـ ١١٠٤م) كانت بسبب تنافس أبناء نظام الملك، مؤيد الملك وفخر الملك وعز الملك، على منصب وزارة السلطان.

الواقع أن السلطان بركياروق عمد، إثر توليه السلطة، إلى مكافأة النِّظامية على مساندتهم له في اعتلاء العرش السلجوقي، فعيَّن عز الملك الحسن بن نظام الملك وزيراً له ثم عزله بعد مدة وجيزة بسبب عدم كفاءته واستوزر بدلاً منه أخاه مؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك[2].

وكان فخر الملك، الابن الأكبر لنظام الملك، يتطلع أيضاً إلى اعتلاء منصب الوزارة، فراح يتقرَّب من السلطان، وحدث آنذاك أن أراد السلطان بركياروق إحضار والدته زبيدة خاتون من أصفهان إلى همذان، فأشار عليه مؤيد الملك بإبقائها في أصفهان، فرفض ذلك وقال: «لا أريد الملك إلا لها، وبوجودها عندي»، فلما وصلت إلى همذان نُمي إليها ذلك، فحقدت على مؤيد الملك، وأخذت تعمل على إقصائه من الوزارة، وساعدها كاتبها أبو الفضل مجد الملك البلاساني، الذي كان يطمع في الوصول إلى مكانة متقدمة ودرجة عالية من النفوذ في الدولة، ويخشى أن يقف مؤيد الملك في وجهه ويحول دون ذلك، فاستغل فخر الملك هذه الحادثة

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٠٨، ٤٠٩. محمود، حسن أحمد، وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٦١٠.

(٢) البنداري: ص٢٣٦، ٢٣٧.

وطلب من السلطان ووالدته أن يتبوأ منصب الوزارة، وتعهد بدفع مبلغ كبير من المال لقاء ذلك، وسانده مجد الملك البلاساني، فأجيب إلى طلبه، وعُزل أخوه مؤيد الملك من الوزارة وقبض عليه وسُجن، وخلفه فخر الملك وذلك في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)[1].

كانت سلطة فخر الملك اسمية في حين كانت السلطة الفعلية في يد مجد الملك البلاساني الذي كان وزيراً لديوان الاستيفاء، كما كان وزيراً لزبيدة خاتون والدة السلطان[2]، فاستطاع أن يبسط نفوذه على كل مرافق الدولة، وأن يتصرف بجميع مهامها، وكانت وزارة فخر الملك ألعوبة في يده.

وعندما خرج مؤيد الملك من سجنه لم يعمل على مناوأة أخيه فخر الملك، ولم يحاول أن يستعيد الوزارة من جديد، بل راح يتآمر ضد السلطان نفسه ويعمل على الانتقام منه ومن والدته زبيدة خاتون، فأخذ يتصل بأعدائه ومنافسيه، فسار في عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) إلى الأمير أُنر حاكم بلاد الجبال، وأقنعه بالخروج على طاعة السلطان وخوَّفه من مجد الملك البلاساني المهيمن على مقدرات الأمور، فزحف أُنر على رأس جيش كبير إلى الري وطلب من السلطان بركياروق تسليمه مجد الملك البلاساني، فرفض السلطان طلبه وتهيأ للخروج لمحاربته، لكن اغتيل أُنر في غضون ذلك على أيدي الحشيشية، فاستقر رأي مؤيد الملك على الانضمام إلى صفوف محمد بن ملكشاه، وكان والياً على إقليم أذربيجان، فاجتمع به وأشار عليه أن يطلب السلطنة وينتزعها من يد أخيه السلطان بركياروق، فاستجاب لإغرائه واتخذه وزيراً ليضمن تأييد أسرة نظام الملك له، فقطع الخطبة للسلطان من بلاد أرَّان[3] وأعمالها، وأقام الخطبة لنفسه، ثم تحرَّك في عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) على رأس جيش كبير قاصداً همذان والري، يصحبه وزيره مؤيد الملك[4].

أدرك السلطان بركياروق أنه لن يستطيع التصدي لقوات أخيه محمد، فخرج من الري إلى أصفهان ومنها إلى خوزستان، وانتشرت الفتنة بين جنوده، وكان أغلبهم يميل إلى أسرة نظام الملك ويكرهون مجد الملك البلاساني، ولم يلبثوا أن طالبوه بقتل وزيره، لكنه رفض طلبهم، فما كان منهم إلا أن هجموا على خيمة مجد الملك

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٩٧. البنداري: ص٢٣٨.

(٢) الراوندي: ص٢١٠، ٢١٨.

(٣) **أرَّان**: ولاية واسعة تضم بلاداً كثيرة، وهي مجاورة لأذربيجان من الشمال والغرب، وقيل: أرَّان من أصقاع أرمينية. الحموي: جـ١ ص١٣٦.

(٤) البنداري: ص٢٣٩. الحسيني: ص٧٦، ٧٧. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٨.

البلاساني وقتلوه[1]، وعندما علم عز الملك منصور بن نظام الملك بمقتل الوزير مجد الملك البلاساني انضم إلى صفوف السلطان وهو يطمع في أن يسترد منصب الوزارة.

ودخل محمد مدينة الري، وكانت زبيدة خاتون، والدة السلطان بركياروق، قد تخلَّفت فيها فقبض عليها الوزير مؤيد الملك وقتلها[2]، انتقاماً لدورها في عزله من الوزارة عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، ثم وقع مؤيد الملك نفسه أسيراً في إحدى المعارك، التي دارت بين السلطان بركياروق وبين أخيه محمد، فقتله في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م)[3].

ويبدو أن الطمع لم يفارق مؤيد الملك حتى عندما كان في سجن السلطان بركياروق، حيث أخذ يراسله من السجن عارضا عليه أن يعفو عنه ويوليه الوزارة مقابل مبلغ مائة ألف دينار، فوافق السلطان على طلبه، واستطاع الوزير أن يؤمِّن المبلغ خلال أسبوع لكن السلطان بركياروق عدل عن اتخاذه وزيراً بسبب المشكلات التي أثارها، فغضب عليه وقتله[4].

الصراع بين السلطان بركياروق وبين أخويه محمد وسنجر

لعل أبرز ما واجهه السلطان بركياروق من مشكلات هدَّدت دولته، هو الصراع الذي نشب بينه وبين أخويه محمد وسنجر الذي استمر خمسة أعوام (٤٩٢ - ٤٩٧هـ/ ١٠٩٩ - ١١٠٤م)، وكان للتنازع على منصب الوزارة أثر كبير في تأجيج هذا الصراع. فقد أخذ نفوذ محمد بن ملكشاه يقوى وينتشر بعد انضمام مؤيد الملك إليه، وراح هذا يُشجِّعه على خلع أخيه السلطان بركياروق، وتمكَّن من إقناعه بذلك، واتخذه محمد وزيراً، كما ذكرنا، كما انضم إليه سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد سابقاً، وكربوغا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب الجزيرة الفراتية، وسُرخاب بن بدر صاحب كِنْكِوَر[5]، بفعل نفورهم من السلطان بركياروق[6].

اجتمع الأمراء الثائرون بمحمد وساروا معه إلى الري في طريقه إلى أصفهان للاستيلاء عليها، فأعاد سعد الدولة كوهرائين إلى بغداد بعد أن خلع عليه، وأمره أن يُقيم الخطبة له في عاصمة الخلافة بدلاً من أخيه السلطان بركياروق.

(١) الراوندي: ص٢٢٤. (٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٩.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٤٢. البنداري: ص٢٤٠.
(٤) الراوندي: ص٢٢٦، ٢٢٧.
(٥) **كِنْكِوَر**: قلعة حصينة عامرة قرب جزيرة ابن عمر. الحموي: جـ٤ ص٤٨٤.
(٦) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٩.

وعندما علم السلطان بخروج أخيه، وكان في الري، غادرها إلى أصفهان، فصدَّه أهلها، فلحق بخوزستان. واجتمع سعد الدولة كوهرائين في غضون ذلك مع الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ - ١١١٨م) وطلب منه وقف الخطبة للسلطان بركياروق، والخطبة لمحمد، فاستجاب الخليفة لطلبه، إذ لم يكن بوسعه أن يرفض، وهو الأضعف على الساحة السياسية، وبخاصة أنه شعر بقوة محمد وغلبة نفوذه، فاعترف به سلطاناً على السلاجقة، وخطب له يوم الجمعة (١٧ ذي الحجة ٤٩٢هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٠٩٩م) ولقَّبه غياث الدنيا والدين[1].

وهكذا وُجد سلطانان في وقت واحد معترف بهما من الخليفة العباسي، وكان مرد ذلك كله التنازع على منصب الوزارة.

لم يركن السلطان بركياروق إلى الهدوء وهو يرى تصاعد نفوذ أخيه السلطان محمد ومنافسته له على السلطة، فاصطدم به في خمس معارك على مُدد زمنية متقاربة ومتباعدة، وتداولا النصر والهزيمة والخطبة على منابر بغداد.

جرت المعركة الأولى بينهما في (٤ رجب ٤٩٣هـ/ ١٥ أيار ١١٠٠م) في أسبيذروذ[2]، وكانت الغلبة فيها للسلطان بركياروق[3].

وجرت المعركة الثانية بين الأخوين في (٣ جمادى الآخرة ٤٩٤هـ/ ٣ نيسان ١١٠١م) في عسكر مُكرم[4] انتصر فيها السلطان بركياروق[5].

وجرت المعركة الثالثة بين السلطانين في (صفر ٤٩٥هـ/ كانون الأول ١١٠١م) في روذراور[6]، وكانت سجالاً، وانتهى الطرفان إلى الصلح الذي انتُهك بعد ذلك[7].

وجرت المعركة الرابعة في (جمادى الأولى ٤٩٥هـ/ آذار ١١٠٢م) في الري وأسفرت عن انتصار السلطان بركياروق[8].

وجرت المعركة الخامسة في (٨ جمادى لآخرة ٤٩٦هـ/ ١٩ آذار ١١٠٣م) على باب خوي في أذربيجان، وانتهت لصالح السلطان بركياروق[9].

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٩، ٤٣٠.
(٢) **أسبيذروذ**: معناها النهر الأبيض، وهي موضع بهمذان.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٣٤، ٤٣٥.
(٤) **عسكر مُكرم**: بلد مشهور بنواحي خوزستان منسوب إلى مكرم بن معزاء الحارث، أحد بني جعونة بن الحارث بن نمير بن عامر بن صعصعة. الحموي: جـ٤ ص١٢٣.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٤١، ٤٤٢.
(٦) **روذراور**: كورة قرب نهاوند من أعمال الجبال على مسيرة ثلاثة فراسخ. الحموي: جـ٣ ص٧٨.
(٧) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٦١ - ٤٦٤. (٨) المصدر نفسه: ص٤٦٤، ٤٦٥.
(٩) المصدر نفسه: ص٤٨٥ - ٤٨٧.

أنهكت هذه الحروب المتطاولة الجانبين، وأدَّت إلى انتشار الاضطراب وعمَّ الفساد في الدولة «فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة،والبلاد مخرَّبة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها، محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وكان الأمراء والأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم حكمهم، وانبساطهم وإدلالهم»[1] وقد أدرك السلطان بركياروق ذلك، وكان آنذاك في الري والخطبة له بها وبالجبل، وطبرستان، وخوزستان، وفارس، ودياربكر، والجزيرة الفراتية، وبالحرمين الشريفين وبعض البطائح؛ فمال إلى الصلح مع أخيه السلطان محمد، الذي كان آنذاك بأذربيجان والخطبة له فيها، وفي بلاد أرَّانية، وأرمينية، وأصفهان، والعراق كلها باستثناء تكريت وفي بعض البطائح، فأرسل إليه القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمذاني، المعروف بصاحب قُراتكين، لتقرير قواعد الصلح، فاجتمعوا به بالقرب من مراغة وأجروا معه مباحثات ناجحة في ربيع الآخر (٤٩٧هـ/ كانون الثاني ١١٠٤م) أسفرت عن توزيع أراضي الدولة السلجوقية وفقاً لما يلي:

- أن يكون للسلطان محمد البلاد من نهر أسبيذروذ إلى باب الأبواب[2] وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، ويكون له في العراق البلاد التي كانت تُحكم من قِبل سيف الدولة صدقة بن مزيد.
- يكون نصيب السلطان بركياروق الأقاليم الجنوبية.
- يحمل كل منهما لقب سلطان.
- لا يعترض السلطان بركياروق على ضرب الطبول أمام دار أخيه السلطان محمد خمس مرات إيذاناً بدخول وقت الصلاة.
- أن لا يذكر اسم السلطان بركياروق بجانب اسم السلطان محمد في البلاد التي صارت من نصيبه.
- أن لا يكون الاتصال بينهما إلا عن طريق الوزراء.
- أن لا يعترض أحد العسكرين الآخر داخل حدود كل منهما.
- يكون نصيب السلطان سنجر خراسان وما وراء النهر[3].

وأرسل السلطان بركياروق يُعلم الخليفة المستظهر على ما تقرر من قواعد الصلح

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٩٣.

(٢) **باب الأبواب**: هو دربند شروان ويقع في أقصى شمالي بلاد شروان على بحر قزوين. الحموي: جـ١ ص٣٠٣.

(٣) الحسيني: ص٧٨. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٩٣، ٤٩٤.

بينه وبين أخيه ويطلب إقامة الخطبة له، فاستجاب الخليفة لطلبه، فخُطب له يوم الخميس (١٩ جمادى الأولى/١٨ شباط) في الديوان، وفي اليوم التالي في سائر المساجد، كما خُطب له بواسط[1].

العلاقة مع الحشيشية

انتهزت فرقة الحشيشية فرصة الاضطرابات التي حدثت بعد وفاة السلطان ملكشاه، من واقع الصراع الذي نشب بين أبناء البيت السلجوقي، فراحت تتوسع عن طريق الاستيلاء على مزيد من الأماكن الحصينة، وتتسلل إلى بلاد السلاجقة وإلى جيوشهم، وكان جيش السلطان بركياروق أحد الجيوش السلجوقية التي كثر المقاتلون الباطنيون في صفوفه، ويبدو أن هذا السلطان لم يشأ أن يصطدم بهم بسبب انهماكه في الصراع الدائر بين أفراد البيت السلجوقي من جهة؛ ولأنه أراد الاستفادة من قوتهم في هذا الصراع من جهة أخرى، فاتُّهم بأنه يميل إليهم ويوافق على ما يقومون به من اغتيال الأمراء والأعيان.

وأخذ دعاة الحشيشية ينشرون الدعوة الإسماعيلية بين الجند، ويُهدِّدون من يرفض الدخول في مذهبهم، فخشي هؤلاء على أنفسهم من القتل واحتاطوا بلبس درع تحت ثيابهم، وأشاروا على السلطان بركياروق أن يفتك بهم قبل أن يستفحل خطرهم فيعجز عن القضاء عليهم[2].

وأذن السلطان في قتلهم وتتبعهم في الآفاق، فقتل ثلاثمائة منهم عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م)، وسرعان ما لاحقهم أمراء الأقاليم، فقتل جاولي سقاوة ما يقارب الثلاثمائة منهم في منطقة خوزستان، وأرسل السلطان إلى الخليفة العباسي يشير عليه بملاحقة الموجودين منهم في عاصمته، فأمر بالقبض على قوم وقتلهم، كان من بينهم الأمير محمد بن دشمنزيار بن علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه صاحب يزد، وأبو براهيم الأسدابادي الذي كان قد وصل إلى بغداد رسولاً من بركياروق ليأخذ مال مؤيد الملك وكان من أعيانهم، ولم يجرؤ أحد أن يشفع بهم لئلا يُتهم بالميل إلى مذهبهم[3].

وطارد السلطان سنجر الحشيشية في خراسان في عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م) فقتل أعداداً منهم وحاصرهم في قلعة طبس وغيرها من القلاع والقرى المجاورة، ومع ذلك فقد أشار عليه أعوانه بأن يؤمنهم مقابل ألا يبنوا حصناً ولا يشترون سلاحاً،

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٩٤، ٤٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٥٥، ٤٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٥٦.

ولا يدعون أحداً إلى مذهبهم، ويبدو أنه عجز عن القضاء عليهم فاستجاب لمشورة أعوانه، وقد تعرَّض للنقد من جانب من نالهم أذى منهم، فنقموا عليه[١].

والواقع أن الحشيشية لم يحترموا بنود الصلح، فأغاروا في العام التالي على نواحي بيهق وأكثروا القتل والنهب والسبي، ويُعد هذا العام نهاية المرحلة التي قاوم السلاجقة فيها نفوذ الحشيشية بحذر في ظل الصراع الداخلي على السلطة، واستغلال الحشيشية هذا الصراع للتغلغل في صفوف السلاجقة والتسلل إلى المراكز المهمة في دوائر الدولة[٢].

الصراع السلجوقي ـ الصليبي

تمهيد: شهد عهد السلطان بركياروق مجيء الصليبيين من أوروبا إلى الشرق الإسلامي بهدف السيطرة على ربوعه، والاستيلاء على الأماكن المقدسة في فلسطين.

والواقع أن أحداث الحروب الصليبية التي سيطرت على تاريخ العصور الوسطى لاتهمنا في هذه الدراسة إلا في نطاق صلتها بالسلاجقة ومدى تأثيرها على أوضاعهم، وإذا كان لنا أن نذكر بإيجاز طبيعة الحروب الصليبية ودوافعها، نستطيع القول إنها في حقيقة أمرها استمرار للصراع الطويل الذي قام منذ العصور القديمة بين الشرق والغرب، واتخذ في كل عصر شكلاً معيناً يتلاءم مع مقتضيات الظروف وإن اتحد في الهدف والغاية.

كان الصراع في العصور القديمة سياسياً وعسكرياً في عالم يدين بالوثنية، حمل لواءه الفرس واليونان، في حين اتخذ الغرب الأوروبي في العصور الوسطى الدين ستاراً لتحقيق الغايات نفسها، فاصطبغ الصراع بالصبغة الدينية، بعد أن اعترف الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير بالديانة النصرانية بموجب مرسوم ميلان في عام (٣١٣م)[٣]، واعتنقها قبل وفاته.

وبظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، وبعد انتشاره في الجزيرة العربية، توسَّع المسلمون خارج جزيرتهم بهدف نشر مبادىء الدين الجديد، ففتحوا العراق وبلاد الشام بعد أن اصطدموا بالفرس والبيزنطيين، وحقَّقوا في أعوام قلائل انتصارات مذهلة، فقضوا على الامبراطورية الفارسية وسيطروا على الولايات الشرقية التابعة للامبراطورية البيزنطية.

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٠٠. (٢) المصدر نفسه: ص٥١١.

(٣) انظر: نص مرسوم ميلان في كتاب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، للسيد الباز العريني: ص٥٠، ٥١.

دوافع الحروب الصليبية

تُمثل الحروب الصليبية في العصر الوسيط روح المجتمع الغربي والأفكار السائدة فيه من ناحيتين: الدين والحرب. نتج عن الدين ظاهرة الحج، ونتج عن الحرب ظاهرة الحرب المقدسة.

يُعدُّ الحج ظاهرة التوبة والاستغفار بما تهيأ للحاج أن يسعى إلى الأراضي المقدسة في فلسطين ازدادت اتساعاً وأهمية بتأثير الحركة الكلونية[١]، التي دعت في القرن العاشر الميلادي إلى أسبقية كنيسة روما على سائر الكنائس الشرقية، وتجديد الدعوة البطرسية للسيادة البابوية العالمية، فارتفع شأن البابوية بفعل عدد من البابوات الأقوياء، أمثال غريغوري السابع (٤٦٥ ـ ٤٧٨هـ/ ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) وتلميذه أوربان الثاني (٤٨١ ـ ٤٩٢هـ/ ١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) حامل لواء الحركة الصليبية الذين حضُّوا على نبذ الحرب الداخلية بين أمراء الإقطاع وتوجيهها ضد المسلمين لانتزاع الأراضي المقدسة في فلسطين منهم.

لكن الدوافع الأخرى، وهي متنوعة، بعيدة كل البعد عن الناحية الدينية، وجد فيها المجتمع الغربي متنفسه من الأزمات التي كان يمر بها. فالباحث في تاريخ الحروب الصليبية يستطيع أن يلمس بوضوح أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في توجيهها وتحكُّمها بمصائرها، وأن الدين استُغل استغلالاً واضحاً للدعاية لها، والعمل على إنجاحها تحقيقاً لأغراض أخرى لا تمت إلى الدين بصلة.

لقد أدَّى العامل الاقتصادي دوراً مهماً في الحروب الصليبية، وكان حلاً لكثير من المشكلات التي عانى منها المجتمع الغربي الذي شهد، في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، أزمة اقتصادية حادة وبخاصة في فرنسا، وأدَّت كثرة الحروب الداخلية بين أمراء الإقطاع، إلى ازدياد سوء الأوضاع الاقتصادية، فتعطَّلت طرق التجارة، وانعدم الأمن، وازداد عبء الالتزامات الإقطاعية على الأقنان ورقيق الأرض، فأصابت آثار هذه الأزمة مختلف فئات الشعب، ونتيجة لذلك كانت الحروب الصليبية متنفساً لهؤلاء الجياع للهجرة، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة، ولا عجب أن ضمَّت الجموع الصليبية الأولى الغالبية العظمى من أقنان ورقيق الأرض، وعامة الشعب من الفقراء والمعدمين، وهدفهم التخلص من قيود الإقطاع والتزاماته، وقد عادت عليهم تلك الحروب بفائدتين:

(١) نسبة إلى ديركلوني في حوض الرون الأعلى الذي أسسه وليم التقي دوق أكويتانيا في عام ٩١٠م.

الأولى: أنها حرَّرتهم من عبودية الإقطاع.

الثانية: خلَّصت نفوسهم من الخطايا وفقاً لما وعدتهم به الكنيسة.

وساهمت طائفتان في تلك الحروب هما المدن التجارية والجماعات الرهبانية المسلحة.

كان هدف المدن التجارية الإيطالية والفرنسية، التي اشتركت في الحروب الصليبية، الكسب المادي الذي يعود عليهم، نتيجة السيطرة على الحركة التجارية مع الشرق على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً، لذلك قامت أساطيل المدن بدور فعَّال في الاستيلاء على المراكز الرئيسة في بلاد الشام، وساهمت في قيام الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة مقابل معاهدات عقدتها معها، وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية مهمة.

أما الجماعات الدينية المسلحة مثل الداوية[1]، والأسبتارية[2] والتي كان من أولى مبادئها الفقر والطاعة والحرمان والتقشف والبُعد عن ملذات الحياة، فقد تحوَّلت إلى جمعيات كسبية لها جيوشها ومتاجرها ومواردها المالية وسياستها الخارجية الخاصة، فخرجت بذلك عن مبادئها الأساسية، وهي حماية الحجاج وإغاثة الجرحى والمرضى من الصليبيين في ساحات القتال.

وأدَّى العامل الاجتماعي دوراً في الحروب الصليبية، إذ المعروف أن المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى كان يُقسم إلى ثلاث طبقات هي: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من الفرسان والنبلاء، وطبقة الفلاحين. مثَّلت الطبقتان، الأولى والثانية، الهيئة الحاكمة والثرية، في حين مثَّلت طبقة الفلاحين جموع العاملين المحرومين من النفوذ والثروة، وكان عليهم أن يعملوا في ظروف قاسية ليؤمِّنوا الحاجات المادية للطبقتين الأولى والثانية، وقد ارتبطوا بالأرض التي يعملون فيها

---

(١) **الداوية**: Templers، طائفة عسكرية دينية تُطلق على جماعة فرسان المعبد، تأسَّست في عام ١١١٩م لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا وبيت المقدس، ثم تحوَّلت بعد ذلك إلى هيئة عسكرية، وقد منح بلدوين الثاني، ملك بيت المقدس، أفرادها خاناً يقيمون فيه بالقرب من معبد سليمان، ولذلك سموا بفرسان المعبد.

(٢) **الأسبتارية**: Hospitalliers، طائفة عسكرية من الفرسان المتدينين الذين سكنوا ديراً في بيت المقدس بجوار دير سان ماري، وقد أُقيم بجواره مستشفى، في المدة قبل الحروب الصليبية، بهدف إيواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم، ولما اندلعت الحروب الصليبية تطوَّع أفرادها في المساهمة في الحرب ضد المسلمين، وكانوا موضع احترام غودفري، ملك بيت المقدس، فأقطعهم إحدى الضواحي، وأغدق عليهم الأموال، ثم أصبحوا يؤلفون قوة عسكرية كبيرة، واشتهروا بالتعصب الشديد للنصرانية.

ارتباطاً وراثياً، وعاش أفرادها حياة شاقة مليئة بالذل، ومثقلة بالالتزامات التي كان عليهم أن يُقدموها إلى السيد الإقطاعي، ووجدت هذه الطبقة المعدومة في الحروب الصليبية الفرصة للخلاص مما كانت ترزح تحته من ذُل العيش، وقد استهانت بأخطارها التي لا تُقارن من حيث شدَّتها بالمذلة التي كان يعيش فيها أفرادها من دون أمل بالخلاص، وعلى أمل أن يجدوا منفذاً لحياة أفضل.

وكان للدافع السياسي دور فعَّال في الحروب الصليبية، فقد داعبت الآمال الكبيرة بعض الحكام ورجال الإقطاع في توسيع رقعة أملاكهم، وتأسيس مستعمرات جديدة لهم في الشرق بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم، مع استثناء الملوك الأباطرة الذين خرجوا بإلحاح من البابوية أو مدفوعين بعاطفة دينية، وكانت البابوية على رأس هذه الطوائف والجماعات، وهي التي أخذت تحثُّ الجميع باسم الدين في مؤتمر كليرمونت في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، متسترة تحت قناعه لتحقيق أهدافها السياسية بالتخلص من مضايقات الملوك وأمراء الإقطاع، وفرض سيطرتها على الحكام الزمنيين، كما وجدت في الحروب الصليبية مجالاً لتحقيق حلمها القديم بفرض سلطانها الديني والدنيوي على العالم النصراني، بشقيه الغربي والشرقي، والعمل على توحيد الكنيستين اللاتينية واليونانية على المذهب الكاثوليكي الذي تدين به بعد الانشقاق الديني الكبير الذي حدث في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م)[1]، ولا أدلَّ على تغليب النزعة السياسية عند أمراء الإقطاع الغربيين الذين شاركوا في الحملات الصليبية، الخلافات التي كانت تنشب بينهم.

وهناك دافع سياسي آخر تمثَّل بطلب البيزنطيين المساعدة من الغرب الأوروبي لمواجهة التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى الذي بات يُهدد العاصمة القسطنطينية. لقد شكَّلت الحروب الصليبية سبباً مباشراً لاحتكاك نصارى الشرق الأرثوذكس بنصارى الغرب الكاثوليك، ما أثَّر في تطور العلاقات بينهما، والمعروف أن هذه العلاقات لم تكن في ذلك الوقت طيبة وسادها الشك وعدم الثقة، وكانت أوجه الخلاف في المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية عاملاً آخر وسَّع شقة البغضاء بين الطرفين، ما تسبَّب بانعكاسات سلبية على الحروب الصليبية في بداية مسيرتها على الأقل.

وعندما أسَّس سلاجقة الروم سلطنتهم في نيقية بعد معركة ملازكرد، واصلوا حركة توسعهم في آسيا الصغرى، وفتحوا معظم بقاعها، كما سيطر الأتراك بعامة على بعض الجزر القريبة منها، وقد حاول الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (٤٧٤ ـ

---

(١) راجع فيما يتعلق بمؤتمر كليرمونت: فوشيه شارتر: تاريخ الحملة إلى القدس ص٣١ ـ ٣٧.

٥١٢هـ/ ١٠٨١ ـ ١١١٨م) بدون جدوى، وقف الزحف التركي، لذلك اضطر إلى التوجه نحو الغرب والبابوية لطلب المساعدة.

وما نشب من القتال بين المسلمين والنصارى في أسبانيا، اتخذ أيضاً صفة الحرب المقدسة، تدخَّل فيها الباباوات يوجهونها الوجهة الدينية الخالصة.

ويُعد استيلاء الأسبان على مدينة طليطلة المنيعة في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) خطوة تشجيعية لطرد المسلمين من البلاد، وتلى معركة الزلَّاقة، التي حدثت في العالم التالي، حركة صحوة إسلامية بعثها المرابطون، اشتدت بعدها دعوة الفرسان النصارى للذهاب إلى أسبانيا لمحاربة المسلمين بعد أن تبيَّن للأسبان مدى ضعفهم، وأدَّى ذلك إلى خلق شعور داخل المجتمع الأوروبي، بتشجيع من البابا أوربان الثاني، إلى تحويل هذه الجهود العسكرية إلى الشرق لمحاربة المسلمين وانتزاع الأراضي المقدسة في فلسطين منهم، وتأسيس إمارات نصرانية.

ولم يكد ينتهي القرن الحادي عشر الميلادي حتى تحوَّلت الحرب المقدسة إلى اتجاه عملي، فأبدى الفرسان في المجتمع الأوروبي استعدادهم للاستجابة لدعوة الكنيسة والقتال من أجل السيطرة على الأماكن الفلسطينية المقدسة في الشرق، في حين وقف الأمراء في بادىء الأمر بعيداً عن هذا المناخ، على أن فكرة امتلاك الأراضي جعلتهم يُقبلون، بعد ذلك، على الاشتراك في الحرب المقدسة.

وعلى الرغم من أن الغرب الأوروبي قد استجاب لنداء بيزنطية من أجل حرب المسلمين، إلا أنه لم تكن في بيزنطية أي فكرة عن حرب صليبية، إذ كانت قضية استعادة الأراضي المقدسة خيالية إلى حد بعيد، كما أنها لم تكن حيوية في سياسة بيزنطية الخارجية التي رأت نفسها وقد انغمست في غمرة الحروب الصليبية.

الواقع أن بيزنطية هدفت إلى الحصول على بعض المساعدات العسكرية من مرتزقة في حربها ضد السلاجقة، ولم يكن لهذا الأمر علاقة بالحملة على فلسطين، كما أن أباطرة الدولة البيزنطية لم يتخيلوا ما سوف يتهدَّدهم من أخطار نتيجة تدفق القوات الصليبية التي راحت تُهدِّد كيان الامبراطورية، والمعروف أن سياسة بيزنطية الخارجية كانت، قبل مجيء الصليبيين، تعتمد على إقامة نوع من التوازن مع جيرانها المسلمين وغير المسلمين بما يكفل لها المحافظة على كيانها، وحافظت بيزنطية على هذه السياسة بعد مجيء الصليبيين، وحدَّدت علاقتها بهم بما كان يربطها من علاقات سلمية أو عدائية مع إمارات ودول الشرق الإسلامي ومع أوروبا والقوى الإيطالية بما كانت تدَّعيه من حقوق حماية النصارى في الشرق.

درج المؤرخون على الاهتمام بثماني حملات صليبية، توجهت أربع منها إلى

الأراضي المقدسة في فلسطين، وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان إلى مصر، هما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية، هي الرابعة، ونزلت الثامنة في شمالي أفريقيا، وتخلَّلت هذه الحملات النظامية حملات أخرى كان يقوم بها العامة، وإن فاق بعضها، إن في الإعداد أو في التجهيز والأهمية، ما قامت به بعض الحملات النظامية المعروفة.

الحملة الصليبية الأولى

بعد إعلان مولد الحركة الصليبية على يد البابا أوربان الثاني، في كليرمونت، بدأت استعدادات التنفيذ، فقام البابا المذكور بجولات دينية في بلدان الغرب الأوروبي لتعبئة الرأي العام، وكان يعتقد أن جيشاً منظماً تحت رعاية روحية واحدة وقيادة عسكرية موحدة، ستكفل للحملة التقدم والنجاح، ولكن دعاته الذين بثَّهم في أرجاء بلدان أوروبا سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة في الشرق، فانتابت المجتمعات الأوروبية، نتيجة ذلك، موجات عارمة من الحماس الديني أسفرت عن قيام حملة الشعوب أو العامة، وضمَّت تشكيلة منوعة من فئات مختلفة من فرنسا وإيطاليا وألمانيا.

واحتشد الآلاف، من فقراء الرجال والنساء وقطاع الطرق واللصوص والغوغاء الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون القتال، وانضمَّ إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية.

خرجت الحملة الشعبية على شكل مجموعات عدة تحت زعامة أشخاص عديدين، أمثال غوتييه وبطرس الناسك والتر المفلس وغيرهم، واصطدموا أثناء تقدمهم بشعوب البلدان التي مروا بها في باڤاريا والمجر وبلغاريا، وبخاصة النصارى الأرثوذكس المخالفين لهم في المذهب، واليهود الذين اشتهروا بمعاملاتهم المالية المتعسفة التي طالت مختلف فئات المجتمع الأوروبي، وقاموا بأعمال السرقة والسلب والقتل وحرق المدن، ولم تنج ضواحي القسطنطينية من تعدياتهم ما حمل الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على نقلهم بسرعة إلى آسيا الصغرى مدركاً، بما له من خبرة وتجربة، أن هذا الجمع الصليبي غير المنظم لا يثير الخوف في النفوس، وأنه إذا عبر المضيق إلى آسيا الصغرى فسوف يُدمره سلاجقة الروم. وفعلاً اصطدم هؤلاء بهم بقيادة السلطان قلج أرسلان الأول (٤٨٥ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٠٧م) وأبادوهم، ولم ينجُ منهم سوى ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفاً[1].

---

(١) رنسيمان، سيتفن: تاريخ الحروب الصليبية: جـ١ ص٢٠١ ـ ٢٠٦.

بعد قيام الحملة الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوروبي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق وقوامها الأمراء الإقطاعيون من فرنسا وإيطاليا ونورمنديا، وطبيعي أن يكون أفراد هذه الحملة أكثر تقديراً لخطة سيرهم بعد الاستعدادات بالسلاح والأموال والرجال والعتاد والاتصال مسبقاً بأمراء وحكام النواحي الذين سيمرون في أراضيهم حتى يمدُّوا لهم يد المساعدة.

تكوَّنت حملة الأمراء من أربعة جيوش نظامية هي:

- القوات النورماندية، بقيادة بوهيموند وابن أخته تانكرد.
- القوات البروفنسالية، بقيادة ريموند الرابع، كونت تولوز.
- القوات الفرنسية، بقيادة إتيانّ، كونت بلوا، وهيو، كونت نرماندوا، وهو الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا، وروبرت الثاني، كونت فلاندر.

قوات اللورين السفلى، بقيادة غودفري دي بوايون، دوق اللورين وأخوه بلدوين[1].

سلكت هذه الجيوش أربعة طرق مختلفة، لكنها اتفقت على الالتقاء عند أسوار القسطنطينية، وبلغ عدد أفرادها ثلاثين ألف مقاتل. وبعد مباحثات مضنية مع الامبراطور البيزنطي تَمَّ نقلهم إلى آسيا الصغرى، والواقع أن ألكسيوس كومنين اشترط عليهم، في مقابل مساعدته لهم، بأن يُعطى له كل الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها من السلاجقة والتي كانت تابعة للامبراطورية من قبل[2].

نتائج الحملة الصليبية الأولى

سقوط نيقية: وسرعان ما توجَّهت هذه الجموع الصليبية الهائلة الممتلئة حماساً واندفاعاً، صوب حدود سلطنة سلاجقة الروم، وهدف قادتها الاستيلاء على عاصمتها نيقية، التي تبعد عن القسطنطينية حوالي مائة ميل، وذلك نظراً لموقعها الجغرافي المتميز، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكَّل ذلك خطراً على خطوط مواصلاتهم مع بلاد الشام، وقد توحَّدت أهدافهم وأهداف بيزنطية في هذه القضية.

وصلت القوات الصليبية إلى العاصمة السلجوقية في (٢١ جمادى الأولى ٤٩٠هـ/ ٦ أيار ١٠٩٧م) وعسكرت حول أسوارها وضربت الحصار عليها. كان السلطان قلج

= Albirt d'Aix: Liber Christianne Expedition Pro Eroptione et Restione Sameta Hiero sol vritanae Ecclesia in: R.H.C, occ, IV pp 283, 284.

(١) الصوري، وليم: تاريخ الحروب الصليبية، وهو تعريب لكتاب: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، جـ١ ص١٩٥ ـ ٢٢٥.

(٢) رنسيمان: جـ١ ص٢٣٣.

أرسلان الأول آنذاك خارج عاصمته، وعلى الرغم من ضخامة الحامية السلجوقية المرابطة داخل المدينة، فإنها احتاجت إلى إمدادات لم يتمكَّن السلطان تأمينها.

استمر الحصار مدة خمسة أسابيع جرت خلالها مفاوضات سرية بين الحامية السلجوقية والامبراطور البيزنطي لتسلميه المدينة مقابل الأمان، وقد فضَّل سكانها هذا الحل؛ لأنهم خشوا من عنف الصليبيين إذا وقعت المدينة في أيديهم، وتمَّت عملية التسليم في (١١ رجب/ ١٩ حزيران)، وقد أزعج ذلك القادة الصليبيين إلا أنهم قبلوا هذا الحل على مضض[1].

تأسيس إمارة الرها[2] استأنف الصليبيون زحفهم باتجاه بلاد الشام، بعد استراحة أسبوع على سقوط نيقية، ونجحوا في اختراق آسيا الصغرى بعد اصطدامات ضارية مع السلاجقة في دوريليوم، ووصلوا إلى كيليكيا وسيطروا عليها بمساعدة الأرمن الذين يُشكلون نسبة مرتفعة من سكانها، ثم واصلوا تقدمهم فبلغوا مدينة أنطاكية وضربوا الحصار عليها، باستثناء ما كان من أمر بلدوين الذي انفصل عن الجيش الرئيس عند عينتاب بين حلب وأنطاكية، وتوجَّه نحو الشرق بناء على دعوة تلقاها من الأمير الأرمني ثوروس، حاكم الرها، لمساعدة المدينة أمام الزحف الإسلامي بقيادة كربوغا حاكم الموصل القادم لنجدة أنطاكية.

استغل بلدوين هذه الفرصة بذكاء لتأسيس إمارة له في الرها حيث تبناه صاحبها وأشركه معه في الحكم، ولم تمض مدة طويلة حتى اغتال الأرمن ثوروس، فتزوج بلدوين امرأته وتسلم الحكم، وذلك في (ربيع الآخر ٤٩١هـ/ آذار ١٠٩٨م). وهكذا قامت أول إمارة صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي[3].

تمثَّلت أهمية هذه الإمارة في أنها أدَّت دور الحاجز في الشمال الشرقي، بحيث تلقت الضربات الإسلامية الأولى بدلاً من الإمارات الأخرى، وقبع بلدوين فيها فرحاً بما حقَّقه، وفتر اهتمامه بمساعدة جيش الصليبيين الرئيس الذي كان لا يزال يحاصر أنطاكية.

تأسيس إمارة أنطاكية: وصل الصليبيون إلى أنطاكية في (ذي القعدة ٤٩٠هـ/

(١) انظر: فيما يتعلق بسقوط نيقية: Anna Comnina: The Alexiad, pp 268 - 270. المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص٣٤ ـ ٣٦. فوشيه شارتر: ص٤٦، ٤٧.

(٢) **الرها:** مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. الحموي: جـ٣ ص١٠٦، ١٠٧.

(٣) فوشيه شارتر: ص٥١ ـ ٥٣.

تشرين الأول ١٠٩٧م) وضربوا الحصار عليها. استمر الحصار مدة سبعة أشهر بدت خلالها معاناتهم واضحة، فتفشَّت المجاعة في معسكرهم، ولم تجد فِرق السلب والنهب التي شكَّلوها للإغارة على المناطق الريفية المجاورة، ما تنهبه، حتى باتوا في مأزق حقيقي.

وفي المقابل، كان المسلمون داخل المدينة ينظمون صفوفهم ويُعزِّزون وسائل الدفاع عن مدينتهم، أما المسلمون خارجها فقد فشا بينهم التنازع والشقاق على الرغم من أن جيشاً إسلامياً، بقيادة كربوغا أمير الموصل، كان يشق طريقه لإنقاذ المدينة، إلا أنه وصل بعد فوات الأوان.

إذ في غمرة البؤس الصليبي، حاك بوهيموند المؤامرة التي رأى فيها وسيلة لتحقيق أطماعه ودفعته للانضمام إلى الحملة الصليبية، أي تأسيس إمارة نورماندية في الشرق الإسلامي، فأعلن عزمه على الرحيل إذا لم يوافق القادة الصليبيون على منحه حكم أنطاكية بعد الاستيلاء عليها.

وبفعل الذعر الذي انتاب الصليبيين وافق قادتهم على طلبه، وكان بوهيموند قد دبَّر مؤامرة مع أحد الأرمن على فتح باب البرج الذي يتولى حراسته، فدخلت القوات الصليبية إلى المدينة، واستولى بوهيموند على القلعة ليعلن تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية في (جمادى الآخرة ٤٩١هـ/ حزيران ١٠٩٨م)، وهي الإمارة الثانية التي يؤسسها الصليبيون بعد إمارة الرها[١].

تأسيس مملكة بيت المقدس: استأنف الصليبيون تقدمهم نحو بلاد الشام، خلال شهر (صفر ٤٩٢هـ/ كانون الثاني ١٠٩٩م) بعد تردُّد طويل. وأدرك أمراء المدن الإسلامية خطورة الموقف لعدم وجود قوة إسلامية كبرى تجاورهم وتحميهم من ذلك الخطر، لذلك آثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدَّموا به من عروض، ولنا في سلطان بن منقذ، صاحب شيزر[٢]، وبني عمار في طرابلس، مثلاً على ذلك.

وسلك الصليبيون طريق الساحل وتوغلوا جنوباً، ولما وصلوا إلى أرصوف بين قيسارية ويافا، اتخذوا الطريق الداخلي المؤدي إلى يافا، ثم شقُّوا طريقهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة وضربوا الحصار عليها. استمر الحصار مدة خمسة أسابيع بين شهري (رجب وشعبان/ حزيران وتموز)، وتمكَّنوا من اقتحامها يوم

(١) فوشيه شارتر: ص٥٣ ـ ٦٧. وليم الصوري: جـ١ ص٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) **شيزر**: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم. الحموي: جـ٣ ص٣٨٣.

الجمعة (٢٢شعبان/ ١٥ تموز)، وأحدثوا فيها مذبحة مروعة، ولم ينج من السكان سوى افتخار الدولة، قائد الحامية الفاطمية، وعدد من رجاله، ونصَّبوا عليها غوفري دي بوايون الذي اتخذ لقب «حامي القبر المقدس»، ولم تلبث هذه الإمارة أن تحوَّلت إلى مملكة في (رمضان ٤٩٣هـ/تموز ١١٠٠م) على أثر وفاة غودفري واستدعاء بلدوين من إمارته في الرها ليتولى حكم بيت المقدس، وقد تمَّ تتويجه في (صفر ٤٩٤هـ/ كانون الأول ١١٠٠م)[١].

إحجام السلاجقة عن التصدي للزحف الصليبي

ثمة ظاهرة ملفتة هي أن السلاجقة العظام بقيادة السلطان بركيارق وأتابكتهم في الموصل، وسلاجقة الشام، أحجموا عن التحرك في تلك المرحلة لمساعدة إخوانهم سلاجقة الروم ضد الصليبيين، كما لم يحاولوا الحد من توسعهم في شمالي بلاد الشام والعراق، ولا الاستفادة من الوضع السيء الذي باتوا فيه عقب وقوع بوهيموند في الأسر[٢]، لتحويل مسار الحركة الصليبية في الشرق الإسلامي وطرد الصليبيين من ربوعه، على الرغم من أن السلاجقة العظام كانوا يُشكلون القوة الإسلامية الرئيسة في العالم الإسلامي السني آنذاك.

لقد وقف السلاجقة العظام يُشاهدون زحف جموع الصليبيين إلى بلاد الشام عبر آسيا الصغرى من دون أن يتحركوا للتصدي لهم، وارتضوا بأن تقوم القوى التركية القوية أو الضعيفة المبعثرة بمحاربتهم، كما لم يشاركوا في الجهاد للقضاء على الإمارات الصليبية الشمالية التي هدَّدت سلامة الخلافة العباسية في بغداد.

الواقع أن انشقاق السلاجقة العظام، وانقسام صفوفهم، والنزاع الداخلي بين زعمائهم وقادتهم، هو السبب الذي أدَّى بهم إلى هذا التصرف، إذ ترافق انتصار الصليبيين مع انحلال السلطة المركزية، وضعف سيطرة السلطان بركياروق على مختلف حكام الأقاليم، كما اشتد النزاع بين أمراء السلاجقة وبين قادتهم، ما زاد في ضعف قوتهم، وتعذَّر عليهم بالتالي القيام بأي عمل ضد الصليبيين في آسيا الصغرى وفي شمالي بلاد الشام، ولعل أبرز النزاعات الداخلية المسلحة، النزاع

(١) فوشيه شارتر: ص٧١ ـ ٧٧. وليم الصوري: جـ١ ص٤٤٤ ـ ٤٥٦. ابن القلانسي: ص٢٢٢، ٢٢٣. ابن العبري: ص١٢٤، ١٢٥. ابن الأثير: جـ٨ ص١٨٩.

(٢) خرج بوهيموند أمير أنطاكية من مدينته في عام (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) بناء على دعوة جبريل صاحب ملطية لمساعدته ضد كمشتكين أحمد دانشمند الطامع في ضمها إلى أملاكه فوقع في أسر هذا الأخير. ابن القلانسي: ص٢٢٣، ٢٢٤. ابن الاثير: جـ٨ ص٤٣٨. فوشيه شارتر: ص٨٤.

الذي نشب بين السلطان بركياروق وبين أخيه السلطان محمد، والقتال الذي جرى بين القادة العسكريين وولاة الأمور حول حكم الموصل، عقب وفاة حاكمها كربوغا في (ذي الحجة ٤٩٥هـ/ أيلول ١١٠٢م)(١)، فتأثرت سائر الأقاليم التابعة للدولة السلجوقية بهذه الأحداث، فعمَّ الفساد، وانتُهبت الأموال، وأُحرقت القرى، وتداعت الحكومة المركزية في حين علا شأن أمراء الأطراف.

ولا تقل الخصومات، التي نشبت بين أفراد البيت السلجوقي في بلاد الشام، حدة عن الانقسامات بين أفراد البيت السلجوقي في خراسان وإيران، فانقسمت بلاد الشام نتيجة ذلك إلى قسمين: فحكم رضوان بن تُتُش حلب في حين حكم أخوه دقاق دمشق. وشُغل الأخوان بالنزاعات الأسرية، فكل واحد يتربص بالآخر وينوي السيطرة على أملاكه، فتبادلا الحرب الدامية، فهاجم رضوان دمشق أكثر من مرة، وبادله دقاق بمهاجمة حلب إلا أنه فشل في دخولها(٢)، كما راودت كلا الأخوين أحلام التوسع الإقليمي على حساب جيرانه. فقد أراد رضوان السيطرة على منطقة شمالي بلاد الشام على حساب الأراتقة، ومما زاد في حدة الانقسامات، والتفتت الداخلي، النزاعات التي نشبت بين أمراء الأطراف ومناصرتهم لكل من الأخوين.

والواضح أن السلاجقة بعامة لم يعوا خطورة الوضع السياسي الناجم عن الغزو الصليبي إلا عندما وصل الصليبيون إلى أنطاكية وأسَّسوا إمارة الرها، حيث دفعوا أمراء الأطراف للاصطدام بهم، كما اشترك رضوان في الجيش الإسلامي الذي أُرسل لنجدة أنطاكية.

وفاة السلطان بركياروق

توفي السلطان بركياروق في (٢ ربيع الآخر ٤٩٨هـ/ ٢٢ كانون الأول ١١٠٤م) في بروجرد في منطقة الجبال، على أثر مرض السل والبواسير الذي ألَمَّ به، وهو في ريعان الشباب وعمره خمس وعشرون سنة(٢)، وقد حكم مدة إحدى عشرة سنة تقريباً، قضى معظمها في حروب متواصلة من أجل الاحتفاظ بالسلطة، تبادل فيها النصر والهزيمة.

---

(١) انظر حول هذا الصراع: ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧١ ـ ٤٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٠٢، ٥٠٣. الحسيني: ص٧٨.

الفصل السابع

تفكك دولةالسلاجقة العظام

السلطان محمد طبر بن ملكشاه
(٤٩٨ ـ ٥١١هـ/ ١١٠٤ ـ ١١١٨م)

الأوضاع السياسية بعد وفاة السلطان بركياروق

ترك السلطان بركياروق، بعد وفاته، دولة السلاجقة العظام مجزأة يكاد كل جزء أن يكون مستقلاً بذاته ومعادياً أحياناً للأجزاء الأخرى. كانت خراسان وبلاد ما وراء النهر تحت حكم السلطان سنجر بن ملكشاه، في حين خضعت الأقسام الشمالية لسيطرة أخيه السلطان محمد، وكانت بلاد الشام تحت حكم ابنَيّ تُتُش، رضوان ودقاق، وآسيا الصغرى تحت حكم السلطان قلج أرسلان الأول، وكرمان تحت حكم أسرة قاورد، واستقل الأتابكه بديار بكر وأرمينية، وكان الحشيشية والصليبيون، وهما ألد أعداء السلاجقة، يتربصون بهم. فقد قبع الحشيشية داخل الدولة وسيطروا على قلاع كثيرة في ربوعها ما كان له أثر في تنامي قوتهم، واحتفظ الحسن بن الصباح بقوة مرعبة راحت تقضي على كل من يعادي دعوته أو يقف في طريق نشرها. وتوسعت الحروب الصليبية، وسيطر الصليبيون على مناطق الحدود الغربية، وبسطوا نفوذهم على أجزاء كثيرة من بلاد الشام وفلسطين وبخاصة بيت المقدس، وكانت الخلافة العباسية في بغداد ضعيفة وغير قادرة على السيطرة، تتأثر بميزان القوى من واقع انعكاس النزاعات السلجوقية على وضعها، تتأرجح في اعترافها بمراكز القوى، وتوافق على ذكر أحد السلاجقة في الخطبة بعد أن يظهر قوته في الميدان السياسي أو العسكري، وتمنحه لأكثر من شخص واحد في بعض الأوقات بهدف ضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض لإضعاف قوتها.

تفرد السلطان محمد بالحكم

عيَّن السلطان بركياروق قبل وفاته ابنه ملكشاه ولياً لعهده، وكان طفلاً صغيراً لم يبلغ الخامسة من عمره، واختار له الأمير أياز أتابكاً وهو قائد جيشه، فسار برفقته

إلى بغداد وأخذ له البيعة من الخليفة العباسي المستظهر بتأثير شحنة المدينة إيلغازي، الذي كان في أصفهان لمقابلة السلطان بركياروق وحثِّه على القدوم إلى بغداد، وعاد مع الأمير أياز وملكشاه، فاستقبلهم الوزير أبو القاسم بن جهير في ديالي[(١)]، وأقيمت الخطبة لملكشاه في مساجد المدينة في (٢ ربيع الآخر ٤٩٨هـ/ ٢٢ كانون الأول ١١٠٤م) ولقَّبه الخليفة بلقب جده جلال الدولة[(٢)].

كان السلطان محمد بن ملكشاه في غضون ذلك في الموصل يقاتل صاحبها جَكَرْمِش، فلما علم بوفاة أخيه جلس للعزاء، ثم تفاهم مع جَكَرْمِش، وسار إلى بغداد، ومعه سقمان القطبي وإسماعيل ابن عم ملكشاه، وصحبه جَكَرْمِش بعد أن صالحه، واصطحب معه ولدي سيف الدولة صدقة، صاحب الحلة، بدران ودُبَيْساً، فدخلها يوم الجمعة في (٢١ جمادى الأولى ٤٩٨هـ/ ١٠ شباط ١١٠٥م) وخُطب له في مساجد هذا الجانب، في حين كانت الخطبة قائمة للسلطان ملكشاه بن بركياروق في الجانب الشرقي، ومن ثمَّ أصبح هناك سلطانان في وقت واحد[(٢)].

واستقر رأي أعوان السلطان ملكشاه بن بركياروق على التصدي للسلطان محمد وقتاله ومنعه من السلطنة، غير أن الوزير الصفي أبا المحاسن أشار على السلطان بالصلح والاعتراف بسلطنة محمد، ويبدو أن السلطان ملكشاه كان عاجزاً عن الوقوف في وجه السلطان محمد والتصدي له، كما أزعجته الانقسامات الداخلية في صفوف السلاجقة، فاستجاب لمشورة وزيره من دون تردد مقابل الأمان لنفسه ولوزيره وللأمراء الذين معه، واعتذر للسلطان محمد عما بدر منه، فاستجاب هذا لالتماسه. وهكذا تفرَّد السلطان محمد بالسلطنة وخطب له في جوامع بغداد كافة[(٣)]، ونجت عاصمة الخلافة من فتنة كبيرة كادت تودي بأرواح كثيرة من أهلها وبممتلكاتهم.

الصراع على الموصل

في عهد جَكَرْمِش: مزَّق العالم الإسلامي الشرقي ما جرى من قتال بين السلطانين الأخوين بركياروق ومحمد، على أن الصلح انعقد بينهما في عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م)، احتفظ بركياروق لنفسه ببغداد وهضبة فارس الغربية في حين حصل محمد على شمالي العراق والجزيرة، وصارت له حقوق السيادة على دياربكر والموصل وبلاد الشام، وحاز الأخ الثالث سنجر على خراسان وشرقي فارس وبلاد ما وراء النهر، كما ذكرنا.

(١) **ديالي**: نهر كبير بقرب بغداد، وهو نهر بعقوبا الأعظم يجري في جنبها، وهو الحدُّ بين طريق خراسان والخالص. الحموي: جـ٢ ص٤٩٥.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٠٣. (٣) المصدر نفسه: ص٥٠٦، ٥٠٧.

أقام السلطان محمد، بعد عقد الصلح مع أخيه السلطان بركياروق، في مدينة تبريز حتى (صفر ٤٩٨هـ/ تشرين الثاني ١١٠٤م) توافدت عليه العساكر، فزحف بهم إلى مراغة ثم إلى إربل[(١)] في خطوة لانتزاع الموصل من يد صاحبها جَكَرْمِش الذي امتنع عن تسليمها إليه بحجة أن السلطان بركياروق كان قد أمره بعد الصلح أن لا يسلمها إلا إليه[(٢)].

الواقع أن جَكَرْمِش كان ذا نزعات استقلالية، فرفض أن يُسلِّم السلطان محمد مدينة الموصل التي كانت من نصيبه، وأعلن أنه لا يدين بالولاء إلا للسلطان بركياروق، ولن يُسلمها إلا إليه، عندئذٍ تقدم السلطان محمد نحو المدينة لانتزاعها منه[(٣)].

وعمد جَكَرْمِش إلى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة ليواجه جيش السلطان محمد، فجدَّد سورها وأمر أهل السواد المنتشرين خارج الموصل بدخولها، ولما وصل السلطان محمد إلى المدينة حاصرها وأرسل إلى جَكَرْمِش يُذكِّره بأن بلاد الموصل والجزيرة الفراتية هي من نصيبه، وعرض عليه كتب السلطان بركياروق التي تؤيد ذلك وتأمره بتسليم البلد إلى أخيه، ووعده السلطان محمد بأن يقره على ما بيده من البلاد إذا ترك العصيان ودخل في طاعته، إلا أن صاحب الموصل أصرَّ على موقفه الرافض[(٤)].

ولما تأكَّد السلطان محمد من إصرار جَكَرْمِش على العصيان شرع في قتاله، فاستبسل أهل الموصل في الدفاع عن المدينة بفعل محبتهم لجَكَرْمِش وحسن سيرته فيهم.

دام حصار الموصل حتى (١٠ جمادى الأولى ٤٩٨هـ/ ٢٨ كانون الثاني ١١٠٥م) حيث وصل الخبر إلى جَكَرْمِش بوفاة سيده السلطان بركياروق، فأدرك أن لا جدوى من المقاومة بعد تفرد السلطان محمد بالسلطنة وأن المصلحة تقضي بمصالحته، وإزالة الضغط عن الموصل، فاستشار أعيان البلد وأمراء الجيش، فحسَّنوا له طاعة السلطان محمد وعقد الصلح معه، عندئذٍ جنح إلى الصلح، وأرسل إلى السلطان محمد يعرض عليه الدخول في طاعته. واجتمع جَكَرْمِش بالسلطان محمد، فأكرمه وعانقه، واكتفى بخضوعه وإعلان صداقته له، ولم يغامر

(١) **إربل**: قلعة حصينة ومدينة كبيرة تُعدَّ من أعمال الموصل بينهما مسيرة يومين. الحموي: جـ١ ص١٣٧، ١٣٨.

(٢) ابن الجوزي: جـ٩ ص١٣٨. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٠٤. سبط ابن الجوزي: ص٨.

(٣) ابن العبري: ص١٢٨. (٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٠٤.

بدخول المدينة، وآثر المقام خارجها[١].

وبعد أن فرغ السلطان محمد من تقرير أمور الصلح مع صاحب الموصل، سار نحو بغداد، ورافقه جَكَرْمِش مع عدد من الأمراء. والراجح أن ما أعدَّه جَكَرْمِش آنذاك من حملة ضد الصليبيين، كان بناء على طلب السلطان محمد، فقد شكَّل والي الموصل حلفاً إسلامياً اشترك فيه رضوان صاحب حلب ونائبه الإصبهذ صباوة، وإيلغازي الأرتقي شحنة بغداد، الذي خلف سقمان بعد وفاته، وصهره ألبي بن أرسلان تاش صاحب سنجار[٢].

ويبدو أن السلطان محمد أزعجه ما كان لجَكَرْمِش من نزعات استقلالية وقوة عسكرية متنامية، وبخاصة أنه استطاع دفع الحصار الذي فرضه عليه حلف مكوَّن من الأمراء المذكورين في (رمضان ٤٩٩هـ/ أيار ١١٠٦م) بهدف الاستيلاء على نصيبين[٣]، كما ارتاب بنواياه عندما عقد اتفاقاً سرياً مع السلطان السلجوقي الرومي قلج أرسلان الأول لمناوأته، بدليل أن أتباعه سلموا السلطان المذكور مدينة حرَّان، بالإضافة إلى أن جَكَرْمِش لم يف بما تعهَّد به للسلطان محمد من حمل المال إليه[٤].

نتيجة لذلك لم يسع السلطان محمد إلا أن ينتزع الموصل والأعمال التي بيد جَكَرْمِش ويُقطعها لجاولي سقاوة في (محرم ٥٠٠هـ/ أيلول ١١٠٦م)، فسار إليها ليتسلَّمها، فامتنع عليه جَكَرْمِش وخرج للقائه والتصدي له، غير أنه انهزم أمامه في المعركة التي جرت بينهما في باكلبا من أعمال إربل، ولم يتمكَّن جَكَرْمِش من الفرار من أرض المعركة، لفالج كان به، وكان يُحمل على محفة لعدم قدرته على ركوب الخيل، فوقع أسيراً في يد خصمه الذي أمر بسجنه في جب، وبالغ في إخفائه وتشديد الحراسة عليه حتى لا يتعرض للاختطاف، وبفعل محبة أهل الموصل الشديدة له بادروا إلى تنصيب ابنه زنكي مكانه، وكان صبياً في الحادية عشرة من عمره، وخطبوا له على المنابر[٥].

في عهد زنكي بن جَكَرْمِش: تولى قائد قلعة الموصل قزغلي أمر الدفاع عن

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٠٤، ٥٠٥.

(٢) رنسيمان: جـ٢ ص١٧٧. **وسنجار**: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال. الحموي: جـ٣ ص٢٦٢.

(٣) **نصيبين**: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام. الحموي: جـ٥ ص٢٨٨.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٢١ ـ ٥٢٣.

(٥) المصدر نفسه: ص٥٣٥، ٥٣٦.

المدينة أمام زحف جاولي سقاوة وحصاره لها، ولكنه شعر بأنه بحاجة إلى دعم قوة خارجية، فأرسل إلى كل من سيف الدولة صدقة بن مزيد وقسيم الدولة آق سُنقر البرسقي، أحد أمراء السلاجقة وشحنة بغداد، والسلطان قلج أرسلان الأول، يطلب منه المساعدة، ووعد من يساعده بتسليمه المدينة والأعمال التابعة لها[١].

ويبدو أن سيف الدولة صدقة بن مزيد لم يشأ أن يتورط في هذا النزاع والخروج على طاعة السلطان محمد والخليفة العباسي، لذلك لم يُلبِّ الدعوة، واستجاب آق سُنقر البرسقي لطلب المساعدة، فوصل إلى الموصل ونزل على الباب الشرقي، ويبدو أن أصحاب جَكَرْمِش أهملوه بعد أن اطمأنوا إلى قبول السلطان قلج أرسلان طلب المساعدة وأنه في طريقه إليهم، ولم يرسلوا إليه كلمة واحدة «فعاد في باقي يومه»[٢].

كان السلطان قلج أرسلان الأول قد بلغت شهرته أرجاء العالم الإسلامي كافة، وتطلَّع إليه المسلمون آملين أن يقود حركة الجهاد ضد الصليبيين، فاستغل هذا الموقف ليوسِّع حدود سلطنته باتجاه الجزيرة الفراتية والفرات الأعلى، والتوغل شرقاً باتجاه أملاك السلاجقة العظام في خراسان وإيران، وتزعُّم السلاجقة بكامل فروعهم، وكانت الموصل تحت سيطرة السلاجقة العظام، وشكَّلت سيطرته على ملطية، بعد أن انتزعها من يد ياغي سيان الدانشمندي، مناسبة استغلها أهالي ميافارقين[٣] ليسلموه مدينتهم، فاستدعاه وزيرها ضياء الدين محمد في عام (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م) وسلَّمه المدينة، كما انتزع الرحبة من الأمير جاولي سقاوة، واعترف أمراء دياربكر بسلطنته، فعيَّن مملوك أبيه خمرتاش السليماني، وهو أتابكه، والياً عليها، وأقطع الوزير ضياء الدين محمد مدينة البستان[٤]، وعاد إلى ملطية حيث أقام فيها، وسلَّمه أتباع جَكَرْمِش المقيمون بحرَّان هذه المدينة[٥].

سُرَّ السلطان السلجوقي الرومي بطلب المساعدة المقدم من قزغلي، فقرَّر الاستجابة لطلبه، وكان آنذاك في ملطية، ولما كانت قواته قليلة العدد، استدعى القوة العسكرية التي كان قد أرسلها إلى القسطنطينية مدداً للامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين في حربه ضد بوهيموند أمير أنطاكية[٦]، لذلك أقام في نصيبين

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٣٦، ٥٣٨.

(٣) **ميافارقين**: أشهر مدينة بدياربكر. الحموي: جـ٥ ص٢٤٥.

(٤) **البستان أو أبلستين**: مدينة مشهورة ببلاد الروم. المصدر نفسه: جـ١ ص٧٥.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٤٢. الفارقي: تاريخ ميافارقين ص٢٧٢، ٢٧٣. العظيمي: ص٣٦٢.

(٦) ابن القلانسي: ص٢٥٠، ٢٥١.

بانتظار وصولها. غير أن تسارع الأحداث عطَّل تكتيكه هذا، فغادر نصيبين متوجهاً إلى الموصل، ولما علم جاولي سقاوة بمسيره انسحب من المدينة لا سيما وقد توفي جَكَرْمِش فجأة وهو في الأسر، وكان ينوي استخدامه كأداة للمساومة، ومن جهة أخرى أدرك أن السلطان قلج أرسلان من القوة ما لا يستطيع مواجهته في معركة سافرة، لذلك عزم على تكوين حلف مناهض له ليُقوِّي موقفه[1].

نتيجة لهذه التطورات السياسية والعسكرية، رحل جاولي سقاوة إلى سنجار ثم إلى الرحبة، واستقر في وادي الفرات، استعداداً للمواجهة المسلحة، وحتى يُدعم موقفه أجرى مفاوضات مع رضوان صاحب حلب واتفقا على أن يجري طرد السلطان قلج أرسلان الأول من الموصل، ثم شن هجوم مشترك على الصليبيين لطردهم من الأراضي التابعة لرضوان[2].

وصل السلطان قلج أرسلان الأول في غضون ذلك إلى الموصل التي فتحت أبوابها له، فدخلها في (٢٥ رجب ٥٠٠هـ/ ٢٢ آذار ١١٠٧م)، واستقبله السكان بالحفاوة، فوعدهم باحترام حرياتهم، وأجرى بعض التغييرات الإدارية منها: أنه أسقط اسم السلطان محمد من الخطبة وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى الجنود، ورفع الرسوم المحدثة عن الناس، وعدل فيهم، وأقرَّ القاضي أبا محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري على القضاء، وجعل الولاية لأبي البركات محمد بن خميس[3].

وقرَّر السلطان السلجوقي الرومي، بعد أن فرغ من ترتيب أوضاع الموصل، محاربة جاولي سقاوة الذي استولى على الرحبة في (رمضان/أيار)، وبخاصة أن أميرها محمد بن السياق قد التمس مساعدته لطرد جاولي منها، فغادر الموصل على رأس جيشه ونزل الشمسانية[4]، وترك ابنه ملكشاه في دار الإمارة وله من العمر أحد عشر عاماً مع الأمير أيدبر، وقوة عسكرية لحفظ الأمن.

ويبدو أن السلطان السلجوقي الرومي لم يكن ينوي خوض معركة عاجلة نظراً لقلة عدد جنوده من جهة، وقوة خصمه من جهة أخرى، أما جاولي سقاوة فقد عسكر في ماكسين[5] استعداداً للتوجه إلى الموصل لاستعادتها، إلا أنه اغتنم فرصة قلَّة عدد جنود خصمه وتأخُّر وصول القوة العسكرية من بلاد البيزنطيين، لخوض المعركة،

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٣٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٤٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٣٨، ٥٣٩.
(٤) **الشمسانية**: بلدة بالخابور. الحموي: جـ٣ ص٣٦٢.
(٥) **ماكسين**: بلدة بالخابور. المصدر نفسه: جـ٥ ص٤٣.

فتقدم نحو الخابور[1] على رأس أربعة آلاف فارس، وشهدت جبهة السلطان قلج أرسلان آنذاك تصدعاً خطيراً بسبب الاختلاف في وجهات النظر حول خوض المعركة، فانسحب إبراهيم ينال صاحب آمد[2]، وصاحب ميافارقين وحجتهما أن المعركة ستكون خاسرة من دون وصول النجدة السلجوقية من بلاد البيزنطيين ما أثَّر سلباً على معنويات الجنود السلاجقة، واضطر السلطان قلج أرسلان الأول الذي لم يجد سبيلاً إلى التراجع، إلى خوض المعركة بما تبقَّى من جيشه، وعددهم خمسة آلاف مقاتل، وحتى يُثير الحماس في نفوس جنده اقتحم صفوف أعدائه، وأبدى بسالة نادرة في القتال، ووصل إلى جاولي سقاوة نفسه وضربه بالسيف، لكن الضربة لم تنفذ إلى جسمه، وباءت جهوده القتالية بالفشل حيث انجلت المعركة عن انتصار واضح لجاولي سقاوة، ويُذكر أن المعركة جرت في (٢٠ ذي القعدة/ ١٣ تموز). وبعد أن أدرك أنه خسر المعركة حاول الفرار، فألقى بنفسه في نهر الخابور، فانحدر الفرس به إلى ماء عميق وغرق، وطفت جثته بعد أيام، ودُفن بالشمسانية. عاد جاولي سقاوة بعد انتهاء المعركة إلى الموصل واستولى عليها، وأرسل ملكشاه بن قلج أرسلان الأول إلى السلطان محمد، وأعاد الخطبة له[3].

في عهد جاولي سقاوة: استقر جاولي سقاوة في الموصل، بعد انتصاره على السلطان السلجوقي الرومي قلج أرسلان الأول، وكافأه السلطان محمد فأسند إليه حكم كل بلد يفتحه، لكن جاولي سقاوة اغتر بالملك، وتمسَّك بالسلطة، وتطلع نحو الاستقلال بولاية الموصل، فامتنع عن إرسال الأموال المقررة عليه إلى السلطان، كما امتنع عن مساعدته ضد أعدائه وأظهر مخالفته، وكان السلطان محمد قد قدم إلى بغداد في (٢٠ ربيع الآخر ٥٠١هـ/ ٨ كانون الأول ١١٠٧م) لتفقد بلاد سيف الدولة صدقة بن مزيد أمير الحلة بفعل خروجه عليه، وقد خشي هذا الأمير من إيغار صدر السلطان عليه من قِبل حاشيته، وبخاصة العميد أبو جعفر محمد بن الحسين البلخي، فأرسل السلطان يستدعي أمراء الأطراف لموافاته بعساكرهم، فلم يستجب جاولي سقاوة لندائه، وامتنع عن كشف حقيقة نواياه منه على الرغم من توجيه السلطان نداء آخر له.

(١) **الخابور**: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة. الحموي: جـ٢ ص٣٣٤.
(٢) **آمد**: أعظم مدن دياربكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً. المصدر نفسه: جـ١ ص٥٦.
(٣) ابن القلانسي: ص٢٥١، ٢٥٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٣٩ ـ ٥٤١.

والواقع أن جاولي سقاوة كان على اتصال مع سيف الدولة صدقة بن مزيد ويُنسق معه ضد السلطان محمد، بدليل أن أمير الحلة أعلن تأييده له في نزاعه مع السلطان، وأبدى استعداده لمساعدته والوقوف إلى جانبه، ويبدو ذلك واضحاً في الرد الذي أرسله إلى الخليفة العباسي المستظهرالذي دعاه إلى الصلح، وحقن الدماء: «... إذا رحل السلطان عن بغداد أمددته بالمال والرجال، وما يحتاج إليه في الجهاد، وأما الآن وهو ببغداد، وعسكره بنهر الملك، فما عندي مال ولا غيره، وإن جاولي سقاوة، وإيلغازي بن أرتق، قد أرسلا إليَّ بالطاعة لي والموافقة معي على محاربة السلطان وغيره، ومتى أردتهما وصلا إليَّ في عساكرهما»[1].

وقرَّر السلطان محمد القضاء على جاولي سقاوة وانتزاع الموصل منه، بعد أن ينتهي من أمر خروج أمير الحلة عليه، الذي لم يلبث أن قُتل وانهزم عسكره أمام السلطان في (رجب ٥٠١هـ/ شباط ١١٠٨م)[2]، فأمر أمراء الأطراف الذين اجتمعوا عنده مثل: مودود بن التونتكين، وآق سُنقر البرسقي، ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي، وسقمان القطبي، وأمراء بني برسق، والأمير أبي الهيجاء صاحب إربل؛ بالمسير إلى الموصل وانتزاعها من يد جاولي سقاوة.

وكان أمير الموصل قد أدرك أن السلطان لا بد أن يهاجمه بعد أن يقضي على خروج أمير الحلة، فاستعد للدفاع عن المدينة، وتجهَّز لمقاومة الحصار الذي قد يفرضه الجيش السلطاني، فقوَّى دفاعاتها وتحصيناتها وأعدَّ الميرة والأقوات والعتاد والآلات، وسجن جماعة من أعيان المدينة وشدَّد على أهلها، خشية من تواطئهم مع أعدائه، والمعروف أن السكان كانوا يكنُّون له الكراهية، وأخرج من أحداث الموصل ما يزيد على عشرين ألفاً، ولم يترك له فيها سوى ألفين من الصناع والحدادين والنجارين والجصاصين لحاجته إليهم في إصلاح الأسوار وآلات الحرب[3]، ثم رحل عن الموصل تاركاً فيها زوجته في القلعة تحت حماية ألف وخمسمائة فارس، وقد أساءت هذه السيدة إلى أهل الموصل، وبخاصة نساء الخارجين، وصادرت أموال من بقي بها، متممة بذلك ما بدأه زوجها من معاملته السيئة لهم[4].

وصل الجيش السلطاني إلى الموصل في (رمضان ٥٠١هـ/ نيسان ١١٠٨م) وضرب عليها حصاراً مركزاً ما ضايق أهلها وأضاف بلاء إلى بلائهم الداخلي، ودفع ستة من الجصاصين، على رأسهم سعد بن فائق، إلى تسليم المدينة للسلطان محمد. فقتلوا

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٥١.
(٢) ابن القلانسي: ص٢٥٥، ٢٥٦.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٦٤.
(٤) المصدر نفسه.

بعض أفراد الحامية، ونادوا بشعار السلطان محمد، واقتحم الأمير مودود بن التونتكين في غضون ذلك المدينة، فأمَّن أهلها، واستأذنته زوجة جاولي سقاوة في الخروج منها فأذن لها، واستقر في ولاية الموصل وأعمالها بقرار من السلطان محمد، وذلك في (صفر ٥٠٢هـ/ أيلول ١١٠٨م)[1].

توجَّه جاولي سقاوة بعد رحيله من الموصل إلى نصيبين وبصحبته بلدوين الثاني أمير الرها أسيراً، فاتصل بأميرها إيلغازي الأرتقي ودعاه إلى العمل سوياً لمواجهة السلطان محمد، وبيَّن له «أن خوفهما من السلطان ينبغي أن يجمعهما على الاحتماء منه»[2]. ويبدو أن أمير نصيبين لم يشأ أن يتورط في معاداة السلطان والخروج على طاعته، إلا أنه اضطر إلى الاستجابة لدعوته وهو ينوي الانعتاق من التعاون معه، وجاءته الفرصة لتحقيق ذلك عندما هاجم جاولي سقاوة سنجار، ولما وصلا إلى عرابان من قرى الخابور، هرب إيلغازي ليلاً وعاد إلى نصيبين[3].

واصل جاولي سقاوة تقدمه نحو الرحبة، فلما وصل إلى ماكسين أطلق سراح بلدوين الثاني من الأسر مقابل:

- دفع فدية كبيرة.
- إطلاق الأسرى المسلمين من سجونه في الرها.
- تعهده بمساعدة جاولي سقاوة بالمال والرجال في حرب السلطان محمد.

وكان الصليبيون يهاجمون آنذاك مدينة طرابلس، فأرسل صاحبها فخر الملك بن عمار نداءات عدة إلى السلطان محمد يحثه على النهوض لقتال الصليبيين، وإنقاذ طرابلس من السقوط في أيديهم، لكنه لم يلق آذاناً صاغية. والواقع أن السلطان محمد لم يسعه آنذاك تلبية رغبة فخر الملك؛ لأنه أرسل معظم جنده إلى الموصل لانتزاعها من جاولي سقاوة، فاضطر صاحب طرابلس إلى الذهاب بنفسه إلى بغداد ليعرض على الخليفة والسلطان ما ارتكبه الصليبيون من التخريب والوحشية في أعمال طرابلس، ويطلب التعجيل بتلقي المساعدة. عند ذلك اضطر السلطان إلى إعادة الحوار مع جاولي سقاوة من أجل الصلح والمسير لنجدة طرابلس، فاشترط عليه رحيل عسكره عن الموصل، فوافق على ذلك، وغادر إلى منبج، وعلم وهو في طريقه إليها باستيلاء مودود بن التونتكين عليها، وكان قد تخلَّى عنه معظم جنوده، فنزل في تل باشر[4]، ولم يلبث أن انهزم أمام تانكرد الصليبي أمير أنطاكية في (صفر

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٦٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٦٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) **تل باشر**: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينهما يومان. الحموي: جـ٢ ص٤٠.

٥٠٢هـ/ أيلول ١١٠٨م)، فعاد إلى السلطان طالباً عفوه فأمَّنه وعفا عنه، وأقطعه بلاد فارس، فأقام بتلك البلاد حتى وفاته في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م)[١].

محاولات القضاء على فرقة الحشيشية

الاستيلاء على قلعة شاه دز: حرص السلطان محمد، خلال حياته السياسية، على القضاء على فرقة الحشيشية الباطنية بعد أن استشرى خطرها من خلال توسعها بالاستيلاء على مزيد من القلاع الحصينة، وتسلل أفرادها إلى أجهزة الدولة، وارتكابهم الجرائم بحق المسلمين والشخصيات السلجوقية المهمة، ورأى أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وتخريب قلاعهم، من ذلك أنهم قتلوا أبا جعفر بن المشاط وهو من شيوخ الشافعية، في عام (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م)، وهاجموا قافلة حجاج الهند وما وراء النهر وخراسان في خوار الري[٢].

هاجم السلطان محمد، وهو على رأس جيشه، قلعة شاه دز بالقرب من أصفهان، واستولى عليها فخربها وقتل صاحبها أحمد بن عبد الملك بن عطاش وولده، وهذه أول مرة يقود سلطان سلجوقي حملة ضد هذه الفرقة، والمعروف أن السلطان ملكشاه كان قد بنى هذه القلعة، واستولى عليها، بعد وفاته، ابن عطاش، فقويت شوكته واستفحل أمره، فكان يُرسل أتباعه لقطع الطريق وقتل الناس، فقتلوا خلقاً كثيراً، وفرضوا على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفُّوا أذاهم عنهم.

وحاول ابن عطاش قبل القبض عليه أن يُبطل شرعية قتال الحشيشية، فلجأ إلى الخداع، فطلب من فقهاء السنة الفتوى في قوم يؤمنون بالله ورسوله ولكن يخالفون الإمام، هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، ويقبل طاعتهم، ويحرسهم من كل أذى؟.

وكادت الحيلة تنجح بعد أن أفتى معظم الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف البعض عن الفتوى، وأفتى الفقيه الشافعي أبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن السمنجاني بإباحة دمائهم نظراً لرأيهم في الإمام الذي يستطيع أن يُحرِّم عليهم ما أحلَّ الله، ويحل لهم ما حرَّم الله، وتكون طاعته في هذه الحال وفقاً لاعتقادهم واجبة.

---

(١) أبو الفداء، إسماعيل بن علي: تاريخ أبي الفداء، المسمى المختصر في أخبار البشر: جـ٢ ص٤٣، ٤٩.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٥١١. **وخوار الري:** مدينة كبيرة من أعمال الري بينهما عشرين فرسخاً. الحموي: جـ٢ ص٣٩٤.

ولجأ ابن عطاش بعد فشل هذه المحاولة إلى التسويف والمماطلة لكسب الوقت بانتظار فرصة قد تُساعده على التخلُّص من ضغط السلطان، فطلب منه أن يُرسل إلى القلعة من يناظرهم، فذهب إليها عدد من العلماء، ثم عادوا بغير طائل. وأخيراً طلب ابن عطاش الأمان من السلطان ومغادرة القلعة مقابل تأمين وصوله مع أتباعه إلى بعض القلاع على دفعات، ولما تأكد من وصول أتباعه سالمين، نقض العهد، وانتهت مقاومته بوقوعه أسيراً في أيدي الجيش السجلوقي وقتله بعد ذلك مع ولده، كما ذكرنا[١].

حصار قلعة ألموت: كان انتصار السلطان محمد على ابن عطاش دافعاً إلى ملاحقة الحشيشية وبخاصة في عاصمتهم ألموت، وقد تحصَّن فيها الحسن بن الصباح، فأرسل في عام (٥٠٣هـ/ ١١٠٩م) وزيره أحمد بن نظام الملك، فحاصر القلعة، لكنه اضطر إلى الرحيل عنها بعد ذلك بفعل حلول فصل الشتاء، وحاول الحشيشية الانتقام من هذا الوزير، فهاجموه في أحد مساجد بغداد، وطعنوه بالسكاكين، فجُرح في رقبته ولم تكن الطعنات قاتلة، فشُفي من جراحه[٢].

وكرَّر السلطان محاولته في (جمادى الأولى ٥٠٥هـ/ تشرين الثاني ١١١١م)، فندب أحد أمرائه ويُدعى أنوشتكين شيركير صاحب ساوة وآبه[٣] وغيرهما، لحرب الحشيشية، فاستولى على قلاع عدة منها: قلعة بيرة على بُعد سبعة فراسخ من قزوين، وقلعة كلام، فأمَّن صاحبها علي بن موسى ومن معه، وسيَّرهم إلى ألموت مرتكباً خطأً عسكرياً فادحاً؛ لأن هذه القلعة ازدادت منعة وقوة بمن توجَّه إليها من الحشيشية، وأضحت أكبر مركز لتجمعاتهم، ثم سار إلى هذه القلعة وحاصرها وأمده السلطان بعدد من الأمراء، وحتى يُحكم الحصار عليها، بنى القائد السلجوقي مساكن حولها، وعيَّن لكل طائفة من الأمراء، بالتناوب، أشهراً يقيمون فيها، وأقام هو إقامة دائمة. ولم يتوقف السلطان خلال مدة الحصار الذي استمر ست سنوات (٥٠٥ ـ ٥١١هـ/ ١١١١ ـ ١١١٧م) عن إمداد قائده بالمؤن والعتاد والرجال.

وضاق الحشيشية بهذا الحصار الطويل، ونفدت منهم المؤن، فمالوا إلى المهادنة، فأنزلوا نساءهم يطلبن الأمان على أن يُسلموا القلعة، ويسمح لهم السلطان بالمضي في أي طريق يشاؤون. ويبدو أن القائد السلجوقي استدرك أخطاء الماضي، فرفض أن يمنحهم الأمان، وأعاد النساء إلى القلعة، وشدَّد الحصار عليها كي يموت

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٢٠ ـ ٦٢٢. أبو الفداء: جـ٢ ص٤١.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٠.

(٣) **ساوة:** مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط وبقربها مدينة آبه. الحموي: جـ٣ ص١٧٩.

جميع من فيها جوعاً، وكادت القلعة أن تسقط، ولم يُنقذ الحسن بن الصباح وأتباعه سوى وفاة السلطان محمد، ففكَّ أنوشتكين شيركير الحصار عن القلعة، وانسحب مع جنده، فانتعشت آمال الحشيشية، وغنموا ما تخلَّف عن الجند السلجوقي[1].

وتوقَّفت بعد وفاة السلطان محمد محاولات السلاجقة للقضاء على فرقة الحشيشية بفعل الصراع الداخلي على السلطة، فسنحت لأفراد هذه الفرقة فرصة أخرى لتقوية أنفسهم، واستطاعوا خلال الخمسة عشر عاماً التي أعقبت وفاة السلطان أن يمدوا نفوذهم إلى بلاد الشام، وأن يستولوا على العديد من القلاع والحصون.

العلاقة مع الصليبيين

حملة مودود الاولى ضد الرها: ارتبطت حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ارتباطاً شديداً بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة، ويُعدُّ الأمير شرف الدين مودود بن التونتكين من أبرز قادة السلطان محمد، وقد أظهر مقدرة فائقة وكفاءة عالية في تنفيذ المهمات التي عهدها إليه السلطان في المدة السابقة على توليه إمارة الموصل، وما إن استقر في هذه الولاية حتى تلقَّى أمراً من السلطان باستئناف حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين. الواقع أن سقوط طرابلس بأيدي الصليبيين في (١١ ذي القعدة ٥٠٢هـ/ ١٢ حزيران ١١٠٩م) أثار السلطان محمد، فأعلن الجهاد، وبرزت في الحال الروح المحركة لذلك، وقد حمل لواءها أمير الموصل شرف الدين مودود بن التونتكين الذي شرع، بما عُرف عنه من حماس وتمسُّك بفكرة الجهاد الديني، في تجهيز حملة للقيام بهذه المهمة، واشترك معه في تلك الحملة سقمان القطبي، أمير خلاط وميافارقين المعروف بشاه أرمن، ونجم الدين إيلغازي الأرتقي أمير ماردين في دياربكر ومعه خلق كثير من التركمان.

كانت هذه المرة الأولى التي يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تُعدُّ فاتحة عهد جديد من النضال ضد هؤلاء، ونقطة تحول سياسي وعسكري من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم.

توجَّهت الحملة في (شوال ٥٠٣هـ/ نيسان ١١١٠م) إلى الرها لاستردادها من أيدي الصليبيين، وما إن علم بلدوين الثاني دي بورغ أمير الرها بحشود المسلمين وزحفهم إلى إمارته، حتى أرسل رسولاً على وجه السرعة إلى بيت المقدس يلتمس المساعدة العاجلة من الملك بلدوين الأول، متجاهلاً الاستعانة بـ تانكرد صاحب أنطاكية؛ إذ كان يشك في نواياه، وباتفاقه مع المسلمين، واتهمه بتحريك تلك

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٢٠ - ٦٢٢.

الحملة الإسلامية ضد الرها، والواقع أن تانكرد امتعض من سيطرة بلدوين الثاني على الرها[1].

كان الملك بلدوين الأول آنذاك يحاصر مدينة بيروت، فلم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها[2]، فأسرع بالزحف نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس على رأس فرسانه، وانضم إليه قرب سميساط[3] بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل صاحب كيسوم[4]، فوصل إلى الرها في (آخر ذي الحجة/ ١٩ تموز).

ظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين من دون أن يتمكَّن من اختراق استحكاماتها، فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حرَّان وفق خطة محكمة، وانضم إليه طغتكين، أتابك دمشق[5].

وقرَّر الملك بلدوين الأول مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يُوحِّد كلمة الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكرد صاحب أنطاكية مع قواته للمشاركة في حرب فاصلة ضد الأتراك، وقد تردَّد تانكرد في بادىء الأمر، لكنه استدرك أن عدم تعاونه مع إخوانه الصليبيين في حربهم ضد الأتراك سيسيء إلى سمعته في الوسط الصليبي، فتوجه على رأس ألف وخمسمائة فارس إلى الملك بلدوين الأول الذي نجح في تحقيق المصالحة بينه وبين أمير الرها[6].

كان مودود قد أمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة الصليبية توقفت فجأة، فما الذي حدث على المسرح السياسي؟.

الواقع أنه تضافرت دوافع عدة جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون من المنطقة، لعل أهمها:

(١) فنك، هارولد: تأسيس إمارات صليبية ١٠٩٩ - ١١١٨، ص٨٨. فصل في كتاب تاريخ الحروب الصليبية بإشراف كينيث سيتون.

(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص١٣.

(٣) **سميساط**: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، ولها قلعة في شطر منها يسكنها الأرمن. الحموي: جـ٣ ص٢٥٨.

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East. p88.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٧١.

(٦) فنك: ص٨٨، ٨٩.

Elisséeff.N: Nur AD-Un, Grand prince Musulman de Syrie A Temps de Croisades II pp 302 - 303.

رنسيمان: جـ٢ ص١٨٩.

- لقد تلقّى الملك بلدوين الأول تحذيراً مبكراً بخطة مودود، وكان يحاصر قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حرّان، كما تلقّى إنذاراً من بيت المقدس بتحرك فاطمي ضد بيروت، فقرّر التخلي عن الحملة، ففكَّ الحصار عن قلعة شناو وعاد أدراجه إلى الجنوب.

- راجت شائعات في الأوساط الصليبية، بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكرد إلى التخلي عن الحملة[١].

وبناء على نصيحة الملك بلدوين الأول بأن لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز إلى السكان بالجلاء إلى الجهات الواقعة على الضفة الغربية اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية في حصني الرها وسروج[٢] الكبيرين، وفي بعض القلاع الصغيرة مع تدعيم الإمكانات الدفاعية لها[٣].

كان مودود ورجاله في تلك الأثناء عند حرّان يراقبون الموقف ويتحينون الفرصة المناسبة للتحرك، فاجتاحوا المزارع والقرى حتى وصلوا إلى نهر الفرات، وكانت الجيوش الصليبية قد عبرت النهر إلى الضفة الغربية، في حين بقي بضعة آلاف من الأرمن ينتظرون دورهم لعبور النهر، فهاجمهم الأتراك وقتلوا الكثير منهم، وأسروا أعداداً كبيرة حملهم مودود معه إلى حرّان[٤].

حملة مودود الثانية ضد الرها: بات المسلمون في أواخر القرن الخامس الهجري، أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، في بلاد الشام وأطراف العراق، في وضع سيء، ما أثار بينهم موجة عارمة من الاستياء، فارتفعت الأصوات تُندِّد بذلك الوضع وتدعو للجهاد، إذ أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعاقل في أرض الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، قطَّع أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز[٥].

ونتيجة لتردي الأوضاع في حلب التي تعرَّضت لهجمات تانكرد، ذهب وفد من الحلبيين إلى بغداد ضمَّ بعض الصوفيين والتجار والفقهاء، للتعبير عن استيائهم

(١) رنسيمان: المرجع نفسه. Elisséeff: Ibid

(٢) **سروج**: بلدة قريبة من حرَّان من ديار مضر. الحموي: جـ٣ ص٢١٦.

(٣) ابن القلانسي: ص٢٧١، ٢٧٢.

Mathew of Edessa: Chronique in R.H.C. Arm Doc I pp93, 94.

(٤) Mathew of Edessa: pp 93, 94.

(٥) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية: جـ١ ص٤٦٠.

وطلب المساعدة ضد الصليبيين[١]، ويبدو أنهم لم يحصلوا على وعود ما دفعهم إلى إثارة أهل بغداد، فقصد الجميع جامع السلطان وقت صلاة الجمعة، فأنزلوا الخطيب عن المنبر وحطَّموه ونادوا بوجوب القيام بالجهاد[٢].

وتكرَّر هذا الحادث يوم الجمعة التالي، عندما قصد الناس جامع القصر بدار الخلافة في بغداد، فاقتحموا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر[٣]، عندئذٍ أدرك الخليفة العباسي المستظهر خطورة الموقف، فأرسل إلى السلطان محمد يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه[٤]، وكان هذا قد استقبل قبل وصول الوفد الحلبي سفارة من الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين للتباحث بشأن القيام بعمل مشترك ضد تانكرد[٥]، الأمر الذي جعل المسلمين في بغداد يصيحون في وجهه: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم»[٦].

نتيجة للضغط الشعبي، أمر السلطان الأتابك مودود بإعداد حملة كبيرة لحرب الصليبيين، وجعل القيادة الاسمية لابنه مسعود، واجتمع تحت قيادته جميع حكام الأقاليم: سقمان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض دياربكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة في أذربيجان، وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلاً عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي، ابني برسق أمير همذان[٧].

بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في (محرم ٥٠٥هـ/تموز ١١١١م) بفتح مواقع صليبية عدة في شرقي الفرات[٨]، ومن ثمَّ توجَّهت لحصار الرها، فأثارت الذعر بين سكانها، لكن في الحقيقة لم تُغير الموقف فيها، فقد أعيت المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذٍ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر الواقعة شمالي حلب[٩].

وعندما انتشرت أخبار الحملة في الأوساط الإسلامية في شمالي بلاد الشام، حاول كل أمير استغلالها لصالحه، فاستنجد سلطان بن علي صاحب شيزر، الذي كان يعاني من ضغط صليبي، بمودود، كما طلب رضوان صاحب حلب مساعدته

(١) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٨.

(٢) ابن القلانسي: ص٢٧٦.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن القلانسي: ص٢٧٧.

(٦) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٥.

(٧) ابن القلانسي: ص٢٧٨، ٢٧٩.

(٨) Stevenson: p91.

(٩) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٨. وليم الصوري: جـ١ ص٥٤٥.

ضد تانكرد[١]، وحتى يُخفِّف الضغط عن تل باشر، أقام صاحبها جوسلين الثاني علاقات سرية مع أحمديل، وطلب منه مقابل ما بذل له من مال، أن يُقنع مودوداً بالرحيل عن تل باشر، فاستجاب له، وفعلاً نجح في إقناع قوى التحالف بفك الحصار عن تل باشر، والتوجه نحو حلب لنجدة رضوان[٢].

وإذ تأثَّر مودود بتغير الموقف السياسي لصاحب حلب، فكَّ الحصار عن تل باشر بعد خمسة وأربعين يوماً، وقاد جيوشه لمساعدته[٣]، ويبدو أن رضوان لم يكن صادق النية، إذ لم تكد القوات الإسلامية المتحالفة تقترب من حلب حتى أغلق أبواب المدينة في وجهها بعد أن أثارت كثرتهم العددية مخاوفه، واعتقد أن ما يمكن أن يُشكلوه من خطر بسبب مطامع بعض الأمراء، ربما فاق خطر تانكرد، ولم يلبث أن تحالف مع هذا الأخير للوقوف في وجه الخطر المشترك، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات المعادية لمسلكه، فأمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن[٤].

نتيجة لهذا الانقلاب في موقف رضوان، توجه مودود بجيشه جنوباً إلى حوض نهر العاصي لاسترداد الأماكن التي استولى عليها تانكرد مؤخراً، والمجاورة لمعرة النعمان من أعمال حمص، وهناك، حضر إليه طغتكين، أتابك دمشق، وانضم إلى قواته[٥]، ويبدو أن هذا الأتابك خشي من أن ينتزع منه بعض الأمراء المشاركين في الحملة، دمشق، لذلك حاول إقامة علاقات سرية مع الصليبيين، إلا أنه فشل في ذلك، واضطر أخيراً إلى مصادقة مودود، فاكتملت بذلك رابطة المسلمين، ولم يعد متخلفاً سوى رضوان صاحب حلب.

كان تانكرد آنذاك يعسكر أمام شيزر، فتراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين الأول يلتمس مساعدته، فاستجاب الملك لنداء الاستغاثة وأرسل إلى أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس وتل باشر للاجتماع به[٦].

والواقع أن الأحداث لم تجر على نحو طيب في صفوف المسلمين، إذ أن طغتكين لم يشأ أن يبذل المساعدة لمودود قبل أن يتعهَّد بالمضي إلى الجنوب

---

(١) ابن القلانسي: ٢٧٩. ابن العديم: جـ١ ص٣٦٨.
(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه.
(٣) سبط ابن الجوزي: ص٣٥، ٣٦. Grousset, R: Histoire de Croisade I P 465.
(٤) ابن العديم: جـ١ ص٣٦٩.
(٥) ابن القلانسي: ص٢٨٢. Elisséeff: IIp 306.
(٦) وليم الصوري: جـ١ ص٤٥٤. Stevenon: p93.

لانتزاع طرابلس، رغم خطورة هذه الحملة من الناحية العسكرية[١]، أما برسق الكردي فقد أصابه المرض فقرَّر العودة إلى بلاده، ومات سقمان فجأة في بالس[٢]، فانسحبت قواته صوب الشمال، وبادر أحمديل إلى الانسحاب بعساكره كيما يحاول أن ينتزع له جانباً من إرث سقمان، وبقي أياز بن إيلغازي مع عساكره[٣].

وفي الوقت الذي انفرط فيه عقد التحالف الإسلامي، أخذت القوى الصليبية تتجمع من جديد لمواجهة الخطر الناجم عن توحيد كلمة المسلمين، فبلغ عديدها ستة عشر ألفاً[٤].

تحصَّن مودود آنذاك وراء أسوار شيزر متجنباً خوض معركة سافرة مع الصليبيين، نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم، كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي فصل الشتاء بعيداً عن قاعدته[٥].

وأخيراً اجتمعت القوى الصليبية قرب أفامية على الضفة الشرقية لنهر العاصي، في حين عسكر مودود على الضفة الغربية للنهر بتشجيع من صاحب شيزر الذي هوَّن عليه أمر الجهاد. وعبر المسلمون نهر العاصي إلى الضفة الشرقية واشتبكوا مع الصليبيين في مناوشات كانت عنيفة أحياناً، انسحب بعدها مودود عائداً إلى الموصل، كما غادر كل أمير إلى إمارته[٦].

وهكذا فشل مودود في طرد الصليبيين من إمارة الرها، وإن دلَّ هذا الفشل على شيء، فإنه يدل على عدم قيام تحالف صادق بين المسلمين ما يجعلهم يشنُّون هجوماً مضاداً طالما اتحد الصليبيون، وبذلك نجت إمارات الصليبيين، وبخاصة الرها في الوقت الراهن[٧].

حملة مودود الثالثة ضد الرها: جدَّد مودود هجومه على الرها في (ذي القعدة ٥٠٥هـ/أيار ١١١٢م)، وحاصرها، لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذٍ أن يترك حولها قوة عسكرية، ويهاجم سروج بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات، وذلك في (محرم ٥٠٦هـ/تموز ١١١٢م)، وبهذه الخطة العسكرية

---

(١) رنسيمان: جـ٢ ص١٩٩.
(٢) **بالس**: بلدة بالشام بين حلب والرقة على ضفة الفرات الغربية. الحموي: جـ١ ص٣٢٨.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٨، ٥٨٩.   (٤) رنسيمان: جـ٢ ص١٩٩.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٨٩.
(٦) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ١ ص٥٢٥، Elisséeff: II pp306, 307
(٧) فنك: ص٨٩، ٩٠.

يكون أمير الموصل قد قسَّم قواته وأضعفها متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين، وكانت النتيجة أن هاجمه جوسلين الثاني صاحب تل باشر وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه عند ذلك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين الثاني سبقه إليها لمساعدة بلدوين الثاني دي بورغ في الدفاع عنها[١].

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تآمر الأرمن في الرها ضد بلدوين الثاني، واتصلوا بمودود ليخلِّصهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على أن يساعدوه في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة ما يُمكِّنه من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة، لكن وصول جوسلين الثاني السريع حال دون تنفيذ الاتفاق، ورُدَّ المسلمون على أعقابهم، فلم يتمكَّنوا من انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين[٢].

حملة مودود ضد مملكة بيت المقدس: ظل مودود متمسكاً بفكرة الجهاد الديني ضد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد بوصفه ممثله في إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، فتحرك في (محرم ٥٠٧هـ/ حزيران ١١١٣م) على رأس تحالف إسلامي لقتال الصليبيين في بيت المقدس، بناء على التماس طغتكين، أتابك دمشق، بعد أن تعرَّضت إمارته لهجمات شديدة من صليبيي بيت المقدس، وانضم إليه تميرك، صاحب سنجار، وأياز بن إيلغازي، أمير ماردين[٣].

كان هدف المسلمين منطقة فلسطين، فنجحوا في استدراج الملك بلدوين الأول إلى أراضي دمشق حتى جسر الصنبرة[٤] الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن، وحدث اللقاء بين الجانبين في (١٣محرم/ ٣٠ حزيران) وانتهى بانتصار المسلمين. وارتد ملك بيت المقدس إلى طبرية، ولم يلبث أن وصل لنجدته روجر، أمير أنطاكية، وبونز، أمير طرابلس، وتخلَّف أمير الرها؛ لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة[٥].

ومضى المسلمون في زحفهم بعد المعركة حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يُغامروا

(١) ابن القلانسي: ص٢٨٩. Stevenson: p95.
(٢) ابن القلانسي: ص٢٨٩. رنسيمان: جـ٢ ص٢٠١. Elisséeff: II p307.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٥٩٥.
(٤) **الصنبرة**: موضع بالأردن مقابل عقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال. الحموي: جـ٣ ص٤٢٥.
(٥) ابن القلانسي: ص٢٩٤ - ٢٩٧.

بمواجهة التحالف الصليبي، وبخاصة أنه دخل فصل الشتاء، فانسحبوا إلى دمشق[١]، وكان ذلك أول مرة تتعاون فيها الموصل ودمشق في حرب الصليبيين في مملكة بيت المقدس.

مقتل مودود

دعا طغتكين بعد هذا الانتصار مودوداً لقضاء بعض الوقت في دمشق، فخرج في (آخر يوم جمعة من ربيع الآخر ٥٠٧هـ/ تشرين الأول ١١١٣م) إلى المسجد، وأثناء تنقله في صحنه طعنه أحد الحشيشية بخنجر، فلقي مصرعه، وكان صائماً، وبادر طغتكين إلى قتل الجاني وروَّج بأن رضوان أمير حلب هو الجاني في حين حمَّله العامة المسؤولية[٢].

ارتاح الصليبيون لمقتل مودود الذي سبَّب لهم رعباً شديداً، والذي آمن بفكرة الجهاد الإسلامي، وعُرف بالتقوى والورع، واحتفظ بولائه لسلطان السلاجقة، وتكمن أهميته في أنه:

- أعاد للمسلمين الثقة بأنفسهم، فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم في علاقاتهم مع الصليبيين.
- بلور فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعطاها بُعداً سياسياً وعسكرياً، فأضحى أمراؤهم على استعداد للتعاون المثمر بنوايا صادقة.

حملة البرسقي ضد الرها

عيَّن السلطان محمد، بعد وفاة الأتابك مودود، ممثله في دار الخلافة آق سُنقر البرسقي أميراً على الموصل وأعمالها، وأمره بقتال الصليبيين وسيَّر معه ابنه مسعود، وكتب إلى أمراء الأطراف بمساعدته وطاعته، فانضمت إليه عساكر الموصل وفيهم عماد الدين زنكي بن آق سُنقر الحاجب وتميرك صاحب سنجار وتخلَّف الأراتقة[٣].

وضع البرسقي خطة عسكرية تقضي بمهاجمة الرها، لكنه كان بحاجة إلى تضافر القوى الإسلامية في المنطقة، ويبدو أن الأراتقة في ماردين قد دخلوا في مرحلة جديدة في علاقاتهم السياسية بعد مقتل مودود، فتقرَّبوا من الصليبيين، ونازعوا الأمراء المسلمين، فاضطر البرسقي إلى إخضاعهم قبل أن يمضي إلى حصار الرها، ووافق إيلغازي تحت الضغط العسكري على إرسال ابنه أياز مع جماعة من الأجناد

(١) ابن القلانسي: ص٢٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٨. ابن الأثير: جـ٨ ص٥٩٦.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٦٠١.

التركمان للاشتراك في الحملة على الرها[1].

وغادر البرسقي ماردين إلى الرها على رأس جيش إسلامي مؤلف من خمسة عشر ألف فارس، وحاصرها في (ذي الحجة ٥٠٨هـ/ أيار ١١١٥م). استمر الحصار مدة شهرين، إذ كان في المدينة حامية قوية، وتوافرت فيها المؤن، في حين أن ما استولى عليه المسلمون من المؤن من ضواحيها لم يكد يكفي لسد حاجاتهم، فاضطر البرسقي إلى رفع الحصار عن المدينة واكتفى بتخريب القرى المجاورة، ما حمل بعض أمراء هذه المناطق على إعلان طاعتهم له وعلى رأسهم أرملة كوغ باسيل، الأرمني، صاحبة كيسوم ورعبان ومرعش، كما أعلن الأرمن عن رغبتهم في التحالف معه للتخلص من الضغط الصليبي[2].

توجَّه البرسقي بعد أن حقَّق انتصارات جزئية إلى منطقة شبختان في جنوبي دياربكر، فاعتقل أياز بن أيلغازي انتقاماً لعدم حضور والده، كما قام بنهب المناطق الزراعية المحيطة بماردين. فالتمس إيلغازي المساعدة من ابن أخيه ركن الدولة داود بن سقمان، فسار مع عمه للقاء البرسقي، وجرى بين الطرفين قتال شديد انتهى بهزيمة البرسقي وتفرُّق قواته، فانسحب إلى الموصل ونجا أياز من الاعتقال[3].

نتيجة لفشل آق سُنقر البرسقي في إخضاع إيلغازي، عزله السلطان محمد عن ولاية الموصل في عام (٥٠٨هـ/ ١١١٤م) وأقطعها جيوش بك، وسيَّر معه ولده الملك مسعود، وأقام البرسقي في إقطاعه بالرحبة إلى أن توفي السلطان محمد.

حملة برسق بن برسق ضد الصليبيين في شمالي الشام

أعدَّ السلطان محمد جيشاً كثيفاً اختار لقيادته الأمير برسق بن برسق صاحب همذان، وأمر كلاً من جيوش بك والأمير كتغدى بمرافقته، وأمره بقتال إيلغازي وطغتكين لعصيانهما أوامره، ثم يهاجم الصليبيين في شمالي بلاد الشام. انطلقت الحملة في (رمضان ٥٠٨هـ/ شباط ١١١٥م) متوجهة إلى حلب، فارتاع الأمراء المسلمون في شمالي بلاد الشام وكذلك الصليبيون، إذ لم يكن موالياً للسلطان، من أمراء الشام آنذاك، سوى خيرخان بن قراجا أمير حمص وبني منقذ في شيزر، وإذ شاع خبر الحملة ذهب إيلغازي إلى دمشق لعقد تحالف مع طغتكين، ووقع أثناء عودته في قبضة ابن قراجا، ولم يُطلق سراحه إلا بعد أن وعد بأن يُرسل ابنه أياز

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠١.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٠١، ٦٠٣، Grousset: IP 492. Elisséeff: II pp 309, 310

(٣) المصدر نفسه: ص٦٠٣.

ليحل مكانه في الاعتقال، ولما وصل إلى ماردين حشد جنده وتوجه نحو الغرب لينضم إلى طغتكين، وانحاز إليهما لؤلؤ الخادم حاكم حلب ومقدم جيشه شمس الخواص[1].

والتمس الحلفاء المساعدة من روجر أمير أنطاكية، فقدم مع جنده البالغ عددهم ألفين من الفرسان، والمشاة، وعسكر عند جسر الحديد على نهر العاصي، وجرى اجتماع بين الجانبين تقرر فيه أن تنضم قوات التحالف، البالغة خمسة آلاف مقاتل، إلى قوات روجر أمام أسوار أفامية التي تعد موقعاً بالغ الأهمية، لمراقبة تحركات برسق عند عبوره نهر الفرات في طريقه إلى شيزر.

عبر برسق مع جيشه الفرات عند الرقة من دون أن يلقى مقاومة، وكان يأمل في أن يتخذ من حلب مركزاً لقيادته، فلما اقترب منها صدَّه صاحبها لؤلؤ وغالطه في الجواب، فعلم أنه انحاز إلى خصومه بقيادة طغتكين، فانحرف نحو الجنوب لقتال طغتكين، وفضل مساعدة ابن قراجا، أمير حمص. وقام برسق بهجوم مفاجىء على حماة التابعة لصاحب دمشق، واستولى عليها ونهب ما حوته من متاعه وكان قدراً كبيراً، وسلَّم المدينة إلى ابن قراجا وفقاً لأوامر السلطان محمد، ثم مضى إلى كفرطاب الواقعة بين معرة النعمان وحلب، وكانت تابعة للصليبيين. ويبدو أن قوى التحالف احتاجت إلى مدد، فالتمست المساعدة من بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وبونز أمير طرابلس، فجاءا على عجل، ومع الأول خمسمائة فارس وألف من المشاة، وقاد الثاني مائتي فارس وألفين من المشاة، ودخلا أفامية.

ورأى برسق، الذي اتخذ قاعدته في شيزر، أن يُفرِّق الحلفاء كي يسهل الانتصار عليهم، فاستغل حلول فصل الشتاء، وانسحب نحو الجزيرة الفراتية، ونجحت حيلته إذ أن كلاً من الملك بلدوين الأول وبونز رأى أن الخطر قد زال، فعاد إلى بلده، وعاد إيلغازي إلى ماردين وطغتكين إلى دمشق. وعلى هذا الشكل تفرَّق المتحالفون، عندئذٍ عاد برسق إلى كفرطاب فحاصرها ثم اقتحمها وأسر حاكمها وقتل كثيراً من أفراد حاميتها، ثم سار إلى أفامية فاستعصت عليه لحصانتها، فتركها وتوجَّه إلى المعرة وهي للصليبيين، وهنا انفصل عنه جيوش بك وذهب إلى وادي البزاعة واستولى عليه، ما أضعف قوته العسكرية.

وعلم روجر أمير أنطاكية بحصار برسق لكفر طاب، فخرج من بلاده واتخذ طريقه إلى الجنوب في محاذاة نهر العاصي، وكان برسق يسير مع جيشه باتجاه الشمال في خط موازٍ له، إنما في داخل البلاد، ولم يعلم أي من الرجلين مكان الرجل الآخر،

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠٧. ابن القلانسي: ص٣٠٥.

حتى علم روجر، من أمير فرسان فرقته الاستكشافية، أن برسق يجتاز الغابة في طريقه إلى تل دانيث[1] قرب مدينة سرمين وهو على غير تعبئة، في حين توقفت بعض فرقه لنصب الخيام، وصحب بعض الأمراء جماعات من الجند للاحتطاب والحصول على العلف من المزارع المجاورة، فاستغل هذا الوضع، وهاجم المعسكر الخالي من الجند، وقتل كل من فيه من السوقية وغلمان العسكر، ثم تمركز فيه وانتظر وصول برسق على رأس الجيش. ووصل أفراد الجيش متفرقين، فكان الصليبيون يقتلونهم تباعاً، وقد جرى ذلك في صبيحة (٢٢ ربيع الآخر ٥٠٩هـ/ ١٤ أيلول ١١١٥م).

لم يكن هجوم الصليبيين أمراً متوقعاً، ولما وصل برسق إلى المكان، في نحو مائة فارس، صعد على تل دانيث يراقب الوضع، ولم يكن بوسعه إعادة تنظيم صفوف قواته، إلا أنه سعى إلى الاستشهاد وهو يقاتل وقد صعب عليه أن يواجه الهزيمة، غير أن أمراء حرسه أقنعوه بأنه بذل كل ما بوسعه ولن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، فامتطى عندئذٍ جواده وغادر المنطقة متوجهاً إلى الشرق[2].

وما حقَّقه الصليبيون في تل دانيث من انتصار أنهى محاولات سلاطين السلاجقة العظام في خراسان وإيران لاستعادة بلاد الشام التي سيتولاها الزنكيون بعد ذلك، ولم تمض بضعة أشهر حتى توفي برسق بن برسق، ولم يكن السلطان محمد مستعداً للدخول في مغامرة أخرى في بلاد الشام.

وفاة السلطان محمد

توفي السلطان محمد بأصفهان يوم الخميس (٢٤ ذي الحجة ٥١١هـ/ ٨ نيسان ١١١٨م) إثر مرض مزمن ألمَّ به، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام، ودُفن في مدرسة عظيمة، وقد حكم اثنتي عشرة سنة وستة أشهر، وكان قبل موته قد اختار ابنه محمود لخلافته، فأمره أن يخرج ويجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس، ففعل، وكان عمره آنذاك أربع عشرة سنة[3].

(١) **دانيث**: بلد من أعمال حلب بين حلب وكفرطاب. الحموي: جـ٢ ص٤٣٤.
(٢) انظر فيما يتعلق بحملة برسق بن برسق: ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠٧ ـ ٦٠٩. ابن العديم: جـ١ ص٣٨٠، ٣٨١. Matthew of Edessa: pp 297, 298.
(٣) ابن خلكان: جـ٥ ص٧٣.

الفصل الثامن

زوال دولة السلاجقة العظام

السلطان سنجر بن ملكشاه
(٥١١ ـ ٥٥٢هـ/ ١١١٧ ـ ١١٥٧م)

الأوضاع السياسية بعد وفاة السلطان محمد

أرسل السلطان محمود وزيره محمد بن الربيب أبا منصور إلى بغداد يلتمس من الخليفة المستظهر أن يخطب له على منابرها بوصفه خليفة والده وسلطاناً على السلاجقة، فأجابه الخليفة إلى ذلك، وخطب له يوم الجمعة (١٣ محرم ٥١٢هـ/ ٦ أيار ١١١٨م)[1].

بدأت بولاية السلطان محمود مرحلة جديدة من مراحل الصراع على السلطة بين أفراد البيت السلجوقي في وقت كان أعداؤهم يحدقون بهم من كل جانب. فقد نازعه عمه سنجر والي خراسان وما وراء النهر، الذي لم يرض عن تولي ابن أخيه الصبي عرش سلطنة السلاجقة، وأنف أن يكون تابعاً له، وهو شيخ السلاجقة وكبيرهم، وأحق منه بالسلطنة، فأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة، وبدَّل لقبه من ناصر الدين إلى معز الدين، وهو لقب أبيه السلطان ملكشاه، وبذلك وُجد سلطانان في وقت واحد.

أدى هذا التنازع على السلطة إلى انقسام الدولة السلجوقية إلى قسمين هما سلاجقة خراسان وما وراء النهر، ويُمثلهم السلطان سنجر بن ملكشاه، وسلاجقة العراق، ويمثلهم السلطان محمود بن محمد، واندلاع الحرب الأهلية بينهما. وقرَّر السلطان سنجر أن يتوجَّه إلى العراق لتأكيد حقه في السلطنة، فتصدَّى له السلطان محمود، وجرت بينهما معركة سافرة بالقرب من ساوة بين الري وهمذان في (جمادى الأولى ٥١٣هـ/ آب ١١١٩م)، انتهت بهزيمة محمود وانتصار سنجر بفضل استخدامه

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٢٦.

الفِيَلة، ووصل خبر نتيجة المعركة إلى بغداد خلال عشرة أيام، وأرسل المنتصر دُبَيْس بن صدقة إلى الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ/ ١١١٨ ـ ١١٣٥م) الذي خلف المستظهر، يطلب منه أن تكون الخطبة لسنجر، فلم يتردَّد الخليفة في تنفيذ ذلك، فخُطب له في (٢٦ جمادى الأولى/ ٤ أيلول)، وقُطعت خطبة السلطان محمود[1].

سار السلطان محمود بعد انهزامه إلى أصفهان، في حين سار السلطان سنجر إلى همذان ثم إلى بلاد الكرج، وراسل السلطان محمود في أمر الصلح بعد تدخل والدته، وهي جدة السلطان محمود، ولم يلبث الصلح أن جرى بينهما، فاجتمع السلطان محمود مع عمه، فأكرمه هذا وعفا عنه، وسامحه عما بدر منه، وعامله معاملة حسنة، وقَبِل شفاعته في آخرين، واستقرَّ الرأي بينهما على ما يلي:

- يبقى السلطان محمود مدة شهر في خدمة عمه السلطان سنجر بالري.
- لا تضرب الطبول للسلطان محمود عند ركوبه أو نزوله.
- يسير السلطان محمود مترجلاً في ركاب عمه.
- يترك السلطان محمود كل ما يتعلق بشعائر السلطنة ورسومها.
- تعيين السلطان محمود ولياً للعهد ونائباً عن عمه في العراق، وأن يُلقَّب بلقب سلطان ويُذكر اسمه بعد اسم الخليفة واسم عمه[2].

يُعدُّ السلطان محمود وفقاً لبنود الصلح أول من جلس على عرش سلطنة السلاجقة في العراق، وأصبح سلطان العراق من الناحية الرسمية تحت سلطة السلطان الأعظم سنجر في خراسان. واعترف الخليفة العباسي المسترشد بمضمون هذا الصلح على الرغم من صغر سن السلطان محمود، وخطب له[3]، وبذلك وُجِد سلطانان سلجوقيان في وقت واحد، إلا أن السلطان محمود كان يحكم تحت إمرة عمه السلطان سنجر، ومن ثَمَّ فهو خاضع له خضوعاً في جميع أمور السلطنة.

وأعاد السلطان سنجر إلى ابن أخيه ما كان تحت إمرته من بلاد باستثناء الري التي اتخذها مركزاً يراقب منه أعماله وتصرفاته خشية أن يخرج عليه، وتشمل: همذان وأصفهان في إقليم العراق العجمي، وبلاد الجبال، وكرمان وفارس، وخوزستان، والعراق العربي، وأذربيجان، وأرمينية، ودياربكر، والموصل، والجزيرة الفراتية، وديار مضر، وديار ربيعة، وبلاد الروم التي كانت بيد أولاد السلطان قلج أرسلان

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٣٨ ـ ٦٤٢. الراوندي: ص٢٥٨.
(٢) المصدران نفساهما: ص٦٤١، ٦٤٢. ص٢٥٩.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.

الأول[1]. لكن الواقع أن سلطته اقتصرت على العراقين العربي والعجمي، وقُرئت الخطبة باسم السلطان سنجر من كاشغر، على حدود الصين، إلى أقصى بلاد اليمن ومكة والطائف وعُمان وأذربيجان إلى حدود بلاد الروم[2].

تنقسم مدة حكم سنجر، التي استمرت نحو اثنتين وستين سنة، إلى مرحلتين:

الأولى: مرحلة الإمارة، وتمتد بين عامي (٤٩٠ ـ ٥١١هـ/ ١٠٩٧ ـ ١١١٧م)، كان خلالها يحكم نائباً عن إخوته ولقبه ناصر الدين، ودُعي بملك المشرق.

الثانية: مرحلة السلطنة، وتمتد بين عامي (٥١١ ـ ٥٥٢هـ/ ١١١٧ ـ ١١٥٧م)، وهي المرحلة التي حكم خلالها كسلطان على السلاجقة، وكان يُلقَّب بمعز الدين وسلطان السلاطين.

المرحلة الأولى من حكم السلطان سنجر

تولى سنجر حكم خراسان في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م)، وقد عيَّنه أخوه بركياروق إثر قضائه على ثورة عمه أرسلان أرغون، وأقام في مدينة بلخ، وراح يوسع حدود إمارته، فاستولى في العام التالي على ترمذ وطخارستان، وقد انتزعها من يد أحد أمراء السلاجقة ويُدعى دولتشاه، وأسره وسجنه[3].

وساند سنجر أخاه الشقيق محمد في نزاعه مع أخيهما بركياروق في عام (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)، فاصطدما به خارج النوشجان[4]، وكان مع بركياروق حليفه أمير داد حبشي بن التونتاق حاكم دامغان، وأكثر خراسان وطبرستان وجرجان، وتحت إمرته عشرون ألف مقاتل بينهم خمسة آلاف من الحشيشية، وأسفر القتال عن هزيمة بركياروق وحليفه، فسار الأول بعد هزيمته إلى جرجان، ثم إلى دامغان، وهرب الثاني إلى بعض القرى، فأسره التركمان وسلَّموه إلى الأمير بزغش، أحد أمراء سنجر، الذي قتله[5].

وكان لفرقة الحشيشية نصيب في حملات سنجر، فقد جرَّد عليهم حملتين هاجمتا قلاعهم في قهستان[6] وطبس، قادهما الأمير بزغش، الأولى في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) والثانية في عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م)، ونتج عنهما التخريب والقتل[7]، لكن سنجر لم

---

(١) سبط ابن الجوزي: ص١٣٠. (٢) الراوندي: ص٢٦٠.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٢٠، ٤٢١.
(٤) **النوشجان**: مدينة في تخوم الترك على نهر سيحون بما وراء النهر، وهي قسمان: نوشجان العليا ونوشجان السفلى وبينهما ثلاثة فراسخ. الحموي: جـ٥ ص٣١١.
(٥) الحسيني: ص٨٦. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٣٦.
(٦) **قهستان**: هي إقليم الجبال. (٧) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٥٧.

يلبث أن تفاهم مع أفراد هذه الفرقة، وفق ما ذكرنا في عهد السلطان بركياروق.

واصطدم سنجر بالقراخانيين، حكام بلاد ما وراء النهر، بسبب محاولاتهم الاستقلال عن الدولة السلجوقية، والمعروف أن السلطان ملكشاه أخضع هذه البلاد في عام (٤٨٣هـ/ ١٠٨٦م) وضمَّها إلى أملاك الدولة السلجوقية قاضياً بذلك على استقلال القراخانيين، إلا أنه أقرَّ حكامهم على ما بأيدهم ليديروا شؤونها تحت إشرافه. وهكذا أضحت الدولة القراخانية في بلاد ما وراء النهر تابعة للدولة السلجوقية، وتقرَّب البيتان السلجوقي والقراخاني بالزواج، فقد زوَّج السلطان ألب أرسلان ابنه وولي عهده ملكشاه من تركان خاتون ابنة طمغاج خان القراخاني، كما أن سنجر تزوج من ابنة خان ما وراء النهر، محمد بن سليمان خان.

ظل سنجر يمارس نفوذه السياسي على القراخانيين، وكان يضطر أحياناً إلى الذهاب بنفسه لتأكيد سلطته على إقليم ما وراء النهر، ويكتفي بإرسال أحد قادته أحياناً أخرى. وما جرى من تفكُّك دولة السلاجقة العظام بعد وفاة السلطان ملكشاه، وبفعل النزاع الداخلي على السلطة بين أبنائه؛ أضعف سلطتهم على المناطق الشرقية بخاصة، وشجَّع الأمراء القراخانيين في بلاد ما وراء النهر على الثورة على الحكم السلجوقي ومحاولة الاستقلال عنهم. ففي عام (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م) انتهز قدر خان جبريل بن عمر القراخاني صاحب سمرقند، فرصة مرض سنجر ووجوده في بغداد بعيداً عن بلاد ما وراء النهر، فأعلن الثورة على الحكم السلجوقي وطمع في أملاك السلاجقة في خراسان والعراق، وشجَّعه أحد أمراء سنجر ويُدعى كندغدي، فكان يُعلمه بأخباره، فجهَّز جيشاً بلغ تعداده نحو مائة ألف مقاتل، وخرج من سمرقند باتجاه الغرب وعسكر بالقرب من بلخ.

وعلم سنجر، بعد إبلاله من مرضه، بثورة صاحب سمرقند، فجهَّز جيشاً من ستة آلاف مقاتل وسار على رأسه نحو الشرق للاصطدام به، فوصل إلى بلخ، وعلم وهو فيها أن قدرخان جبريل قد خرج للصيد مع ثلاثمائة فارس من جيشه، فندب الأمير بزغش لحربه والقبض عليه، فاصطدم به، وبعد مناوشات خفيفة نجح في القبض عليه، كما أسر حليفه كندغدي الذي فرَّ من جيش سنجر وانضم إليه، وأحضرهما إلى سنجر، فقتل الأول بعد أن عاتبه في حين نجا الثاني عن طريق الفرار، وفي رواية أن سنجر سار بعد أن قتل قدرخان جبريل إلى ترمذ وفيها كندغدي، فحاصره بها، فطلب الأمان، فأمَّنه سنجر إلا أنه نفاه من البلاد، فسار إلى غزنة، وحلَّ ضيفاً على صاحبها علاء الدولة[1].

(١) الحسيني: ص٩٠. ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧٦، ٤٧٧.

وعيَّن سنجر محمداً تكين، الملقب بأرسلان، خان بن سليمان بن داود بن بغراخان القراخاني، حاكماً على سمرقند، وأمه ابنة السلطان ملكشاه[1]. وحدث في عام (٥٠٧هـ: ١١١٣م) أن تعدّى محمد أرسلان على أموال الرعية وظلم أهل سمرقند، وأفسد الأمور بظلمه وشره، وراح يستخف بأوامر سنجر ولا يلتفت إلى شيء منها، متحدياً بذلك سلطة السلاجقة، فخرج سنجر من خراسان متوجهاً إلى بلاد ما وراء النهر لوضع حد لتسلط محمد أرسلان، فخشي هذا سوء العاقبة، فطلب من كل من الأمير قماج، وهو من أكبر أمراء سنجر وخوارزمشاه، أن يتوسط له في الصلح معترفاً بأنه أخطأ، وافق سنجر على مبدأ الصلح واشترط أن يحضر محمد أرسلان إلى مجلسه، فجاء وطلب عفوه، فأجابه إلى طلبه وعاد كل منهما إلى بلاده[2]، وبذلك أعاد سنجر بسط سيادته المباشرة على بلاد ما وراء النهر.

وحدث في (شوال ٥٠٨هـ/ آذار ١١١٥م) أن توفي الملك علاء الدولة مسعود صاحب غزنة، وخلفه ابنه أرسلان شاه، ويبدو أنه خشي من منافسة إخوته فقبض عليهم وسجنهم، وهرب أحدهم ويُدعى بهرام شاه إلى خراسان، فاجتمع بخاله سنجر[3]، وأخبره بتسلط أخيه وطلب منه المساعدة لردعه، فكتب إليه سنجر ينهاه على ذلك، فلم يستجب له، وظلَّ أرسلان يحكم غزنة حتى (٢٠ شوال ٥١٠هـ/ ٢٥ شباط ١١١٧م). فقد جهَّز سنجر في هذا الوقت حملة عسكرية، وتوجَّه إلى غزنة للاستيلاء عليها على الرغم من معارضة أخيه السلطان محمد، والمعروف أن هذه المدينة ظلَّت حتى هذا التاريخ خارج نطاق السيطرة السلجوقية، إذ لم يستحوذ عليها أي سلطان سلجوقي من قبل، وجرى اللقاء بين الطرفين على بُعد فرسخ من غزنة في صحراء شهراباد، وأسفر عن انتصار سنجر ودخوله المدينة. فعيَّن بهرام شاه حاكماً عليها من قِبله على أن تكون الخطبة للخليفة وللسلطان محمد وللملك سنجر ومن بعدهم لبهرام شاه، وأقام في المدينة مدة أربعين يوماً حتى استقرت أمور الحكم لبهرام شاه ثم عاد إلى عاصمته.

ذهب أرسلان شاه بعد هزيمته إلى بلاد الهند، فأعاد تنظيم صفوف قواته وتوجَّه إلى غزنة بعد رحيل سنجر عنها، فدخلها وخرج منها بهرام شاه إلى باميان، وأرسل يُعلم سنجر بذلك، فأرسل إليه قوة عسكرية ساعدته على طرد أخيه الذي لحق بجبال أوغنان، فطاردته القوات السلجوقية وقبضت عليه، وخُنق حتى الموت ودُفن في تربة

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٤٧٨، ٤٧٩. (٢) المصدر نفسه: ص٥٩٧.

(٣) كانت والدة أرسلان شاه سلجوقية، وهي أخت السلطان ألب أرسلان.

أبيه بغزنة، وذلك في (جمادى الآخرة ٥١٢هـ/ أيلول ١١١٨م)[١].

المرحلة الثانية من حكم السلطان سنجر

على الرغم من اتساع نفوذ السلطان سنجر إلى هذا الحد الكبير إلا أن عصره لم يخلُ من مشكلات أودت بدولته وحياته، وشكَّلت القبائل التركية التي كانت تسكن في شمال شرقي إيران الخطر الرئيس، وقد تمكَّنت من تكوين دولتين قويتين عُرفتا بـ الدولة الخوارزمية والدولة القراخطائية، وبفعل ارتباط تاريخ هاتين الدولتين بتاريخ السلاجقة العظام في عهد السلطان سنجر بخاصة، بفعل أن العلاقة بينهما وبينه كانت من بين أسباب القضاء عليه وعلى دولته، لذلك لا بد لنا من أن نتطرق ولو بإيجاز إلى نشأة هاتين الدولتين.

بداية أمر الخوارزميين

ينتسب الخوارزميون إلى أنوشتكين، أحد الأتراك في بلاط السلطان ملكشاه، حيث كان يشغل وظيفة مشرف على الأواني السلطانية وما يتعلق بالطعام والشراب[٢]، واشتهر ابنه محمد بالعلم والأدب، فعيَّنه أحد قادة السلطان بركياروق، ويدعى حبشي بن التونتاق، حاكماً على إقليم خوارزم ولقَّبه خوارزمشاه[٣].

خضع إقليم خوارزم لسلطة الدولة السلجوقية منذ تأسيسها وتوسعها في أيام السلطان طغرلبك، وكانت تتبع إدارياً لوالي السلاجقة على الأقاليم الشرقية ومقره مدينة مرو بإقليم خراسان، وظلَّ تحت حكم السلاجقة حتى استقل به خوارزمشاه.

يُعد هذا الإقليم منفذاً وممراً لبلاد ما وراء النهر ومناطق السهوب الواقعة بين بحر قزوين وبحر آرال، وخراسان والجبال وقزوين، وعندما ولي سنجر هذا الإقليم اتخذ مدينة بلخ مقراً له، فأقرَّ محمد خوارزمشاه على حكمه، وظل يحكمه حتى وفاته في عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، فخلفه ابنه أتسز الذي ناضل من أجل الاستقلال.

تأسيس الدولة القراخطائية

القراخطاي، أو الخطا، هم خليط من المغول والتانغوت، تقع منازلهم في أقصى الشرق شمالي الصين وجنوبي منشوريا في الإقليم المعروف باسم ليائو، ويضم اليوم ولايتي شانسي وكانسو الصينيتين، فنُسبوا إليه، واستولوا في بداية القرن العاشر الميلادي على شمالي الصين، ومنشوريا، ومنغوليا، وتعرَّضوا في عام (٥١٩هـ/

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٠٢، ٦٠٤ ـ ٦٠٦. (٢) الجويني: جـ٢ ص٢.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٤١١.

١١٢٥م) لضغط شعب تنقوزي بزعامة أسرة جورجين أوتشن (الأسرة الذهبية)، فنزح قسم منهم باتجاه الغرب في حين بقي القسم الآخر في الصين وخضع لحكم جورجين، وانقسم النازحون إلى قسمين، توجَّه القسم الأول نحو تركستان مباشرة، واتخذ القسم الثاني طريقاً أبعد نحو الشمال عبر بلاد القيرغيز، وكان بقيادة نوتشي تيقون، واستقر في رحلته في أراضي تركستان في وسط آسيا، باسطاً سيادته على الشطر الغربي حتى الآرال وخجندة، واتخذ مدينة بلاساغون عاصمة له، وتوسَّع بعد استقراره في هذه المدينة باتجاه باقي أراضي تركستان، وأعلن نفسه خاناً أعظم، متخذاً لقب كور خان، خان الخانات، مؤسساً بذلك أسرة حاكمة عُرفت في التاريخ باسم الكورخانيين، كما عُرف الشعب الذي دان لحكمه بالقراخطائيين[١]؛ أي: الخطا السود.

علاقة السلطان سنجر مع الخوارزميين

أسباب الصراع بين السلطان سنجر وأتسز

عيَّن السلطان سنجر، بعد وفاة محمد خوارزمشاه، ابنه أتسز حاكماً من قِبله على إقليم خوارزم كما ذكرنا، فنهج في بادىء الأمر نهج والده في علاقته مع السلطان السلجوقي القائمة على التعاون المثمر، فشارك في حملة السلطان العسكرية ضد حاكم سمرقند أرسلان خان بن محمد بن سليمان، الذي ثار على الدولة السلجوقية في عام (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)، كما شارك في الحملة السلطانية ضد غزنة في عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٥م) لتأديب حاكمها بهرام شاه، وظل طوال مدة الحملة ملازماً للسلطان، ورافقه في عودته حتى مدينة بلخ، وهناك استأذنه بالعودة إلى ولايته، فأذن له[٢].

غير أن التنافس بين كبار أمراء السلطان سنجر بدَّل هذه العلاقة الجيدة إلى علاقة عدائية، ذلك أن أتسز تعرَّض لمؤامرة من جانب كبار رجال الدولة الذين أثارتهم مكانته لدى السلطان، وتقربه منه، فحاكوا مؤامرة ضده، وأوغروا صدر السلطان عليه.

لم يكن موقف السلطان واضحاً تجاهه، ومع ذلك فإنه أضحى بين مُصدِّق لما يشيعه المتآمرون والوشاة ضد تابعه أتسز وبين مكذب لأقوالهم، ويبدو ذلك واضحاً من امتعاض أتسز وشعوره بتغير السلطان عليه، فاستأذنه بالعودة إلى ولايته، وودَّعه السلطان بعبارات استشف منها أن ما قاله المتآمرون قد وقر في صدره.

(١) الجويني: جـ٢ ص٨٦ ـ ٨٨.

(٢) الغامدي، سعد حذيفة: الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند ص٤٩٥ ـ ٤٩٨.

وظلت العلاقة بين السلطان وواليه على خوارزم جيدة بعد عودة أتسز إلى مقر ولايته، فلم يُبد السلطان سنجر أي تصرُّف يُسيء إلى أتسز، وفي المقابل بقي أتسز على ولائه له، لكن بدت في الأفق السياسي بعد ذلك بعض المؤشرات المشجعة لأتسز لنبذ طاعة السلطان والاستقلال بحكم خوارزم، نذكر منها[1]:

- شعر أتسز بأن السلطان يُصغي لوشايات بعض قادته ضده، فخشي أن يتغير موقفه منه ما يؤثر على علاقته الجيدة به، وقد يُقدم على عزله عن ولاية خوارزم وانتزاع هذا الإقليم المهم من يد أسرة أنوشتكين.

- فرض زحف القراخطائيين باتجاه الغرب إخلالاً بتوازن القوى في بلاد ما وراء النهر، فقرَّر أتسز أن يستغل هذا التغير لصالحه، فتطلع نحو الاستقلال بولايته، وطمح في توسيع رقعة أراضيه في خراسان على حساب السلاجقة.

- عمد أتسز في علاقاته مع القبائل البدوية التي تقطن المناطق الشمالية المجاورة لإقليم خوارزم، مثل القبجاق والقنقلي واليمك، إلى إدخالهم في صفوف قواته، وقد اشتهر هؤلاء بالفروسية والمهارة في القتال، ما قوَّى قدرته العسكرية، ورأى بأنها تُمكنه من فرض سياسته التي ينوي انتهاجها.

- اتساع رقعة أراضي إمارته بحيث شملت المناطق السفلية لنهر جيحون، بما فيها مدينتي جَنَد وأُوترار، ما شجَّعه على الاستقلال عن الدولة السلجوقية.

- إن الغزوات التي قادها ضد القبائل الشمالية الوثنية، أكسبته شهرة واسعة في الأوساط الإسلامية التي أطلقت عليه لقب غازي، كما التفَّ حوله أهل خوارزم وفضلوا حكمه على حكم السلطان سنجر.

- تفكك دولة السلاجقة العظام التي كانت حدودها تمتد من نهر سيحون في أقصى الشرق إلى البحر الأبيض المتوسط في الغرب، ومن بحر آرال وجبال القوقاز في الشمال إلى نهر السند في الجنوب، وأضحت بعد تفكُّكها دويلات عدة في أقاليم صغيرة يقاتل بعضها بعضاً، وجعلت مهمة السلطان سنجر في إعادة توحيدها مستحيلة.

✵

الصدامات العسكرية بين السلطان سنجر وأتسز

معركة هزارأسب[2]: اقتنع السلطان سنجر بظهور دلائل العصيان والتمرد على

(١) الغامدي، سعد حذيفة: الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند ص٤٩٥ ـ ٤٩٨.

(٢) **هزارأسب**: كلمة فارسية تعني ألف حصان، وتُعرف اليوم بهزار أسف، وتقع بالقرب من مجرى نهر جيحون السفلي. الحموي: جـ٥ ص٤٠٤.

أتسز، وكان مقيماً في خراسان، فقرَّر القضاء على تمرده قبل أن يستفحل خطره، فسار على رأس حملة عسكرية متوجهاً إلى خوارزم في (محرم ٥٣٣هـ/ أيلول ١١٣٨م)، وما إن علم أتسز بخروجه حتى استعد لمواجهته والتصدي له، وعمد إلى عرقلة تقدمه، فدمَّر سدود المياه على نهر جيحون فأغرقت المناطق المحيطة بمعسكره، وتعذَّر على السلطان سنجر مواصلة التقدم، واضطر إلى تغيير خطته العسكرية ليهاجم أتسز من جهة الصحراء، وجرت المعركة بينهما في هزار أسب، وعلى الرغم من كثرة عدد جنود أتسز وشدة مراسهم في القتال إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام قوات السلطان التي تمكَّنت من إحراز نصر واضح عليهم، وفرَّ المنهزمون في كل اتجاه، فتلقفتهم القوات السلطانية وقتلت عدداً كبيراً منهم. وكان آتليق بن أتسز قد وقع في الأسر، فأمر السلطان بقتله، ولاذ أتسز بالفرار إلى الجنوب الغربي باتجاه جرجان، فاختبأ هناك. ودخل السلطان سنجر الجرجانية عاصمة خوارزم، فأعلن خلع أتسز وعيَّن ابن أخيه لأمه، ويدعى سليمان بن محمد، والياً عليها، كما عيَّن معه وزيراً وأتابكاً وموظفين إداريين، لإدارة شؤون الإقليم، ثم غادر إلى عاصمته مرو[1].

رد فعل أتسز: وما جرى بعد مغادرة السلطان من مقاومة أهالي العاصمة للسلطة الجديدة بفعل كراهيتهم للحكم السلجوقي ومحبتهم لأميرهم أتسز؛ اضطر سليمان بن محمد إلى الخروج منها، وعاد أتسز إليها في (رجب ٥٣٣هـ/ آذار ١١٣٩م)، فاستقبله الناس ورحَّبوا به، وتجمعت فلول جنده الفارين، فأعاد تنظيم صفوفهم، وراح يغير على الأراضي السلجوقية كرد فعل انتقامي، ويدل ذلك على الروح الاستقلالية لديه ولدى رعاياه، فهاجم بخارى، وأسر واليها زنكي بن علي، وهدم قلعتها، وعلى الرغم من نجاحه هذا، فقد خشي أن يقوم السلطان سنجر بحملة ضده تكون نتائجها كارثية على مستقبله السياسي، وبفعل ما عُرف عنه من بُعد نظر، أرسل إليه يُعرب له عن ندمه لما بدر منه، ويُعلن خضوعه له، وتقبُّله لسلطة السلاجقة، وتعهد له بالوفاء وهو ينوي الغدر، بدليل أنه في (ربيع الأول ٥٣٦هـ/ تشرين الأول ١١٤١م) قام بمهاجمة خراسان مركز السلطة السلجوقية، مستغلاً غياب السلطان سنجر وظروفه السياسية العصيبة التي يمرُّ بها بعد خسارته القاسية أمام القراخطائيين في قطوان، فاستولى على سرخس، وحاصرالعاصمة مرو ودخلها عنوة، وقتل العديد من أعيانها، ونهب جنوده المدينة، ثم سار في (شوال ٥٣٦هـ/ أيار ١١٤٢م) إلى مدينة نيسابور، فاستسلم له أهلها، فقطع الخطبة للسلطان سنجر، وخطب باسمه على

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١٠٠.

منابرها، وبعد أن مكث فيها أربعة أشهر عاد إلى بلاده مصطحباً معه عدداً من وجوه خراسان وفقهائها وعلمائها[1].

استئناف العمليات العسكرية: عاد السلطان سنجر بعد هزيمته في قطوان إلى خراسان، وكان أتسز قد غادرها قبل ذلك، وبعد أن استقرت له الأمور عقد العزم على الانتقام من أتسز، فجهَّز حملة عسكرية ضخمة، وخرج من عاصمته مرو باتجاه الجرجانية، وذلك في عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) ولما وصل إليها ضرب عليها حصاراً مركَّزاً وضربها بالمنجنيق والقاذفات، إلا أن دفاع أهلها المستميت عنها حال دون تحقيق النصر الذي أتى من أجله، واضطر أخيراً إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى خراسان متذرعاً برسالة أتسز التي يعتذر فيها عما بدر منه[2].

والواقع أنه تضافرت عوامل عدة أجبرته على رفع الحصار عن الجرجانية، أهمها[3]:

١ - **بروز خطر القراخطائيين**: كان القراخطائيون قد وصلوا في تقدمهم غرباً إلى حدود إقليم خوارزم، وأضحى الخوارزميون يدورون في فلكهم السياسي، ويدفعون لهم ضريبة التبعية ومقدارها ثلاثون ألف دينار ذهب، فخشي السلطان سنجر من أن يستأنف هؤلاء تقدمهم باتجاه خراسان عبر نهر جيحون الذي يشكل حاجزا بين بلاد ما وراء النهر وخراسان.

٢ - **تراجع قوته الذاتية**: شعر السلطان سنجر بتراجع قدرته العسكرية بعد الهزيمة القاسية التي تعرَّض لها في قطوان على أيدي القراخطائيين، بدليل فشله في اقتحام الجرجانية على الرغم من الاستعدادات الضخمة التي أعدَّها.

٣ - **انهماكه في إعادة الوحدة إلى البيت السلجوقي**: انهمك السلطان سنجر في إعادة الوحدة إلى البيت السلجوقي ووقف الصراعات الدائرة والحروب الأهلية التي لم تنقطع بين أبناء ملكشاه وأحفاده، وقد تطلب منه هذا العمل أن يقضي كثيراً من وقته في الذهاب إلى المناطق الغربية لإصلاح ذات البين، وإعادة الاستقرار إلى ربوع الدولة السلجوقية بالإضافة إلى وحدتها السياسية، هذا في الوقت الذي كان يتعرَّض لمحاولات غزنوية للانعتاق من الحكم السلجوقي، والمعروف أنه ضمَّ أراضي الغزنويين إلى دولته في عام (٥٠٨هـ/ ١١١٤م).

استؤنفت العلاقات العدائية بين السلطان سنجر وأتسز، وتطورت باتجاه الصدام المسلح عندما أقدم أتسز على محاولة اغتيال السلطان على طريقة الحشيشية، فأرسل

(١) الحسيني: ص٩٥. ابن الأثير: جـ٩ ص١٢٠، ١٢١. الجويني: جـ٢ ص٥.
(٢) الجويني: المصدر نفسه ص٧، ٨. (٣) الغامدي: ص٥٠٣، ٥٠٤.

إلى مرو رجلين من الخوارزميين لتنفيذ المهمة، فعلم سفيره أديب صابر، وكان في الجرجانية، فأرسل إليه رسالة يصف فيها ملامح الرجلين القادمين لاغتياله، فتحرَّى عنهما فتمكَّن من القبض عليهما وقتلهما، وعندما علم أتسز بذلك أغرق أديب صابر في نهر جيحون[1].

أثارت هذه الحادثة السلطان سنجر، فقرَّر القضاء على أتسز نهائياً، فجرَّد عليه حملة عسكرية في (جمادى الآخرة ٥٤٢هـ/ تشرين الثاني ١١٤٧م)، استولت على مدينة هزارأسب بعد حصار دام مدة شهرين، سارت بعدها إلى العاصمة وحاصرتها، إلا أن السلطان توقف فجأة عن الحصار، وتفاهم مُرغماً مع أتسز وعاد إلى مرو[2]. فما الذي دفعه إلى هذا التصرف والتنازل عما يراه واجباً على واليه تجاهه؟.

الواقع أنه حدث تطور مفاجيء على المسرح السياسي تمثل ببروز قوة جديدة هي قوة الغوريين[3]، وازدياد نشاط القراخطائيين، ومن واقع توازن القوى فأراد أن يستقطب أتسز حتى لا ينضم إلى أعدائه ويؤلبهم عليه، فيضعف بذلك موقفه.

وعندما وصل إلى عاصمته أرسل إليه التشريفات والإنعامات السلطانية، وبادله أتسز بإرسال الهدايا والتحف، وأوحى له بأنه من أتباعه[4]، وبدا كأن الرجلين قد نبذا خلافاتهما، لكن ظاهرياً على الأقل.

لم يكن هذا التفاهم آخر حلقات العلاقات بين السلطان سنجر وأتسز الخوارزمي، فقد أخذت أوضاع السلطان في التدهور بعد أن تعرَّض لهزيمة أخرى أمام الثوار الغز ووقع أسيراً مع زوجته في قبضتهم، وذلك في (٦ محرم ٥٤٨هـ/ ٣ نيسان ١١٥٣م)، وما إن علم أتسز بأسره حتى سار على رأس حملة عسكرية متوجهاً إلى خراسان لاقتطاع أكبر رقعة ممكنة مما كان تحت حكم السلطان سنجر، واتخذ من دعوة حاكم خراسان الجديد له، وهو ركن الدين محمود بن محمد، ابن أخت السلطان الذي اختاره الأمراء لخلافته، لمساعدته في إخماد ثورة الغز؛ ذريعة لتحقيق أطماعه في أملاك السلاجقة[5].

كانت فاتحة أعماله العسكرية مهاجمة آمُل المدينة المهمة، الواقعة على الطريق من خراسان إلى بلاد ما وراء النهر على الحافة الغربية لنهر جيحون، وبذل جهوداً كبيرة في إقناع حاكمها بتسليمها إليه فرفض، فالتفت إلى السلطان سنجر الذي كان

(١) الجويني: جـ٢ ص٨. (٢) المصدر نفسه: ص١٠.
(٣) **الغور**: جبال وولاية بين هراة وغزنة لا تنطوي على مدينة مشهورة وأكبر قلعة فيها هي فيروزكوه، وأسس الغوريون دولة حكمت جزءاً كبيراً من خراسان وبلاد الغزنويين في الهند والسند منذ عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م).
(٤) الجويني: جـ٢ ص١٠. (٥) المصدر نفسه: ص١٢.

لا يزال في الأسر واستخدم حيله البارعة والمراوغة، وأظهر خضوعه له مقابل إعطائه المدينة، فاشترط السلطان عليه أن يمده بقوة عسكرية لحرب الغز. وما حدث في ذلك الوقت من فرار السلطان من أسره ووصوله إلى تِرمذ في طريقه إلى عاصمته مرو حتى أُسقط في يد أتسز، وأخذ يفكر بالعودة إلى خوارزم، فذهب إلى مدينة خبوشان القريبة من نيسابور، فأُصيب وهو بها بالفالج وتوفي من أثره، وذلك في (٩ جمادى الآخرة ٥٥١هـ/ ٣٠ تموز ١١٥٦م)[١].

علاقة السلطان سنجر مع القراخطائيين

توسع القراخطائيين

اتسمت العلاقة بين السلطان سنجر والقراخطائيين بالعدائية، وقد أثارها طموح كورخان التوسعية في تركستان وبلاد ما وراء النهر. وشنَّ القراخطائيون حملاتهم العسكرية منطلقين من عاصمتهم بلاساغون؛ على المناطق المجاورة، فسيطروا عليها وبسطوا نفوذهم على جميع المدن والقرى الواقعة في وادي نهري تاريم وإيلي، ثم توجهوا غرباً وشمالاً، فاستولوا على كاشغر وخوطان والمناطق التابعة لهما، وأخضعوا قبائل قُنقلي البدوية التركية لنفوذهم. وأرسل كورخان حملة انتقامية ضد قبائل القيرغيز بسبب تعرُّضهم له أثناء رحلته من منشوريا باتجاه الغرب هرباً من ضغط التنقوزيين، ثم سار باتجاه الغرب متوجهاً إلى بيش باليغ عاصمة الأويغوريين، فأخضعها لحكمه، وأرسل منها حملة هاجمت فرغانة، فسيطر بذلك على إقليم تركستان، وجاور الأملاك الإسلامية في بلاد ما وراء النهر، وطمع في الاستيلاء عليها ما وضعه في مواجهة مباشرة مع السلطان سنجر المهيمن على هذه البلاد.

توجَّه كورخان بعد سيطرته على تركستان إلى الأراضي الإسلامية، فعبر نهر سيحون لأول مرة، فتصدَّى له محمود بن محمد، وجرت بينهما معركة ضارية في ضواحي خجند الواقعة على الضفة لغربية للنهر في (رمضان ٥٣١هـ/ حزيران ١١٣٧م)، أسفرت عن انتصار كورخان، وعاد محمود بن محمد إلى سمرقند في جو الهزيمة القاتم، وانتاب جميع سكان ما وراء النهر الخوف والرعب «فعظم الخطب على أهلها، واشتد الخوف والحزن، وانتظروا البلاء صباحاً ومساء»[٢].

نتيجة لهذه الخسارة، وخشية من استغلال كورخان انتصاره للتوسع في أراضي بلاد ما وراء النهر، التمس محمود بن محمد مساعدة عاجلة من السلطان سنجر،

(١) الجويني: جـ٢ ص١٣.
(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص١١٨.

وأعلمه بما يلقى المسلمون، وحثَّه على نصرتهم[١].

معركة قطوان

أسبابها: شكَّل التوسع القراخطائي في تركستان، وتطلع القراخطائيين إلى التوسع في بلاد ما وراء النهر على حساب المسلمين؛ السبب المباشر لمعركة قطوان بين السلطان سنجر وكورخان، أما التي أشعلت نارها فهي قبيلة القارلوق التركية البدوية. كانت هذه القبيلة تمتهن مهنة الرعي في أراضي بلاد ما وراء النهر حتى جاء القراخانيون، واستولوا على هذه البلاد، وأسسوا دولة لهم في ربوعها، وأخضعوا القبائل الضاربة فيها، وبخاصة قبيلتي القارلوق والقُنقلي، وكانت علاقة القارلوق بهم جيدة، فكانت هذه القبيلة تمدهم بالجند، وتؤمِّن لهم ما يحتاجونه من الخيل، واشتركت معهم في حروبهم ضد أعدائهم الطامعين في بلاد ما وراء النهر، كالغزنويين والسامانيين ثم السلاجقة والخوارزميين. وفي المقابل سمح القراخانيون للقارلوق أن يرتادوا أراضيهم لرعي ماشيتهم، وأضحوا من رعاياهم سواء في سمرقند وبخارى أو في بلاساغون الواقعة إلى الشرق من نهر سيحون، وظلَّت العلاقة الجيدة سائدة بين الطرفين حتى دخل القراخطائيون على الخط السياسي. فقد شكَّل القارلوق والقُنقلي قوة عسكرية وسياسية كبيرة في المنطقة، وراح القارلوق يغيرون على المناطق الحضرية فينهبونها من دون أن تتصدَّى لهم السلطات القراخانية بفعل ضعفها، فاضطرت إلى التماس المساعدة من القراخطائيين، وكانت النتيجة أن قضى هؤلاء على القراخانيين في شرقي سيحون، وسيطروا على أراضيهم وتوسعوا باتجاه الغرب حتى وصلوا إلى شاطىء نهر سيحون الشرقي.

وكان القارلوق يجوبون أراضي ما وراء النهر سعياً وراء الماء والكلأ، وانتشرت مواشيهم وبخاصة خيولهم في نواحي سمرقند بأعداد كثيرة جداً، فراحت تعتدي على الأهالي، فترعى مزارعهم وتتلف محصولاتهم الزراعية، فاشتكوا إلى السلطان سنجر.

استشار السلطان سنجر كبار مستشاريه وأمرائه في أمر القارلوق، فأشاروا عليه بأن يتوجه إلى بلاد ما وراء النهر لردعهم، ويبدو أنهم طمعوا في ممتلكاتهم من المواشي التي لا حصر لها، على الرغم من أنهم (القارلوق) يعيشون تحت مظلة السلطان، ويرضخون لمطالبه.

وشدَّد والي بلاد ما وراء النهر، محمود بن محمد وهو نائب السلطان سنجر،

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١١٨.

الضغط عليهم، وراح يضايقهم، وأسرف في اختطاف نسائهم وذراريهم، فأرسلوا إلى السلطان «وبذلوا له الخدمة خمسة آلاف جمل وخمسة آلاف فرس وخمسين ألف رأس غنم، ليتمكنوا منه بأقوى ذمم وأوفى عِصم وليأمنوا على أهاليهم ونسائهم وذراريهم»[1]، مبرهنين بذلك أنهم على طاعته وتحت إمرته، غير أنهم لم يجدوا أذناً صاغية، فكرَّروا الطلب منه برفع التعدي الواقع عليهم، ولكن من دون طائل. عندئذٍ اصطدموا بقوات الوالي وهزموه، وخشي أهل سمرقند وبخارى على أنفسهم واشتد خوفهم من أن يهاجمهم القارلوق، فأرسل محمود بن محمد يلتمس المساعدة من السلطان سنجر.

وفضَّل القارلوق الرحيل عن المنطقة للحفاظ على أسرهم وأموالهم، فتوجَّهوا نحو شرقي نهر سيحون، واحتموا بالدولة القراخطائية الوثنية[2]، فرحَّب بهم كورخان بلاساغون وأمَّنهم على أنفسهم ونسائهم.

ويبدو أن القارلوق رأوا أن وضعهم كمسلمين تحت حكم دولة وثنية لا يليق بهم، ولم يفقدوا الأمل في العودة إلى بلاد ما وراء النهر؛ فطلبوا من كورخان أن يشفع لهم لدى السلطان سنجر، فاستجاب لهم، غير أن السلطان السلجوقي رفض الشفاعة وكتب إلى كورخان باستعلاء أن يدخل في الإسلام، وتوعده بالدمار الشامل له ولشعبه إن لم يفعل ذلك، وسانده أمراؤه مبرهنين عن قِصَر نظر في التخاطب السياسي، وعارضه وزيره ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك الذي رفض هذا التصرف، لكن السلطان لم يُصغ إليه، وعقَّد سلوك مبعوثه السيء واللامسؤول أمام كورخان الموقف المتأزم أصلاً، ما دفع كورخان إلى رد الإهانة بنتف لحية المبعوث السلجوقي[3].

رأى كورخان أن سبل السلام قد سُدَّت، وأن السلطان سنجر، لا محالة، قادم إليه لينفذ ما توعده به في رسالته، وكان القارلوق قد أطلعوه على الأوضاع الداخلية المتردية للدولة السلجوقية، وأطمعوه في امتلاك ما لديها من أراضٍ غربي نهر سيحون، وقد وصف البنداري هذا الوضع بقوله: «إن الممالك بخراسان وما وراء النهر مشمِّرة، وأن السعادة من سلاطينها مُتنمِّرة، وأن سنجر قد تخالف عسكره وكسف معروفه منكره»[4].

أحداثها: استعدَّ السلطان سنجر للحرب وجهَّز حملة بالغ في إعدادها وعديدها،

(١) البنداري: ص٣٦٥.
(٢) كان القراخطائيون يدينون بالمانوية ثم اعتنقوا النصرانية على المذهب النسطوري.
(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص١١٨. (٤) تاريخ دولة آل سلجوق: ص٣٦٥.

فقد ذكر المؤرخون[1] أن ملوك وحكام خراسان، وأفغانستان، والغور، ومازندران، وسجستان، قد انضموا إليه، وقد بلغ عديد جيشه ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف مقاتل.

واستعد كورخان من جهته، فحشد جيشاً بالغ المؤرخون المسلمون في تحديد عديده، سبعمائة ألف مقاتل[2]، في حين قلَّلت الروايات الصينية من عديده فبلَغ عشرة آلاف مقاتل[3]، إلا أن الواقع أنه كان قريباً من عدد أفراد الجيش السلجوقي.

وضع كورخان خطة عسكرية تقضي بمهاجمة خصمه في عقر داره في خطوة استباقية تنمُّ عن بُعد نظر وسياسة عسكرية سليمة، فخرج على رأس جيشه من بلاساغون متوجهاً نحو الجنوب الغربي باتجاه الأراضي السلجوقية، ثم عبر نهر سيحون ودخل منطقة أشروسنة، وهناك جرت المعركة بين الجيشين اللذين وصفهما ابن الأثير بأنهما «كانا كالبحرين العظيمين»[4] وذلك يوم الثلاثاء (٥ صفر ٥٣٦هـ/ ٩ أيلول ١١٤١م) في مفازة قطوان التي تقع في إقليم أشروسنة في أراضي بلاد ما وراء النهر إلى الشرق من مدينة سمرقند.

وقسَّم كل قائد جيشه إلى ثلاثة أقسام، ميسرة وميمنة وقلب. وألهب كورخان نفوس جنده حماساً من واقع الخطبة التي ألقاها عليهم قبل بدء المعركة حتى يستميتوا في القتال، وصف فيها السلطان سنجر بأنه تعوزه صفة القائد العسكري الحاذق، وأنه، أي كورخان، سينتزع منه النصر[5].

وضغط كورخان أثناء القتال على الجيش السلجوقي حتى اضطره إلى اللجوء إلى وادي درغم فحشره هناك وقضى عليه، وقد بلغ عدد قتلاه حوالي ثلاثين ألفاً غطَّت جثثهم أرض المعركة، وحمل وادي درغم آلافاً من القتلى والجرحى، وأُسر من الشخصيات السلجوقية قائدا الميمنة والميسرة، الأمير قماج والملك تاج الدين أبو الفضل ملك سجستان، وزوجة السلطان، وفرَّ السلطان سنجر من أرض المعركة ناجياً بنفسه حتى لا يقع في الأسر ومعه محمود بن محمد نائبه في بلاد ما وراء النهر، ومرَّ أثناء فراره من أمام كورخان الذي عرفه، فلم يحاول سد الطريق عليه

(١) الحسيني: ص٩٣. البنداري: ص٣٦٥. ابن الأثير: جـ٩ ص١١٨.
(٢) الحسيني: ص٩٣. البنداري: ص٣٦٥، وقارن بابن الأثير الذي يذكر أن عدد أفراد جيش سنجر بلغ ثلاثمائة ألف مقاتل، ص١١٥.
(٣) انظر: الغامدي: ص٣٧٥، ٣٧٦. (٤) الكامل في التاريخ: جـ٩ ص١١٩.
(٥) المصدر نفسه.

وأسره، وكان يقول: «سد الطريق للمنهزم يضطره إلى قتال لا بقاء فيه، ومن يئس من حياته لا يُفكر في العواقب، ربما ينال الظفر بما يدفع عن نفسه»[1] وهذه وجهة نظر سليمة.

نتائجها: كان لمعركة قطوان نتائج عدة لعل أهمها:

- خضوع بلاد ما وراء النهر لحكم أجنبي وثني لأول مرة في تاريخ المسلمين في تلك المنطقة منذ الفتح الإسلامي، بعد أن فرَّ منها السلطان سنجر ونائبه محمود بن محمد، والملفت أن الحكم الجديد لم يتعرض لحياة السكان الذين نعموا في ظله بالطمأنينة والعدل، بخلاف ما كانوا يعانونه من ظلم وتعسف في ظل الحكم السلجوقي البائد.
- دخول إقليم خوارزم تحت الحكم القراخطائي، ذلك أن كورخان استغل انتصاره في قطوان فهاجم الإقليم المذكور واستولى عليه، وخضع حاكمه أتسز الخوارزمي لحكمه، ودفع الضريبة المترتبة على المنهزم، وقدرها ثلاثون ألف دينار ذهب.
- شكَّلت خسارة السلطان سنجر في معركة قطوان بداية النهاية لحياته بخاصة وهو الذي لم يُهزم من قبل، ودولة السلاجقة العظام بعامة، التي فقدت السيطرة على أراضي بلاد ما وراء النهر إلى الأبد، ونالت الهزيمة من سمعة السلطان ومن مكانته في أوساط العامة من مواطنيه في مختلف أنحاء مملكته، وشجَّعت قبائل الغز في خراسان على الثورة عليه فيما بعد، وكانوا السبب الرئيس في نهاية حياته وزوال ملكه، واستغل أتسز هذه الخسارة فغزا خراسان قلب الدولة السلجوقية.
- توقف المد الإسلامي باتجاه الشرق، وانحسر نفوذ المسلمين بحيث أضحى نهر جيحون الحد الفاصل بين ممتلكاتهم وممتلكات الوثنيين.
- تردَّد صدى خسارة السلطان سنجر في الأوساط الأوروبية الغربية، إذ أن أخبار انتصار كورخان الساحق على المسلمين، وما ترتَّب عليه من خسائر فادحة، وصلت إلى أوروبا، فأحيت الأمل في نفوس الأوروبيين بأن حليفاً لهم قد ظهر في آسيا. والملفت أن هذه الأخبار وصلت إليهم مضخمة، فقد جعلوا كورخان يتقدم إلى الغرب حتى وصل إلى روافد نهر دجلة في طريقه إلى بيت المقدس لمساعدة الصليبيين، وصوَّروه بصورة الملك الأسطوري الغامض، الخوري يوحنا، الذي قالوا عنه إن مملكته تقع في مكان ما وراء الدول الإسلامية، وتكهنوا بأنه سيقضي على الكفرة، لكن كل ما حقَّقه كورخان في الواقع هو دفع جماعات جديدة من التركمان الثائرين مثل الغز نحو خراسان.

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١١٩. الحسيني: ص٩٤، ٩٥.

ثورة الغز

لم تكن الظروف السياسية والعسكرية المحيطة بالسلطان سنجر موآتية لاستمرار حكمه، فقد كان شيخاً هرماً، وأخذ نفوذه ينحسر تدريجاً عن الأقاليم المجاورة له بعد الحروب الكثيرة التي حفل بها عهده، كما أن هزيمته أمام القراخطائيين أصابت دولته بضربة قوية، وقامت دول وإمارات مستقلة كثيرة من حوله مثل الدولة الخوارزمية والدولة القراخطائية، وكانت الدولة الغورية تسيطر على جبال الغور ومدينة فيروزكوه القريبة من غزنة، ثم امتد نفوذها إلى هراة، وحاصر ملكها علاء الدين حسين (٥٢٤ - ٥٥٦هـ/ ١١٤٩ - ١١٦١م) مدينة بلخ في عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، فتصدى له السلطان سنجر وهزمه، وأسره، ثم أطلق سراحه ورده إلى بلاده، وأضحى علاء الدين حسين كأحد أتباعه، فأظهر طاعته ووفاءه له والانقياد إليه[1].

وكانت ثورة الغز التي اشتعلت في عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) الفتنة الأخيرة التي قضت على السلاجقة العظام في المشرق. والغز من القبائل التركية البدوية المسلمة التي تسكن بلاد ما وراء النهر، وعندما استولى القراخطائيون عليها طردوهم منها، فنزحوا إلى خراسان واستقروا بالقرب من مدينة بلخ يرعون مواشيهم من مراعيها، فأراد حاكمها قماج إبعادهم، فطلب منهم الابتعاد عنها، فاستقطبوه بالمال فسكت مدة ثم عاد وطلب منهم الانتقال إلى مكان آخر بعيد عن مدينته، وعبثاً حاولوا بذل المال له ليعود عن رأيه، وأصرَّ على أن يغادروا بلاده.

نتيجة لهذا الإصرار والتصلب في المواقف كان لا بد من الصدام المسلح، فسار قماج إليهم على رأس عشرة آلاف فارس لإجلائهم عن المنطقة، فاصطدموا به وتغلَّبوا عليه ونهبوا متاعه وتجهيزاته وأكثروا القتل في عسكره، وفرَّ إلى السلطان سنجر في مرو، فأخبره بالوضع المتردي في بلخ، فأرسل السلطان إليهم يتهددهم ويتوعدهم إن لم يغادروا بلاده، فاعتذروا وبذلوا مالاً كثيراً ليكف عنهم ويتركهم في مراعيهم، فلم يُجبهم إلى ذلك، فجهَّز حملة عسكرية بلغ تعداد أفرادها مائة ألف فارس وسار على رأسها لقتالهم، غير أنه تعرَّض لهزيمة نكراء في (محرم ٥٤٨هـ/ نيسان ١١٥٣م). وأمعن الغز في جنود السلاجقة قتلاً وأسراً، وكان قماج من بين القتلى، ووقع السلطان سنجر في أسرهم مع جماعة من أُمرائه، فقتلوهم وأبقوا السلطان أسيراً، وانسابوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، ودخلوا العاصمة مرو وخرَّبوها وكذلك فعلوا بنيسابور، وبكل بقعة نزلوا بها.

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص١٨٩.

وعندما عادت فلول الجيش السلجوقي إلى نيسابور، وكان الغز قد خرجوا منها، اختاروا سليمان شاه بن السلطان محمود سلطاناً عليهم وخطبوا له، وسار على رأسهم إلى مرو لقتال الغز غير أنه تعرَّض للهزيمة، وولَّى جنده الأدبار متوجهين إلى نيسابور فتبعهم الغز، ونهبوا في طريقهم مدينة طوس وخرَّبوها وقتلوا كثيراً من أهلها، ولما وصلوا إلى نيسابور في (شوال ٥٤٩هـ/ كانون الأول ١١٥٤م) لم يجدوا من يدافع عنها أو يحميها، فنهبوها نهباً مجحفاً، وقتلوا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وأخذوا أموالهم، وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب، وانتشروا في مدن خراسان الأخرى ففعلوا بها مثل ما فعلوا بمرو ونيسابور.

وتدليلاً على شدة هول الكارثة ذكر ابن الأثير أنه «يتعذر وصف ما جرى منهم على تلك البلاد جميعها، ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهبه الغز غير هراة ودهستان؛ لأنها كانت حصينة فامتنعت»[1].

لم يكن السلطان سليمان شاه على قدر المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه، فكان سيء السيرة والتدبير، ضعيف الإرادة، استمرت دولة السلاجقة العظام في عهده في التدحرج نحو الهاوية، لذلك غادر خراسان في (صفر ٥٤٩هـ/ نيسان ١١٥٤م) وعاد إلى جرجان، فاجتمع الأمراء واختاروا محمود بن محمد، ابن أخت السلطان سنجر، سلطاناً عليهم وخطبوا له على منابر خراسان، فاستدعوه وانقادوا له، وذلك في (شوال/ كانون الأول)، فترأسهم وهاجم الغز الذين كانوا يحاصرون هراة، وجرت بينهما معارك عدة كان النصر في أغلبها للغز[2].

وفي الوقت الذي كانت فيه دولة السلاجقة العظام تتعرَّض لفتنة الغز، نشط الأمراء والمماليك في استغلالها لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأملاك السلجوقية. فقد علا شأن أحد مماليك السلطان سنجر، ويُدعى أي أيه ويُلقَّب بالمؤيد، فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وأبيورد وشهرستان ودامغان، وطرد الغز منها واستقلَّ بها، وعدل في الرعية، واستقطب الناس بسيرته الحسنة، فاستقرت له الأمور وكثرت جموعه.

ويبدو أن السلطان محمود بن محمد يئس أخيراً من قتال الغز، فسار إلى نيسابور، فوجد المؤيد قد غلب عليها، فراسل الغز في الصلح، ويبدو أن هؤلاء استمروا على ولائهم للسلاجقة على الرغم من ثورتهم، فوافقوا على الصلح الذي تم في (رجب ٥٥٠هـ/ أيلول ١١٥٥م).

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٢٠١.   (٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٠٤، ٢٠٥.

وفاة السلطان سنجر

ظلَّ السلطان سنجر أسيراً في أيدي الغز مدة ثلاث سنوات وبضعة أشهر، ولم يكن مستعداً طوال هذه المدة أن يهرب خوفاً على زوجته الأسيرة بيد هؤلاء، فلما توفيت هرب من أسره بمساعدة جماعة من حراسه، فذهب إلى شاطىء جيحون ثم عبر إلى ترمذ ووصل إلى عاصمته مرو في (رمضان ٥٥٢هـ/ تشرين الأول ١١٥٧م)، فجلس على عرش سلاجقة المشرق مرة أخرى، غير أنه كان محطم القلب فلم يقو على تحمُّل صدمة ما شاهده في بلاده من دمار، كما حزن لوفاة زوجته، فمرض ومات كمداً يوم الإثنين في (١٤ ربيع الأول ٥٥٢هـ/ ٢٦ نيسان ١١٥٧م)، ودُفن في عاصمته وعمره اثنتين وسبعين سنة، ومدة ملكه واحداً وستين عاماً، منها عشرون عاماً ملكاً على خراسان، ثم واحداً وأربعين عاماً سلطان السلاجقة العظام[1].

الواقع أن ثورة الغز كانت الضربة القاضية التي أنهت فعلياً حكم السلاجقة العظام، وشكَّل موت السلطان سنجر خاتمة هذا الحكم، ويُعدُّ هذا السلطان أعظم وأفضل سلاطين السلاجقة العظام في خراسان وما وراء النهر، اجتهد في تعمير البلاد، ورفاهية الرعية، وإحلال الأمن والاستقرار. كان شجاعاً، كريماً، محباً لرعيته، امتد نفوذه من حدود الهند والصين شرقاً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً، ومن بلاد القبجاق شمالاً إلى ساحل هرمز والحجاز جنوباً، فلم يحز أي سلطان سلجوقي ما حازه من فتوح.

واشتهر عهد السلطان سنجر برواج الأدب الفارسي وبخاصة الشعر، بفضل اهتمامه بالشعر ورعايته للشعراء وتشجيعهم بإغداق المال عليهم، كما أن الكتب الكثيرة التي أُلِّفت في عهده وقُدِّمت له وتحمل اسمه، لتدل على مدى تشجيعه للعلماء والمؤلفين. ومن أهم الشعراء الذين أُتيح لهم مدحه أمير الشعراء محمد بن عبد الملك المعزي النيسابوري، والحكيم أوحد الدين علي بن محمد الأنوري (ت٥٢٠هـ)، والأبيوردي الملقب بحجة الحق (ت٥٨٣هـ)، فقد مدحه هذان الشاعران بقصائد خالدة، كما أنشد شعراء آخرون قصائد بمدحه مثل: أديب صابر التِرمذي، وكمال الدين البخارائي، وفريد الدين عبد الواسع الجيلي، والسيد أشرف الحسن الغزنوي، والحكيم السنائي.

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٤٠، ٢٤١. الراوندي: ص٢٧٩.

الفصل التاسع

الأوضاع السياسية لدولة سلاجقة العراق

السلطان محمود
(٥١٣ ـ ٥٢٥هـ/ ١١١٩ ـ ١١٣١م)

قيام دولة سلاجقة العراق

ذكرنا سابقاً أنه بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه في عام (٥١١هـ/ ١١١٧م) خلفه ابنه محمود بعهد منه، لكن نازعه عمه سنجر الذي رفض أن يكون تابعاً لابن أخيه الفتى، فتوجَّه نحو العراق، ويبدو أن الأمراء المحيطون بمحمود شجَّعوه على التصدي لعمه، وانتهت الحرب بانتصار السلطان سنجر الذي تفاهم مع ابن أخيه وعيَّنه نائباً عنه في العراق، ومنحه رسوم السلطنة وشعائرها، مثل ذكر اسمه في الخطبة، وذلك في عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م)، وأضحى السلطان محمود نائباً للسلطان سنجر بصفة شرعية ما دفع الخليفة العباسي المسترشد إلى الاعتراف به على الرغم من أنه ظل تابعاً للسلطان سنجر يأتمر بأمره، وسلطته اسمية. وبدا واضحاً أن دولة السلاجقة العظام في إيران وخراسان والعراق قد انقسمت إلى قسمين متميزين، ويمكن الأخذ بالتاريخ أعلاه بداية فعلية لقيام دولة سلاجقة العراق، واتخذ السلطان محمود مدينة همذان عاصمة له.

المشكلات التي واجهت السلطان محمود خلال حياته السياسية

واجهت السلطان محمود خلال حياته السياسية مشكلات عدة أثَّرت سلباً على وضعه ووضع دولته، لعل أبرزها:

فساد الحاشية: أحاط بالسلطان محمود مستشارون ضعفاء أساءوا السيرة والتدبير بتصرفاتهم اللامسؤولة مستغلين صغر سن السلطان:

ـ فقد تقاسموا ما كان في خزانة الدولة من أموال، واستخرجوا وجوه المعاملات الرابحة وأخذوها، ثم تصرفوا في المصوغات من الحلي والأواني والآلات ثم في الجواهر والثياب والخيل المسومة والجمال والأغنام، ولم يُبقوا على شيء ما سبَّب

أزمة اقتصادية حادة[١].

ـ حرَّض هؤلاء المستشارون وعلى رأسهم الوزير أبو القاسم الدركزيني والأمير الحاجب علي بار، السلطان محمود على محاربة عمه السلطان سنجر، وعارضهم بعض الأمراء، فانقسموا على أنفسهم، وكانت النتيجة خسارة السلطان محمود في القتال الذي جرى بينه وبين عمه[٢].

ـ أقدم بعض الأمراء المحيطين بالسلطان محمود على إبعاد مماليكه الذين كانوا يقومون بحراسته وخدمته، فأضعفوا قدرته، كما أخرجوا الجواري المطربات والإماء المغنيات من دور الحريم إلى دورهم، ما أدى إلى نشر المفاسد وانغماس رجال الدولة في الفسق واللهو، وسيطروا على السلطان وتجرأوا عليه[٣].

ـ كان دُبيس بن صدقة، صاحب الحلة السابق، يطمع في الحصول على منصب شحنة بغداد، فرشا البطانة المحيطة بالسلطان محمود، فأعادوه إلى العراق ما أدى إلى نشوب الاضطرابات[٤].

ـ وشغل الأمراء السلطان محمود الذي كان في دور المراهقة باللهو والطرب، وقضاء الوقت في ملاعبة الصقور والفهود وكلاب الصيد والبزاة والحمام والنساء والخصيان، وقد سيطرت عليه الأمراض المزمنة بسبب كثرة ملازمة النساء[٥].

صراع الأمراء وأثره على العلاقة بين السلطان محمود وأخيه مسعود

كان السلطان محمود قد أقرَّ أخاه مسعوداً على الموصل مع أتابكه جيوش بك (أي أبه)، ويبدو أن الأمير السلجوقي كان يطمع في الحكم، وشجَّعه أتابكه على المطالبة بالعرش، وحرَّضه على الثورة على أخيه طمعاً منه في زيادة إقطاعه والتحكم بشؤون السلطنة السلجوقية، وأخذ مسعود يترقب الفرصة المناسبة لتحقيق هدفه علماً أنه بعد وفاة السلطان محمد واعتلاء ابنه السُلطان محمود العرش في العراق، نافسه ثلاثة من إخوته، هم مسعود وسليمان وطغرل، بتوجيه من أتابكتهم، وراحوا يثيرون عليه أمراء الأطراف.

وحدث في (جمادى الأولى ٥١٢هـ/ أيلول ١١١٨م) أن خرج آقسنقر البرسقي شحنة بغداد من المدينة في طريقه إلى الحلة لانتزاعها من يد دُبيس بن صدقة، فلما

---

(١) البنداري: ص٢٦٣.
(٢) الحسيني: ص٨٨.
(٣) البنداري: ص٢٦٤.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الراوندي: ص٣٠١.

علم مسعود وأتابكه جيوش بك بذلك، غادروا الموصل متوجهين إلى عاصمة الخلافة للسيطرة عليها واعتلاء العرش السلجوقي، ورافقهما وزير مسعود فخر الملك أبو علي بن عمار، أمير طرابلس السابق، وقسيم الدولة زنكي بن آقسنقر، جد أمراء الموصل الزنكيين، وأمير سنجار، وأبو الهيجاء، صاحب إربل، وكرباوي بن خراسان التركماني، صاحب البوازيج[١].

كان البرسقي آنذاك قد وصل إلى الرقة وعسكر في أدناها، فلما بلغه خروج مسعود وحلفائه أدرك خطورة الموقف؛ لأنه اصطحب معه كل جنده، فأسرع بالعودة إلى بغداد للدفاع عنها، وفاجأت عودته السريعة مسعود وأتابكه اللذين كانا يمنيان النفس بدخول بغداد من دون مقاومة لخلوها من الجند، فتغير الوضع عندئذٍ وأضحى الاصطدام بين الطرفين أمراً واقعاً إذا حاول المهاجمان دخول بغداد عنوة، ويبدو أنهما تهيَّبا الموقف فآثرا الصلح، وأرسلا إلى السلطان محمود في همذان يبلغانه أنهما قدما لمساعدته ضد دُبيس بن صدقة[٢].

الواقع أن البرسقي خشي من نوايا مسعود وأتابكه؛ لأنه لم يطلب منهما أي مساعدة ضد دُبيس بن صدقة، كما أنهما توجَّها بقواتهما نحو بغداد مباشرة ولم يتوجَّها إلى المكان الذي يعسكر فيه في مواجهة دُبيس، ما يدل على أنهما كانا ينويان الاستيلاء على بغداد منتهزين فرصة غيابه عنها، ومع ذلك يبدو أنه اطمأن إليهما فسمح لهما بدخول بغداد وأنزل مسعود بدار المملكة.

وإذ أدرك دُبيس بن صدقة أنه لا يمكنه مواجهتهم منفرداً، ركن إلى الهدوء وقدَّم هدية حسنة لكل منهم، ولكنه لم يتخلَّ عن طموحه، وتعاون هذه المرة مع الأمير عماد الدين منكبرس بن الملك بوربرس بن ألب أرسلان، الطامع في اعتلاء العرش السلجوقي في العراق، وكان البرسقي قد أبعده عن بغداد وأرغمه على تغيير خط زحفه إلى النعمانية، فعبر دجلة واجتمع بدُبيس بن صدقة واتفقا على محاربة البرسقي[٣].

وهكذا تأزم الموقف السياسي من جديد، فخرج البرسقي ومسعود وجيوش بك لمحاربة دُبيس بن صدقة وحليفه منكبرس، وعندما وصلوا إلى المدائن علموا بكثرة

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٣٠. **والبوازيج**: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة، وهي من أعمال الموصل. الحموي: جـ١ ص٥٠٣.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٣١.

(٣) المصدر نفسه. **والنعمانية**. بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة معدودة عن أعمال الزاب الأعلى وهي قصبته. الحموي: جـ٥ ص٢٩٤.

جنودهما فقرروا التراجع، فعبروا نهر صرصرا[١]، ووضعوا حاميات عسكرية على مخاضاته لمنع أي محاولة قد يقوم بها الحليفان لعبوره[٢].

أدَّى هذا النزاع الداخلي إلى نشوب الفوضى والاضطراب واختلال الأمن في منطقة السواد، فنهب الطرفان المنطقة بشكل فاحش، ما دفع الخليفة العباسي المسترشد إلى التدخل داعياً الأطراف المتنازعة إلى الصلح وحقن الدماء، وأرسل وفداً إلى البرسقي ومسعود ضمَّ سديد الدولة بن الأنباري والإمام الأسعد المهيني، مدرس النظَّامية، يأمرهما بالموادعة والمصالحة، والكف عن القتال والنهب، وحقن الدماء، وترك الفساد، فأنكرا أمام الوفد أن يكون قد جرى أي تعدٍّ على أيديهما وأبديا استعدادهما للعودة إلى بغداد[٣].

كانت بغداد قد خلت آنذاك ممن يحميها أو يدافع عنها؛ لأن البرسقي اصطحب معه جنوده كافة، فاستغل دُبيس بن صدقة وحليفة منكبرس ذلك وأرسلا قوة عسكرية من ثلاثة آلاف مقاتل لعبور نهر ديالي ودخول بغداد بقيادة منصور بن صدقة، أخي دُبيس، والأمير حسين بن أزبك، وعندما علم البرسقي بذلك عاد إلى المدينة على وجه السرعة تاركاً ابنه عز الدين مسعود على عسكره في صرصر، واصطحب معه عماد الدين زنكي، فوصل إلى نهر ديالي قبل وصول قوات خصمه، ومنعها من العبور، وأقام يومين في ذلك المكان تسلَّم خلالها رسالة من ابنه يخبره بعقد الصلح بين دُبيس ومنكبرس من جهة، وبين مسعود وجيوش بك من جهة أخرى، فاستاء من هذا التصرف؛ لأنه تمَّ من دون علمه، فعاد إلى بغداد وعبر إلى الجانب الغربي، وعبرت في إثره عساكر منصور بن صدقة والأمير حسين بن أزبك وعسكرت عند جامع السلطان، ثم قدم مسعود وأتابكه ونزلا عند البيمارستان، في حين نزل دُبيس ومنكبرس أسفل الرقة[٤].

ويبدو أن حصول هذا الصلح المفاجيء مرده إلى أن جيوش بك طلب من السلطان محمود زيادة إقطاع أخيه مسعود، فأقطعه ولاية أذربيجان بالإضافة إلى الموصل وأعمالها، وأرسل من يخبره بذلك، فوصل الرسول وهو يعسكر على نهر صرصر في مواجهة دُبيس ومنكبرس، وبلَّغه الرسالة، فرحل عندئذٍ عن الموصل مع أتابكه متوجهين إلى أذربيجان لتسلمها، وعندما بلغ السلطان محمود نبأ رحيلهما،

(١) **صرصر**: قريتان من سواد بغداد، صرصر العليا وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى وربما قيل نهر صرصر فنسب النهر إليها. الحموي٣ ص٤٠١.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٣١. (٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص٦٣١، ٦٣٢.

وهو لا يعلم وجهتهما، ظنَّ أنهما خرجا عن طاعته، فعاد عن قراره، وتجهَّز للزحف نحو الموصل. ووقع كتاب العزل في يد منكبرس، فاستغله للضغط على مسعود وأتابكه، وأقنعهما بالتخلي عن البرسقي مقابل ضمان عفو السلطان عنهما، وقد خشيا أن يُنفذ السلطان محمود تهديده بالزحف نحو الموصل في الوقت الذي كانا في مواجهة دُبيس ومنكبرس.

وخشي جيوش بك أن يتدخل البرسقي لإفشال الصلح، لذلك اتفق مع منكبرس على أن يُرسل فرقاً عسكرية لتهديد بغداد وإرغام البرسقي على الانسحاب من مسرح الأحداث، فتمَّ لهما ذلك، وعاد عسكر الموصل والجزيرة ومن معهم إلى بلادهم، ولم يحصل جيوش بك على ما كان يهدف إليه من وراء هذه الحركة، وهو السيطرة على بغداد وتأمين العرش السلجوقي لمسعود. وتفرَّق أصحاب البرسقي عنه فلحق بالملك مسعود الذي أقطعه مراغة[1] في حين استقر منكبرس في منصب الشحنة في بغداد[2].

ويبدو أن السلطان محمود فضَّل، في غمرة هذا الصراع على السلطة والنفوذ، أن يتفاهم مع أخيه مسعود، فكتب إليه يسترضيه، ودعاه إلى الكفِّ عن العصيان، ووعده بزيادة إقطاعه، إلا أنه لم يعبأ بذلك، فحذَّره عندئذٍ وتهدَّده، وأظهر حلفاؤه ما كانوا يخفونه، فخطبوا له بالسلطنة وضربوا له النوبة خمس مرات وهي من مظاهرها[3].

كانت قوات السلطان محمود متفرقة، ما شجَّع مسعود وأتابكه على استغلال الفرصة، فأسرعا بمهاجمته، وجرى اللقاء بينهما بالقرب من همذان في (ربيع الأول ٥١٤هـ/حزيران ١١٢٠م)، وأسفر عن هزيمة مسعود وأتابكه وأسر جماعة من الأعيان ومقدمي العسكر كان من بينهم وزير مسعود أبو إسماعيل الطغرائي، فأمر السلطان بقتله، وفرَّ مسعود من أرض المعركة مع عدد من أتباعه، فآوى إلى جبل قريب واحتمى به، وأرسل عثمان، ركابي عسكره، إلى أخيه يطلب الأمان، ويعتذر عما بدر منه، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأمر البرسقي الذي كان على مقدَّم جيشه، بالمسير إليه وإبلاغه قرار العفو وإحضاره، غير أن بعض الأمراء أشاروا عليه (مسعود) بعد أن كتب إلى أخيه بشأن العفو عنه، الذهاب إلى الموصل والتعاون مع دُبيس بن صدقة، واستئناف الحرب ضد أخيه، فوافقهم على ذلك، ورحل إلى الموصل، وعندما وصل البرسقي ولم يجده، أخبر بمسيره فلحقه وأدركه على بُعد

(١) **مراغة**: بلدة مشهورة عظيمة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان. الحموي: جـ٥ ص٩٣.
(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٣٢، ٦٣٣. (٣) ابن القلانسي: ص٣٢٢.

ثلاثين فرسخاً، وأخبره بعفو أخيه، وأقنعه بالعودة إليه، وضمن له ما أراد، فاستقبله أخوه بالترحاب ووفى له بما بذله، واستمرت الخطبة لمسعود في أذربيجان والموصل والجزيرة الفراتية مدة ثمانية وعشرين يوماً[1].

وعاد جيوش بك بعد المعركة إلى الموصل بعد أن تعذَّر عليه الاجتماع بمسعود، ونزل بظاهرها واستعدَّ لصدِّ أي هجوم أو حصار قد يقوم به السلطان محمود أو يفرضه على المدينة، وفي الوقت الذي كان فيه منهمكاً في الإعداد للمعركة، جاءته الأنباء بتفاهم مسعود مع أخيه السلطان محمود، فأُسقط في يده، وأدرك ضعف موقفه، وأنه لم يعد هناك من مبرر لاستمراره في العصيان، فقرَّر التوجُّه إلى همذان حيث اجتمع بالسلطان الذي اكتفى بعزله عن إمارة الموصل وأعمالها، وأقطعها الأمير أقسنقر البرسقي، وذلك في صفر (٥١٥هـ/أيار ١١٢١م)[2].

وعندما بلغ دُبيس بن صدقة انهزام مسعود، نهب البلاد وخرَّبها، ولم يُعر نداء كل من الخليفة العباسي المسترشد والسلطان محمود له بالكفِّ عن ذلك، ثم زحف إلى بغداد وضرب سرادقه بإزاء دار الخلافة، وأظهر ما في قلبه من حقد بسبب مقتل والده صدقة بن مزيد في عام (٥٠١هـ/١١٠٧ ـ ١١٠٨م)، فالتمس الخليفة المساعدة من السلطان، فخرج هذا من همذان في طريقه إلى بغداد، ووصل إليها في (رجب ٥١٤هـ/تشرين الأول ١١٢٠م)، فأرسل إليه دُبيس زوجته ومعها مال كثير وهدية نفيسة، وسأله العفو عنه، فاشترط السلطان شروطاً لم يقبلها دُبيس، وما زال الخلاف محتدماً بينهما حتى عام (٥١٥هـ/١١٢١م)، فاستسلم دُبيس بعد مطاردة القوات السلطانية له من مكان إلى آخر، وأرسل أخاه منصوراً رهينة تدليلاً على خضوعه وطاعته[3].

خروج طغرل على أخيه السلطان محمود

واجه السلطان محمود ثورة أخرى ضد حكمه قام بها أخوه طغرل، صاحب قلاع سرجهان[4]، وساوه[5]، وآوه، وزنجان في (أوائل ٥١٤هـ/ربيع ١١٢٠م) بتشجيع من أتابكه كنتغدى بهدف انتزاع السلطة منه، منطلقاً من أذربيجان، فندب السلطان

(١) الحسيني: ص٩٦، ٩٧. (٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٦٨.
(٣) المصدر نفسه: ص٦٥١، ٦٥٢.
(٤) **سرجهان**: قلعة حصينة على طرف بلاد الديلم تُشرف على قاع قزوين وزنجان وأبهر. الحموي: جـ٣ ص٢٠٧.
(٥) **ساوة**: مدينة حسنة بين الري وهمذان في الوسط. المصدر نفسه: ص١٧٩.

جيوش بك لإخماد ثورته، فلما علم طغرل وأتابكه بذلك هربا إلى كنجه[1]، ولم يلبث كنتغدى أن توفي في (شوال ٥١٥هـ/ كانون الأول ١١٢١م)، فانضم آقسنقر الحمديلي صاحب مراغة إلى طغرل على أمل أن يحل محل كنتغدى المتوفى، واتفق معه على قتال أخيه السلطان، فتوجَّها إلى تبريز، وعلما وهما فيها بوصول جيوش بك إلى أذربيجان ونزوله على مراغة في جيش كثيف، فمالا إلى الصلح وراسلا السلطان بالطاعة، فأجابهما إلى ذلك، وتمَّ الصلح في (محرم ٥١٦هـ/ آذار ١١٢٢م)[2].

علاقة السلطان محمود مع الخلافة العباسية

بدأت الخلافة العباسية، منذ أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، تستعيد شيئاً من قوتها، وتملأ الفراغ الذي تركه السلاجقة بسبب نزاعاتهم الداخلية، وتنتهز الفرص للحد من سلطانهم، وأن ما دفع الخلافة إلى هذا التصرف هو ما تلمَّسته من المفاسد المستشرية في البلاد الإسلامية، وقد بيَّن الخليفة المسترشد للسلطان محمود ما أصاب البلاد من الضعف والوهن بسبب حركات التمرد، وبخاصة حركة دُبيس بن صدقة صاحب الحلة، وما أحدثه عسكره من تخريب وفساد، كما أخذ عليه ما انتشر من الغلاء في العراق بشكل خاص[3]، ثم انتهى الأمر بينهما إلى الحرب.

الواقع أن عام (٥١٩هـ/ ١١٢٥م)، يُعدُّ البداية الفعلية للنزاع بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، عندما أغرى دُبيس بن صدقة طغرل بن محمد أن يطلب السلطنة من الخليفة العباسي المسترشد، فاستجاب له طغرل، وسارا معاً على رأس جيش كبير إلى بغداد لتحقيق أهدافهما المتباينة، حيث أن دُبيساً كان يهدف إلى الانتقام من الخليفة لما بينهما من عداء، في حين كان هدف طغرل انتزاع منصب السلطنة من أخيه محمود[4]، ولما علم الخليفة بنوايا هذين الحليفين استعد لصدِّهما[5].

وكان الخليفة قد أقدم على بناء سور حول بغداد في عام (٥١٧هـ/ ١١٢٣م) عقب الهجمات المتكررة التي تعرَّضت لها المدينة من جانب أمراء الأطراف، وبخاصة

(١) **كنجة**: من نواحي لورستان بين خوزستان وأصبهان. الحموي: جـ٤ ص٤٨٢.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٦٧، ٦٧٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٧٠٥.

(٤) الزهراني، محمد مسفر: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص٥٠.

(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩٨.

دُبيس بن صدقة، وعندما اقترب جيش طغرل ودُبيس، خرج الخليفة على رأس جيشه لصدِّهما، لكن حدث أن مرض طغرل فجأة، واضطر إلى الانسحاب من دون أن يشتبك مع جيش الخليفة ولجأ إلى عمه سنجر[1].

كان لموقف الخليفة من حركة طغرل وحليفه دُبيس بن صدقة أثر بالغ في نفس السلطان محمود، فكتب إليه يشكره ويُعبِّر عن طاعته للخلافة، كما تمَّ الاتفاق بينهما على التصدي لطغرل والسلطان سنجر إذا حاولا التدخل على أن تكون السلطنة لمحمود وحده[2]، ولما بلغت أنباء ذلك الاتفاق إلى مسامع السلطان سنجر، كتب إلى ابن أخيه السلطان محمود يُشكِّكه في نوايا الخليفة، وبطلب منه:

- عدم الانصياع له لأنه يهدف إلى الإيقاع بينهما ليتخلَّص منهما.
- حرَّضه على التوجُّه إلى بغداد والاستيلاء على تجهيزات الخليفة.
- القبض على دُبيس بن صدقة الذي نجح في ضمِّ أمراء الولايات إلى صفوف الخليفة[3].

استجاب السلطان محمود لطلبات عمه، وعزم على السير إلى بغداد متجاهلاً ما سبق أن اتفق عليه مع الخليفة، ولما سمع هذا بما تمَّ بين السلطانين طلب من السلطان محمود عدم القدوم إلى بغداد لقلة الميرة فيها، غير أن السلطان تجاهل طلبه، عند ذلك أخذ الخليفة يستعد لقتاله[4].

وزحف السلطان محمود على رأس جيشه إلى بغداد في (ذي الحجة ٥٢٠هـ/ كانون الأول ١١٢٦م)، وعبر الخليفة في الوقت نفسه مع جيشه إلى الجانب الغربي من المدينة، فأرسل إليه السلطان محمود يدعوه إلى الصلح فرفض. وفي (محرم ٥٢١هـ/ كانون الثاني ١١٢٧م) حاصر الجيش السلجوقي المدينة، ونهبت بعض عساكره دار الخلافة، فاستاء العامة من ذلك، وانضموا إلى جيش الخليفة الذي بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل، واتخذ الخليفة الاحتياطات الضرورية لحماية عاصمته من تسلل جيش السلطان محمود إليها، فأمر بحفرِ خندق حولها للدفاع عنها.

وتعذَّر على الجيش السلطاني دخول المدينة ما أدى إلى حدوث قتال بين الجيشين كاد الخليفة أن يحسمه لصالحه لولا أن غدر به أمير إربل، أبو الهيجاء الكردي، الذي انضم إلى جيش السلطان، ويبدو أنه أدرك أن كفة السلطان ستكون الراجحة بعد الإمدادات العسكرية التي جاءته مع عماد الدين زنكي حاكم البصرة ما جعل

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٩٨، ٦٩٩.

(٢) ابن الجوزي: جـ٩ ص٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٥٣ ـ ٢٥٥. الحسيني: ص٩٧، ٩٨.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص٧٠٥.

الخليفة يميل إلى الصلح، ومع ذلك لم يتمكن السلطان محمود من دخول بغداد إلا بعد عقد الصلح، ويُعدُّ هذا نصراً معنوياً للخلافة العباسية، ثم عاد السلطان إلى عاصمته همذان[1].

وفي عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م) قدم السلطان محمود إلى بغداد ومعه دُبيس بن صدقة ليصلح حاله مع الخليفة، ثم عاد إلى همذان، ولكن دُبيس هذا عاد إلى افتعال المشكلات والقلاقل وإحداث الفوضى في البلاد مستغلاً وفاة زوجة السلطان محمود ومرضه، فهاجم العراق ودخل الحلة وسار إلى البصرة، فأخذ منها أموالاً كثيرة، واستولى على ما للخليفة والسلطان من الدخل[2].

الأوضاع الخارجية

العلاقة مع الكرج

أدَّى اضطراب الأوضاع في ولاية أذربيجان وما جاورها، بفعل صراع أمراء الأطراف، إلى تجرؤ حكام الكرج النصارى، فأغاروا على بلاد المسلمين في عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م)، فتصدَّى لهم طغرل، أخو السلطان محمود، إلا أنه انهزم أمامهم، وتوغل الكرج داخل الأراضي الإسلامية وأمعنوا قتلاً وتخريباً وتدميراً للممتلكات، وبلغوا مدينة شماخي[3] وحاصروها حتى عام (٥١٤هـ/ ١١٢٠م) وأجبروا أهلها على الاستسلام لهم.

ولجأ الناس إلى السلطان محمود في عام (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) مستصرخين، فاستجاب لهم، وغادر عاصمته همذان في طريقه إلى أذربيجان لقتال الكرج وإخراجهم من الأراضي الإسلامية، وأقام في مدينة تبريز قبل أن ينطلق للاصطدام بهم، وانضم إليه أهل شروان[4]، كان الموقف شديداً على المسلمين بفعل شدة مراس الكرج حتى أشار الوزير شمس الملك عثمان بن نظام الملك على السلطان بالعودة، فناشده أهل شروان البقاء حتى لا تضعف نفوس المسلمين.

وحدت أن تعرَّض الكرج آنذاك لهجمات قبائل القبجاق في الشمال، فدبَّت

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٧٠٦ ـ ٧٠٨. الزهراني: ص٥١.

(٢) المصدر نفسه: جـ٩ ص١٥، ١٦.

(٣) **شماخي**: مدينة عامرة وهي قصبة بلاد شروان في طرف أرَّان، تُعد من أعمال باب الأبواب. الحموي: جـ٣ ص٣٦١.

(٤) **شروان**: مدينة من نواحي باب الأبواب الذي تسميه الفرس الدربند. المصدر نفسه: جـ٣ ص٣٣٩.

الفوضى في صفوفهم، واختل توازنهم واضطروا إلى الانسحاب من الأراضي الإسلامية، وكفى الله المؤمنين القتال. وأقام السلطان مدة في شروان ثم عاد إلى همذان فوصل إليها في (جمادى الآخرة ٥١٧هـ/ تموز ١١٢٣م)[1].

العلاقة مع الصليبيين

ظهور عماد الدين زنكي: شكَّلت سياسة السلاجقة العامة من أجل السيطرة على العراق، وانهماكهم في حروب داخلية مستمرة؛ عاملاً كبيراً في إضعاف قوتهم وتشتيت جهودهم التي كان يجب أن يبذلوها في الحروب الصليبية، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحتلون المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، كما أن تلك النزاعات المستمرة أدَّت إلى فتور روح الجهاد، وإضعاف الشعور الديني عند العراقيين بعامة والبغداديين بخاصة[2]؛ لذلك اعتمد حكام السلاجقة على أمراء الأطراف لمواجهة الصليبيين وبخاصة أمراء الموصل والجزيرة الفراتية.

كان والد عماء الدين زنكي، قسيم الدولة آقسنقر الحاجب، أحد قادة السلطان ملكشاه السلجوقي، ومن أعيان دولته، وأكابر أمرائه، وأخص أوليائه، واعتمد عليه في أموره كلها، وكافأه السلطان في عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) بمنحه حكم حلب، ولكن آقسنقر لم يلبث أن قُتل في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) في صراعه مع تُتُش، أخي السلطان ملكشاه، وابنه في العاشرة من عمره، فالتفَّ حوله مماليك والده وأصحابه[3].

نشأ عماد الدين زنكي بعد وفاة والده، نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان، ودخل في خدمة أتابكة الموصل جاولي، ثم البرسقي، وتقرَّب من السلطان محمود، فزوَّجه أرملة كنتغدى، وهو أحد كبار أمرائه[4]، وأقطعه البصرة في عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، وعينه شحنة على العراق في (ربيع الآخر ٥٢١هـ/ نيسان ١١٢٧)، وهو المنصب الذي جعل منه رقيباً على الخليفة العباسي، بالإضافة إلى ما بيده من الولايات[5]،

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص٦٨٩.

(٢) من الأمثلة التي تُظهر ضعف العامل الديني أنه في أوائل عام (٥٠٤هـ/ ١١١٠م) تجهَّز جماعة من سكان بغداد من الفقهاء وغيرهم، ومنهم الواعظ والمحدث والعالم بالقراءات علي بن عبيد الله الذغواني، للخروج إلى بلاد الشام، من أجل الجهاد وقتال الصليبيين، حين بلغهم أنهم استولوا على مدن عديدة، مثل صيدا وغيرها، ثم عاد أغلبهم حين بلغهم كثرة الصليبيين. ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية: جـ١٢ ص١٧٢.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص١٥.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٧. (٥) ابن خلكان: جـ٢ ص٣٢٧.

وأتابكاً لولديه، ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي، ومنذ ذلك الوقت أطلق عليه لقب أتابك[1].

قضى عماد الدين زنكي في منصبه الجديد مدة خمسة أشهر قبل أن يعهد إليه السلطان في (رمضان/أيلول) بولاية الموصل والجزيرة الفراتية وما يفتحه من بلاد الشام، وكلَّفه بالتصدي للصليبيين[2]. وبتوليته الموصل، أُتيحت له فرصة نادرة لتحقيق طموحه، وإشباع نزعته الاستقلالية التي بدأت تبرز مع تدرجه في المناصب الإدارية والعسكرية، وباعتلائه سدة الحكم في الموصل قامت الدولة الزنكية على يديه.

موقف عماد الدين من الصليبيين في بداية حكمه: لم يمارس عماد الدين زنكي، في بداية حكمه للموصل، أي نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يُثبِّت أقدامه في إمارته الجديدة، ويُعزِّز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية، ويُوحِّد ما أمكنه من الإمارات الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام إلى الحد الذي يُمكِّنه من التصدي لهم.

ولعل ما يدل على بُعد نظره في هذا الصدد أنه وقَّع هدنة مع جوسلين الثاني أمير الرها لمدة سنتين، أخذ أثناءها يوطد سلطانه في بلاد الشام[3]، لم تُشر المصادر إلى شروطها، إلا أن ابن الأثير يذكر أنها تمَّت على ما اختاره عماد الدين زنكي، وهي خضوع المناطق الإسلامية من بلاد الشام بما فيها حلب لسيطرته[4]، ويبدو أن المشكلات التي واجهت صاحب الرها آنذاك[5] اضطرته إلى قبول هدنة لصالح عدوه المسلم.

كان هدف عماد الدين زنكي من عقد الهدنة التفرغ لضمِّ حلب إلى أملاكه واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام[6]، وقد نجح في تحقيق هذا الهدف[7]،

---

(١) ابن خلكان: جـ٢ ص٣٢٨.
(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٤.
(٣) رنسيمان: جـ٢ ص٢٩١.
(٤) التاريخ الباهر: ص٣٧؛ نيكلسون، روبرت: تطور الدويلات اللاتينية (١١١٨ ـ ١١٤٤م) فصل في كتاب الحروب الصليبية، بإشراف كينيث سيتون، الجزء الأول، ترجمة عبد الرحمٰن محمد المغربي ص١١٧.
(٥) لعل أهم المشكلات التي كان يواجهها جوسلين الثاني ضغط سلاجقة الروم بالإضافة إلى أنه اتصف بالجبن، لم يمتلك شيئاً من عزيمة والده جوسلين دي كورتناي وحماسته وشجاعته.
(٦) ابن الأثير: جـ٣٧.
(٧) ضمَّ عماد الدين زنكي مدينة حلب في (جمادى الآخرة ٥٢٢هـ/ حزيران ١١٢٨م). ابن العديم جـ٢ ص٤٣٧.

وانطلق بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وإمارات محلية متناثرة.

وحدث في عام (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) أن اجتازت إمارة أنطاكية الصليبية ظروفاً صعبة كادت تنتهي بسقوطها في يد عماد الدين زنكي أو بخضوعها لطاعته على الأقل، ذلك أن أميرها بوهيموند الثاني كان يطمع في أن يضم لإمارته كل البلاد التي كانت تشملها، والمعروف أن سلطة أنطاكية في كيليكية قد تداعت في حين لا زالت طرسوس[1]، وأذنة[2] بيد الصليبيين. واستطاع الأمير الأرمني ثوروس الأول (٤٩٣ ـ ٥٢٣هـ/ ١١٠٠ ـ ١١٢٩م) أن يؤسس إمارة أرمنية قوية في هذه المنطقة، وانتزع من البيزنطيين سيس[3]، وعين زربة[4]، واتخذ الأولى حاضرة له[5]، لكن ثوروس توفي في عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م) ثم لحق به ابنه قسطنطين بعد بضعة أشهر نتيجة لما حدث في البلاط الأرمني من مؤامرات، فخلفه عمه ليون الأول، ما جعل الإمارة الأرمنية تعاني كثيراً من المطامع الخارجية والمتاعب الداخلية[6].

وجاء الخطر الكبير الذي هدَّد الإمارة من جانب الأمير إيلغازي الدانشمندي صاحب ملطية[7] من ناحية الشمال الذي امتدت أملاكه إلى جبال طوروس، ومن جانب بوهيموند الثاني صاحب أنطاكية من الجنوب الذي اعتقد أنه حان الوقت لاستعادة عين زربة، فسار إليها في (ربيع الأول ٥٢٤هـ/ شباط ١١٣٠م). وإذ ارتاع ليون، لم يسعه إلا التماس المساعدة من الأمير الدانشمندي، ولم يلبث أن تقابل الخصمان، الأتراك والنورمان، في سهل عين زربة، انتصر فيها إيلغازي وقُتل بوهيموند الثاني مع جميع رجاله[8].

كان بوهيمند الثاني قد رُزق من زوجته أليس ابنة هي كونستانس، ولم تكن قد تجاوزت آنذاك الثانية من عمرها، فبادرت أليس إلى تولي شؤون الوصاية على

---

(١) **طرطوس**: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم ويشقها نهر البردان. الحموي: جـ٤ ص٢٨.
(٢) **أذنة**: بلد بالثغور قرب المصيصة. المصدر نفسه: جـ١ ص١٣٢، ١٣٣.
(٣) **سيس أو سيسية**: أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة. المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٩٧.
(٤) **عين زربة**: بلد بالثغر من نواحي المصيصة. المصدر نفسه: جـ٤ ص١٧٧.
(٥) رنسيمان: جـ٢ ص٢٩٢.
(٦) Iorga, N: L'Armenie Cilicienne pp 92, 93.
(٧) **ملطية**: بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام. الحموي: جـ٥ ص١٩٢.
(٨) وليم الصوري: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ٢ ص٦٤٨ ـ ٦٥٠.

أنطاكية بنفسها من دون أن تنتظر ما قد يقوم به والدها بلدوين الثاني ملك بيت المقدس من تعيين وصي بوصفه سيداً أعلى على الصليبيين في الشرق. وعندما هرع إلى الشمال فور سماعه نبأ مصرع بوهيموند الثاني ليعين وصياً على الإمارة، وجدت أليس نفسها في موقف حرج ما اضطرها إلى الاستعانة بعماد الدين زنكي، لكن التعاون بينهما لم يتم بفعل إلقاء القبض على الرسول الذي بعثته إليه.

ويُوضِّح مثل هذا التصرف مدى ما كان لعماد الدين زنكي من نفوذ في المنطقة، وهو ما جعل الملك بلدوين الثاني يُسرع إلى أنطاكية عندما سمع بهذه الأخبار السيئة[١].

فتح الأثارب[٢]

لم تكد سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) تنتهي حتى كان عماد الدين زنكي قد أنهى معظم مشكلاته وحروبه ضد أمراء دياربكر، وامتدت سيادته المطلقة على بلاد الشام حتى جنوبي حمص، فانتهز فرصة اختلال أوضاع أنطاكية وقرر البدء بمهاجمة المواقع الصليبية مستهدفاً أدناها وأشدها خطراً على كيانه السياسي في حلب، فخرج على رأس جيشه وعسكر أمام الأثارب الذي فقده رضوان بن تتش في عام (٥٠٤هـ/ ١١١٠م) وهو أمنع الحصون الصليبية المتاخمة لحلب حيث دأب الصليبيون على مضايقة الحلبيين، وكانوا يقاسمونهم أعمالها الغربية كافة، ويقومون بغارات مستمرة عليهم، وقد حشدوا فيه خيرة فرسانهم نظراً لخطورة موقعه وأهميته بالنسبة لأهدافهم في المنطقة[٣].

ارتأى عماد الدين زنكي بعد وقوفه على الوضع العسكري أن يخوض المعركة بعيداً عن الحصن، ففكَّ الحصار عنه، وابتعد من أمامه، فتبعه الصليبيون الذين فقدوا بهذه الحركة عنصري القوة والحماية اللذين كان سيوفره لهم، واصطدم الطرفان في رحى معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين ومصرع عدد كبير من عساكر الصليبيين، ووقع في الأسر من بقي حياً[٤].

توجَّه عماد الدين زنكي بعد المعركة إلى الحصن ودخله عنوة وأسر أفراد حاميته، ثم أمر بتخريبه كي يقطع على الصليبيين كل أمل باستعادته واتخاذه قاعدة تُهدِّد أمن

---

(١) وليم الصوري: جـ٢ ص٦٥٠.
(٢) **الأثارب**: قلعة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب ثلاثة فراسخ. الحموي: جـ١ ص٨٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٢٢.
(٤) المصدر نفسه.

المسلمين في حلب[١]، ثم تقدم نحو حارم[٢] الواقعة على طريق أنطاكية، وضرب الحصار عليها، فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم، والتمسوا مهادنته، فأجابهم إلى ذلك ثم قفل عائداً إلى حلب[٣]، ليستعد لجولة أخرى مع الصليبيين، وقد ذاعت شهرته على أنه بطل المسلمين في جهادهم ضد الصليبيين[٤].

وفاة السلطان محمود

توفي السلطان محمود في (٢١ شوال ٥٢٥هـ/ ١٦ أيلول ١١٣١م) بهمذان، وكان قد ألَمَّ به مرض أثناء عودته من بغداد[٥]، ويذكر البنداري أن وزيره قوام الملك الدركزيني سمَّه في طعامه، علماً أنه كان قد سجنه بفعل دسائسه، وأحلَّ محله شرف الدين أنوشروان بن خالد الكاشاني ثم أطلقه بأمر من السلطان سنجر، وأعاده إلى الوزارة[٦].

كان عمر السلطان عندما توفي سبعة وعشرين عاماً، وحكم اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، وكان حليماً، كريماً، عاقلاً، يسمع ما يكره ولا يُعاقب عليه مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا، عفيفاً عنها، كافًّا لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها، ولم يكن أحد من آل سلجوق أكثر منه اتزاناً، ولا أوسع إدراكاً، ولا أحسن وقوفاً على دقائق الأمور[٧]، وخلف من الأولاد: محمد وملكشاه وداوود، ولم يلِ أحد منهم السلطنة، إنما كانوا ملوكاً[٨].

ذيول وفاة السلطان محمود

نجم عن وفاة السلطان محمود قيام الصراع على السلطة بين الأمراء السلاجقة، ودخلت الدولة السلجوقية في العراق على إثره في حال شديدة من الفوضى والاضطراب، فقد انقسم الأمراء إلى ثلاث فئات لكل فئة أطماعها الخاصة ومؤيدين من قادة الجند.

ترأس الفئة الأولى داود بن السطان محمود، الذي نودي به سلطاناً عقب وفاة

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٩، ٤٠.
(٢) **حارم**: حصن وكورة تجاه أنطاكية. الحموي: جـ٢ ص٢٠٥.
(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص٤٢.
(٤) Stevenson: pp 128, 129.
(٥) الراوندي: ص٢٩٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٢٩، ٣٠.
(٦) تاريخ دولة آل سلجوق: ص٢٨٤.
(٧) الراوندي: ص٣٠٠. ابن الأثير: جـ٩ ص٢٩، ٣٠.
(٨) الحسيني: ص٩٩.

والده، وخطب له في بلاد الجبل كلها وأذربيجان، وسانده الوزير أبو القاسم وأتابكه آقسنقر الأحمديلي[١].

وتزعم الفئة الثانية كل من مسعود وسلجوقشاه، شقيقا السلطان المتوفى، وقد جمعتهما مصلحة مشتركة هي عزل ابن أخيهما داود إلا أنهما كانا مختلفين، إذ أن كلاً منهما كان يسعى جاهداً على أن تكون السلطة له بعد إسقاط خصمه داود، ويرى في نفسه الأحقية والأهلية في عرش السلطنة.

وكان على رأس الفئة الثالثة طغرل بن السلطان محمد، يسانده عمه السلطان سنجر.

كان مسعود آنذاك في جرجان، فغادرها إلى تبريز واستولى عليها، فلما علم داود، وكان في زنجان، خرج لملاقاته وحاصره في تبريز، وجرى قتال بينهما انتهى بالصلح في (محرم ٥٢٦هـ/كانون الأول ١١٣١م)[٢]، غير أن كلاً منهما، من واقع رغبته في السلطنة، كان يأمل في أن يحصل على اعتراف الخليفة العباسي المسترشد، لذلك غادر مسعود تبريز متوجهاً إلى بغداد من أجل هذه الغاية، ووصلت في الوقت نفسه رسل داود للغرض نفسه[٣].

كان من الطبيعي أن يعمد الخليفة إلى اغتنام الفرصة لتعميق الخلاف بين السلاجقة وضربهم بعضهم ببعض لإضعافهم، فأجابهما أن الحكم في الخطبة إلى السلطان سنجر، من أراد خُطب له، وأرسل إلى السلطان يطلب منه أن لا يأذن لأحد في الخطبة التي ينبغي أن تكون له وحده، فاستحسن السلطان موقفه[٤].

والواقع أن الخليفة، لم يكن يهمه لمن تكون الخطبة من الأمراء السلاجقة، بل الذي يهمه هو التخلص من هذا الحكم الرابض على صدره من خلال توجيه أنظار الأمراء السلاجقة اللاهثين وراء السلطة إلى السلطان سنجر، وإيقاعهم في خضم المنافسة الشديدة على رئاسة البيت السلجوقي، وهذا تفكير سليم، لكن تصرفه هذا هو دعوة للسلاجقة إلى أن يتحدوا تحت زعامة واحدة، وهي دعوة غير مقصودة بطبيعة الحال؛ لأن الخليفة كان يقف على عمق النزاعات الداخلية للسلاجقة، وأن دعوته تصبُّ في صالح الخلافة بهدف استرداد هيبتها، وقد نجح في بلوغ هدفه، فتشتَّتَت وحدة السلاجقة، من خلال قيام النزاعات الدامية بين الأمراء، وتهيأ الجو للخلافة للسيطرة على زمام الأمور[٥].

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٣، ٣٤. الحسيني: ص١٠٣.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٣٤. (٤) المصدر نفسه.
(٥) أمين، حسين: تاريخ العراق في العصرالسلجوقي ص١٠١، ١٠٢.

ومهما يكن من أمر، فقد واجه مسعود منافساً آخر هو أخاه سلجوق شاه، وجرت بينهما حروب التمس خلالها مسعود المساعدة من عماد الدين زنكي للاستفادة من قدراته العسكرية، وكان هذا قد استطاع أن يوطِّد سلطانه في شمالي العراق وبلاد الشام، ووعده بتقليده مدينة إربل الحصينة الواقعة شرق الموصل، وتمَّ الاتفاق بينهما على أن يتوجَّه عماد الدين زنكي إلى بغداد، ويطلب من الخليفة تحت الضغط العسكري أن يقيم الخطبة لمسعود، ويعترف به سلطاناً على العراق، فوعده بالمساعدة، لكن حدث أن سبق سلجوق شاه أخاه مسعوداً إلى بغداد بصحبة أتابكه قراجة الساقي، صاحب فارس وخوزستان، في جيش كبير، وطلب من الخليفة أن يخطب باسمه، فرفض الخليفة الاستجابة لطلبه. وعلم في غضون ذلك بتقدم عماد الدين زنكي على رأس قواته باتجاه بغداد لفرض سلطة مسعود، فرأى في ذلك تحدياً لسلطته، وكان يجاهد للانعتاق من الطوق السلجوقي وانتزاع استقلالية القرار العباسي، لذلك توجَّه إلى تكريت[١] لإيقاف تقدمه. والتقت قواتهما عند قصر المعشوق على الجهة المقابلة لسامراء، وانتهى اللقاء بهزيمة واضحة لعماد الدين زنكي، وأسر عدد كبير من قواته، فانسحب من أرض المعركة إلى تكريت فآواه حاكمها نجم الدين أيوب، وسهَّل له سبل عودته إلى الموصل[٢].

كان السلطان سنجر يراقب تطور الأحداث السياسية والعسكرية في العراق بهدف انتهاز فرصة للتدخل والهيمنة على مقدرات الأمور وإخضاع سلاجقة العراق لإشرافه المباشر، وحتى يُدعم موقفه ويحقق مزيداً من طموحه استقطب كلاً من عماد الدين زنكي ودُبيس بن صدقة، وطلب منهما التوجُّه إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة له ولخليفته طغرل بن السلطان محمد على منابرها، وتعهَّد بإضافة شحنة بغداد إلى عماد الدين زنكي، وبإقطاع الحلة لدُبيس بن صدقة، علماً بأن الخطبة كانت قد قطعت باسم السلطان سنجر في العراق بعد وفاة السلطان محمود بسبب محاولة فرض مرشحه طغرل سلطاناً على العراق[٣].

أدرك كل من مسعود وسلجوق شاه أن الصراع بينهما سوف يتيح الفرصة لتدخل عمهما السلطان سنجر ويقضي على مصالحهما في العراق، فعقدا صلحاً بينهما

(١) **تكريت**: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل وهي إلى بغداد أقرب. بينهما ثلاثون فرسخاً، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة. الحموي: جـ٢ ص٣٨.
(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٤، ٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٤ ـ ٣٦. ابن الجوزي: جـ١٠ ص٢٦.

وتفاهماً مع الخليفة الذي خشي من مخططات السلطان السلجوقي سنجر، وذلك على الأمرين التاليين:

- توحيد جهودهما لقتال السلطان سنجر.

- يكون العراق لوكيل الخليفة، وتكون السلطنة لمسعود، ويكون سلجوق شاه ولي عهده[1].

وعاد مسعود وسلجوق شاه بعد توقيع الاتفاق إلى بغداد فنزل الأول بدار السلطنة، ونزل الثاني في دار الشحنة، وكان اجتماعهما في (جمادى الأولى ٥٢٦هـ/ نيسان ١١٣٢م)[2].

وتوجَّه السلطان سنجر بصحبة طغرل من الري إلى همذان في طريقه إلى بغداد لفرض مرشحه، فخرج مسعود وسلجوق شاه ومعهما قراجة الساقي للتصدي له ووقف تقدمه، وتأخر الخليفة في الخروج، وعندما وصل الخليفة إلى خانقين[3]، وعلم باقتراب عماد الدين زنكي ودُبيس بن صدقة من بغداد، اشتبك معهما في (أواخر رجب/ منتصف حزيران)، وانتصر عليهما، فتراجع عماد الدين زنكي إلى الموصل، وقام دُبيس بن صدقة بمحاولة فاشلة لاستعادة الحلة[4].

وتعرَّضت قوات مسعود وسلجوق شاه للهزيمة أمام قوات السلطان سنجر بالقرب من مدينة دينور[5]، ونجح السلطان في تثبيت ابن أخيه طغرل سلطاناً على سلاجقة العراق، وخطب له في جميع البلاد[6].

وقبل أن يغادر طغرل خراسان إلى العراق لاستلام منصبه، ثار عليه داود بن السلطان محمود، إلا أنه تمكَّن من هزيمته، وهرب داود إلى بغداد، كما انسحب مسعود بعد هزيمته إلى بغداد أيضاً، وطلب من الخليفة أن يخطب له بالسلطنة فأجابه إلى طلبه، كما خطب لداود من بعده[7].

ثم اتفق الجميع على تجهيز جيش لمحاربة طغرل بقيادة مسعود وداود، على أن

(١) ابن الجوزي: جـ١٠ ص٢٥. ابن الأثير: جـ٩ ص٣٥.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٣) **خانقين**: بلدة من ناحية السواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال. الحموي: جـ٢ ص٣٤٠.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٤٥، ٤٦.

(٥) **دينور**: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين، بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخاً. الحموي: جـ٢ ص٥٤٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٩ ص٣٦، ٣٧.

(٧) المصدر نفسه: ص٤٠.

يساهم الخليفة في تجهيزه، وتقدم هذا الجيش إلى مراغة، واستولى مسعود على كامل أذربيجان، واشتبك مع طغرل في معارك عدة تمكَّن بنتيجتها من الاستيلاء على همذان وأصفهان، وراح يتعقَّب آثار أخيه طغرل الذي ولَّى هارباً تاركاً لمسعود احتلال المدن الواحدة تلو الأخرى[1].

ووُجد على الساحة السياسية في عام (٥٢٧هـ/ ١١٣٣م) ثلاثة سلاطين سلاجقة هم:

- السلطان سنجر، وهو كبير الأسرة السلجوقية وعميدها.

- السلطان طغرل، الذي أجلسه عمه السلطان سنجر على عرش السلاجقة في العراق وخطب له على منابرها.

- السلطان مسعود، الذي خطب له الخليفة على منابر بغداد.

وتجدَّد القتال بين مسعود وطغرل في عام (٥٢٨هـ/ ١١٣٤م) واستولى طغرل على بلاد الجبال وأجلى جيوش أخيه مسعود عنها، ثم توجَّه إلى قزوين في طريقه إلى بغداد، ولما همَّ مسعود لمواجهته تعرَّض لانقسام أمرائه، وكان طغرل قد استقطب بعضهم، وبقي مسعود في قلة من جنده فولَّى هارباً، وأرسل إلى الخليفة يستأذنه في دخول بغداد، وكان نائبه في أصفهان البقش السلاحي ومعه سلجوق شاه قد غادرا إلى بغداد بعد سماعهما نبأ الهزيمة، في حين أقام طغرل في همذان[2].

وفي (محرم ٥٢٩هـ/ تشرين الأول ١١٣٤م) توفي طغرل وهو في طريقه إلى بغداد[3]، فلما علم مسعود بذلك خرج إلى همذان واستولى عليها وتولى الحكم بها، وآلت إليه سلطنة العراق وكردستان وأذربيجان من دون منازع[4].

أدَّى هذا الحال من النزاعات والحروب الداخلية بين الأمراء السلاجقة إلى تحطيم قوتهم، وأبعدتهم عن وحدة الصف وعن الانصراف إلى ما كان يواجه العالم الإسلامي من مشكلات، وبخاصة القضية الصليبية التي حمل أمراء الأطراف عبأها.

(١) الراوندي: ص٣٠٦.

(٢) ابن الجوزي: جـ١٠ ص٣٦. ابن الأثير: جـ٩ ص٥٧.

(٣) الحسيني: ص١٠٥.

(٤) ابن الأثير: جـ٩ ص٥٧، ٥٨.

السلطان مسعود

(٥٢٩ - ٥٤٧هـ/ ١١٣٤ - ١١٥٢م)

علاقته مع الخلافة العباسية

كانت علاقة السلطان مسعود مع الخلافة العباسية سيئة إجمالاً، ففي عام (٥٢٨هـ/ ١١٣٤م) حصلت نفرة بينه وبين الخليفة المسترشد بسبب اكتشاف وزير الخليفة خطاباً أرسله طغرل إلى بعض الأمراء الموالين للخليفة في بغداد يعدهم بالإقطاع إن وقفوا إلى جانبه، فقبض الخليفة على أحدهم ويُدعى أغلبك ونهب ماله، فخشي باقي الأمراء على أنفسهم فهربوا إلى السلطان مسعود واحتموا به، فأرسل الخليفة إليه يطلب منه إعادتهم فلم يفعل، فكان رد الفعل المباشر من الخليفة أن قطع الخطبة له في بغداد، وأمره بالرحيل عنها، فخرج في شهر (ذي الحجة/ أيلول)[١].

وما حدث في غضون ذلك من زحف طغرل على رأس جيشه إلى العراق، أجبر الخليفة على مصالحة السلطان مسعود ليقفا سوياً في وجه عدوهما المشترك[٢].

وعندما استقرت السلطنة لمسعود، فارقه بعض الأمراء، وعلى رأسهم يرنقش، بسبب الصراع بينهم على النفوذ وقد خشوا من غدره بهم، والتحقوا بخدمة الخليفة، وراحوا يُحرِّضونه على محاربته، فانصاع لرأيهم وتجهز للحرب، وساروا معه لقتاله.

ويبدو أن الخليفة خشي مغبة الحرب، فتريث في زحفه وعسكر بالشفيعي، لكن الأمراء حثُّوه على سرعة الخروج وهوَّنوا عليه أمر السلطان مسعود، فسار في (شعبان ٥٢٩هـ/ أيار ١١٣٥م) على رأس جيش بلغ تعداده سبعة آلاف مقاتِلٍ ودخل إيران[٣].

كان السلطان مسعود آنذاك في همذان، فلما علم بزحف الخليفة خرج منها على رأس ألف وخمسمائة فارس، واستقطب أمراء الأطراف فانضموا إليه فأضحى عدد أفراد جيشه خمسة عشر ألفاً، وتسلَّل إليه جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٥٧. (٢) ابن العمراني: ص٢١٨.
(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٦٢.

معه خمسة آلاف، ومع ذلك تابع زحفه حتى وصل إلى دايمرج في طريق همذان من حلوان، معتقداً أنه إذا برز للقتال فسيكون الناس إلى جانبه ضد السلاجقة، لكن الأمور لم تجر على نحو طيب وفق ما خطَّط له، فعندما التقت قواته بقوات السلطان مسعود في دايمرج في (١٠ رمضان/ ٢٤ حزيران) تعرَّض للهزيمة ووقع أسيراً في يد خصمه[١].

وأرسل السلطان مسعود بعد انتهاء المعركة بك آبه إلى بغداد، فاستولى على أملاك الخليفة، وعندما تواترت أنباء أسر الخليفة إلى مسامع البغداديين ثارت العامة وقاتلت شحنة بغداد السلجوقي[٢].

شكَّل أسر الخليفة حدثاً مهماً دفع السلطان سنجر إلى إرسال كتاب إلى السلطان مسعود يأمره بأن يعتذر له ويُقدم له فروض الولاء والطاعة، ويسأله العفو، ففعل ذلك وأفرج عنه في (١٥ ذي القعدة/ ٢٧ آب) إلا أنه اشترط عليه أن يعوضه بالمال ويتعهد بعدم محاربته وأن لا يخرج من داره، وتدل هذه الظاهرة على استمرار نفوذ السلطان سنجر وقوته، لكن الخليفة الذي نُصبت له خيمة منفردة عن عسكر السلطان مسعود تعرَّض لهجوم الحشيشية وقُتل نتيجة ذلك، في (١٧ ذي القعدة/ ٢٩ آب) على باب مراغة[٣]، وتدل قرائن الحادثة على تورط سلجوقي[٤].

أُخذت البيعة، بعد وفاة الخليفة المسترشد، لابنه أبي جعفر المنصور الملقب بالراشد بالله (٥٢٩ - ٥٣٠هـ/ ١١٣٥ - ١١٣٦م) في (٢٧ ذي القعدة/ ٨ أيلول)[٥] بموافقة السلطان مسعود، وقد طلب منه بعد توليه الخلافة أن يدفع المبلغ الذي سبق أن تعهد والده المسترشد بدفعه عند إجراء الصلح معه، وهو مبلغ أربعمائة ألف دينار، فامتنع عن أداء ذلك بحجة أنه لا يملك شيئاً وأن المال جميعه الذي كان مع المسترشد قد نُهب، واستشار كبار رجال دولته في موقفه هذا من السلطان، فأشاروا عليه بمحاربته، عندئذٍ ردَّ عليه قائلاً: «ليس بيننا إلا السيف» ومنع ذكر اسمه في الخطبة، وأخذ يجمع العساكر استعداداً للقتال، وقوي موقفه بما انضم إليه من حكام الولايات مثل: عماد الدين زنكي صاحب الموصل، ويرنقش صاحب قزوين، والبقش الكبير صاحب أصفهان بالإضافة إلى داود بن السلطان محمود الذي أقام

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٦٣. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه. ويذكر الحسيني أن حادثة القتل حصلت في ١٤ ذي الحجة. أخبار الدولة السلجوقية ص١٠٧.
(٤) البنداري: ص٣٠٠. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن: تاريخ الخلفاء ص٣٣١.
(٥) ابن الأثير: جـ٩ ص٦٥. الحسيني: ص١٠٨.

الخطبة باسمه، فتأكدت الوحشة بينه وبين السلطان ووصلت إلى نقطة اللاعودة، ولم يبق إلا السيف حكماً بينهما[١].

وخرج الخليفة إلى ظاهر بغداد، ومشى الجيش بين يديه، وقد بلغ تعداده ثلاثين ألف جندي، ما شجَّعه على المضي في الحرب للأخذ بثأر والده. وعندما علم السلطان مسعود بعزم الخليفة سار بجيشه إلى بغداد لقتاله، ولما وصل إليها حاصرها من الجانب الشرقي، وراح الخليفة يُشجع حلفاءه ويقوي من عزائمهم، ووصلت إلى السلطان في غضون ذلك إمدادات عسكرية من واسط، فدبَّت الفوضى في عاصمة الخلافة، وأخذت تؤثر سلباً على موقف الخليفة. فقد هاجمت جماعة العيارين الدور والمحلات، فأُسقط في يد الخليفة، ونتج عن ذلك أن انسحب داود وعاد إلى بلاده أذربيجان، وتفرَّق باقي الأمراء بعد أن دبَّ الخلاف بينهم، فتحرج موقف الخليفة فعبر إلى الجانب الغربي، وسار مع عماد زنكي إلى الموصل. واتفق دخول السلطان مسعود إلى بغداد بعد رحيله في (٥ ذي القعدة ٥٣٠هـ/ ١٥ آب ١١٣٦م)، فاستحوذ على دار الخلافة وما فيها، واستخلص نساء الخليفة وحظاياه، واستولى على الحلي والمصاغ والثياب الخاصة بالزينة وغير ذلك، ثم جمع العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان وحملهم على أن يشيعوا بظلم الراشد، ونهبه الأموال، وسفكه الدماء، وشربه الخمر، فأفتوا بأنه يحق للسلطان خلعه واستبداله بغيره، فخلعه وولى مكانه الأمير أبا عبد الله بن المستظهر، ولقَّبه المقتفي لأمر الله (٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٦ - ١١٦٠م)[٢].

لم يقم الخليفة المخلوع مدة طويلة في الموصل بل سار إلى أصفهان، فوثب عليه هناك جماعة من الحشيشية وقتلوه على باب أصفهان في (رمضان ٥٣٢هـ/ أيار ١١٣٩م)[٣].

أساء السلطان مسعود منذ البداية معاملة الخليفة المقتفي، فاستولى على جميع ما كان في دار الخلافة من أموال وأثاث وخيل وبغال، وحظَّر على الخليفة شراء مماليك أتراك، ولهذا كان جميع غلمانه إما من الأرمن أو من الروم[٤].

وتعرَّض الخليفة بعد رحيل السلطان مسعود عن بغداد لمضايقات نائبه مسعود البلالي الذي اتصف بسخف العقل والرأي، ضعيف الدين بعيداً عن فعل الخير،

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص٦٥. الحسيني: ص١٠٨.
(٢) المصدران نفساهما: ص٧٥ - ٧٧. ص١٠٨.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٩٥. (٤) الحسيني: ص١٢٩.

بالإضافة إلى تصرفات أتباعه السيئة والمخالفة للدين، وكان الخليفة يكتب إلى السلطان شاكياً من نائبه ولكن من دون جدوى[١].

وعلى هذا الشكل كانت العلاقة بين الخليفة المقتفي وبين السلاجقة، غير أن الخليفة لم يتعجل بإعلان الثورة على الحكم السلجوقي المستبد، واستفاد من تجارب سلفيه المسترشد والراشد، فركن إلى الهدوء انتظاراً للوقت المناسب والظروف الملائمة مدركاً في الوقت نفسه أن الشجاعة وحدها لا تكفي لعلاج الموقف[٢].

وفي عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) تجدَّد النزاع بين الأمراء السلاجقة، وعاد الانقسام بين صفوفهم، فانتهز الخليفة هذه الفرصة وأسَّس جيشاً نظامياً خاصاً بالخلافة، واستعرضه في عام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) أي بعد مرور سنتين على تأسيسه.

وتعرَّضت بغداد في ذلك العام لدخول جماعة من الأمراء السلاجقة الذين نفروا من السلطان مسعود بفعل تفضيله الامير خاص بك عليهم، فخشوا على أنفسهم وفارقوه، فساروا إلى بغداد، ووصلوا إليها في (ربيع الآخر/ آب) ومعهم محمد بن السلطان محمود، فخشيهم الناس. وعمد الخليفة إلى تحصين مدينته، فأمر بحفر الخنادق «وشرع في عمارة سور المدينة، وألزم الأماثل[٣]، والتناء[٤]، والتجار وأعيان الرعايا القيام بما ينفق على العمارات من أموالهم على سبيل الفرض والمعونة»[٥].

والواقع أن العام المذكور شكَّل بداية انتعاش الخلافة العباسية نتيجة وعي الخليفة المقتفي وعجز السلطان مسعود من إخضاع أمراء الولايات الذين ثاروا عليه، وقد شغل أكثر أيام حكمه، ما أتاح للخليفة الفرصة لإصلاح أوضاع الدولة.

الأوضاع الداخلية في عهده

استمرت الاضطرابات الداخلية في دولة سلاجقة العراق في عهد السلطان مسعود، وشغلت معظم أوقاته. فقد خرج بعض الأمراء على حكمه مثل بوازبة صاحب فارس وخوزستان وعباس صاحب الري، وانضم إليهما محمد بن السلطان محمود وسليمان شاه أخو السلطان، وشكَّل هؤلاء حلفاً في عام (٥٤٠هـ/ ١١٤٦) واتفقوا على خلعه وتنصيب محمد بن السلطان محمود مكانه.

(١) الحسيني: ص١٢٩. (٢) الزهراني: ص٥٩.
(٣) الأماثل: أهل الفضل. (٤) التناء: كبار المزارعين.
(٥) ابن القلانسي: ص٤٩٦. ابن الجوزي: جـ١٠ ص١٣٧، ١٣٨. ابن الأثير: جـ٩ ص١٦١، ١٦٢.

كان السلطان مسعود آنذاك في بغداد، فنهض لمواجهة أعضاء الحلف، فخرج من المدينة في (رمضان/ شباط) واصطحب معه عبد الرحمٰن تغايرك، وهو أمير حاجب وحاكم الدولة إلا أنه كان يميل إلى قوى التحالف، ولما تقارب الجيشان انضم سليمان شاه إلى صفوف أخيه، وشرع عبد الرحمٰن في إجراء مفاوضات مع قوى التحالف الذين اشترطوا لتقرير الصلح ما يلي:

- ينال عبد الرحمٰن تغايرك بالإضافة إلى ما بيده ولايتي كنجه وأرَّان.
- تعيين أبي الفتح بن دارست وزيراً للسلطان مسعود، علماً بأنه كان وزيراً لبوازبة.
- إبعاد بك أرسلان بن بلنكري، المعروف بخاص بك، وهو ملازم السلطان ومربيه، عن الحياة السياسية.

إن قراءة متأنية للبنود المشار إليها تؤكد على ضعف السلطان مسعود أمام أمرائه الذين وضعوه في الحجر وجعلوه ألعوبة في أيديهم، ومع ذلك فقد وافق السلطان عليها وتمَّ الصلح في العالم التالي[1].

وحدث في عام (٥٤٠هـ/ ١١٤٦م) أن هاجم علي بن دُبيس الحلة للاستيلاء عليها، فتصدَّى له حاكمها محمد بن دُبيس، وهو أخوه، وجرى قتال بينهما انتهى بهزيمة محمد، ولم يُعر السلطان مسعود أهمية لهذا الحدث في بادىء الأمر ما دفع علياً إلى ضمِّ جمعٍ من غلمانه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم، فكثر جمعه، وقويت شوكته، فندَب السلطان أحد أمرائه في بغداد ويُدعى مهلهل لقتاله وردعه إلا أنه انهزم أمامه.

وأضحى علي بن دُبيس سيد الموقف في الحلة، فتصرف في إقطاعات الأمراء وخشيه شحنة بغداد، فتدخل الخليفة عندئذٍ للدفاع عن مدينته، فرتّب العساكر على السور لحفظه، وكتب إلى علي يطلب منه الكف عن أعماله الاستفزازية، ففعل، وسكنت الفتنة[2].

وفي عام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) تعرَّض السلطان مسعود لثورة أخرى قام بها عدد من الأمراء أمثال: إيلدكز المسعودي صاحب كنجه وأران، والبقش كون خر من بلاد الجبال، وتتر الحاجب، وهو من مماليكه، وطرنطاي المحمودي شحنة واسط، وألدكز، وقرقوب، وابن طغايرك وغيرهم من كبار الأمراء، وكان سبب ذلك ميل السلطان إلى الأمير خاص بك وإبعاده لهم، ففارقوه وساروا نحو العراق،

(١) الراوندي: ص٣٤٠. ابن الأثير: جـ٩ ص١٣٧، ويذكر أذربيجان بدل كنجه.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص١٣٧، ١٣٨.

واصطحبوا معهم محمد ابن السلطان محمود، فلما بلغوا حلوان[1] خاف الناس في بغداد وأعمال العراق. واتخذ الخليفة المقتفي إجراءات احترازية للدفاع عن عاصمته وتأمين الناس، من ذلك أنه أصلح سور المدينة ورقِّمه، وأرسل إلى الأمراء يدعوهم إلى العودة، إلا أنهم رفضوا دعوته وتابعوا تقدمهم حتى وصلوا إلى بغداد في (ربيع الآخر/أيلول) ونزلوا بالجانب الشرقي من المدينة، ولم يتمكَّن مسعود البلالي، شحنة بغداد، من مواجهتهم وفضَّل مغادرتها إلى إقطاعه في تكريت تاركاً المدينة تحت رحمة المحاصِرين.

شكَّل حصار بغداد من جانب الأمراء فرصة لكل طامع لتحقيق ما يرنو إليه، وكان علي بن دُبيس، صاحب الحلة، يطمع في اعتلاء منصب الشحنة، فسار على رأس قواته إلى المدينة ونزل بالجانب الغربي منها.

لم يكن أمام الخليفة بعد هذا التطور العسكري إلا أن يُجنِّد الأجناد للدفاع عن نفسه وعن عاصمته، ووقع في غضون ذلك قتال بين المحاصِرين وعامة أهل بغداد ومن بها من الجند، فتدخل الخليفة لإيقافه، وتمكَّن من إقناع الأمراء المحاصِرين بالإنسحاب إلى النهروان[2]، فنهبوها وأفسدوا فيها، وعاد مسعود البلالي إلى بغداد بعد انسحابهم[3].

الواقع أن الأوضاع الداخلية في بغداد بخاصة كانت سيئة في ظل حكم السلطان مسعود، فقد عمَّ الغلاء والقحط في البلاد سنين عديدة، وأهمل السلطان أمور الري، ففسدت الزراعة، وكان ذلك سبباً دفع العيارين في المدينة إلى أن ينشطوا سنة بعد سنة ويقوموا بأعمال السلب والنهب والاعتداء على الناس حتى كثر شرهم. فقد ثاروا في عام (٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) وارتكبوا أعمال النهب والقتل[4]، كما ثاروا بعد عامين، ففي (ذي الحجة ٥٣٢هـ/ آب ١١٣٨م) عظم أمر العيار بالعراق ابن بكران، فكثر أتباعه وصار يركب جهاراً في جمع من أتباعه المفسدين، فخافه والي بغداد الشريف أبو الكرم، فأمر ابن أخيه أبا القاسم حامي باب الأزج، أن يشتد عليه ويلبس سراويل الفتوة ليأمن شره، وكان يُكثر المقام في السواد ومعه رفيق له يُعرف بابن البزاز، فحاولا أن يضربا السكة باسميهما في الأنبار، فأرسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي إلى الوالي أبي الكرم يأمرانه بالتخلص منه، وكان ابن بكران

(١) **حلوان**: بلدة في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. الحموي: جـ٢ ص٢٩٠.
(٢) **النهروان**: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدُّها الأعلى متصل ببغداد. المصدر نفسه: جـ٥ ص٣٢٤، ٣٢٥.
(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص١٦١، ١٦٢. (٤) المصدر نفسه: ص٨٠.

يتردَّد على ابن أخيه، فدبر حيلة وقتله هناك وصلب رفيقه ابن البزاز[1].

وتفاقم أمر العيارين في عام (٥٣٨هـ/١١٤٣م) وازدادت تعدياتهم وقد أمنوا ملاحقة السلطة لهم بفعل تعاون ابن الوزير وابن قاورت، أخي زوجة السلطان، معهم، فأمر السلطان بمعاقبتهما، فهرب الأول وقبض الشحنة إيلدكز على الثاني وصلبه[2].

وفاة السلطان مسعود

توفي السلطان مسعود في همذان في (١ رجب ٥٤٧هـ/ ٢ تشرين الأول ١١٥٢م) وهو يدافع عن حكمه وعن دولته أمام الثورات المتلاحقة التي تعرَّضت لها، ودفن في المدرسة التي بناها جمال الدين إقبال الخادم الجاندار في محلة سر برزة[3]، وفقدت الدولة السلجوقية في العراق بوفاته شخصية قوية اتسمت بالحيوية والنشاط «ومات معه سعادة البيت السلجوقي، فلم يقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها»[4].

وكثر الطامعون في الحكم من بعده، وازدادت الفتن، وقوي نفوذ الأتابكة، وأخذت الخلافة العباسية تمسك بخيوط اللعبة السياسية، وتسير سريعاً نحو الاستقلال الفعلي عن دولة السلاجقة في العراق.

الأعوام الأخيرة من حياة دولة السلاجقة في العراق

ازداد نفوذ الأمراء والأتابكة بعد وفاة السلطان مسعود، وكان أقوى هؤلاء الأمير خاص بك بن بلنكري الذي أمسك بزمام الأمور، واعترف بملكشاه بن السلطان محمود سلطاناً جديداً في همذان بناء على وصية السلطان المتوفى[5]، وعندما وصل خبر الوفاة إلى بغداد هرب شحنتها مسعود البلالي إلى تكريت، وبسط نفوذه على الحلة، وهزم جيشاً أرسله السلطان الجديد. ومن جهته استولى الخليفة المقتفي على ممتلكات الشحنة، وصادر ممتلكات الأمراء السلاجقة في بغداد، ولكي يضمن ولاء موظفيه وتعاونهم عزل كل من ولّاه السلطان المتوفى، وعيَّن مكانهم موظفين يثق بهم، ثم جهَّز جيشاً استعداداً لما قد يطرا من مستجدات من قبل السلطان ملكشاه، ودعَّمه بعناصر من مماليكه الأرمن والروم وسماهم «الخيلية»[6]، وزاد من تحصينات

(١) ابن الجوزي: جـ١٠ ص٧٢. ابن الأثير: جـ٩ ص٩٦.
(٢) المصدران نفساهما: ص١٠٥. ص١٢٧، ١٢٨.
(٣) الراوندي: ص٣٥٤. الحسيني: ص١٢٢. (٤) ابن الأثير: جـ٩ ص١٨٦.
(٥) البنداري: ص٣٣٣. ابن الأثير: جـ٩ ص١٨٦.
(٦) البنداري: ص٣٣٨.

بغداد، وعيَّن الولاة في الولايات، وأرسل الجواسيس إلى مختلف الولايات بما يستجد من أمور في الوقت الذي كان فيه السلاجقة منهمكين في نزاعاتهم الداخلية من أجل السلطة[1]، وبعد أن اطمأن على قوته الذاتية نهض لاستعادة ولايات العراق وإعادة الوحدة إلى هذا البلد تحت سلطانه.

وأرسل السلطان ملكشاه في عام (٥٤٨هـ/١١٥٣م)، كعادة من سبقه من السلاطين السلاجقة، جيشاً إلى العراق بقيادة سلاركرد، وعندما وصل إلى الحلة قبض مسعود البلالي على قائده، وأغرقه في نهر الفرات، واستبدَّ بالبلد، فجهَّز الخليفة جيشاً بقيادة الوزير عون الدين بن هبيرة لحربه، فاستعاد الحلة، ثم لحق الخليفة بجيشه على رأس جيش آخر، ونجح هذان الجيشان في هزيمة مسعود البلالي الذي فرَّ إلى تكريت، ثم لحق بهمذان مستصرخاً. وملك الخليفة العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان ومن حد تكريت إلى عبَّادان، وأقطع الولايات، وأضاف إلى الوزير جميع ما كان لوزير السلطان وأرباب مناصبه في جميع هذه البلاد ونعته بتاج الملوك فلك الجيوش[2].

لم يكن السلطان ملكشاه على قدر المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه، فانصرف إلى اللهو والشراب ومعاشرة النساء ما دفع خاص بك إلى عزله، واعتقله بمرج همذان بعد ثلاثة أشهر من اعتلائه منصب السلطنة، واستدعى أخاه محمداً، وكان في خوزستان وأجلسه على عرش السلاجقة، وذلك في أواخر (٥٤٨هـ/١١٥٣م)، لكن هذا دبَّر مؤامرة بمساعدة بعض الأمراء الذين يكنون الكراهية لخاص بك، وتخلَّص منه، وظن أن بعمله هذا يكسب ثقة كل الأمراء النافرين منه، لكن النتيجة جاءت عكسية، إذ فَقَدَ هؤلاء ثقتهم به، فثاروا ضده وحاولوا عزله[3].

كان موقف السلطان محمد من الخلافة العباسية مماثلاً لموقف أخيه السلطان ملكشاه المعزول، فقد اجتمع عنده الأمراء الذين منح الخليفة إقطاعاتهم لوزيره عون الدين بن هبيرة، وحرَّضوه على محاربته واستعادة هيبة السلاجقة.

ويبدو أن الخليفة المقتفي أراد أن يستفيد من انقسام أمراء البيت السلجوقي إلى أقصى حد، فنصَّب في (محرم/آذار) سليمان شاه بن محمد سلطاناً على السلاجقة، وكان ينزل عليه ضيفاً، واستحلفه على التزام الطاعة والإخلاص للخليفة، واتفق معه على أن لا يتعرض للعراق التي ستكون تحت حكم الخليفة المباشر، في حين يكون له ما يفتحه من بلاد خراسان، وخلع عليه الخليفة خِلع السلطنة وخُطب له ببغداد

(١) البنداري: ص٣٣٨. (٢) المصدر نفسه: ص٣٣٧.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٣٤، ٣٣٥.

ولُقِّب بلقب أبيه: غياث الدنيا والدين[(١)].

كذلك عقد الخليفة المقتفي اتفاقاً مع السلطان السلجوقي المخلوع ملكشاه أخي السلطان سليمان، وكان قد فرَّ من معتقله، واستقر بخوزستان، واستحلفه لسليمان وجعله ولياً لعهده، ثم أمدهما بالمال والسلاح والجند وسيَّرهما لقتال السلطان محمد[(٢)].

توجَّه الأخوان، ملكشاه وسليمان شاه، إلى بلاد الجبال لمحاربة السلطان محمد، وعندما علم هذا بما يُحاك ضده، التمس المساعدة من قطب الدين مودود صاحب الموصل (٥٤٤ ـ ٥٦٥هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٧٠م) ونائبه زين الدين علي، وبذل لهما المال والإقطاعات إن انتصر في هذا الصراع، فأجاباه إلى ذلك، فقويت نفسه وسار إلى لقاء السلطان سليمان شاه ومن اجتمع معه، وجرى اللقاء بين الطرفين في (جمادى الأولى/ تموز)، واشتد القتال بينهما، وأسفر عن انتصار السلطان محمد وهزيمة السلطان سليمان شاه ومن معه، وفرَّ جنده الثلاثة آلاف بكل اتجاه، وهرب السلطان سليمان شاه بعد المعركة إلى مازندران، وسار منها إلى خراسان في طريقه إلى بغداد، فاعترضه زين الدين علي وقبض عليه وحمله أسيراً إلى قلعة الموصل وسجنه فيها مكرَّماً محترماً، وأرسل يُعلم السلطان محمد[(٣)].

وكتب السلطان محمد بعد انتصاره إلى الخليفة المقتفي يطلب منه أن يخطب له في بغداد والعراق، فامتنع الخليفة عن إجابة طلبه ما كان سبباً في اندلاع الحرب، وخرج السلطان محمد من همذان في (ذي الحجة ٥٥١هـ/ كانون الثاني ١١٥٧م) على رأس جيش كبير في طريقه إلى بغداد، ووعده قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائبه زين الدين علي بالمساعدة، ولما وصل إليها في (محرم ٥٥٢هـ/ شباط ١١٥٧م) ضرب الحصار عليها، وكان الخليفة قد استعدَّ لمواجهته عسكرياً وسياسياً:

من حيث الناحية العسكرية، فقد استدعى الأمراء التابعين له، وفرق السلاح على الجند، ونصب المجانيق والعرادات، ووزَّع المؤن على المقاتلين، ورتَّب المدافعين على أسوار بغداد المحصَّنة تحصيناً قوياً[(٤)].

ومن حيث الناحية السياسية، فقد عبَّأ البغداديين نفسياً لمواجهة المعركة مع

---

(١) البنداري: ص٢٢٦. (٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٢٦، ٢٢٧. الراوندي: ص٣٨١.

(٤) ابن الجوزي: جـ١٠ ص١٦٨، ١٦٩. ابن الأثير: جـ٩ ص٢٣٢، ٢٣٣. البنداري: ص٣٤٥ ـ ٣٤٧.

السلاجقة لدرجة أن كثيراً من العامة انخرطوا في جيش الخلافة لقتال المهاجمين، وعمد إلى تحريض الأمراء الطامعين في السلطنة ضد السلطان محمد، وعلى رأسهم السلطان ملكشاه، ودفعه إلى مهاجمة العاصمة همذان، فدخلها وأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة.

وآتت تدابير الخليفة أُكلها، فقد فكَّ السلطان محمد الحصار عن بغداد بعد أكثر من ثلاثة أشهر، وانسحب عائداً إلى عاصمته للدفاع عنها، ولم يكن لدى جيش الخلافة القوة الكافية لمطاردته[(١)].

وما زال الخطر السلجوقي يُهدِّد بغداد حتى توفي السلطان محمد في (ذي الحجة ٥٥٤هـ/ كانون الأول ١١٥٩م)[(٢)]، فاختلف الأمراء السلاجقة على من يخلفه في السلطنة بين مؤيد لتولية أخيه ملكشاه وبين مساند لتولية عمه سليمان شاه، وأيَّد آخرون تولية أرسلان بن طغرل، ثم استقر الرأي على تنصيب الثاني، فتولى السلطنة في أوائل (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)[(٣)].

وكان السلطان ملكشاه قد سيطر على أصفهان واستقر بها، ولكنه لم يتمكَّن من الحصول على تأييد قادة الجيش في همذان، في حين كانت الخطبة تُقرا في بغداد باسم السلطان سليمان شاه.، وهدَّد السلطان ملكشاه الخليفة أنه سيهاجم بغداد إن لم يُخطب له على منابرها، ولكن المنية وافته، فمات مسموماً في العام المذكور أعلاه، وخُطب للسلطان سليمان شاه في أصفهان[(٤)].

ويبدو أن السلطان سليمان شاه لم يكن على قدر المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه، فانصرف إلى اللهو، وأهمل شؤون الدولة، فحيكت مؤامرة ضده وقُبض عليه في همذان في (شوال/ تشرين الأول)، وسُجن في قلعة علاء الدولة ثم مات مسموماً في (١٣ ربيع الأول ٥٥٦هـ/ ١٣ آذار ١١٦١م)[(٥)].

وحدث في بغداد أن توفي الخليفة المقتفي في (٢ ربيع الآخر ٥٥٥هـ/ ١١ نيسان ١١٦٠م) بعد حياة حافلة بالنضال ضد تسلط السلاجقة، وهو أول خليفة عباسي حكم العراق من دون تدخل سلاطين السلاجقة، وقد نجح في استعادة ما فقدته الخلافة العباسية من هيبة واحترام، كما تمكَّن من تثبيت سلطة الخلافة ونفوذها في معظم أجزاء العراق[(٦)]، وخلفه ابنه المستنجد[(٧)]، فسار على نهج والده في إدارة

---

(١) الراوندي: ص٣٨٥. (٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٦٦. الراوندي: ص٣٩٣. البنداري: ص٣٧٢.

(٤) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٧٥، ٢٧٦. (٥) البنداري: ص٣٧٦.

(٦) الزهراني: ص٦٣. (٧) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٧٠، ٢٧١.

الدولة وفي الوقوف في وجه الاستبداد السلجوقي، وكان أول عمل قام به هو أنه كتب إلى السلطان سليمان شاه يطلب منه إقامة الخطبة له في سائر البلدان التابعة للسلاجقة، فاستجاب لطلبه[١].

ويبدو أن السلطان سليمان شاه طمع بعد ذلك، كغيره من السلاطين السلاجقة، في حكم العراق متجاهلاً الاتفاق الذي أبرمه مع الخليفة المقتفي والقاضي أن يحكم الخليفة العراق مباشرة، غير أن الخليفة المستنجد لم يحقق رغبته، كما أن السلطان لم يجرؤ على فرضها بالقوة، لما كان للخلافة آنذاك في نفوسهم من الهيبة والخيبة من الحصول على بغداد[٢].

استقر رأي الأمراء السلاجقة في همذان على تولية أرسلان شاه بن طغرل، وكان في أرّان تحت حماية حاكمها إيلدكز، وأرسلان ابن زوجته، فطلبوا منه الحضور فسار إليهم على رأس جيش كبير يرافقه أرسلان ونزلا بدار السلطنة في همذان، وخُطب لأرسلان بالسلطنة في تلك البلاد، واتخذ أيلدكز أتابكاً له وابنه محمد جهان بهلوان حاجباً، وهو أخ السلطان من أمه[٣]، وطبيعي أن يصبح إيلدكز منذ ذلك الوقت مهيمناً على جميع مرافق الدولة، يتصرف في كل الأمور برأيه، وأضحى السلطان أرسلان شاه ألعوبة في يده ليس له سوى الخطبة، وذكر اسمه في السكة.

وحاول السلطان أرسلان شاه بدوره أن يعيد ما كان للسلاجقة من نفوذ وسلطة في بغداد، فأرسل أتابكه إيلدكز إلى الخليفة المستنجد يطلب الخطبة له، وأن تُعاد القواعد إلى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود، ولكن الخليفة رفض طلبه، وأهان رسوله[٤].

وتجدَّدت أطماع السلاجقة في العراق بعد وفاة الخليفة المستنجد في (٩ ربيع الآخر ٥٦٦هـ/ ٢٠ كانون الأول ١١٧٠م) واعتلاء ابنه المستضيء سدة الخلافة، ولكن لم تكن لديهم القدرة على فرض رغبتهم في ظل رفض الخلافة العباسية الدائم.

ظل نفوذ إيلدكز قوياً في الدولة السلجوقية طيلة مدة حياته وحتى وفاته في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢ ـ ١١٧٣م)[٥]، فخلفه ابنه جهان بهلوان، وغلبت شخصيته على شخصية أخيه السلطان أرسلان شاه الذي آثر الانزواء حتى توفي في عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) بنخجوان[٦]، وفي رواية أن أخاه محمد جهان بهلوان أراد الاستبداد

---

(١) البنداري: ص٣٧٦. (٢) المصدر نفسه: ص٣٧٧.
(٣) الحسيني: ص١٤٥، ١٤٦. (٤) ابن الأثير: جـ٩ ص٢٨٠.
(٥) المصدر نفسه: ص٣٨١. (٦) الحسيني: ص١٦٨، ١٦٩.

بالسلطة من دونه فسمَّه ليتخلص منه ويولي مكانه ابنه الطفل طغرل[١]. وفعلاً خلف هذا أباه، وكان طفلاً في السابعة من عمره، وهو آخر سلاطين السلاجقة في العراق، وتركَّزت السلطة في يد جهان بهلوان، وقد بلغت سطوة هذا الأتابك درجة جعلت الحكام الآخرين يخشونه ويرهبون جانبه، ويرسلون السفراء إلى بلاطه[٢].

وشمل نفوذ السلطان طغرل همذان والري وأصفهان وأذربيجان وتوابعها، وعاصر هذا السلطان الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥هـ ـ ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥م) الذي خلف أباه الخليفة المستضيء، ويُعد من أقوى الشخصيات التي تولت الخلافة في عصرها المتأخر.

وتمكَّن جهان بهلوان، بفضل قوته وشجاعته ومساعدة أخيه قزل أرسلان، من صدِّ خطرين تعرَّض لهما في وقت واحد، تمثل الأول بخطر الكرج الذين أغاروا على أذربيجان، وتمثل الثاني بما قام به محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه من الإغارة على العراق.

كانت علاقة الأتابك جهان بهلوان مع الخليفة الناصر جيدة، ولما توفي في عام (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م)[٣]، خلفه أخوه قزل أرسلان، وكان موالياً كأخيه للخليفة، وما حدث من بلوغ السلطان طغرل مرحلة الشباب دفعه للتخلص من سيطرة أتابكه والاستقلال بالحكم، فنشبت النزاعات بينهما، وانضم كثير من الجند والأمراء إلى السلطان، فقوي أمره وكثر جمعه، ووضع يده على كثير من المناطق ما دفع قزل أرسلان إلى أن يلتمس المساعدة من الخليفة الناصر، وراح يُخوفه من طموح السلطان[٤].

وتنبَّه السلطان إلى ما يحيكه الأتابك مع الخليفة، فأخذ زمام المبادرة وطلب من الخليفة إقامة الخطبة له في بغداد وتجديد عمارة دار السلطنة لينزل بها عند قدومه إلى عاصمة الخلافة. كان رد الخليفة حازماً، فأمر بهدم دار السلطنة وإعادة رسول السلطان طغرل من دون جواب، وكتب إلى الأتابك قزل أرسلان يأمره بالانضمام إلى جيش الخلافة لقتال السلطان[٥].

وخرج جيش الخلافة في صفر (٥٨٤هـ/ نيسان ١١٨٨م) من بغداد بقيادة الوزير جلال الدين عبيد الله بن يونس قاصداً همذان لنجدة الأتابك قزل أرسلان في نزاعه

---

(١) البنداري: ص٣٨١. (٢) الحسيني: ص١٧١، ١٧٢.
(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٧.
(٤) المصدر نفسه. الحسيني: ص١٧٦، ١٧٧. (٥) ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٤.

مع السلطان طغرل، وكان الاتفاق أن ينضم جيش قزل أرسلان إلى جيش الخلافة ومن ثم يسيران معاً لمحاربة السلطان، لكن يقظة هذا الأخير أفشلت الخطة العسكرية المتفق عليها، فقد أسرع باعتراض جيش الخلافة قبل أن ينضم إلى جيش قزل أرسلان في همذان وهزمه عند دايمرج، وأسر قائده الوزير عبيد الله بن يونس[1].

لم تؤثر هذه الهزيمة على معنويات الخليفة الناصر، بل يبدو أنها زادته حماساً وتصميماً على حرب السلاجقة، فجهَّز جيشاً آخر أسند قيادته للأمير مجاهد الدين خالص، ودفعه إلى همذان في العام نفسه، وتمكَّن من دخولها من دون قتال؛ لأن السلطان طغرل كان قد خرج منها عندما علم بقوة جيش الخلافة[2]، وتوجَّه إلى أذربيجان ووصل إلى تبريز في حين وصل قزل أرسلان إلى كرمنشاه، فلما علم برحيل السلطان طغرل إلى أذربيجان عاد إلى همذان وتربع على دست الحكم، وتلقَّى رسائل تأييد من أمراء الأطراف. وأخذ نجم السلطان طغرل ودولة سلاجقة العراق في الأفول، بخاصة بعد محاولته الفاشلة لاستعادة عاصمته، واضطر إلى طلب الصلح من الخليفة وذلك في عام (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م)، وأرسل ابنه ألب أرسلان إلى دار الخلافة كرهينة[3].

وقصد قزل أرسلان السلطان في أذربيجان للقبض عليه، فعاد إلى همذان فمنعه جند الأتابك من دخولها، ولما علم هذا بذلك، عاد إلى همذان على وجه السرعة، واضطر السلطان إلى الاستسلام، فسجنه قزل أرسلان في قلعة بأذربيجان قريبة من مدينة تبريز[4].

وهكذا خلت الساحة السياسية لقزل أرسلان، فسيطر على مقدرات الحكم وتزوج بالخاتون زوجة أخيه جهان بهلوان، ولم يلبث أن تلقى رسالة تأييد وموافقة من الخليفة العباسي لاعتلاء عرش السلطنة، فأعلن نفسه سلطاناً في عام (٥٨٧هـ/ ١١٩١م)، لكن السلطنة كانت وبالاً عليه، فقد ظهر من يحقد عليه من أمراء العراق وينافسه على النفوذ، وكان على ما يبدو سيء السيرة ومنصرفاً عن زوجته التي تآمرت عليه مع ابنها قتلغ إينانج وأمراء العراق، واغتالته في فراشه[5]. وفي رواية بأنه سار في أواخر أيامه إلى أصفهان وهي تموج بالفتن المتنوعة، ومن بينها النزاع بين

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٦٢. الراوندي: ص٤٨٠، ٤٨١. الحسيني: ص١٧٧، ١٧٨.
(٢) الحسيني: ص١٧٨، ١٧٩. (٣) المصدر نفسه: ص١٧٩، ١٨٠.
(٤) المصدر نفسه: ص١٨٠.
(٥) الحسيني: ص١٨١. الراوندي: ٥٠١، ٥٠٢.

الشافعية والحنفية، فاضطهد الشافعية وقتل بعض مشايخهم ثم عاد إلى همذان، وعندما آوى إلى فراشه في إحدى الليالي، دخل عليه من قتله وهو نائم، ولم تُعرف هويته، فقبض أصحابه على صاحب بابه ظناً وتخميناً، وجرت عملية القتل في (شعبان ٥٨٧هـ/ أيلول ١١٩١)[1].

ومهما يكن من أمر، فقد اشتدت النزاعات بين الأمراء السلاجقة بعد مقتل قزل أرسلان، فاستغل السلطان طغرل هذه الفرصة، فهرب من سجنه، وتعاون مع الأمراء الموالين له وحارب الطامعين في السلطة، وعلى رأسهم ابن عمه قتلغ إينانج، وانتصر عليهم، ثم توجَّه إلى همذان فدخلها واسترد عرشه المغصوب، واعترف حكام الأطراف به[2].

واستمر الصراع بين السلطان وبين قتلغ إينانج، واتخذ بُعداً خارجياً عندما التمس الثاني المساعدة من السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش الطامع في التمدد نحو الغرب، فأمده بقوة عسكرية ساعدته في الاستيلاء على الري وقلعة طبرك، فتصدى له السلطان وتغلب على الجيش الخوارزمي وقتل قائده واستعاد القلعة وخرَّبها ثم عاد إلى عاصمته وذلك في عام (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، وجدَّد الجيش الخوارزمي هجومه على الري في العام التالي، فتصدى له السلطان طغرل وهزمه[3].

لفت التدخل الخوارزمي في شؤون الدولة السلجوقية نظر الخليفة الناصر، فأرسل إلى علاء الدين تكش يشكو سوء نيات السلطان طغرل، وطلب منه التوجه إلى بلاده للقضاء عليه، ومنحه منشوراً بإقطاعه البلاد من نيسابور إلى الري، فخرج العاهل الخوارزمي من بلاده، واصطدم بالسلطان طغرل بالقرب من الري في (٢٤ ربيع الأول ٥٩٠هـ/ ٩ آذار ١١٩٤م)، وقاتل السلطان بشجاعة وتغلغل في صفوف الجيش الخوارزمي، فأحاط به الجند وألقوه عن فرسه وقتلوه، وفي رواية أن قتلغ إينانج هو الذي قام بقتله، وحُمل رأسه إلى علاء الدين تكش الذي أرسله إلى بغداد[4].

وهكذا زالت الدولة السلجوقية في العرَاق، وأُسدل الستار على حياتها المليئة بالنزاعات الداخلية بين السلاطين كما بين الأمراء، وكانت دولة السلاجقة الكبار في إيران وخراسان قد زالت من قبل، ولم يبق من الأسرة السلجوقية العامة على قيد الحياة سوى سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.

(١) البنداري: ص٣٨٢. ابن الأثير: جـ١٠ ص١٠٣.
(٢) الراوندي: ص٥٠٢، ٥٠٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٠٥، ٥٠٦.
(٤) ابن الأثير: جـ١٠ ص١٢٨. الحسيني: ص١٩٢، ١٩٣. الراوندي: ص٥١٣، ٥١٤.

السلاجقة: ما لهم وما عليهم

قام السلاجقة بعامة بأعمال جليلة نذكر منها:

- تأخير زوال الخلافة العباسية حوالي قرنين من الزمان بعد أن أوشكت على السقوط في ظل السيطرة البويهية الشيعية المذهب.
- وقف السلاجقة سداً منيعاً أمام التمدد الفاطمي الشيعي المنطلق من مصر باتجاه الشرق (بلاد الشام والعراق).
- مهَّد السلاجقة لتوحيد المشرق الإسلامي على يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية.
- قام السلاجقة بدور بارز في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإدارياً من خلال المدارس النظَّامية التي أسسوها.
- وقف السلاجقة في وجه التمدد البيزنطي نحو البلاد الإسلامية في شمالي العراق وبلاد الشام، وقام نوابهم بمحاربة الصليبيين، ولعل أبرز هؤلاء عماد الدين زنكي.
- رفع السلاجقة من شأن المذهب السني وعلمائه في المناطق التي حكموها.

وفي المقابل ارتكب السلاجقة الأخطاء القاتلة التي أدَّت إلى زوالهم، نذكر منها:

- الصراع الداخلي على السلطة بين أفراد الأسرة السلجوقية، علماً بأن هذا الصراع يُعدُّ سمة الدول السلطانية التي قامت في كنف الخلافة العباسية.
- تدخل النساء في شؤون الحكم.
- تدخل الحاشية المحيطة بالأمراء السلاجقة طمعاً في الحصول على المناصب العالية والإقطاعات الواسعة، فكانوا يذكُّون نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من أجل ذلك.
- ضعف الخلفاء العباسيين الذين لم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة له، بغض النظر عن كيفية حصوله على السلطة.
- عجز السلاطين السلاجقة عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.
- فشل السلاجقة في القضاء على طائفة الحشيشية التي راحت تفتك بسلاطينهم وقادتهم.
- عدم تصدِّي السلاطين السلاجقة بأنفسهم للغزو الصليبي.

الخاتمة

فَقَدت الدولة السلجوقية تماسكها بعد وفاة السلطان ملكشاه، وأدَّى النزاع بين المطالبين بالعرش إلى تجزئة الدولة، فقامت على أنقاضها إمارات أتابكية مستقلة أبقت في الشرق الإسلامي على التقسيمات الجغرافية التي نشأت عن الغزوات التركية، العراق بلاد الشام إيران وآسيا الصغرى.

فَقَد العراق ميزته كمركز سياسي رئيس وأضحى مجرد ولاية في عالم إسلامي، ولكنه استعاد بفعل الانحطاط السلجوقي بعض الاستقلال تحت إدارة الخلفاء العباسيين الزمنية.

وسيطر على بلاد الشام وشمالي العراق، طوال القرن الثاني عشر الميلادي، الصراع ضد الصليبيين، وكانت هذه المناطق آنذاك إما تابعة لبغداد مقر الخلافة العباسية أو لمصر الفاطمية، وهما مراكز لإمارات قوية أخذت على عاتقها القيام بمهمة التصدي للصليبيين واستعادة الأراضي منهم. وحدث في أوائل القرن المذكور أن إمارة دمشق، التي لم تتعرَّض لخطر الصليبيين، رضيت طوعاً أو كرهاً بالوجود الصليبي، لكن تجاوزات الصليبيين واستمرار تدفقهم على الشرق الإسلامي أثارت سكان المدن والعلماء ورجال الدين، فاستغلها بعض القادة الأتراك في سبيل بعث نهضة كيانية سياسية لمصلحتهم، وهذا ما حقَّقه كل من عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود في منتصف القرن المذكور. فقد ضمَّا إمارة حلب إلى الموصل، وهي محور الجهاد ضد الصليبيين، واستطاعا ردعهم شيئاً فشيئاً بحيث انكفأوا إلى الساحل على الرغم من المساعدات البيزنطية والغربية التي تلقوها، وجعلا من بلاد الشام مركزاً لنشاط علمي بتأسيسهما المدارس والجمعيات الصوفية العديدة، وقد ساعدهم على ذلك ازدياد الثروة المادية. وخسرت بغداد مركزها المتقدم في تجارة الشرق، وبرزت الموصل كمركز صناعي أقرب إلى مناجم دجلة الأعلى، وكذلك حلب ودمشق القريبتان من الموانىء السورية ومستعمرات الإيطاليين التجارية، وأمست مع القاهرة والإسكندرية أوسع مراكز الحياة الاقتصادية نشاطاً، ومرد ذلك قدرة الفاطميين على المحافظة على استقلالهم على الرغم من التصدعات

والانشقاقات التي تعرَّضوا لها، وذلك بفعل عاملين فصلهما عن العالم التركي الإسلامي هما الصحراء والإمارات الصليبية في جنوبي بلاد الشام، ولكن عندما حاول الصليبيون احتلال مصر اضطر الفاطميون إلى التماس المساعدة من نور الدين محمود، فارسل أحد قادته أسد الدين شيركوه وصحبه ابن أخيه صلاح الدين، الذي خلفه بعد وفاته، فقضى على الحكم الفاطمي وأعاد مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، فوحَّد بعمله هذا العالم الإسلامي السني في الشرق الأدنى.

وأدَّى هذا الفتح إلى بروز صلاح الدين الذي استلم إرث عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وساعدته موارد مصر وبلاد الشام على تجهيز جيش قوي سخَّره لحرب الصليبيين، فاستعاد بيت المقدس وردَّ الصليبيين إلى منطقة الساحل الضيقة، ولم يُحقق رد الفعل الصليبي الذي تمثَّل بالحملة الصليبية الثالثة، سوى الحفاظ على معاقل الصليبيين الأخيرة، غير أن خلفاءه، على الرغم من تصديهم للحملات الصليبية الجديدة، إلا أنهم آثروا إقامة علاقات تجارية مع التجار الإيطاليين بفعل موقع بلادهم، مصر، على طريق التجارة الشرقية مع الهند، واشتهر أحدهم، وهو الملك الكامل، بحكمته فردَّ على سياسة فريدريك الثاني الحكيمة بموقف مماثل.

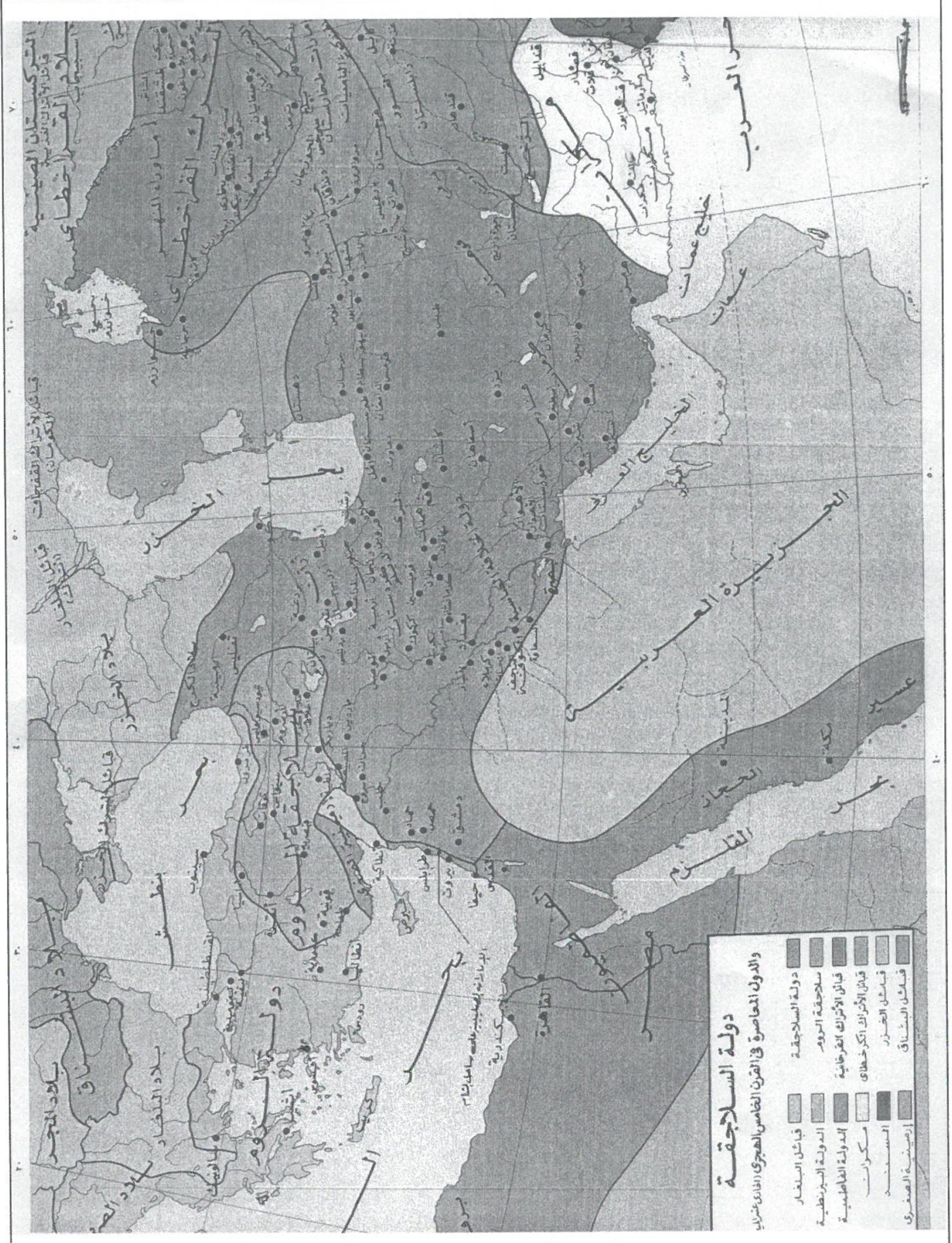
ومنذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي أخذ الجيش الذي تعزَّز، يصدُّ خطر الهجوم الصليبي والزحف المغولي، ويرفع قادته إلى السلطة، وينحدر معظمهم من أصل مملوكي، فأسسوا عهداً جديداً هو عهد المماليك الذي غلب عليه الطابع العسكري.

وعرفت إيران تاريخاً مضطرباً بفعل استمرار تأثرها بحركات الشعوب التي كانت تقطن آسيا الوسطى، وسقطت المناطق الواقعة فيما وراء النهر منذ الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي تحت سيطرة القراخطاي، ولم يقاوم هؤلاء في المناطق الشمالية الغربية سوى الخوارزميون الذين سرعان ما بسطوا سيادتهم على إيران، ولكنهم لم يستطيعوا ضمَّ بغداد ولا فرض حمايتهم على الخليفة فافتقروا بذلك إلى سند شرعي، كما افتقروا إلى سند شعبي بفعل امتهانهم الحرب والسلب، ثم وقعوا تحت ضربات المغول الموجعة، فتدفقوا على العالم الإسلامي في الشرق الأدنى يعبثون في ربوعه فساداً وخراباً ويؤجرون أنفسهم للقوى المحلية.

واستقر العنصر التركي في معظم أرجاء آسيا الصغرى، الأناضول، وهي آخر الممتلكات الإسلامية التركية في الغرب، وكوَّنوا في بادىء الأمر حكماً شبه منعزل، فاتصفوا بالخشونة والصلابة، ولم يندمجوا في العالم الإسلامي الشرقي، كما عاشوا غرباء عن التقاليد البيزنطية، ولم يظهر مؤرخوهم إلا في وقت متأخر، إلا أننا نميز

بين وضعين. ففي المناطق الحدودية مع البيزنطيين أخذ التركمان غير المستقرين تماماً يشنون الغارات باستمرار على الأراضي البيزنطية والجزر القريبة. ومن جهة أخرى أسَّس أحد فروع السلاجقة دولة قوية وحَّدت آسيا الصغرى تدريجاً بعد أن سيطرت على المقاطعات اليونانية القديمة، وضمَّت إليها أرمينية الغربية، تلك هي سلطنة سلاجقة الروم التي ورثت التقاليد الإيرانية، وشهدت نهضة عمرانية وتجارية مع آسيا الداخلية والقسطنطينية وروسيا ومصر، وتدخلت بفضل جيشها القوي في شؤون بلاد الشام وشمالي العراق، ولجأ إليها الإيرانيون الفارون من الغزو الخوارزمي وهجمات المغول.

والملفت أن الشرق الإسلامي الذي تجزَّأ سياسياً وعنصرياً بفعل الغزوات التركية احتفظ بحضارة إسلامية زاهية مركبة إيرانية ـ عربية.



عن: أطلس تاريخ الإسلام (د. حسين مؤنس).

ثبت المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

□ ابن الأثير، أبو الحسن علي... بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بالجزري:

ـ **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ط١، ١٩٩٧م.

ـ **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنى بغداد.

□ الأنطاكي، يحيى بن سعيد:

ـ **تاريخ الأنطاكي (صلة تاريخ أوتيخا)**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس ـ لبنان، ١٩٨٩م.

□ البلاذري، الإمام أبو الحسن:

ـ **فتوح البلدان**، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، لبنان ـ بيروت، ١٩٩١م.

□ البنداري، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني:

ـ **تاريخ دولة آل سلجوق**، تحقيق: يحيى مراد، دار الكتب العلمية، لبنان ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

□ البيهقي، أبو الفضل:

ـ **تاريخ البيهقي**، ترجمة: يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، لبنان ـ بيروت، ١٩٨٢م.

□ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:

ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.

□ الجهشياري، محمد بن عبدوس:

ـ **كتاب الوزراء والكتَّاب**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، القاهرة، ١٩٣٨م.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد:
  - **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دار المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، الهند، ١٣٥٧هـ.
- الحسيني، صدر الدين بن علي:
  - **أخبار الدولة السلجوقية**، اعتنى به وصححه: محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:
  - **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي:
  - **صورة الأرض**، دار الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.
- الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي:
  - **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ـ ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد:
  - **العبر وديوان المبتدأ والخبر**... المعروف بتاريخ ابن خلدون، دار جمَّال، بيروت.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر:
  - **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧١م.
- خليفة بن خياط، أبو عمرو بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري:
  - **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق: مصطفى فواز وحكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان:
  - **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي وعبد النعيم محمد حسنين وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الروذراوري، أبو شجاع محمد بن الحسين:
  - **ذيل كتاب تجارب الأمم**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي التركي:
  - **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ج٨، تحقيق: دائرة المعارف الإسلامية، الهند.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر:
  - **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: أحمد إبراهيم زهوة وسعيد بن أحمد العبدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٩م.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم:
  - **الملل والنحل**، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٨م.

- الصوري، وليم:
  - **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى:
  - **أخبار الراضي بالله والمتقي بالله**، نشر هيورت دن، القاهرة، ١٩٣٥م.
- الطبري، محمد بن جرير:
  - **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
  - **تاريخ الزمان**، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
- العتبي، أبو نصر محمد بن عبد الجبار:
  - **التاريخ اليميني، شرح المنيني**، القاهرة، ١٨٦٩م.
- ابن العديم، الصاحب كمال الدين:
  - **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.
- العظيمي، محمد بن علي:
  - **تاريخ حلب**، تحقيق: إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤م.
- ابن عمراني، محمد بن علي بن محمد:
  - **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، باهتمام تقي بنيش، مشهد، ١٣٦٣هـ.
- العمري، ابن فضل الله شهاب الدين:
  - **مسالك الأبصار وممالك الأمصار**، تحقيق: كلاس لشي، ڤسبادن، ١٩٦٨م.
- الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق:
  - **تاريخ ميافارقين**، تحقيق: عبد اللطيف بدوي عوض، القاهرة، ١٩٥٩م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل:
  - **تاريخ أبو الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر**، تحقيق: محمود أيوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- فولشر الشارتري:
  - **تاريخ الحملة إلى القدس**، ترجمة: زياد العسلي، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٠م.
- ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي:
  - **تاريخ دمشق**، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٣م.

□ القلقشندي، أحمد بن علي:
- **مآثر الأنافة في معالم الخلافة**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤م.

□ ابن كثير، الحافظ أبو الفداء:
- **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

□ الكرديزي، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك محمود:
- **زين الأخبار**، بسعي واهتمام: محمد ناظم، برلين، ١٩٢٨م، ترجمة: عفاف زيدان، القاهرة، ١٩٨٢م.

□ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين:
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس، بيروت.

□ مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد:
- **تجارب الأمم**، طبعة آمدروز، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

□ المقدسي، محمد بن أحمد البشاري:
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

□ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:
- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: جمال الدين الشيال ومحمد حلمي ومحمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

□ المؤرخ المجهول:
- **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، ترجمة: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨م.

□ المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله الشيرازي:
- **سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تحقيق: عارف تامر، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.

□ ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب:
- **أخبار مصر، الجزء الثاني**، باعتناء: هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩١٩م.

□ بن يحيى، صالح:
- **تاريخ بيروت**، تحقيق: كمال الصليبي وفرنسيس هورس، بيروت، ١٩٦٩م.

□ اليزدي، محمد بن محمد بن عبد الله بن النظام الحسيني:
- **العراضة في الحكاية السلجوقية**، ترجمة وتحقيق: عبد النعيم حسنين وحسين أمين، جامعة بغداد، ١٩٧٩م.

ب ـ المراجع

□ إقبال، عباس:
- **تاريخ إيران بعد الإسلام**، تعريب: محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.

□ أمين، حسين:
- **تاريخ العراق في العصر السلجوقي**، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٥م.

□ بارتولد، ف.ف:
- **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٥٨م.
- **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، قسم التراث العربي، الكويت، ط١، ١٩٨١م.

□ تدمري، عمر عبد السلام:
- **لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين**، دار الإيمان، طرابلس ـ لبنان، ١٩٩٤م.

□ رستم، أسد:
- **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب**، دار المكشوف، بيروت، ط١، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦م.

□ رنسيمان، ستيفن:
- **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

□ زكار، سهيل:
- **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٢م.

□ الزهراني، محمد مسفر:
- **نظام الوزارة في الدولة العباسية، العهدان البويهي والسلجوقي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.

□ ضامن، محمد:
- **إمارة حلب في عهد السلاجقة**، دار أسامة، دمشق ـ بيروت، ١٩٩٠م.

□ عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٣م.

- العبد الغني، عبد الرحمن بن محمد:
  - **موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة**، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ١٥، الرسالة ٩٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- العريني، السيد الباز:
  - **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.
  - **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.
- عنان، محمد عبد الله:
  - **موقعة ملازكرد**، مجلة الثقافة، العدد ٤٠٠، سنة ١٩٤٨م.
- الغامدي، سعد حذيفة:
  - **الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند**، دار أشبيليا، الرياض، ط١، ١٩٩٦م.
- فامبري، أرمينيوس:
  - **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر**، تعريب: محمود الساداتي، المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٥م.
- فنك، هارولد:
  - **تأسيس إمارات صليبية**، فصل في كتاب **تاريخ الحروب الصليبية**، بإشراف: كينيث سيتون، ترجمة: عامر نجيب موسى ناصر، منشورات بيت المقدس، رام الله، ط١، ٢٠٠٤م.
- لسترينج، كي:
  - **بلدان الخلافة الشرقية**، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- الليلم، عبد العزيز محمد:
  - **نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١م.
- محمود، حسن أحمد وأحمد إبراهيم الشريف:
  - **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٥.
- معوض، أحمد:
  - **أضواء على تاريخ المشرق الإسلامي وحضارته ذروة عهد السلاجقة العظام**، الدار العربية للنشر، القاهرة، ١٩٨٣م.
- نيكلسون، روبرت:
  - **تطور الدويلات اللاتينية ١١١٨ ـ ١١٤٤**، فصل في كتاب **تاريخ الحروب الصليبية**، بإشراف: كينيث سيتون، ترجمة: عبد الرحمٰن محمد المغربي، منشورات بيت المقدس، رام الله، ط١، ٢٠٠٤م.

ثانياً ـ المصادر والمراجع باللغات الإسلامية

- باشي، منجم:
  - **صحائف الأخبار**، إستانبول ١٢٨٥هـ.
- الجويني، علاء الدين عطا ملك:
  - **تاريخ جهانكشاي**، بسعي واهتمام: محمد بن عبد الوهاب القزويني، مطبعة بريل، ليدن، ج١، ١٩١١م، ج٢، ١٩١٦م، ج٣، ١٩٣٧م.
- الكاشغري، محمود بن الحسن بن محمد:
  - **كتاب ديوان لغات الترك**، إستانبول، ١٣٣٣هـ.

ثالثاً ـ المصادر والمراجع باللغات الأوروبية:

- Albirt d'Aix:
  - * **Liber Christianne Epedition pro Eroptiom Enundtione et Retrons Sameta Hieroso Luritanae Ecclesia.** In R.H.C, occ, vol IV.
- Brown, Edward:
  - * **Literary History of Persia,** Cambridge University 1955.
- Cahen, Claude:
  - * **Pre-ottoman Turkey.** Trans by J.Jones, Londom 1968.
  - * **La diplomatic Orientale de Byzance Face a la poossee Seldjukide,** B35, 1965.
  - * **Cambridge Medieval History,** vol IV.
- Chamician, Michael:
  - * **History of Armenia,** Trans by Johannes Avadalle, Calcutta 1827.
- Comnena, Anna:
  - * **The Alexiad,** Trans by Elisabeth, A.S, Dawes, London, 1928.
- Elisséeff, N:
  - * **Nur AD - Din, Un Grand Prince Musulman de Syrie Au Temps des Croisades,** Damas, 1967.
- Finlay, George:
  - * **History of the Byzantine Empire,** London 1853.
- Gay, J:
  - * **L'Italie Meridonal et L'Empire Byzantine,** Paris, 1904.
- Grousset, René:
  - * **Histoire de L'Armenie des Origines jusqu'a 1071,** Paris 1947.
  - * **Histoire de Croisades,** Paris, 1934 - 1936.
- Iorga, N:
  - * **Les origines de L'Iconoclasme. Bulletin de la sectiom Historique de L'Acade-**

mie Roumain XI, 1924.
- Mathew of Edessa:
  * **Chronique** in R.H.C Arm Doc, vol I.
- Oman, C.W.Ch:
  * **A History of the Art of War in the Middle Ages,** London 1924.
- Psellus, Michael:
  * **The Chronographia,** Trans by E.R.A. Sexter. Baltimore, England 1966.
- Saint-Martin, J:
  * **Memories Historiques et Geographique Sur L'Armenie,** Paris 1818 - 1819.
- S'chlumbergrr, G-L:
  * **Un Empereur Bezantin au dixième siècle,** Nicehore phocas Paris, 1890.
- Steveson, W.B:
  * **The Crusaders in the East.** Cambridge 1967.
- Turan, Osman:
  * **L'Islamisation dans la Turquie du Moyen Age -** Studia Islamica X.
- Vasiliev, A.A:
  * **History of the Byzantine Empire,** Madison 1928, 1973.

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول	
القوى السياسية في بلاد ما وراء النهر وخراسان قبل ظهور السلاجقة	١٣
الأتراك	١٣
أصلهم	١٣
علاقتهم مع المسلمين	١٥
استخدامهم في أجهزة الدولة	١٧
ازدياد نفوذهم وأثره على وضع الخلافة	٢٠
ضعف الوزراء وأثره على وضع الخلافة	٢١
الإمارة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٩٩م)	٢٣
الإمارة القراخانية (٣٨٣ ـ ٥٣٦هـ/ ٩٩٣ ـ ١١٤٢م)	٣٠
السلطنة الغزنوية (٣٦٦ ـ ٥٨٢هـ/ ٩٧٧ ـ ١١٨٦م)	٣٤
الفصل الثاني	
السلاجقة: أصلهم ـ تأسيس دولتهم في خراسان	٣٨
أصل السلاجقة	٣٨
العلاقة السجلوقية ـ الغزنوية	٤٤
في عهد السلطان محمود الغزنوي	٤٤
في عهد السلطان مسعود الغزنوي	٤٨
قيام الدولة السلجوقية في خراسان	٥٢
رد الفعل الغزنوي ـ معركة دندانقان	٥٤
ـ نتائج معركة دندانقان	٥٥
الفصل الثالث	
السلطان طغرلبك (٤٢٩ ـ ٤٥٥هـ/١٠٣٨ ـ ١٠٦٣م)	٥٧
التوسع السلجوقي باتجاه إيران	٥٧
تنظيم الأراضي المستولى عليها	٥٨
اعتراف الخلافة العباسية بشرعية حكم السلاجقة	٥٩

التوسع السلجوقي باتجاه العراق ... ٦٠
تمهيد ... ٦٠
تأسيس الدولة البويهية ... ٦١
دخول البويهيين إلى العراق ... ٦٢
علاقة الخلافة العباسية مع البويهيين ... ٦٤
تراجع قوة البويهيين ... ٦٨
دوافع التمدد السلجوقي باتجاه العراق ... ٧٠
دخول السلاجقة إلى العراق وزوال الدولة البويهية ... ٧٤
ذيول دخول السلاجقة إلى العراق ... ٧٥
ـ القضاء على الدولة البويهية ... ٧٥
ـ ثورة العامة في بغداد ... ٧٦
ـ حركة البساسيري ... ٧٦
علاقة الخلافة العباسية مع السلطنة السلجوقية ... ٨٣

التوسع السلجوقي باتجاه الأراضي البيزنطية ... ٨٥
تمهيد ... ٨٥
دوافع التوسع ... ٨٥
العمليات العسكرية ... ٨٧
رد الفعل البيزنطي ... ٩١

الفصل الرابع
السلطان ألب أرسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م) ... ٩٥
ظروف اعتلاء ألب أرسلان العرش ... ٩٥
التنازع على منصب الوزارة ... ٩٦
الثورات التي واجهت السلطان ألب أرسلان في بداية حياته السياسية ... ٩٧
ـ ثورة شهاب الدولة قُتلمش بن إسرائيل ... ٩٧
ـ ثورة بيغو ... ٩٧
ـ ثورة أمير ختلان ... ٩٨
ـ ثورة أمير صغانيان ... ٩٨
ـ ثورة ملك كرمان ... ٩٨
العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ... ٩٨
التوسع السلجوقي باتجاه أرمينية ... ١٠٠
التنازع في شمالي بلاد الشام ـ ضم حلب ... ١٠٢
الاصطدام السلجوقي ـ البيزنطي في ملازكرد ... ١٠٨
نتائج معركة ملازكرد ... ١١٣
التوسع السلجوقي باتجاه جنوبي بلاد الشام ... ١١٦

نهاية السلطان ألب أرسلان ... ١١٨
أهمية السلطان ألب أرسلان ... ١١٨

الفصل الخامس
السلطان ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) ... ١٢٠
اعتلاء ملكشاه السلطة ... ١٢٠
المشكلات الداخلية التي واجهت السلطان ملكشاه ... ١٢١
ـ خروج عمه قاورد ... ١٢١
ـ تأديب حاكم سمرقند ... ١٢٢
ـ خروج أخيه تكش ... ١٢٢
ـ ثورات متفرقة ... ١٢٣
العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ... ١٢٤

التوغل السلجوقي في بلاد الشام ... ١٢٦
أتسز يضم دمشق ... ١٢٦
محاولة أتسز ضم حلب ... ١٢٨
محاولة أتسز ضم مصر ... ١٢٩

الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام ... ١٣١
تعيين تُتش حاكماً على بلاد الشام ... ١٣١
محاولة تُتش ضم حلب ... ١٣٢
تُتش يستولي على دمشق ... ١٣٤
زوال الإمارة المرداسية وقيام الإمارة العقيلية في حلب ... ١٣٥
العلاقة بين مسلم بن قريش وتتش ... ١٣٧
محاولة السلطان ملكشاه ضم الجزيرة الفراتية ... ١٣٩

الصراع بين مسلم بن قريش وسليمان بن قُتلمش ... ١٤٠
تأسيس سلطنة سلاجقة الروم ... ١٤٠
التوسع السلجوقي الرومي في شمالي بلاد الشام ... ١٤١
ـ فتح أنطاكية ... ١٤١
ـ محاولة ضم حلب ... ١٤٢
الوضع الداخلي في حلب بعد مقتل مسلم بن قريش ... ١٤٣
الاصطدام السلجوقي ـ السلجوقي في حلب ... ١٤٣
السلطان ملكشاه يتسلم حلب ... ١٤٥

الحركة الإسماعيلية (الحشيشية) في الشرق الإسلامي ... ١٤٦
انقسام الدعوة الإسماعيلية ونتائجه ... ١٤٦
توسع الحشيشية ... ١٤٨

العلاقة بين السلطان ملكشاه والحشيشية ١٤٨
مقتل الوزير نظام الملك ١٤٩
وفاة السلطان ملكشاه ١٥٢
أهمية السلطان ملكشاه ١٥٣

الفصل السادس

تراجع قوة السلاجقة العظام ١٥٥
تمهيد ١٥٥
السلطان محمود بن ملكشاه (٤٨٥ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٩٢ ـ ١٠٩٤م) ١٥٥
اعتلاؤه العرش ١٥٥
الصدام بين السلطان محمود وبين أخيه بركياروق ـ وفاة السلطان محمود ١٥٧
السلطان بركياروق (٤٨٧ ـ ٤٩٨هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٠٤م) ١٥٩
اعتراف الخلافة العباسية بسلطنة بركياروق ١٥٩
الصراع بين السلطان بركياروق وبين عمه تُتش ١٥٩
الصراع بين السلطان بركياروق وبين عمه أرسلان أرغون ١٦٣
التنازع على منصب الوزارة وأثره على الأوضاع الداخلية ١٦٤
الصراع بين السلطان بركياروق وبين أخويه محمد وسنجر ١٦٦
العلاقة مع الحشيشية ١٦٩
الصراع السلجوقي ـ الصليبي ١٧٠
ـ تمهيد ١٧٠
دوافع الحروب الصليبية ١٧١
الحملة الصليبية الأولى ١٧٥
نتائج الحملة الصليبية الأولى ١٧٦
ـ سقوط نيقية ١٧٦
ـ تأسيس إمارة الرها ١٧٧
ـ تأسيس إمارة أنطاكية ١٧٧
ـ تأسيس مملكة بيت المقدس ١٧٨
إحجام السلاجقة عن التصدي للزحف الصليبي ١٧٩
وفاة السلطان بركياروق ١٨٠

الفصل السابع

تفكك دولة السلاجقة العظام ١٨١
السلطان محمد طبر بن ملكشاه (٤٩٨ ـ ٥١١هـ/ ١١٠٤ ـ ١١١٨م) ١٨١
الأوضاع السياسية بعد وفاة السلطان بركياروق ١٨١
تفرد السلطان محمد بالحكم ١٨١
الصراع على الموصل ١٨٢

ـ في عهد جكرمش ١٨٢
ـ في عهد زنكي بن جكرمش ١٨٤
ـ في عهد جاولي سقاوة ١٨٧
محاولات القضاء على فرقة الحشيشية ١٩٠
ـ الاستيلاء على قلعة شاه دز ١٩٠
ـ حصار قلعة ألموت ١٩١
العلاقة مع الصليبيين ١٩٢
ـ حملة مودود الأولى ضد الرها ١٩٢
ـ حملة مودود الثانية ضد الرها ١٩٤
ـ حملة مودود الثالثة ضد الرها ١٩٧
ـ حملة مودود ضد مملكة بيت المقدس ١٩٨
مقتل مودود ١٩٩
حملة البرسقي ضد الرها ١٩٩
حملة برسق بن برسق ضد الصليبيين في شمالي الشام ٢٠٠
وفاة السلطان محمد ٢٠٢

الفصل الثامن

زوال دولة السلاجقة العظام ٢٠٣
السلطان سنجر بن ملكشاه (٥١١ ـ ٥٥٢هـ/ ١١١٧ ـ ١١٥٧م) ٢٠٣
الأوضاع السياسية بعد وفاة السلطان محمد ٢٠٣
المرحلة الأولى من حكم السلطان سنجر ٢٠٥
المرحلة الثانية من حكم السلطان سنجر ٢٠٨
بداية أمر الخوارزميين ٢٠٨
تأسيس الدولة القراخطائية ٢٠٨

علاقة السلطان سنجر مع الخوارزميين ٢٠٩
أسباب الصراع بين السلطان سنجر وأتسز ٢٠٩
ـ الصدامات العسكرية بين السلطان سنجر وأتسز ٢١٠
ـ معركة هزاراسب ٢١٠
ـ رد فعل أتسز ٢١١
ـ استئناف العمليات العسكرية ٢١٢

علاقة السلطان سنجر مع القراخطائيين ٢١٤
توسع القراخطائيين ٢١٤
معركة قطوان ٢١٥
ـ أسبابها ٢١٥

الموضوع	الصفحة

ـ أحداثها ٢١٦
ـ نتائجها ٢١٨
ثورة الغز ٢١٩
وفاة السلطان سنجر ٢٢١

الفصل التاسع

الأوضاع السياسية لدولة سلاجقة العراق ٢٢٢

السلطان محمود (٥١٣ ـ ٥٢٥هـ/ ١١١٩ ـ ١١٣١م) ٢٢٢
قيام دولة سلاجقة العراق ٢٢٢
المشكلات التي واجهت السلطان محمود خلال حياته السياسية ٢٢٢
ـ فساد الحاشية ٢٢٢
صراع الأمراء وأثره على العلاقة بين السلطان محمود وأخيه مسعود ٢٢٣
خروج طغرل على أخيه السلطان محمود ٢٢٧
علاقة السلطان محمود مع الخلافة العباسية ٢٢٨
الأوضاع الخارجية ٢٣٠
العلاقة مع الكرج ٢٣٠
العلاقة مع الصليبيين ٢٣١
ـ ظهور عماد الدين زنكي ٢٣١
ـ موقف عماد الدين من الصليبيين في بداية حكمه ٢٣٢
فتح الأثارب ٢٣٤
وفاة السلطان محمود ٢٣٥
ذيول وفاة السلطان محمود ٢٣٥
السلطان مسعود (٥٢٩ ـ ٥٤٧هـ/ ١١٣٤ ـ ١١٥٢م) ٢٤٠
علاقته مع الخلافة العباسية ٢٤٠
الأوضاع الداخلية في عهده ٢٤٣
وفاة السلطان مسعود ٢٤٦
الأعوام الأخيرة من حياة دولة السلاجقة في العراق ٢٤٦
السلاجقة: ما لهم وما عليهم ٢٥٤
الخاتمة ٢٥٥
ثبت المصادر والمراجع ٢٦٠
ثبت المحتويات ٢٦٧

رقم: 532 - 10



تتناول هذه الدراسة التأريخ السياسي لدولتين مهمتين في التاريخ الإسلامي، الأولى: دولة السلاجقة العظام في إيران وخراسان وبلاد ما وراء النهر، والثانية دولة سلاجقة العراق، وتغطي فترة تمتد ما بين ٤٢٩ ـ ٥٩٠ هـ / ١٠٣٨ ـ ١١٩٤ م.

والسلاجقة أمَّة محاربة، ترك قادتهم للخليفة في بغداد الاسم فحسب، وسيطروا على معظم أرجاء الخلافة، واشتهر منهم طغرلبك، وألب أرسلان بطل معركة «ملازكرد»، ويعدّ تاريخهم من أهم حقب التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى.

ومن موضوعات هذه الدراسة: أصل السلاجقة وتأسيس دولتهم في خراسان، اعتراف العباسيين بهم للتخلص من البويهيين، الأوضاع السياسية والعسكرية في عهد ألب أرسلان، علاقتهم مع العباسيين، ظهور الأتابكة والحشاشين والعلاقات مع الصليبيين، انتهاء السلاجقة العظام وظهور سلاجقة العراق.

والمؤلف مؤرخ وأستاذ جامعي متخصص بالتأريخ الإسلامي بعامة، والتأريخ العثماني بخاصة، وقد نشرت له دار النفائس حتى تاريخ صدور هذا الكتاب سبعة عشر مؤلفاً تغطي معظم التاريخ الإسلامي، بالإضافة إلى أبحاث متفرقة في موسوعاتها.

وهو يمتاز بدقة التوثيق، ورشاقة الأسلوب، والمنهج العلمي غير المتحيِّز، ما يجعل مؤلفاته تحظى بتقدير المختصّين واعتمادها للتدريس في كثير من الجامعات.

الناشر


ISBN 978-9953-18-482-1
9789953184821